الأخلاق في القرآن
الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخلاق فی القرآن

كاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الاخلاق فی القرآن ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
الجزء الثالث ----- ۱۴
الإعراض عن الأخلاق إعراض عن کل شیء ----- ۱۴
مقدمة: ----- ۱۴
حبّ الجاه ----- ۱۵
تنویه: ----- ۱۵
تفسیر واستنتاج: ----- ۱۵
ذم طُلاب الجاه ----- ۱۶
حبّ الجاه فی الروایات الإسلامیة: ----- ۱۸
الرئاسة بالحق والرئاسة بالباطل: ----- ۱۸
علامات حبّ الجاه: ----- ۱۹
أسباب ومقاصد حبّ الجاه: ----- ۱۹
علاج حبّ الجاه: ----- ۲۰
التبریر والعناد ----- ۲۱
تنویه: ----- ۲۱
تفسیر واستنتاج: ----- ۲۲
اللجاج والمماراة فی الروایات الإسلامیة: ----- ۲۶
دوافع وعواقب اللجاج والمماراة: ----- ۲۷
الفرق بین الإستقامة واللجاج: ----- ۲۸
طریقة العلاج: ----- ۲۸
الشکر وکفران النعمة ----- ۲۸

تنویه: ۲۸
تفسیر واستنتاج: ۲۹
کفران النعم فی الروایات الإسلامیة: ۳۲
اشارة ۳۲
۱- معنی کفران النعمة ۳۲
۲- عواقب الکفران ۳۳
أسباب ودوافع الکفران وطرق علاجه: ۳۳
الشکر قناة موصلة للنعم الإلهیة: ۳۴
فلسفة الشکر: ۳۵
الشکر فی مصادر الحدیث ۳۶
الشکر فی سیرة المعصومین علیهم السلام: ۳۶
کیف یتمّ الشکر: ۳۷
دوافع الشکر: ۳۸
شکر الخالق وشکر المخلوق: ۳۸
الغیبة، التنابز بالألقاب وحفظ الغیب ۴۰
تنویه: ۴۰
تفسیر واستنتاج: ۴۰
الغیبة فی الروایات الإسلامیة: ۴۲
تعریف الغیبة: ۴۳
أقسام الغیبة: ۴۵
دوافع الغیبة: ۴۵
العواقب السلبیة للغیبة: ۴۶
علاج الغیبة: ۴۷
اشارة ۴۷

۱- استماع الغیبة ---- ۴۸
۲- الغیبة حق الناس أو حق اللّه؟ ---- ۴۹
۳- مستثنیات الغیبة ---- ۵۰
۴- حکم المتجاهر بالفسق ---- ۵۱
۵- شمول دائرة الغیبة ---- ۵۲
۶- الغیبة العامة والخاصة ---- ۵۳
۷- الدفاع فی مقابل الغیبة ---- ۵۳
۸- غیبة الأموات ---- ۵۴
حسن الخلق وسوء الخلق ---- ۵۴
تنویه: ---- ۵۴
تفسیر واستنتاج: ---- ۵۵
أهمیّة حسن الخلق فی الروایات الإسلامیة: ---- ۵۸
تعریف حسن الخلق: ---- ۵۸
النتائج المترتبة علی حسن الخلق: ---- ۵۹
منابع حسن الخلق: ---- ۶۰
سیرة الأولیاء: ---- ۶۱
نتائج سوء الخلق: ---- ۶۵
علاج سوء الخلق: ---- ۶۶
المزاح: ---- ۶۷
الأمانة والخیانة ---- ۶۸
تنویه: ---- ۶۸
تفسیر وإستنتاج: ---- ۶۹
الأمانة والخیانة فی الروایات الإسلامیة: ---- ۷۲
فروع الأمانة: ---- ۷۳

معطیات الخیانة والأمانة: ۷۳
دوافع الأمانة والخیانة: ۷۵
طرق الوقایة والعلاج: ۷۶
الأمانة والخیانة فی بیت المال: ۷۷
الصدق ۷۸
تنویه: ۷۸
تفسیر واستنتاج: ۷۹
الصدق فی الروایات الإسلامیة: ۸۱
اشارة ۸۱
۱- تأثیر الصدق فی حیاة الإنسان ۸۲
۲- دوافع الصدق ۸۳
۳- مفهوم الصدق ۸۴
الکذب وآثاره وعواقبه ۸۴
تنویه: ۸۴
تفسیر واستنتاج: ۸۵
الکذب فی الروایات الإسلامیة: ۸۷
الآثار السلبیة للکذب: ۸۸
دوافع الکذب: ۹۰
طرق علاج الکذب: ۹۰
إستثناءات الکذب: ۹۱
طریق الفرار من الکذب (التوریة): ۹۲
الوفاء بالعهد ونقض العهد ۹۳
تنویه: ۹۳
تفسیر وإستنتاج: ۹۴

الوفاء بالعهد فی الروایات الإسلامیة: ۹۷
اشارة ۹۷
۱- المعطیات الفردیة والاجتماعیة للوفاء بالعهد ۹۸
۲- دوافع الوفاء بالعهد ونقضه ۹۹
علاج نقض العهد: ۹۹
أقسام العهد: ۱۰۰
إلتزام المسلمین بالعهود والمواثیق: ۱۰۰
البحث المنطقی والجدال والمراء ۱۰۱
تنویه: ۱۰۱
تفسیر واستنتاج: ۱۰۲
الفرق ین الجدال والمراء والخصومة: ۱۰۵
الجدال والمراء فی الروایات الإسلامیة: ۱۰۵
الآثار السلبیة للجدال والمراء: ۱۰۷
دوافع الجدال والمراء: ۱۰۸
أقسام المراء والجدال: ۱۰۹
طرق علاج هذه الرذیلة الأخلاقیة: ۱۱۰
الإنصاف فی الکلام: ۱۱۱
النمیمة وإصلاح ذات البین ۱۱۱
تنویه: ۱۱۱
تفسیر واستنتاج: ۱۱۲
النمیمة فی الروایات الإسلامیة: ۱۱۴
النتائج السلبیة للنمیمة: ۱۱۵
دوافع النمیمة: ۱۱۶
طرق العلاج: ۱۱۶

موارد الاستثناء ۱۱۷
طرق إصلاح ذات البين: ۱۱۹
سوء الظنّ وحسن الظن ۱۲۰
تنويه: ۱۲۰
تفسير واستنتاج: ۱۲۰
سوء الظن فی الروايات الإسلامية: ۱۲۳
حسن الظن فی الروايات الإسلامية: ۱۲۴
تعريف سوء الظن وحسن الظن: ۱۲۴
الآثار السلبيّة لسوء الظّن ۱۲۵
الآثار السلبية لسوء الظن باللّه: ۱۲۶
أسباب ودوافع سوء الظن: ۱۲۶
اشارة ۱۲۶
۱- التلّوث الظاهری والباطنی: ۱۲۷
۲- المعاشرة مع رفاق السوء: ۱۲۷
۳- المحيط الفاسد: ۱۲۷
۴- الحسد والحقد والتكبّر والغرور: ۱۲۷
مراتب سوء الظن: ۱۲۷
موارد الاستثناء: ۱۲۹
التجسّس فی الحالات الخاصة للناس ۱۳۰
تنويه: ۱۳۰
التجسّس فی الروايات الإسلامية: ۱۳۱
الآثار والعواقب السلبية للتجسّس: ۱۳۱
استثناءات: ۱۳۲
اشارة ۱۳۲

۱- الأجهزة الأمنيّة ---- ۱۳۲
۲- منظمات التفتيش والتحقيق ---- ۱۳۴
۳- التجسّس فی المسائل المصيرية ---- ۱۳۴
طرق العلاج: ---- ۱۳۴
حفظ السّر وإفشائه: ---- ۱۳۵
حفظ السّر فی الروايات الإسلاميّة: ---- ۱۳۷
أقسام حفظ السّر: ---- ۱۳۷
معطيات حفظ السّر وإفشائه: ---- ۱۳۹
الضرورات: ---- ۱۴۰
دوافع إفشاء السّر وعلاجها: ---- ۱۴۰
أمّا العلاج: ---- ۱۴۱
الحلم والغضب ---- ۱۴۱
تنويه: ---- ۱۴۱
تفسير واستنتاج: ---- ۱۴۲
الغضب فی الروايات الإسلامية: ---- ۱۴۴
الآثار السلبية والمخرّبة للغضب: ---- ۱۴۵
أسباب ودوافع الغضب: ---- ۱۴۶
اشارة ---- ۱۴۶
۱- التسرع فی الحكم: ---- ۱۴۶
۲- ضيق الافق: ---- ۱۴۶
۳- التكبّر والغرور: ---- ۱۴۶
۴- الحسد والحقد: ---- ۱۴۷
۵- الحرص وحبّ الدنيا: ---- ۱۴۷
علاج الغضب: ---- ۱۴۷

أقسام الغضب: ۱۴۸
اشارة ۱۴۸
۱- غضب اللّه تعالی: ۱۴۹
۲- الغضب السلبی والمخرب، ۱۴۹
۳- الغضب الإیجابی للإنسان: ۱۴۹
الحلم وسعة الصدر: ۱۵۱
العفو والانتقام ۱۵۳
تنویه: ۱۵۳
تفسیر واستنتاج: ۱۵۴
العفو والانتقام فی الروایات الإسلامیة: ۱۵۸
أقسام العفو: ۱۵۹
الآثار الإیجابیة والثمار الطیبة للعفو والصفح: ۱۶۰
طرق علاج الانتقام وکسب فضیلة العفو: ۱۶۰
الغیرة وعدم الغیرة ۱۶۱
تنویه: ۱۶۱
تفسیر واستنتاج: ۱۶۱
الغیرة فی الروایات الإسلامیة: ۱۶۳
تعریف أقسام الغیرة: ۱۶۳
آثار الغیرة فی حرکة الحیاة: ۱۶۴
الأُلفة والانفرادیّة ۱۶۵
تنویه: ۱۶۵
تفسیر واستنتاج: ۱۶۵
المعاشرة والعزلة فی الروایات الإسلامیة: ۱۶۸
الأحادیث المتعارضة: ۱۶۹

طريق الجمع بين الآيات والروايات: ---------- ۱۷۰

أسباب ونتائج الاجتماع والانزواء: ---------- ۱۷۱

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۱۷۲

الاخلاق فی القرآن

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، ۱۳۰۵ - عنوان و نام پدیدآور : الاخلاق فی‌القرآن/ناصر مکارم‌شیرازی ؛ لمساعده مجموعه من‌الفضلاء ؛ تعریب‌الموسسه‌الاسلامیه‌للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه‌الامام علی‌بن‌ابی‌طالب (ع ۱۴۲۵ ق ۱۳۸۴. مشخصات ظاهری : ۳ج. فروست : نفحات‌القرآن؛ الدوره‌الثانیه. شابک : ۹۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۷-X ؛ ج.۱ ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۵-۹ ؛ ج.۲ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۶-۱ ؛ ج.۳ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۵-۳ ؛ ۸۰۰۰۰ ریال (دوره، چاپ دوم) یادداشت : عربی. یادداشت : عنوان اصلی: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربی. یادداشت : ج. ۳(چاپ سوم: ۱۴۲۸ق=۱۳۸۶). یادداشت : ج. ۱ - ۳ (چاپ دوم: ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۵). یادداشت : کتابنامه. مندرجات : ج.۱. اصول‌المسائل‌الاخلاقیه. -ج.۲-۳. فروع‌المسائل‌الاخلاقیه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامی موضوع : احادیث اخلاقی -- قرن ۱۴ شناسه افزوده : موسسه اسلامی ترجمه شناسه افزوده : مدرسه‌الامام علی‌بن ابی‌طالب (ع). رده بندی کنگره : BP۱۰۳/۳/م۷پ۹۰۴۳ ۱۳۸۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹ شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۵۳۴۰۹

الجزء الثالث

الإعراض عن الأخلاق إعراض عن کل شیء

مقدمة:

فی هذا الوقت الذی أکتب فیه هذه المقدمة، یدور الحدیث فی الأوساط العالمیة عن العملیات الإرهابیة التی وقعت فی أمریکا وأضرارها علی ذلک البلد وعلی جمیع العالم، ثم الحدیث عن الحملات الانتقامیة التی تزمع أمریکا القیام بها ضد أفغانستان ومناطق اخری. الجمیع یتحدث عن الآثار السیاسیة والاقتصادیة المترتبة علی هذه العملیات الإرهابیة المدمّرة علی المدی القصیر والبعید، ولکن قلّما نجد من یتحدث عن المعطیات الأخلاقیة لهذه الحادثة الفریدة. واحدی هذه المعطیات هو أنّ أکبر قدرة عالمیة یمکنها أن تکون الأضعف بین دول العالم بحیث ینهار رمز عظمتها وشموخها فجأة بواسطة هجوم عدّة أشخاص. والمعطی الآخر یشیر إلی عدم إمکان الاعتماد علی شیء فی هذا العالم، حیث یمکن أن تتبدل جمیع الحسابات والمعادلات بواسطة حادثة ارهابیة قام بها أشخاص معدودون بحیث أذلّت رقاب المقتدرین وفضحت إدعاءات المستکبرین ودوّخت أذهان المدبّرین واستغفلت عقول الحاکمین بحیث لم ینتبهوا إلّابعد أن انتهی کل شیء. والآخر، أنّ الإنسان المعاصر وبسبب ضعف دعائم الأخلاق الفردیة والاجتماعیة یدفع ثمناً باهضاً فی حرکة الحیاة ویری کل شیء فی خطر المحق والانهیار. عندما ینهار قصر «العدالة» البهیج وتحل محلّه اطلال الظلم والجور، وافرازات الأنانیة وحبّ الجاه والسلطة لقوی الانحراف ویصل النصل إلی العظم لدی المحرومین والمعدمین ویعیشون الاختناق فی هذه الظروف العصیبة. وعندما لا تسمح حالات الغرور والتکبر بإدراک الحقائق الموجودة علی أرض الواقع من موقع الوضوح فی الرؤیة بحیث یعجز الإنسان عن إدراک ما یجری حوله من تفاصیل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۶ الحیاة، فانّ مثل هذه الحوادث لا تکون خارج اطار التوقع، الحوادث التی أحدثت اهتزازاً فی صرح قوی الاستکبار والظلم وجعلتهم یعیشون التخبّط والتشنّج لأیّام وشهور عدیدة. ألم یحن الوقت الذی ینکشف لنا أنّ العالم المادی قد وصل إلی طریق مسدود، ولابدّ له من العودة إلی أجواء المعنویات والأخلاق الإنسانیة لیتسنی لها تجمید عناصر الارهاب من جهة، واشاعة أجواء الحب والودّ والصفاء من جهة اخری. إنّ التغافل عن الواقعیات لا یؤدّی إلی زوالها، فما دامت أشکال الظلم والجور والعدوان والأنانیة موجودة فی العالم، فلابدّ أن نتوقع

حدوث مثل هذه الوقائع بل أشدّ منها. إنّ الحديث فى هذا المجال واسع وكثير التفاصيل والتحاليل لا يسعنا استعراضها فى هذه المقدمة القصيرة، والغرض هو الإشارة فقط إلى هذه المسألة لنعيش اليقظة، ولنعلم جميعاً أنّ إصلاح الوضع الخطير فى العالم المعاصر لا يجدى فيه القيام بعمليات انتقامية حيث تؤدّى إلى إلقاء الزيت على النار وتفضى إلى زيادة الهجمات الإرهابية، ولإلقاء اللائمة على هذا وذاك. لابدّ أن يتحمل الجميع مسؤوليتهم ويتحركوا من موقع الإذعان لمبادىء الأخلاق الإنسانية ولزوم تجسيدها فى حياة الفرد والمجتمع لنيل الحياة السعيدة والمفعمة بالأمن والتقدم. ومن هنا نمدّ أيدينا إلى البارى تعالى ونبتهل إليه ونشكره لتوفيقه لإتمام الجزء الثالث والأخير لكتاب «الأخلاق فى القرآن» حيث يمكننا أن نخاطب البشرية من هذا الموقع ونقول: * هذه هى أخلاقنا الإسلامية! * هذه هى طريقة حياتنا ومعالم مسيرتنا! * هذا هو دستور النجاة من الأزمات والمشاكل! قم/ الحوزة العلمية ناصر مكارم الشيرازى ۱۳۸۰ ه ش الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷

حبّ الجاه

تنويه:

تختلف الميول الإنسانية من شخص إلى آخر فالبعض يحب المال والبعض الآخر يحب الجمال وآخر يحب الكمال، وآخر يطلب المقام والجاه، أى يطلب الوجاهة، فيجب أن يحترمه الناس وينحنون له، ويريد أن يشيرون إليه بالبنان ويطلبون منه حوائجهم، وبعبارة أدق يحس بأنّه أرفع شأناً من الباقين، له الكلام الأول والأخير وإن كان أقل فهماً ودرايةً، ويسمى مثل هذا الشخص بالراغب للوصول لأعلى المراتب أو محب الجاه. هذه الصفة تتوفر فى الكبار أكثر منها لدى الشباب والصغار، وفى بعض الأحيان ترافق الإنسان حتى الممات، فتتلاشى كل قواه إلّاحبّ الجاه فهو راسخ فى القلب بل يزداد رسوخاً وقوّة كلما امتد العمر فى الإنسان. هذه الرذيلة هى مصدر لكثير من المفاسد والفردية، فهى تبعد الإنسان عن الخَلق والخالق، ولأجل الوصول لأهدافه المشؤومة تقحمه فى المهالك، والأنكى من ذلك أنّها تظهر فى الغالب بصورة حسنة مثل الاحساس بالمسؤولية والعزم على أداء الواجبات الاجتماعية ولزوم الإرادة الصحيحة وما شابه ذلك، فقد جاء فى الحديث: «آخرُ ما يَخرُجُ مِنْ قُلوبِ الصِّدِّيقِينَ حُبُّ الجاهِ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸ ويبين هذا الحديث خطورة هذهِ الرذيلة الأخلاقية. والجدير بالذكر أنّ هذه الصفة لها صلة وثيقة مع الرياء والتكبر والعُجب وغالباً ما يُشتبه بينها وبين مثيلاتها. وبهذه الإشارة نعود لنستوحى ما ورد عن عللها وعواقبها فى القرآن الكريم: ۱- فى حادثة السامرى التى جاءت فى سورة طه فى الآيات ۸۵ و ۸۸ و ۹۵ و ۹۶ تبين أنّ حبّ الجاه هو السبب فى ضلال السامرى وجمع غفير معه من بنى اسرائيل حيث قال: «قالَ فَانا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامِرِيُّ ... فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ ... قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ- قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» «۱». ۲- «وَاذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَاخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» «۲». «وَقالَ الَّذِينَ لايَرْجُونَ لِقائَنا لَوْلا انْزِلَ عَلَيْنا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً» «۳». ۳- «وَنادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ» «۴». ۴- «قالَ إِنَّما اوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ... فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيوةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما اوتِيَ قارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۵». ۵- «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹ ۶- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» «۱». «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِيْنَ لايُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ» «۲».

تفسير واستنتاج:

ذم طُلاب الجاه

كما أشرنا سابقاً أنّ حبّ الجاه يعنى التعلق الشديد بالمكانة والمنزلة الاجتماعية والسعى لنيلها بأى صورة كانت، وهو من الرذائل الخطيرة التى لا تؤثر على الجوانب الروحية للانسان فحسب بل تجعل الشخص منبوذاً اجتماعياً، ويعيش العزلة القاتلة. ولقد رأينا على مدى تاريخ الأنبياء عليهم السلام والأقوام السالفة، كم كانت هذه الرذيلة منتشرة ومتفشية فيهم، بحيث تحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية وسورة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كثيراً من الرذائل لها مفاهيم مشتركة، وكما يقول المثل وجهان لسكة واحدةٍ، بحيث يمكن أن يصدر فعل قبيح من الإنسان يكون مصداقاً لعدّة صفات رذيلة، وقد نزلت فى مثل ذلك آيات من القرآن الكريم تعكس هذا المعنى لبعض الرذائل كالتكبر والغرور والأنانية والعجب والرياء وحب الجاه. وعلى أية حال، نرى فى الآيات الاولى قصة السامرى المعروفة لدى الجميع، فللسامرى سمعة قبيحة عند بنى اسرائيل، وكان محبّاً للجاه بشكل غريب، حيث استغل غياب النبى موسى عليه السلام وذهابه للقاء ربّه فى طور سيناء، فصنع من حلّى بنى اسرائيل عجلًا جسداً له خوار، فعندما كانوا يضعونه فى اتجاه الهواء تصدر منه أصواتاً غريبة، أو يقال أنّه جمع مقداراً من التراب الذى كان تحت أقدام جبرائيل عليه السلام أو مركبه الذى ظهر به عندما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰ اغرق فرعون وجنوده فى اليم، فوضع ذلك التراب داخل العجل الذهبى، والصوت الذى كان يصدر منه من بركة ذلك التراب. وبعدها دعى السامرى الناس لعبادة ذلك العجل ولم يمرّ وقت طويل حتى استجاب له بعضهم وعبدوا العجل وسجدوا له. وقال اللّه تعالى فى القرآن الكريم: «قالَ فَانا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامِرِيُّ». فرجع موسى غضبان أسفاً إلى قومه وعاتب أخاه هارون عتاباً شديداً، وتبرأ القوم من فعلهم واتهموا السامرى فقال سبحانه وتعالى: «فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ ...». وتوجه بعدها موسى عليه السلام إلى السامرى: «قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ- قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي». كان هدف السامرى من تلك الفتنة المضلّة هو الوصول إلى الجاه والمنصب والمقام، فعاقبه البارى تعالى بالطرد من المجتمع والإنزواء «قالَ فَاذْهَبْ فَانَّ لَكَ فِي الْحَيوةِ أَنْ تَقُوْلَ لا مِساسَ». فكان فى الشريعة الموسوية وقوانينها الجنائية، أنّ الإنسان، إذا ما أذنب ذنباً كبيراً، ينظر إليه وكأنّه رجس خبيث نجس فلا يحق أن يمسّه أحد ولا يمس هو أحداً. ويقال: إن السامرى ابتلى بمرض نفسى ووسواس شديد بحيث كان يخاف من جميع الناس وإذا ما تقرب إليه أحد يصيح ويقول «لا مساس»، نعم فهذا هو جزاء من يحب الجاه ويتلاعب بالدين لأجل أغراضه الدنيوية. وتتطرق الآيات القرآنية فى «الآية الثانية» إلى نوع آخر من حبّ الجاه والمقام لبنى اسرائيل، فقد طلبوا أمراً عجيباً من موسى عليه السلام، فقالوا: «ارنا اللّه جهرةً» وإلّا لن نؤمن لك أبداً، فأخذتهم الصاعقة، ولولا لطف البارى تعالى لماتوا إلى الأبد، وفيها قال تعالى فى قرآنه الكريم: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱ «وَاذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَاخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». ولكن ما هى الصاعقة؟ إنّها رعد وبرق ينتج نتيجة اصطدام الغيوم ببعضها، فهى تحمل الكهربائية الموجبة وعند وصولها للأرض تبحث عن الكهربائية السالبة فتتحد معها بدرجة حرارة تصل إلى ۱۵۰۰۰ مئوية فتحدث صوتاً مهيباً وإذا ما اصابت مكاناً ما فستدمره تدميراً كاملًا. فى قصة بنى اسرائيل عندما وقعت الصاعقة على بنى اسرائيل وتجلّى البارى للجبل وجعله دكّاً مات جميع من اختارهم موسى عليه السلام من بنى اسرائيل وعددهم (۷۰) نفراً من شدة الخوف والهلع الذى أصابهم، وبقى موسى على قيد الحياة ولكنه غاب عن الوعى وعندما أفاق، طلب من البارى تعالى العفو والمغفرة ودعا لهم بالحياة فاستجاب البارى دعاءه وأحياهم وعلم هؤلاء القوم المعاندين إلى أنّهم ليسوا بشىء أمام قدرة البارى تعالى. أشار القرآن الكريم إلى هذهِ الحادثة فى مكان آخر وآية اخرى فقال: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ». فيمكن أن يكون ذلك الطلب من التذرع أو من حبّ الجاه أو من الاثنين معاً، ويستمر القرآن الكريم ويقول قد سألوا أكبر من ذلك «۱» «فَقَدْ سَئَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ». فهذه التعبيرات وما شابهها تبيّن مدى تغلغل حبّ الجاه والكبر والغرور والعناد

فى قلوب بنى اسرائيل، ولذلك كانوا دائماً يتذرعون ويتحججون فى كل وقت، وهى نفس الصفات الرذيلة التى نراها عند اليهود فى وقتنا الحاضر، ولحد الآن يعتبرون أنفسهم شعب اللّه المختار، ويفكرون فى السيطرة على اقتصاد العالم، مع عدم قدرتهم وكفائتهم على ذلك. ولم يكن حبّ الجاه متغلغلًا فى قلوب بنى اسرائيل فحسب، فالفراعنة ونمرود كانوا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲ أيضاً من مصاديق ذلك، فنقرأ فى القسم الثالث من الآيات، أنّ البارى تعالى قال عن فرعون: «وَنادَى فِرْعَوْنُ فِي قَومِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهـذِهِ الأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِنْ هذَآ الَّذى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ فَلَولا الْقِىَ عَلَيْهِ اسْورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقتَرِنِينَ». وقد جمع فرعون فى هذه الآية عدّة رذائل، الغرور، التكبر، حبّ الجاه واغفال البُسطاء من الناس، والغريب فى الأمر أنّ فرعون شاهد معجزات النبى موسى عليه السلام بعينه ولكنه أصرّ واستكبر وتمسك بمسألة الطبقة الاجتماعية والأسورة من الذهب، ولثغة موسى عليه السلام فى الكلام (بالرغم من أن اللثغة قد زالت منه بعد البعثة بعد ما طلب موسى ذلك من اللّه تعالى). وعلى أيّة حال فإن فرعون لم يزد قومه إلّاضلالًا. وفى «الآية الرابعة» من هذه الآيات نواجه قصة «قارون» فهو من النماذج البارزة للأشخاص الذين يعيشون حبّ الجاه عند بنى اسرائيل، وهى الصفة القبيحة التى أودت بحياته وأرسلته إلى الحضيض. فيا للعجب من الغرور وحبّ الجاه كيف يضع الحجب على بصيرة وفهم الإنسان ويمنعه من درك أكثر الامور بداهةً، فعندما وعضه بعض بنى اسرائيل وقالوا له: بما أنّ اللّه قد أنعم عليك فابتغ فيما آتاك اللّه من النعم الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، فكل شىء آيلٌ إلى الزوال وإيّاك أن تستعمل هذه الأموال للإفساد فى الأرض ومحاربة الرسول عليه السلام. فقال ذلك الرجل المغرور فى جوابه: «قَالَ اوتيتُهِ عَلى عِلمٍ عِندى ...» قال ذلك واستمر فى عناده وجموحه، ولأجل أن يرضى غريزة حبّ الجاه عنده، خرج على قومه بزينة من الخيل والخدّام وكثرة الغلمان الذين كانوا يجلسون على سرجٍ من ذهب ويلبسون أنواع الحُلى الذهبية. وقد أخذ مثل ذلك المنظر البرّاق والمخادع بقلوب وعقول بنى اسرائيل فقالوا: «قالَ الَّذِينَ يرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما اوْتِىَ قارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳ ولكن وكما صرّح القرآن الكريم فى هذه الآيات فإنّ اللّه تعالى خسف بقارون الأرض ودفنت كل أمواله وقصوره والزينة التى كانت عليه وكأن شيئاً لم يكن، لا ـ قارون ولا امواله ولا زينته المبهرة للعقول!! وعندها انتبه الذين تمنوا مقام قارون، انتبهوا من غفلتهم ورجعوا عن قولهم واستعاذوا باللّه تعالى من أقوالهم. نعم فإنّ حبّ الجاه والغفلة والغرور، تغوى الإنسان وتورثه الغفلة عن أبسط الامور البديهية للحياة، وبما أنّ الإنسان خلق ضعيفاً، فانّ أوهى عنوان أو أمتياز يعرض عليه يغير حياته ويقلبها رأساً على عقب ويفضى به إلى الهلكة لأنّه سرعان ما يدعى القدرة والاستقلال، بل يتعداها إلى مقام الالوهية. وفى «الآية الخامسة» من الآيات تتحدث عن فرعون، وتصوّر لنا حبّ الجاه وأعماله الجنونية حيث خاطب موسى عليه السلام قائلًا: «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» بلا شك، أنّ فرعون بادعائه للربوبية لم يكن من السذاجة بدرجة لا يدرك فيها دعوة موسى عليه السلام المنطلقة من التعريف باللّه ربّ العالمين، فهو الحاكم على أرض مصر الوسيعة. وبديهى أن الأنانية والتكبر وحبّه للجاه، لم تكن لتسمح له بقبول الحق والمنطق السليم الصادر من اللّه تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام. وهذا هو طريق الطغاة وأفعالهم فدائماً ما يقابلون الحق بالقوّة، والدليل والبرهان بالسجن! ولكن عقوبة السجن فى مثل هذه المواد لم تكن أداة رادعة فى دائرة التصدى لخط الرسالة والنبوة بقيادة موسى عليه السلام الذى ضعضع أركان حكومة فرعون، ولهذا ذكر بعض المفسرين أنّ سجن فرعون لم يكن بالسجن الذى يخرج منه الإنسان حيّاً، فالمسجون فيه يلاقى شتى أنواع العذاب حتى يموت فيه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴ و يدور الحديث فى «الآية السادسة» من هذهِ الآيات، عن مشركى العرب فبدلًا من أن يطلبوا الدليل والبرهان والمعجزة من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كانوا يتذرعون بأنواع الذرائع من موقع الانكار والجحود، فتارة يطلبون منه تفجير الينابيع والعيون من الصحارى المقفرة اليابسة والحارة من أرض الحجاز، وتارة يطلبون جنات من أعناب ونخيل تجرى من تحتها الأنهار، وتارة يطلبون انزال الحجارة من السماء واخرى حضور البارى تعالى والملائكة والبيوت من الذهب؟ وبعدها يقولون: «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّماءِ وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلُ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ». فاولئك بطلباتهم تلك، قد كشفوا عن

واقعهم الزائف حيث يعيشون منتهى الكبر وحبّ الجاه الذى ملأ قلوبهم، واثبتوا أنّ الإنسان عندما يقع فى سلوكه الأخلاقى والفكرى تحت تأثير تلك الصفات الذميمة، فسوف يتحرك بعيداً عن العقل والمنطق. اختلف المفسرون بأن ما المراد من كلمة (بيت من زخرفٍ)؟ فاحتملوا فيها أمرين: الأول أنّ المراد من الكلمة هو بيت ملىء بالذهب أو أشياء مصنوعة من الذهب، والثانى: أنّ المراد هو بيت منقوش بالزخارف الذهبية، ولكن التفسير الأول أوفق لسياق الآية وذلك بالنظر إلى عبارة (من زخرفٍ). فى «الآية السابعة» والأخيرة من هذهِ الآيات التى وردت عقيب الحديث عن قارون، صدر أمر إلهى عام فقال: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لايُرِيُدونَ عُلُوّاً فِى الْارْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقينَ». نعم فإن عاقبة محبّى الجاه والمستكبرين، نفس عاقبة قارون الذى باع كل شىء من أجل حبّه للجاه والمقام وعاش مغضوباً عليه، وختم حياته باللعن الإلهى إلى الأبد. ويمكن الاستفادة من عطف الفساد على العلو فى الأرض فى الآية أنّ المتكبرين الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵ ومحبّى الجاه والمقام سيفسدون فى الأرض فى نهاية المطاف كى يشبعوا عطشهم وغرائزهم، ولن يتوقفوا عند أى جناية يرتكبونها. ومن الجدير بالذكر أنّ الإمام على عليه السلام عندما آلت اليه الخلافة كان يخرج بنفسه إلى السوق، فيرشد الضّال ويساعد الضعيف وعند مروره بجانب الباعة والكسبة كان يقرأ عليهم هذهِ الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لايُرِيُدونَ عُلُوّاً فِى الْارْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقينَ». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه عندما تلا هذه الآية بكى وقال: «ذَهَبَتِ واللَّهِ الأَمانىُّ عِندَ هذهِ الآيةِ» «۱». ويمكن أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنّه بما أنّ البارى تعالى جعل الآخرة للّذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا يريدون الرئاسة، وهو أمر صعب جدّاً، فسوف لا تبقى امنية للشخص المؤمن فى حركة الحياة الدنيوية. ويستفاد من مجموع الآيات التى ذكرت سابقاً وما شابهها من الآيات أن طلب الجاه والرئاسة، وخصوصاً إذا ما اقترن بالكبر والغرور والعناد فانّه سيفضى بالحياة الإنسانية إلى السقوط، وسوف لا تؤثر على الفرد فقط بل تطال المجتمع ايضاً.

حبّ الجاه فى الروايات الإسلامية:

ورد الحديث عن هذه الرذيلة مرّةً تحت عنوان (حبّ الجاه) ومرّة تحت عنوان (حبّ الرئاسة) واخرى بعنوان «الشرف»، ونختار قسماً من تلك الروايات الكثيرة: ۱- الروايات التى تتحدث عن مدى تأثير وتخريب هذهِ الرذيلة فى دائرة الدين والمعتقد، بحيث جاء فى الحديث النبوى الشريف: «ما ذِئبانِ ضاريانِ ارسِلا فِى زَرِيبَةٍ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶ غَنَم أكثرَ فَساداً فِيها مِنْ حُبِّ المالِ وَالجاهِ فِى دِينِ الرَّجُلِ المُسلِمِ» «۱». وتأسيساً على ذلك، فإنّ حبّ الجاه والثروة وعبادة المقام تمثل عناصر خطيرة على مستوى عملية هدم الدين وتخريب الإيمان فى أعماق النفس، كما هو الحال فى علاقة الذئب والغنم. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «حُبُّ الجاهِ وَالمالِ يُنبِتانِ النِّفاقَ فِى القَلبِ كَما يُنبِتُ الماءُ البَقلَ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ طَلَبَ الرِّئاسَةَ هَلَكَ» «۳». ۴- قد أولت الروايات الإسلامية أهمية كبرى لهذهِ المسألة من موقع التحسس لظهور أبسط العلامات لحبّ الجاه وحذّرت منها، ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إيّاكُم وَهَؤلاءِ الرُّؤساءِ الَّذِينَ يَتَرَأسُونَ فَواللَّهِ ما خَفَقْتِ النِّعالُ خَلفَ رَجُلٍ إلّاهَلَكَ وأَهلَكَ» «۴». ويجب التنوية إلى أن المستضعفين والمحرومين غالباً ما كانوا حفاة الأقدام فى ذلك الزمان والنعال مختص بالغنى، ومن البديهى أنّ هؤلاء لا يتبعون شخصاً فى سبيل اللّه ومن أجل الخير! ۵- فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وفى معرض حديثه عن الجذور الأصلية للذنوب: «أوّلُ ما عُصِى اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِستِّ خِصالٍ حُبِّ الدُّنيا وَحُبِّ الرِّئاسَةِ وَحُبِّ الطَّعامِ وَحُبِّ النِّساءِ وَحُبِّ النَّومِ وَالرَّاحَةِ» «۵». ۶- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ حُبَّ الشَّرفِ وَالذِّكرِ لايَكُونانِ فِى قَلبِ الخائِفِ الرَّاهِبِ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷ ۷- وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ طَلَبَ الرِّئاسَةَ بِغيرِ حَقٍّ حُرِمَ الطَّاعَةَ لَهُ بِحَقٍ» «۱». ومن ذلك البيان يتبين أنّ حبّ الجاه والمقام يتقاطع دائماً مع الحق، ومنه يتبيّن أيضاً أنّ حبّ الرئاسة على نوعين:

الرئاسة بالحق والرئاسة بالباطل:

نقرأ فى بعض الآيـات أنّ «عبـاد الرحمان» يطلبون من البارى تعالى أن يجعلهم للمتقين إماماً «واجعَلنا لِلمُتَّقِينَ إِماماً» «۲». ومنه يتبيّن أنّ حبّ الرئاسـة لا يقع فى الـدائرة الذميمـة دائماً، كما ذكر هـذا المعنى العلّامـة المجلسـى قـدس سـره فى كتابه بحار الأنوار، حيث قسّـم الرئاسـة إلى نوعين: «رئاسـة بالحق» و «رئاسـة بالباطل»، بعدها ضـرب مثالًا لرئاسة الحق وهو التصدى لمقام الفتوى والتدريس والوعظ، ويعقب قائلًا: إنّ الـذى له الأهليـة لـذلك وهو عـالم بالكتاب والسـنة وهـدفه هدايـة الخلق وتعليم الناس، فيجب عليه إمّا عيناً أو كفايةً التصـدى لـذلك المقام، ولكن الـذى لا علم له ولا اطلاع بالمسائل وليس له هدف إلّاالشـهرة وتحصـيل المال والمقام، فتلك الرئاسـة الباطلـة، وهـذا هو فعـل المبتلين بالصـفة الرذيلـة وهى حبّ الجـاه. وبعـدها نقل عن بعض المحققين أن معنى كلمـة «الجاه» هو تملك القلب والتـأثير عليه، فحكمهـا حكم تملـك الأموال، كل هـذهِ الامور هى من أهـداف الحياة، وتنتهى بالموت، والـدنيا مزرعـة الآخرة، فالذى يجعل من تلك زاداً له فى الآخرة فهو السـعيد والمنعم، والذى يجعل منها وسيلة لإتباع الأهواء فهو الشقىّ الفقير «۳». وفى الواقع أنّ الـذين يطلبـون الرئاسـة لأـغراض اجتماعيـة وإنسانيـة، أو بعبـارة اخرى الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸ يطلبون الجـاه للوصول للاهـداف الإلهيّة وليس لحب المقام والرئاسة بالذات، اولئك فى الحقيقة السائرون على خط الإمام على عليه السـلام الذى يقول: «أما وَالَّذى فَلَقَ الحَبّـةَ وَبرَأ النَّسـمَةَ لَولا حُضُورِ الحاضِـرِ وَقِيامِ الحُجَّةِ بِوجُودِ النَّاصِـرِ وَما أَخَـذَ اللَّهُ عَلَى العُلَماءِ أَلّا يُقارُّوا عِلى كِظَّةِ ظالِمٍ وَلا سَغبِ مَظلُومٍ لَألقَيتُ حَبلَها عَلى غارِبِها وَلَسَقَيتُ آخِرها بِكأسِ أَولِها» «۱».

علامات حبّ الجاه:

يمكن معرفـة الأفراد الـذين يحبون الجاه والمقام عن طريق حركاتهم وكلماتهم وسـلوكهم، فكل ما يفعلوه من خير يرغبون فى اظهاره والإعلان عنه، حتى تكون لهم المنزلـة والمقام عند الناس. وعلى هذا فالذين يحبّون الجاه يتحرّكون فى سـلوكهم الأخلاقى نحو الرياء غالباً، لأنّ حبّهم للجاه لا يمكن اشباعه إلّابالرياء، ولـذلك فإنّ بعض كبار علماء الأخلاق، ادرجوا عنوان الرياء وحب الجاه سويـةً فى كتبهم «۲». وكثير من الـذين يحبّون الجـاه يحبّون أن يحمـدوا بمـا لم يفعلوا وبهـذا جـاءت الآيـة الشـريفة: «يُحِبُّونَ أَن يُحمَـدُوا بِما لَم يَفعَلُوا» «۳» فهـدفهم الشـهرة والوجاهـة والإشارة إليه بالبنان، عن أى طريق كان، وليس هـدفهم من الوجاهـة هو التحرك باتّجاه تفعيل الخير فى المجتمع من موقع الإصـلاحات الاجتماعيـة، ولكن الهـدف هو مـدح النـاس وخضوعهم لهم والإشـارة إليهم بالبنان كما قلنا، فهم يسـعون للأعمال التى فيها الشهرة وإن كان مردودها قليلًا، ولا يسعون أبداً للأعمال التى لا تحقق لهم الوجاهة والسمعة وإن كانت تلـك الأعمـال تعود بـالنفع الكثير للمجتمع. محبو الجـاه يتوقعون أن يُمـدحوا دائمـاً، ولاـ يرغبون بالنقـد والتـأنيب وينتظرون الاـحترام الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹ من الجميع فى المجـالس وغيرها ولا يحبون أن يجلس أحـد فى مكان أعلى منهم، أو يقاطعهم فى أثناء كلامهم ويجب أن يكون كلامهم هو الكلام الأول والأخير، ومن قـدّم إليهم صـنوف المدح وآيات الاحترام والتبجيل فهو إنسان شريف ويعترف بالجميل، ومن لم يكن كـذلك فهو لئيم وناكر للجميل، ولـذلك فإن مثل هؤلاء الأشـخاص غالباً ما يكونون منبوذين ومكروهين، ورجوع بعض المحتاجين إليهم هو من باب الإجبار وعـدم الحيلة. مثل هؤلاء الأفراد يعرفون بسـرعة، وجاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السـلام: «إنَّ شِرارَكُم مَن أَحبَّ أن يُوطّأ عَقِبَهُ» «۱». ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله: «مَنْ أَحبَّ أن يُمثّل لَهُ الرِّجالُ فَلْيَتَبوءَ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ» «۲». ومن العلامات الاخرى لهم، أنّهم يعيشون فى حالة الوهم والشخصية الخيالية الضاربة فى أحلام اليقظة، فما لا يحصلونه فى عالم الواقع من المنزلة والجاه والاحترام يجدونه حاضراً فى عالم الوهم والخيال.

أسباب ومقاصد حبّ الجاه:

فى بحث «حبّ الجـاه» علّق المرحوم «الفيض الكاشـانى» تعليقـاً لطيفـاً، فقـال: «إنّ تعلق النـاس بحب الجاه والمقام، أو بعبارة اخرى أنّ

حبّ التسلط على القلوب أقوى من حبّ المال والثروة، لأنّ الوصول للمال والثروة يكون عن طريق الجاه، أسهل منه عن طريق المال للجاه، حيث يوجد الكثير من المتمولين لكن لا سيطرة لهم على قلوب الناس، ولكن الذين يستطيعون التأثير على القلوب، يكون تحصيل المال والثروة أسهل لهم. ثانياً: الأموال تكون معرضة للتلف والحفاظ عليها يعدّ أمراً صعباً لكن الذى يملك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰ القلوب يكون المحافظة عليها أسهل (وإن كانت فى هذا الطريق أسهل). ثالثاً: التسلط على القلوب يزداد يوماً بعد يوم بدون تجشم عناء كبير، ونفس مدح وثناء الناس كفيل بنشرها، ولكن جمع وزيادة الأموال يحتاج إلى تجشم العناء الكبير» «۱». ولقد ذكر المرحوم الفيض الكاشانى هذا الكلام لبيان ميل الإنسان لحالة «الجاه والمقام»، ولكن إذا دققنا النظر فسنرى أنّه يمكن أن نعتبرها من الدوافع «لحب الجاه»، لانّه عندما يكون الجاه والمقام سبباً لزيادة الأموال والوصول إلى جميع الأمانى والأهواء، علاوةً على خضوع الناس وتواضعهم، فمن الطبيعى أن تتوجه الأنظار إليه، بحيث يمكن القول أنّه لا يكاد أن ينجو منه أحد، وإن كان بمرتبةٍ أضعف عند بعض الناس، وقد ورد فى كلمات أهل المعرفة والحكمة أنّه: «آخِرُ ما يَخرُجُ مِنْ قُلُوبِ الصِّدِيقِينَ حُبُّ الجاهِ» «۲». ومن الأسباب الاخرى لحبّ الجاه هو «حبّ الذات» المفرط عند الإنسان، حيث يتحرّك الإنسان لارضاء هذا الدافع المترسخ فى أعماق النفس بكل وسيلة تمكنه من تحصيل ذلك الغرض، ومنها المقام والمنزلة فى واقع المجتمع. وهناك دوافع اخرى لهذه الحالة النفسية مثل الشعور بالحقارة والدونية، فالأشخاص الذين ذاقوا مرارة الحقارة وعاشوا الإهانة من الآخرين لأىسبب كان فإنّهم يسعون وعن طريق حبّ الجاه والأمانى الكاذبة لتعويض ذلك النقص. وكذلك الحسد والحقد والانتقام يمكنها أن تكون من الأسباب وعلل حبّ الجاه، فإنّ من يعيش الحسد تجاه الآخر يتحرّك من موقع طلب الرياسة والمنزلة الاجتماعية ليكون الآخر فى موقع أسفل منه فى دائرة العلاقات الاجتماعية ويستغل الفرصة لتنفيذ ما فى قلبه من الحسد والحقد والانتقام. والخلاصة أنّ حبّ الجاه من الرذائل المعقدة التى لها جذور ومشتركات مع كثير من الرذائل الاخرى

علاج حبّ الجاه:

بالنظر للأبحاث التى مرّت بنا فى الوقاية أو معالجة الرذائل الأخلاقية اتضح لدينا أصل كلّى وهو أن المبتلين بتلك الرذائل الأخلاقية إذا ما تنبهوا للعواقب السيئة لهذهِ الصفات، فإنّهم فى الأغلب الأعم سيفكرون فى طرق العلاج لها وتركها. وهذا الأصل يصدق أيضاً فى مورد حب الجاه، فإذا ما انتبه المبتلى بحبّ الجاه الى أنّ هذهِ الرذيلة لا تبعده عن الخالق فحسب بل عن المخلوق ايضاً، فيهرب منه الصديق ويبتعد عنه الناس، وأنّ هذه الصفة ستجرّه للرياء الذى هو من أخطر الذنوب أو ربّما يصبح «كالسامرى» و «قارون» اللذان كفرا وعادا نبى اللّه عليه السلام، وإذا ما علموا أنّ تأثير حبّ الجاه على الإيمان القلبى للإنسان كمثل الذئب الضارى فى قطيع الغنم، فلا يسلم دين وإيمان للإنسان فى حركة الحياة الروحية ويستبدله بالنفاق الذى ينبت فى قلب المحب للجاه كما ينبت الزرع فى الأرض السهلة، فإذا علم الإنسان بكل هذه المخاطر والآثار المخرّبة لهذه الرذيلة فسوف يجدد النظر فى سلوكياته وأعماله قطعاً. وإذا فكر هذا الشخص بعدم ثبات هذهِ الدنيا والتفت إلى قصر العمر وأنّ النعم مواهب مؤقتة وعارية مستردة أو على حد تعبير بعض علماء الأخلاق، أنّ كل الناس شرقاً وغرباً لو سجدوا للإنسان لمدّة طويلة فلا يلبث أن يموت الساجد والمسجود له، فمن الأكيد أنّه سينتبه من غفلته ويرعوى من سلوكه. ومن الدروس الاخرى النافعة فى التخلص من حبّ الجاه والسلطة هو مطالعة أحوال وحياة فرعون ونمرود وقارون والسامرى، ونهاية حياتهم المؤسفة، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ حب الجاه ناشىء من ضعف الإيمان خصوصاً الإعتقاد بالتوحيد الأفعالى، فبتقوية دعائم الإيمان فى أعماق القلب سيزول حب الجاه، فمن يدرك عظمة اللّه تعالى، يوقن أنّ العالم بأسره لا يساوى شيئاً فى مقابل ذاته المُقدّسة، وأن العزّة والذلة والعظمة والحقارة بيد اللّه تعالى، والأهم من ذلك كلّه أن القلوب بيد خالقها، فلا يمكن الاعتماد على اقبال الناس وإدبارهم، فإن إقبالهم وإدبارهم لا ثبات فيه مطلقاً ولا يعتمد عليه، فالبعض الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲ يمثّلهُ بالقِدر فيه ماء وصل الى درجة الغَليان فهو فى حالة تَغيّر مستمر، ومن يتحرّك فى تدبير اموره على ذلك الأساس

فَمثله مثل الـذى يريـد البناء على أمواج البحر، والمراهنة على معطيات رضا الناس وحالة الاعتماد عليهم لا ينتج الضـرر الاخروى فقط، بل لا ينسـجم حتى مع خط العقل فى سلوكياتنا الدنيوية أيضاً. كل ما ورد هى طرق العلاج من الناحية العلمية، وأمّا من الناحية العملية، فطريقـة علاـج حب الجـاه هو أن يضع الشـخص نَفْسَه فى حالـة يميتُ فيهـا «حب الجـاه»، فمثلًـا يجلس فى المجالس العامـة مع الأفراد العـاديين وليس مع الشخصـيات المرموقـة، وعلى مسـتوى اللبـاس، يجب أن يتّخـذه من النوع المتوسـط وكـذلك بيته ومركبه وطعـامه وأمثـال ذلك. ويعتقـد بعض اعاظم علماء الأخلاق، أنّ أفضل طريقـة لقطع حب الجاه هو العزلـة عن الناس، بشـرط ان لا تكون العزلة بـدورها وسـيلة لكسب الجاه عنـد الناس بطريقـة غير مباشـرة. وقـد كان كثير من المتصوفة ودعاة العرفان، ولأجل كسـر حب الجاه فى نفوسـهم يتصـرفون فى واقع الممارسـة بسـلوكيات لاـ يقبلها الشـرع، والعجيب أنّهم كانوا يسـمّون مثل هـذهِ الـذنوب الجليـة بالـذنوب «الصوريـة» القابلة للصـفح والتسامح، وينقل المرحوم «الفيض الكاشانى» أنّ أحد الملوك القدماء قرر الذهاب الى زاهد زمانه، وعندما أحسّ ذلك الزاهـد قرب وصول الملك أمر بأن يأتوه بالخبز والخضـروات، وأخـذ يأكل بنهم وحرص ويكبر اللّقمـة فى يـده، وعندما رأى الملك ذلك المنظر، سـقط الزاهـد من عينه وعاد إدراجه بـدون أن يكلمه بشـىء، فقال الزاهد: «الحَمدُ للَّهِ الّذِى صَيرَفَكَ عَنّى». وينقل عن بعضـهم أنّهم كانوا يأخذون بعض الأشربة ويضعونها فى آنية ملوّنة كى يتصور الناس أنّهم يشربون الخمر وبذلك يسقطون من أعينهم. وينقل أيضاً عن آخر عرف بالزهـد بين الناس وأصـبح محطّاً للأنظار، فـدخل الحمّام يوماً ولبس ثياب شـخص آخر تعمداً ووقف فى وسط الطريق فعرفه الناس فأخذوه وضربوه واخذوا الثياب منه وأعادوها لصاحبها، وقالوا هذا رجل كذّاب ومخادع، وابتعدوا عنه!! الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳ بلاـ شـك أن هـذهِ الأعمـال وما شابهها قـد تكون من الموارد المحرمـةً قطعاً وفى اخرى من المكروهـات، ولم يبيـح الشـارع المقـدس أبـداً أن يضع الإنسان المسـلم نفسه فى هـذهِ المواضع حتى يلوّث سـمعته ويسـقط من أعين الناس، وكما أنّ سوء الظن بالناس محرم فى الاسلام، فكذلك توفير عوامل سوء الظن هو بدوره من المحرمات. وعليه يجب أن تكون الطرق فى تهـذيب الأخلاـق مشـروعة ومطابقـة للموازين الإسـلامية والعقليـة، ومع وجود الطرق الشـرعية لا داعى لسـلوك السـبل غير المشـروعة. والعجيب فى الأـمر أن المرحوم «الفيض الكاشـانى» عنـدما ذكر تلك الامور عقّب قائلًا: إنّ وضع الشـراب المحلل فى آنية توهم الناظر بالشـرب للمحرم هو محل تأملٍ من الناحيـة الفقهية ولكن أهل الحب والهوى يمكن أن يعالجوا أنفسـهم بامورٍ لا يفتى بها الفقيه أبـداً، ويعتبرونهـا من طرق إصـلاح القلب، فبعـد ارتكابهم لتلك الـذنوب «الصوريـة» كانوا يجبرونها بالأعمال الخيريّـة، وبعـدها يـذكر قصة سارق الحمّام «۱». لو كـان هـذا الكلاـم من بعض المتصوفـة لما كان محلًا للتعجب، ولكن يصـدر من فقيه معتبر كالفيض الكاشـانى، فهو غير متوقع منه، فالتسـلط على أموال الآـخرين ولبس ثياب شـخص آخر فى الحمام هو من الـذنوب القطعيـة، وهو ليس بالـذنب الصورى، وارتكاب الذنب لا يناسب أهل الحب والهوى ولا يُصـلح القلب، علاوة على ذلك فمع وجود الطرق المشـروعة فما الـداعى للتوسل بتلك الطرق الملتويـة؟ والأقرب للحق أنّ هـذا العالم الكبير تأثر بكلمات الغزالى فى كتابه «احياء العلوم» فالغزالى لديه كثير من هـذهِ الشـطحات فى دائرة السـلوك والممارسـة الصوفيـة، ولعـل قصـد المرحوم الفيض الكاشـانى هو نقل الكلام عن الغزالى وليس تأييـداً لمثل تلك السـلوكيات. وهناك فرقة «الملامتية» «۲» وهى من الفرق الصوفيـة المعروفـة، حيث انتخبوا تلك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴ الطريقة لتخريب سـمعتهم وتشويه شخصيتهم أمام الغير، ومن المؤكد أنّ الإسلام لا يقرّ مثل هذهِ الأعمال البعيدة عن المنطق والعقل والشـرع، ويريـد من الإنسان الوصول للحق عن طريقه المشـروع لا غير. إنّ المرحوم الفيض الكاشانى لم يقرّ أعمال وطرق الملامتيـة، الـذين كـانوا يرتكبون الكبـائر لكى يسـقطوا فى أعين النـاس، بـل حرّمهـا فى أمـاكن اخرى من كتـابه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵

التبرير والعناد

تنويه:

إنّ حالة التبرير للأخطاء تعتبر من أهم الموانع لدرك الحقيقة، لأنّها السبب فى عدم وصول الإنسان للحق بل وتركسه فى أو حال الباطل. والقصد من اسلوب التبرير والعناد، ليس هو الاصرار على مستوى كشف الحقائق وطرح السؤال تلو السؤال، بل إنّ السؤال هو المفتاح لكشف الحقائق، ولكن المقصود هو أنّ الإنسان وبعد انكشاف الحقائق والبراهين، يبقى مصراً على الباطل ويتهرب من الحق بتشبثه بالحجج الواهية وايراد المغالطات الغير المنطقية. يمكن أن تظهر هذهِ الرذيلة فى فردٍ ما بصورةٍ خاصة، أو تصبح سيرة وعادة لقوم من الأقوام. وقد أثبت التاريخ من بين الأقوام السابقة، أنّ قوماً من بنى اسرائيل كانوا أكثر عناداً من من غيرهم، ولذلك تطرقت كثير من آيات القرآن الكريم لعنادهم واصرارهم فى خط الزيغ والخطأ وسنتطرق لبحثها فى تفسيرنا للآيات إن شاء اللّه تعالى. ويمكن القول أننا نجد هذهِ الرذيلة متمكنة ومتجذرة فى جميع الأقوام الذين يعيشون الجهل والانانية حيث لا يتركون أعمالهم القبيحة ولا يقلعون عنها بسهولةٍ. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶ وعلى أية حال فانّ هذا الخُلق القبيح من أسوأ الأخلاق الشيطانية، ويمكن القول إنّ أول درس تلقاه المعاندون على مستوى الاصرار على الخطأ كان بواسطة الشيطان، أمّا نتائج وافرازات هذا الخلق الذميم فكبيرة جداً لدرجةٍ أنّ الكثير من الحروب الدامية التى ذهبت بالأنفس والأموال ودمرت فيها المدن العامرة كانت بفعل هذه الخطيئة. بهذهِ الإشارة نعود للقرآن الكريم والروايات الإسلامية ونستعرض العوامل المسببة لهذا الخُلق القبيح وآثاره الضارّة وطرق علاجه: ۱- «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجّوا فِى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۱». ۲- «امَّنْ هذَا الّذِى يَرْزُقُكُم إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» «۲». ۳- «قالَ أَنْظِرنِى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قالَ إِنّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» «۳». ۴- «قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهاراً* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إِلّا فِراراً* وَإِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا إِسْتِكْباراً» «۴». ۵- «فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ* قالَ أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللَّهِ ما لايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ ... قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ» «۵». ۶- «وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ ... فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ» «۶». ۷- «وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷ تَنْظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» «۱». ۸- «قالُوا يا مُوسى إِنا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هُهُنا قاعِدُونَ» «۲». ۹- «وَقالوا يا أَيُّهَا الساحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ* فَلَما كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ» «۳». ۱۰- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِى السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» «۴».

تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى تتكلم عن الكفّار المعاندين، فإذا ما أنعم اللّه عليهم ورحمهم وكشف عنهم البلاء لغرض تنبههم لأخطائهم نراهم على العكس يزدادون غروراً، ويصرون على غيّهم وطغيانهم «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجّوا فِى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ». نعم فإن هذه الفئة التى تتعامل مع الحق والواقع من موقع العناد والاصرار على الباطل، مرّة يتهمون الرسول صلى الله عليه و آله بالجنون وتارة يطلبون منه التسليم لكلامهم، وعندما يرون المعجزات كانوا يصرون ويستكبرون وينكرون كل شيء. فاللّه تعالى شأنه ولأجل تنبيههم، جعلهم عرضة للبلاء والتمحيص مرّة، ومرّة اخرى يغدق عليهم من نعمهِ ورحمته، فلم ينفع كل ذلك لا البلاء والتمحيص ولا اغداق النعم، وكل ذلك كان بسبب جهلهم وعنادهم وتعصبهم. وقال بعض المفسرين: إنّ الطغيان له أشكال مختلفة، طغيان العلم هو التفاخر، وطغيان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸ المال البخل، وطغيان العبادة الرياء، وطغيان النفس اتباع الشهوات «۱»، فيصاب الإنسان بكل هذه الامور على أثر اللجاج والعناد. وتتحرك «الآية الثانية» لتتناول بالبحث المشركين اللجوجين ايضاً الذين لم يكونوا ليسلموا بأية قيمة كانت للمنطق السليم والواضح للرسول صلى الله عليه و آله، ولا استعداد عندهم لترك آلهتهم المصنوعة بأيديهم.

فيقول القرآن الكريم فى هذه الآية: «امَّنْ هذَا الّذِى يَرْزُقُكُم إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ». كرّر القرآن الكريم هذا القول مراراً للمشركين من أنّ أصنامكم لا فائدة منها، فلا يدفعون عنكم عدوّاً، ولا يرزقونكم، ولا يكلمونكم، ولا ينفعونكم ولا يضرونكم ولا عقل لهم ولا شعور. ومع ذلك كلّه أى دليل لديهم لعبادة تلك الأصنام؟ وعلى الرغم من فقدان الدليل الحاسم على سلوكهم المخالف للعقل والفطرة، استمروا بلجاجةٍ على عبادة الأصنام. وتتعرض «الآية الثالثة» من هذهِ الآيات إلى أول لجوج ومتعصب فى مقابل الحق، ألا وهو الشيطان، عندما تكبّر وطرد من قبل البارى تعالى وفقد مقامه الرفيع والمنزلة التى كانت لديه بين الملائكة، وقد كان عليه أن يلتفت لخطأه الكبير، ويعود إلى اللّه تعالى من موقع الندم، ويغسل ذنبه بماء التوبة، ويطفىء النار التى أججها بدموع الخجل، ولكنه أبى واستكبر وأصرّ على البقاء فى دائرة المعصية أكثر وأكثر ولم يكن ذلك إلّابسبب التكبّر والحسد واللجاجة، وقرّر أن ينتقم من آدم عليه السلام وذرّيته، ويضلّهم بوساوسه، وليس ليوم أو ساعة أو شهر ولكنه سيستمر إلى نهاية الدنيا، فى تكريس الإثم والخطيئة وعناصر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹ الانحراف والزيغ فى كل المجتمعات فلا يسلم من منزلقات البؤس والفساد لا الكبير ولا الصغير ولا الرجل ولا المرأة. فطلب من اللّه تعالى: «قالَ أَنْظِرنِى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قالَ إِنّكَ مِنْ المُنْظَرينَ قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ». ومن المؤكّد أن العمر الطويل له فائدة كبرى لكل شخص يزيد من حسناته، ويصحح أخطاءه، وإذا كان له ماضٍ أسود يبدّله إلى مستقبل سعيد ونورانى، ولكن العمر الطويل للطغاة والصعاليك والمعاندين على العكس من ذلك فله نتائج عكسية. ولعل إجابة دعائه بالعمر الطويل من رحمة اللّه تعالى التى تستوعب الخاطئين، أو ربّما كان تقديراً من اللّه وجزاءً لعبادته للّه آلاف السنين، ولعله يعود عن غيّه، لكن هذهِ النعمة عندما تقع فى أيدى الطغاة والصعاليك والمعاندين فستتحول إلى نقمةٍ عليهم. وتأتى «الآية الرابعة» لتتحدث عن قوم نوح عليه السلام وعنادهم فى مقابل دعوة نبيّهم الرحيم بهم، فدعاهم ليلًا ونهاراً فى الخلاء والملأ لينجيهم من العذاب، وكلما ألحّ عليهم فى قبول دعوة الحق، ازدادوا غيّاً وعناداً. فاشتكى نوح عليه السلام إلى اللّه وقال: «قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهاراً* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إِلّا فراراً* وَإِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا إِسْتِكْباراً». فأى تعصب وعناد هذا الذى يضع الإنسان اصابعه فى آذانه حتى لا يسمع الحق ويلفّ وجهه ويغطيه بثوبه حتى لا يرى من يدعوه إلى الحق والسعادة والخير، بل يتحرّك بعيداً عنه ويتهرب من مواجهته؟! فالهروب من الحق له حدود، ولكنهم تعدّوها إلى أبعد شىء ولم يتخذوا غير طريق المعاندة والتعصب والإستبداد. فكيف يجوز للإنسان المريض أن يفرّ من الطبيب، وللغارق فى الظلمات أن يتهرب من النور، وللغريق أن يتملّص من المنقذ له؟ إنّه أمر محيّرٌ حقّاً، ولكن العناد واللجاج الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰ والإستكبار يقف وراء الكثير من هذا القبيل من السلوكيات الغارقة فى الوهم والزيف. ولا نجد أحداً من الأنبياء عليهم السلام دعا قومه كما دعا نوح عليه السلام إذ عمّر فيهم ۹۵۰ سنةً وأكّد عليهم دعوته الإلهية مراراً وتكراراً، وعبارة «الليل والنهار» يمكن أن تكون إشارة إلى مجالسهم العمومية التى كانوا يجلسون فيها بالليل والنهار، فكان يدعوهم إلى اللّه تعالى فى كل وقت، ولم يؤمن له إلّاقليل، وعلى حد تعبير البعض أنّ معدل من كان يؤمن به من قومه فرد واحد لكل اثنى عشرة سنةً. تعبير: «جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ»، هو وضع رؤوس الأصابع فى الآذان لمنع السماع، أو هو إشارة لشدّة موقفهم فى الهروب من الحق، وكأنّهم كانوا يريدون أن يدخلوا أصابعهم كلها فى الآذان حتى لا يسمعوا الحق. تعبير: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إِلّا فراراً»، يبين أنّ دعوة نوح النبى عليه السلام كانت لها نتيجةً عكسية عندهم، نعم فإن المشاكسين والمستكبرين يصرون على أفعالهم عند سماعهم للحق، ومثلهم كمثل المزابل عند هطول المطر عليها حيث تزداد عفونة وتشتد رائحتها النتنة. «الآية الخامسة» تشير إلى عناد قوم ابراهيم عليه السلام من عبدة الأوثان فى بابل بعدما أثبت لهم ابراهيم عليه السلام بدليل قاطع زيف آلهتهم، فحطّم الأصنام كلها إلّاكبيرهم وطلب منهم أن يسألوا الكبير عمّن فعل بآلهتهم تلك الفعلة الشنيعة؟؟ لقد تنبهوا للأمر فى واقعهم ولاموا أنفسهم واستيقظوا للحظة، ولو قدّر أن تستمر هذهِ اللحظة لتغير موقفهم من الشرك إلى الإيمان، ولكن عنادهم ولجاجتهم وتعصبهم لم يمنحهم الفرصة للتفكير السليم وتقول الآية: «ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ». فقال إبراهيم عليه السلام: «أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللَّهِ ما لايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ افٍّ

لَكَم وَلِما تَعبُدُونَ أَفَلا تَعقِلُونَ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱ إذا تجرّد الإنسان من تعصبه وعناده، ورأی بامِّ عینیه أنّ الذی کان یعوّل علیه دائماً فی المحن والصعاب، أصبح لا قیمة له الیوم وتبیّن زیفه بحیث لا یستطیع معرفة من عمل علی تخریبه وتحطیمه، ألیس من الجدیر بذلک الشخص أن یستیقظ من نومته تلک ویتحرّک بعیداً عن تلک السلوکیات الغارقة فی الزیف ویتجنب هذهِ الخرافات والاعتقادات السخیفة ویطهر فکره منها؟! نعم فإن التعصب واللجاج یضع حجاباً قویاً علی عین وقلب الإنسان فینکر اوضح المسائل. واللطیف فی الأمر أنّ الآیة الاولی ذکرت: «فَرجِعُوا إِلی أَنْفُسِهُم» وهو تعبیر حاکی عن الاستیقاظ والانتباه، ولکن الآیة الثانیة تقول: «ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُوسِهِم» وهو تعبیر عن تراجع من موقع الوضوح فی الرؤیة وبدوافع جاهلیة وغیر منطقیة مترسبة فی دوافع النفس. «الآیة السادسة»، تستعرض عناد بنی اسرائیل الذی یضرب به المثل ففی، هذه الآیة وما قبلها اشارة إلی قصة القتل المُبهم الذی وقع فی قوم بنی اسرائیل، وکاد أن یفضی إلی إقتتال الطوائف فیما بینها. فقال موسی علیه السلام: بأمرٍ من اللَّه سوف نعرّف القاتل، فاذبحوا بقرة ولامسوا بقسم من بدنها ببدن المقتول، فسیقول لکم من هو القاتل. حیّر هذا الاقتراح العجیب بنی اسرائیل، ولکنه فی نفس الوقت بعث الأمل فی نفوسهم، وحان الوقت لتنفیذ أوامر النبی موسی علیه السلام وانهاء المسألة، ولکن بنی اسرائیل وبصورة غریبة أخذوا یستشکلون ویتساءلون من موقع العناد وعدم الرغبة فی الامتثال، فمرّة یسألون عن عمرها ومرّة عن لونها واخری عن نوعها وعملها، فبأسألتهم تلک ضیّقوا فرصة العثور علی مثل هذهِ البقرة لحظة بعد لحظة وبالتالی وبعد عناد کبیر وسعرٍ خیالی وجدوا البقرة بتلک الأوصاف المطلوبة، ولو أنّهم لم یسألوا ولم یستشکلوا وذبحوا أول بقرة وقعت فی أیدیهم، لأنحلت المشکلة، لأنّه لو کان (المأمور به) مشروطاً بشرائط معینة لوجب البیان الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲ فی مقام الحاجة، وکما یقول الاصولیون: «أن تأخیر البیان عن وقت الحاجة قبیحٌ». وفی الحقیقة إنّ هذهِ الأسئلة والتدقیق فی المسألة یدلّ علی عدم إیمانهم بحکمة اللَّه تعالی، والحکیم لابدّ وأن یبیّن کل ما هو لازم وضروری من الشرائط والقیود، ولا یحتاج للسؤال، ویمکن أن یکون قصدهم من ذلک هو عدم وجود تلک البقرة حتی یستمروا بمغامراتهم التی یتحرّکون من خلالها فی دائرة العناد دوماً فی مقابل الإمتثال للحق، فقال القرآن الکریم: «وَإِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَکُونَ مِنَ الجاهِلِینَ». فتبیّن هذهِ الآیات مدی النزاع الذی حصل بین بنی اسرائیل لمعرفة القاتل، وعلی ذلک کان یتوجب علیهم تنفیذ أوامر موسی علیه السلام بسرعة لیجدوا القاتل، ولکن اللّجاج الذی دخل فیه بنو اسرائیل لم یعطهم الفرصة لانهاء الأمر فسألوا وسألوا حتی صعّب علیهم الباری تعالی الأمر فأصبح البحث عن تلک البقرة أمراً مستعصیاً جداً، فهی بقرة، صفراء بالکامل تسرُّ الناظرین، لا فارض ولا بکر عوان بین ذلک، ولا ذلول وتثیر الأرض ولا تسقی الحرث مسلّمةً لاشیَةَ فیها، فمن البدیهی عدم توفّر مثل هذه الأوصاف فی بقرة واحدة إلّابصعوبةٍ، ولکن کان علیهم أن یدفعوا ثمن لجاجهم وعنادهم، فاضطروا لشرائها بثمنٍ باهظ جدّاً، فذبحوها وضربوا بعضها ببدن المیت فعادت الحیاة إلیه باذن اللَّه ودلّهم علی قاتله. «الآیة السابعة» أیضاً تتحدث عن بنی اسرائیل وعنادهم العجیب حیث أخذوا باطراف موسی علیه السلام وطلبوا من نبیّهم المحال وقالوا: «وَإِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً». الظاهر أنّهم کانوا یعلمون أنّ اللَّه تعالی لیس بجسم ولا جهة له ولا مکان، ولکن کلامهم کان بسبب طغیانهم وعتوّهم، ومن أجل أن یبیّن اللَّه تعالی جیداً مسألة استحالة رؤیته، ولتأدیب اولئک القوم المعاندین أمر بسبعین من رؤوسائهم أن یخرجوا مع موسی علیه السلام للمیعاد فی جبل الطور، لیتلقوا الجواب علی سؤالهم العجیب هناک وینقلوا ما سیشاهدوه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳ لقومهم، وعند وصولهم لجبل الطور، سأل موسی علیه السلام بالنّیابة عنهم أن یتجلّی اللَّه تعالی لهم جهرةً، فقال: «رَبِّ أَرِنِی أَنظُرْ إِلَیکَ قَالَ لَنْ تَرَانِی وَلَکِنْ انظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَکَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِی»، فأخرج هذه الفکرة من رأسک الی الأبد. فصعقت صعقة شدیدة ملأت الکون، وزلزل الجبل وتلاشی، ومات ال ۷۰ نفر إلّا موسی علیه السلام فقد فَقَدَ الوعی کما ذکر القرآن فی ذیل الآیة: «فَأَخَذَتْکُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ». وعندما استیقظ موسی علیه السلام، طلب من الباری تعالی إعادة الحیاة إلیهم، لئلا تعود المشاکل بینه وبین بنی اسرائیل: «قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِیَّایَ أَتُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» واستجاب اللَّه دعاءه وأعادهم للحیاة کما صرّح بها القرآن الکریم فیما بعدها من الآیات «ثُمَّ

بَعَثناكُم مِنْ بَعدِ مَوتِكَم لَعَلَّكَم تَشكُرُونَ». ويتبيّن ممّا ذكر آنفاً أنّ موسى عليه السلام لم يطلب هذا الأمر من تلقاء نفسه، ولكن نزولًا عند رغبة بنى اسرائيل، حتى يُلَقّنوا درساً عملياً ويفهموا ان الذى لا يستطيع أن يشاهد الصاعقة كيف يمكن له أن يرى البارى تعالى شأنه؟ وهو أيضاً عقاباً وتأديباً لهم حتى لا يطلبوا اموراً مستحيلةً. «الآية الثامنة» من الآيات التى وردت فى مقام الحديث عن عناد بنى اسرائيل بعدما نصرهم اللَّه على عدوّهم وخلّصهم من شر فرعون وجنوده حيث توجهوا نحو الديار المقدسة يعنى بيت المقدس، التى كانوا يتمنون الوصول إليها، وعندما وصلوا على مقربة من الأرض المقدّسة جاءهم الأمر أن ادخلوا هذهِ الأرض ولا تخافوا ممّا سيحدث فيها، ولكنّهم قالوا لموسى عليه السلام: إنّ فيها اناس يسمّون (بالعمالقة) أشداء أقوياء ولن ندخلها حتى يخرجوا منها. فقال لهم بعض المؤمنين من موقع النصيحة والمسؤولية بأنّكم إذا دخلتم الباب عليهم فسينصركم اللَّه على العمالقة بفضله وعنايته. ولكن بنى اسرائيل ظلّوا على غيّهم وكما جاء فى الآية الكريمة «قالُوا يا مُوسى إِنا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴ لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ». وهنا أيضاً ذاق بنو اسرائيل طعم عنادهم ولجاجتهم، فأخذ اللَّه تعالى النصر عنهم ودخول بيت المقدس أربعين سنةً، وتاهوا فى الصحارى القريبة منها، فسمّوا تلك الصحارى بأرض «التيه» التى كانت قسماً من صحارى (سيناء). والمسألة المهمّة والتى يجب الإشارة اليها هو أن اللّجاج وعدم الانصياع يفضى إلى التعامل مع البارى تعالى من موقع الاهانة والاستهزاء، حيث قالوا: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ»، فالإهانة والاستهزاء فى هذا الكلام يتجليان بكل وضوح، ولكن الجاهل والأنانى واللجوج لا يعرف منطق أفضل من هذا. والواقع أنّ التيه أربعين سنة فى تلك الصحارى، كان حكمة ورحمة إلهية، وبهدف تغيير النسل الذى نشأ فى مصر، والذى لم يستطع عمل موسى عليه السلام الثّقافى والفكرى الدؤوب أن يغيّر فيه الكثير، فجاء نسل جديد نشأ فى الصحراء وفى وسط المشكلات فحصلت فيه التغييرات الداخلية اللازمة لتحرير الديار المقدسة من الاعداء وإقامة الحكومة الإلهية، وفى الحقيقة أن هذهِ العقوبة كانت فى الواقع رحمة ربانية ولطف إلهى، وأكثر العقوبات الإلهية هى من هذا القبيل. فى «الآية التاسعة» من الآيات نقرأ حديثاً عن قوم فرعون الذين آتاهم اللَّه تعالى «بتسع آيات» «۱» إلهية على مستوى الاعجاز، ولم يكونوا بأقل عنادٍ واصرار على الانحراف من بنى اسرائيل حتى أنّهم قالوا لموسى «وَقالوا يا أَيُّهَا الساحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ* فَلَما كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ». تعبيرات الآية واضحة جدّاً، فكلها تبيّن وتعكس العناد الذى كانوا عليه، فأولها نعتوا موسى عليه السلام بالساحر ومع ذلك يلجأون إليه لكى يخلصهم من البلاء، وتعبير «ربّك» علامة اخرى على العناد. وتأكيدهم على الإيمان بموسى عليه السلام على فرض انقاذهم من البلاء واضح الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵ من كلمة (إننا لمهتدون) وتعبير (ينكثون) التى وردت بصورة الفعل المضارع تبيّن أنّهم أبرموا العهود ونقضوها مرّات عديدة، وهو دليل على عنادهم أيضاً. وبالتالى فانّهم ذاقوا عقاب عنادهم ولجاجتهم، حيث اغرقهم البارى تعالى بجميع عدّتهم وعددهم ورؤسائهم فى اليمّ «۱». «الآية العاشرة» والأخيرة من هذه الآيات، ناظرة لعناد المشركين العرب حيث كانوا يصرّون على عنادهم ويتهربون من قبول دعوة الرسول صلى الله عليه و آله والتى كانت مدعمة بالآيات والمعجزات، ولو كان عندهم ذرّة من روح الحب للحقيقة، لقبلوا احدى تلك المعجزات الكبيرة التى اتى بها الرسول الاعظم صلى الله عليه و آله ومن جملتها القرآن الكريم المعجزة الخالدة للرسول الكريم صلى الله عليه و آله، ولكنهم كانوا فى كل يوم يطلبون معجزةً جديدة، ومع ذلك لا يؤمنون بها أيضاً، إلى أن وصلوا إلى أقصى درجات اللجاجة والعناد، «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِى السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ». هذا الكلام هو دليل واضح على التعامل مع الموقف من موقع العناد، وفيه أيضاً نقطة مهمّة، ألا وهى أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: إنى افعل ما اشاء ومتسلط على جميع الكون، لكنّ الحقيقة أنّ المعجزات دائماً تتحقق بأمرٍ إلهى وكيفما يشاء البارى تعالى، لذا نقرأ فى آخر الآيات: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا». ويذكر فى شأن النزول أنّ قوماً من مشركى مكّة وعلى رأسهم (الوليد بن المغيرة وابو جهل) اجتمعوا عند الكعبة الشريفة وأخذوا يتحدثون عن النبى وكيفية مواجهته، وبالتالى قرّروا أن يذهب أحدهم إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ويقترح عليه أن يتوجّه إليهم يكلمهم ويكلمونه حول الدين الجديد، فأسرع إليهم

الرسول على أمل قبولهم للحق، لكنّه سمع الكلام الآنف الذكر، بالإضافة إلى مجابهتهم له بامور واهية ومهينةً اخرى ومن المؤكد أنّهم لو كانوا يطلبون الحق ويريدونه، لتوجب على الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶ النزول عند رغبتهم، أو على الأقل تنفيذ إحدى المعجزات، ولكنهم طالما شاهدوا المعجزات من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لم يذعنوا للحق، اضافة إلى أنّهم بطلبهم هذا اعترفوا إنّهم لن يؤمنوا لرقيّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فی السماء أمام أعينهم حتى ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرؤوه، ولو نزل الرسول صلى الله عليه و آله عند رغبتهم وآتاهم بالمعجزة هذه لما آمنوا، لأنّ سابقة عنادهم ومواقفهم السلبية من الدعوة هی أفضل دليل، فعندما كانوا يشاهدون المعاجز الباهرة، يقولون هذا من السحر وإنّ الرجل لساحر، وهكذا يجهضون أی أثر للمعجزات فی وعيهم بتعاملهم معها بلغة الاتهام الذی ينطلق من موقع العناد. فتبيّن من مجموع الآيات الآنفة الذكر أنّ مسألة اللّجاج والعناد على مرّ العصور وتاريخ البشر كانت ولا تزال من أهم الموانع فی طريق الحق، حيث كان وجود هذه الحالة النفسية السلبية يمثل مشكلة عويصة تمتد فی أعماق نفوس المشركين فی الأقوام السابقة، وعليه فلو تحرك الإنسان فی عملية الوصول إلى الحق والحقيقة فعليه أن يزيل هذه الصفة الذميمة من محتواه الداخلی ويتخلص منها.

اللجاج والمماراة فی الروايات الإسلامية:

أشرنا فيما تقدم إلى الأبحاث المتعلقة بالتعصب واللجاج، وأوضحنا ما يترتب على هذه الحالة الأخلاقية من خلال الآيات الكريمة، من العواقب الوخيمة الناشئة من التعصب والتقليد الأعمى أمّا فی هذا البحث فسنتكلم عن المماراة واللجاج فی دائرة الجدل، أو بتعبير آخر التمسك بمسألة خاطئة لا للتعصب القومی الاعمى، ولكن بسبب تجذّر العناد الطفولی فی النفس والذی قد نشاهده فی بعض الأفراد، فلا يسلّمون للحق بل يريدون التهرب منه. وكما رأينا فی الآيات السابقة فان هذهِ الرذيلة الأخلاقية أحرقت فرص السعادة والحياة الكريمة لكثير من الأقوام. فوقعوا فی مستنقع البؤس والرذيلة، ونرى فی الأحاديث الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۷ الإسلامية ابحاث موسّعة حول هذا الموضوع: ۱- فی حديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله: «الخَيرُ عادَةٌ وَالشَّرُّ لَجاجةٌ» «۱». ۲- فی حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِيَّاكَ وَمَذمُومَ اللَّجاجِ فإنّهُ يُثيرُ الحُرُوبَ» «۲». فتعبير اللجاج المذموم يعنی أنّ الإنسان ربّما يصرّ على امور الخير وبصورةٍ منطقية فهو بلا شك أمر محمود ورمز للموفقيّة. ولكن الاصرار على اللجاج المذموم، هو سبب لاستفزاز الآخرين، والمداومة عليه يؤدی إلى التعامل مع الآخرين من موقع العقدة والخصومة وإثارة الحروب وسفك الدماء. ۳- فی حديث آخر عن الإمام على عليه السلام: «جِماعُ الشَّرِّ اللَّجاجُ وَكَثرَةُ المُماراةِ» «۳». وفی الواقع أنّ كثيراً من المشكلات والمصائب الاجتماعية لا مصدر لها إلّاهذه الامور، فيقوم البعض بمناقشة الامور بدافع البحث والجدال والمماراة، ويقوم البعض الآخر ونتيجةً للجهل بالردّ عليهم من هذا المنطلق نفسه، فينشأ النزاع والصداع دون أن يكون لهم هدف معين على مستوى الكشف عن الحقيقة وتحصيل الواقع، ولو أنّهم سلكوا طريق العقل والتدبر، لاستطاعوا القضاء على كثير من المفاسد الاجتماعية من خلال الحوار المشترك الذی ينطلق من دوافع إنسانية فی واقع الإنسان والحياة. ۴- وفی حديث آخر عن نفس الإمام الهمام عليه السلام: «خَيرُ الأخلاقِ أَبعَدُها عَنِ اللَّجاجِ» «۴». يستفاد من هذا التعبير أنّ روح اللجاج والمماراة لها علاقة وثيقة بجميع الصفات الرذيلة، فإمّا أن يتأثر بها أو يؤثر بواسطتها. ۵- ونقل عنه عليه السلام أيضاً: «لا مَرْكَبَ أجمَحَ مِنَ اللَّجاجِ» «۵». ويستفاد من هذا الحديث، أنّ اللجاج يؤدی بصاحبه إلى منزلقات سحيقةٍ فی حركة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸ الواقع الأخلاقی للإنسان، فمرة يجرّه الى الكذب، واخرى إلى التكبر، وثالثة إلى الخداع والحيلة، ورابعة إلى الحرب والجدال كما جاء فی الروايات السابقة. ۶- جاء فی حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ موسى بن عمران عليه السلام عندما أراد أن يترك استاذه الخضر عليه السلام، طلب منه النصيحة والموعظة، فقال له: «إِيَّاكَ وَاللَّجاجَةَ أوْ تَمشِی فِی غَيرِ حاجَةٍ أو تَضْحكَ مِنْ غَيرِ عَجبٍ وَاذكُرْ خَطِيئَتَكَ وَإِيَّاكَ وَخَطايا الناسِ» «۱». فی هذا الحديث وضع اللجاج موضع من يمشی بلا هدف والتدخل بما لا يعنی الإنسان، وهو دليل على أنّ اللجوج لا يتبع العقل والمنطق بتاتاً. ۷- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن

أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَن لَجَّ وَتَمادى فَهُوَ رَاكِسٌ الَّذِى رانَ اللَّهُ عَلَى قَلبِهِ وَصارَتْ دَائِرَةُ السُّوءَ عَلَى رَأسِهِ» «۲». وعلى أيّة حال فان الأحاديث فى ذم هذه الرذيلة كثيرة جدّاً. والأحاديث التى أوردناها هى غيض من فيض، وهى تبيّن أنّ هذهِ الرذيلة لا تسلك بصاحبها سوى سبيل البؤس والدمار وتبعده من الحق وتقربه من الباطل، وتكون عاقبته أليمة وموحشة.

دوافع وعواقب اللجاج والمماراة:

من المعلوم أنّ هذه الصفة الأخلاقية هى من أخلاق الصبيّان، ولكنها قبل كل شىء تنشأ من الجهل وقصر النظر، فذوا العقول يتحرّكون فى حركة الواقع من خلال التدبّر والتفكر الذى ينطلق من موقع المنطق والدليل، فإذا ما ثبت لهم بالبرهان المنطقى، أنّ أمراً ما لا يتوافق مع الحقيقة فسرعان ما يتركونه ويقلعون عنه رغم اعتقادهم به لسنوات متمادية. ولكن الأفراد الجهّال والقصيرى النظر لا يقلعون عن شىء يعتقدون به ويمثل لديهم مفردة على مستوى المعتقد والدين، ولا يفيد معهم الدليل ولا المنطق. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹ ومن الأسباب الاخرى لتكريس حالة اللجاج والعناد هو مواجهة الشخص الذى ارتكب مخالفة معينة باللّوم المفرط والتقريع الزائد عن الحدّ وأمام الملأ العام، فانّ ذلك من شأنه أن يدفعه نحو الاصرار والعناد لإثبات أنّه ليس على خطأ ويتحرّك فى مواجهة الآخرين من خلال التمسك برأيه، وبالتدريج يعتقد أنّه على صواب ويبقى على ما هو عليه، والعكس صحيح فإذا ما عومل بلطف ولين ومحبّةٍ فسيرتدع ويعود إلى رشده. ولذلك نقرأ فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الإفراطُ فِى المَلامَةِ يَشُبُ نِيرانُ اللَّجاجَةِ» «۱». العامل الثالث لظهور هذه الصفة: هو احساس الإنسان بالحقارة والدونية، فعقدة الحقارة تمنع الأفراد من الاستماع والإنصياع للآخرين توكيداً لشخصيتهم، فلا يقبلون الكلام المنطقى ويصرّون على سلوكهم وعملهم الباطل. أما الأفراد الذين لا يعيشون هذه العقدة ويمتازون بشخصية قوية، فلا حاجة لهم إلى هذا السلوك الباطل وسرعان ما يسلّمون للبرهان والمنطق السليم ولا يجدون فى أنفسهم حاجة للاصرار على أفعالهم الخاطئة. ضعف الإرادة واهتزاز الشخصية يمكن اعتباره عامل رابع للّجاج، ومن البديهى أنّ إقلاع الشخص من عادة تعودها لمدّة طويلة ليس بالأمر السهل، والإعتراف بالخطأ ليس بالأمر الهيّن أيضاً، ويحتاج إلى قوة الإرادة والشجاعة، والأشخاص الذين يعيشون الحرمان من تلك الفضيلتين سيجدون فى أنفسهم دوافع لا شعورية لسلوك طريق العناد واللجاج. «حبّ الراحة» يمكن أن يكون العامل الخامس، لأن ترك المسير الذى سار عليه الإنسان ولمدّة طويلة ليس بالأمر السهل، وخصوصاً لدى الشخص المنعّم والمحبّ للراحة. ومن اليقين أنّ التحرك على خلاف حالة الاسترخاء الفكرى والكسل النفسى لا يلائم مذاقهم. فهذه من العوامل التى يمكن الإشارة إليها فى دائرة اللجاج والمماراة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰ وأمّا آثارها السلبيّة فليست خافيةً على أحد، فهى تورط الإنسان فى مشاكل بعيدة عنه كل البعد، كما تورط بنو اسرائيل بالبقرة من خلال البحث عن التفاصيل الدقيقة فى دائرة الطاعة وامتثال الأمر، وما ترتب من صعوبة البحث عنها وثمنها الباهض، فقد جاء فى الحديث أنّهم جمعوا أموالهم كلها لشرائها، وبعدها جاؤوا لموسى عليه السلام يبكون ويشتكون بأننا قد أفلسنا وافتقرت قبيلتنا وأصبحنا نستعطى من الناس بسبب العناد، فَرَقَّ لهم النبى موسى عليه السلام وعلّمهم دعاءً يعينهم على مشاكلهم «۱». ومن افرازات هذه الرذيلة ومردوداتها السلبية على النفس هو الحرمان من فهم الحقائق التى تتولى تهيئة الأرضية لتكامل الإنسان، لأنّ اللجاج لا يعطى الفرصة للإنسان لإصلاح الخطأ والإذعان للحقائق، وعلى أثرها لا يستطيع التقدم والرقى فى درجات الكمال. والأثر الثالث لهذا الخلق الردىء، هو العزلة الاجتماعية وابتعاد الناس عن الشخص الذى يعيش حالة العناد، فالناس عموماً لا يحبّون اللجوج وينفرون منه، وليس لديهم استعداد للتعاون معه والدخول معه فى أجواء حقيقية من التكافل الاجتماعى، لأنّ التعاون الاجتماعى يحتاج للمرونة والسماحة وغض النظر، وهى أمور لا تتوفر فى اللجوج. وفوق هذا وذاك فمثل هؤلاء الأشخاص المغرورين ينعتون بالجهل وخفّة العقل فى المجتمع، ونفس سوء السمعة هذهِ يكون سبباً فى عزلتهم وانزوائهم، كما هو معروف فى حديث دعائم الكفر عن الإمام على عليه السلام حيث قال: «وَمَنْ نازَعَ فِى الرَّأى وَخاصَمَ شَهُرَ بِالمَثلِ (بالفشل) مِنْ طُولَ اللِّجاجِ» «۲». وخلاصة القول أنّ اللجاج والمماراة يبعد الإنسان عن اللّه والناس، بل حتى عن

نفسه، ولن تصبح للإنسان مكانةً بين الناس إلّابترك هذا الخلق السيّء.

الفرق بين الإستقامة واللجاج:

إذا ما اختار الإنسان طريق الخير ومسير الحق وثبت عليه، فيكون قد عَمِل بأفضل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱ الامور وهى بعينها فضيلة الصبر والاستقامة والتى تحدثنا عنها سابقاً، وإذا ما اختار الإنسان طريق الباطل وسبيل الانحراف مع عدم المرونة للتغيير بحيث إنّه يعتبر الجميع على خطأ وهو وحده الصحيح، ولا يتحرّك فى سبيل تصحيح الخطأ وجبران الزيغ، فيكون قد اختار طريق اللّجاج، وهو من أسوأ الأخلاق.

طريقة العلاج:

بصورة عامّة وكما هو معلوم فإنّ طريق العلاج للإمراض الأخلاقية يتمثل فى أمرين: «الأول»: الطريق العلمى وذلك من خلال تحليل عواقب تلك الرذيلة الأخلاقية، ومن هذا الطرق يمكن للشخص أن يعرف آثارها السلبية، ويعلم أنّها ستبعده من اللّه تعالى والناس وتقف عقبة فى طريق تكامله وتمنعه من إدراك الحقائق وتعزله عن الناس، وتضع الحجب على القلب، وحينئذٍ يتحرّك هذا الإنسان من موقع الابتعاد عن هذه الرذيلة ويقلع جذورها من نفسه. اللجاج والمماراة لا ينسجم مع الإيمان كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «سِتَّةٌ لاتَكُونُ فِي المُؤمِنِ قِيلَ وَما هِي؟ قَالَ العُسرُ وَالنَّكدُ وَاللّجاجَةُ وَالكِذبُ وَالحَسَدُ وَالبَغي» «۱». و «الطريق الآخر» لمحاربة تلك الرذيلة هو الحلّ العملى والتصدى لها فى ميدان الممارسة والعمل، فعندما يرى نفسه قد توفّرت على عناصر ومقدمات ظهور الرذيلة فى دائرة الحوار والنقاش، فعليه أن يُسلّم فوراً للحق ويشكر المتحدث، وإذا ما عاند وشاكس فليعتذر، ولا يعيد الكلام من لجاجةٍأبداً، وإذا ما تكلم سهواً فليسكت ويستعذ باللّه من الشيطان الرجيم، وبتكرار هذا البرنامج العملى ستنكسر حدة اللجاج فى نفسه وتندثر. ثم عليه أن يبتعد عن الأفراد اللّجوجين، ولا يترك الجدال والبحث أو المِراء، وليقرأ عن العظماء كيف كانوا يقبلون الحق ولو من الصغير أو العبيد أو تلامذتهم، ويجلّوهم ويحترمونهم لأنّهم قالوا الحق. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۲ وبما أنّ من آثارها المباشرة هو الرياء والجهل فكلّما استطاع الإنسان أن يكسِر شوكة هاتين الصفتين فى نفسه فستقل لجاجته، وليتذكر حالات الأقوام السابقة وكفرهم ومقابلتهم للأنبياء واختيارهم الكفر على الإيمان واستحقاقهم العذاب الإلهى لا لشيء إلّا لأنّهم لجّوا فى باطلهم وأصروا على زيفهم، ولئلا يصاب بما أصاب اولئك القوم من قبل، وكيف أن بنى اسرائيل باعوا كل ما لديهم ليشتروا تلك البقرة بحيث أفضى بهم إلى الاستجداء وذهبوا لموسى عليه السلام ليساعدهم فى التخلص من هذه الورطة، فعلمهم دعاء يعينهم على دنياهم «۱»، وكل ذلك كان بسبب لجّتهم وعنادهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۳

الشكر وكفران النعمة

تنويه:

«شكر النعمة» يمكن أن يكون باللسان أو بالعمل، وعليه فإنّ «الكفران» هو عدم الاعتناء بالنعم وتحقيرها وتضييعها، وهو أيضاً من الرذائل الأخلاقية ذات العواقب الوخيمة، سواء كانت على الصعيد الفردى أو الاجتماعى، والواقع أنّ الشكر يقرّب القلوب ويحكّم المحبّة فى المجتمع، والكفران يقطع أواصر المحبّة والوئام ويجعل من المجتمع جهنّماً لا يطاق يعيش فيه الانسان حالات من العداوة والبغض والحقد! كفران النعمة مانع كبير أمام تكامل الروح الإنسانية وتهذيبها والسير إلى اللّه تعالى، حيث يتسبب فى ذبول عناصر الخير فى الضمير ويطفيء النور الباطنى الممتد فى أعماق الوجدان ويلّوث الروح. و «شكر النعمة» هو قضية فطرية، اودعت فى الإنسان

لتفتح له آفاق التوحيد ومعرفة اللّه تعالى، ولهذا نجد أنّ كثيراً من علماء العقائد يفتتحون بحوثهم بمسألة «ضرورة معرفة المنعم»، وسيأتى شرحها فى المستقبل إن شاء اللّه تعالى. بهذه الإشارة نعود للقرآن الكريم لنستعرض فيه الآيات التى تذم حالة الكفران، وتمدح حالة الشكر للنعمة: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۴ ۱- «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ» «۱». ۲- «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ» «۲». ۳- «وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» «۳». ۴- «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ» «۴». ۵- «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً» «۵». ۶- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» «۶». ۷- «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» «۷». ۸- «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ» «۸».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» تستعرض كلام النبى موسى عليه السلام مع بنى اسرائيل، حيث يذكرهم بأمر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۵ إلهى مهم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ»، فذكّرهم النبى عليه السلام بقضية الشكر ومعطياته والكفران وآثاره السلبية وذلكبعدما انتصروا على فرعون ونالوا الاستقلال وذاقوا طعم الحرية والعظمة وظهرت منهم بوادر كفران النعمة. جملة «لأزيدنّكم» فيها أنواع من التأكيدات، فهى وعد إلهى قطعى للشاكرين، بأنّه سيزيدهم من فضله، واللطيف فى الأمر أنّ اللّه تعالى لم يخاطب كفّار النعمة بالقول: «لأعذّبنكم» بل قال: «إنّ عذابى لشديد» وهو نهاية اللطف والرحمة فى دائرة التعامل المولوى تجاه المخلوقين، وفى نفس الوقت تهديد شديد ووعيد مخيف لكفّار النعم بأنّ عليهم أخذ العبرة من قصة بنى اسرائيل عندما كفروا أنعُم اللّه «فتاهوا» فى الصحراء أربعين سنة. فى «الآية الثانية» يدور الحديث عن النبى سليمان عليه السلام وقومه، عندما اقترح عليهم أن يأتوه بعرش ملكة «سبأ»، فقال له أحد حواريه وكان عنده علم من الكتاب: «أنا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن يَرتدَّ إلَيكَ طَرفُكَ»، فشعر سليمان عليه السلام بالفرح يغمر نفسه لوجود مثل هذه الشخصيات فى بلاطه ولديهم الروحيات والمعنويات القوية، فقرر أن يشكر الخالق تعالى، فقال: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ». والجدير بالذكر أنّ ثواب الشاكر ذكر فى هذه الآية بوضوح، ولكن عقاب من يكفر بالنعمة ذكر بصورة غير مباشرة «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ» حيث ركزت الآية على كرم اللّه تعالى، وهو نهاية رحمة اللّه ولطفه فى دائرة التخاطب مع الإنسان. ويمكن استفادة نقطة مهمّة اخرى من الجملة الانفة الذكر، وهى أنّ اللّه تبارك وتعالى يحذّر عباده من الكفر ويدعوهم للشكر لا لحاجة منه إليهم، وحتى على فرض كفران النعمة فإنّه يفيض من كرمه ولطفه على الناس لعلّهم يرجعون عن غيّهم ولا يحرمون أنفسهم من أنعُم اللّه تعالى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۶ وأساساً فإنّ الكتب الإلهية تعود بالنفع على العباد أنفسهم، فهى بمثابة دروس لهم، لتربية أنفسهم، فالبارى تعالى غنىٌّ بذاته ولا يحتاج إلى أحد، لا لطاعة العباد ولا عصيانهم ولا يضرونه بالعصيان شيئاً. «الآية الثالثة» تحمل مضمون الآية السابقة حيث تستعرض لنا قصة «لقمان الحكيم»: «وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ». الحكمة التى أتاها اللّه تعالى للقمان تشمل معرفة أسرار الكون والعلم بطرق الهداية والصلاح، والطريقة المثلى للحياة الفردية والاجتماعية، التى جاءت بصورة نصائح لقمان لابنه فى سورة لقمان، وهى موهبة إلهية ونعمة روحية أكّد اللّه تعالى على أهميّتها، كما ذكر فى الآية التى قبلها على أحدى النعم المعنوية، حتى لا يغرق الناس فى منزلقات النعم المادية ويتصورون أنّ النعم والمواهب الإلهية تنحصر فى الماديّات فقط. ويجدر هنا الإشارة إلى نقطتين:

«الأولى» إنّ الشکر أتى بصورة الفعل المضارع، والکفران بصیغة الماضی، وهی إشارة إلى أنّ مسیر التکامل والرقیّ والقرب إلى اللّه تعالى یحتاج إلى المداومة على الشکر فی حین أنّ لحظة من کفران بإمکانها أن تفضی إلى نتائج وخیمة وعواقب مؤلمة. و «الثانی» إنّ الآیة رکّزت على صفتی (الغنی الحمید)، بینما کان الترکیز فی آیة النبی سلیمان علیه السلام على صفتی (الغنی والکریم) وهذا الفرق یمکن أن یکون إشارة إلى أنّ اللّه تعالى غنیٌّ عن شکر المخلوقین، فالملائکة تسبح بحمده وتقدسه على الدوام، وإن کان غنیّاً عنهم أیضاً، ولکن العباد بشکرهم یستوجبون المزید من النعم علیهم. «الآیة الرابعة» انطلقت للحدیث عن الأشخاص الذین یعیشون ضیق الافق وعدم الإیمان والتقوى، فهم یعیشون الکفران للنعمة بکل وجودهم: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۷ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». نحن نعلم أنّ القرآن الکریم عندما یتحدث عن الإنسان فی واقعه السیء ویصفه بصفات ذمیمة بصورة مطلقة، إنّما یقصد الإنسان المنفصل عن اللّه فی حرکة الحیاة ومن یعیش عدم الإیمان أو ضعف الإیمان، ولهذا ورد فی الآیة التی جاءت بعد الآیات مورد بحثنا: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اولئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ». بهذا الاستثناء یتبیّن أنّ الأفراد الذین یعیشون حالة الیأس من رحمة اللّه والغافلین والکفورین، أفراد لم یصلوا فی واقعهم النفسی لمرحلة الإیمان بعد. وعلى العموم یمکن أن نستنتج من الآیات الآنفة الذکر، أنّ الکفران وعدم الشکر تؤدی بالإنسان إلى التلّوث بصفات سیئة اخرى تحرمه المغفرة والأجر الکبیر. تعبیر «لئن أذقنا» تعبیر لطیف فی الموردین فیقول: إنّ ضعاف النفوس والإیمان إذا سلبت منهم نعمة من النعم، فسرعان ما یجری على ألسنتهم الکفر ویدب الیأس فی قلوبهم، وإن جاءتهم نعمة إذا بهم یغترّون ویتحرکون فی أجواء الغفلة والطغیان، والدنیا هی کلها شیء صغیر وحقیر، وما یصل إلى الإنسان منها أصغر وأحقر، ومع ذلک فإنّهم یتأثرون بسرعة لضعف نفوسهم وضیق آفاق إیمانهم. ولکن الإیمان باللّه تعالى ومعرفة ذاته المقدسة اللّامتناهیة فی القدرة والعلم، تمنح الإنسان عناصر القوة والحرکة وتعینه على مواجهة أکبر الحوادث السیئة والحسنة دون أن تؤثر فی نفسه شیئاً. وتنطلق «الآیة الخامسة» لتشیر إلى الأفراد الذین یتوجهون إلى اللّه تعالى عند وقوع المصیبة ویدعونه ویتوسلون بلطفه بکل وجودهم، وبمجرّد انقشاع سحائب الأزمة ینسون کل شیء ویکفرون مرّة اخرى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً» الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۸ وطالما جرّبنا هذا الأمر فی حیاتنا الشخصیة وشاهدنا ضعیفی الإیمان عندما یمحصون بالبلاء، کالمرض والفقر والمصائب الاخرى، یتوجهون باخلاص للباری تعالى وبمجرّد انکشاف تلک المصائب وعودة المیاه إلى مجاریها تراهم یتغیّرون ویسلکون طریق الکفر والحال أنّ الإنسان فی هذه الأحوال أیضاً یجب علیه التوجه والإلتجاء إلى الذات المقدسة أکثر من ذی قبل. وفی تکملة الآیة الکریمة یعبّر القرآن الکریم بتعبیر جمیل جدّاً حیث یقول: «أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً». فهنا إشارة إلى أنّه کیف یمکن أن تکفروا وتتغیّروا فأینما تذهبوا فأنتم تحت سلطته، وبإمکانه أن یعذبکم فی أی مکان کنتم فیه سواء فی البرّ أو فی البحر؟ ویجب التوجه إلى أنّ کلمتی «الخسف» و «الغرق» فی هذه الآیة لهما مفهوم مترادف فالأولى یراد بها الاختفاء فی الأرض، والثانیة الاختفاء فی البحر. «الآیة السادسة» من الآیات تتوجه بالخطاب إلى الرسول الأکرم صلى الله علیه و آله وتشرح عاقبة کفران النعم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» وبعدها یضیف: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ». هذه التعبیرات تبیّن أنّ کفران النعم الإلهیة، یمکن أن یؤدی بقوم أو بمجتمع بأکمله إلى قعر جهنّم ولا یستبعد نزول العذاب الدنیوی فیها حیث تبدل دنیاهم إلى جحیم لا یطاق. وقد اختلف المفسّرون فی المقصود من النعمة فی هذه الآیة، فبعض قال: إنّها برکة وجود الرسول الأعظم صلى الله علیه و آله فالعرب المشرکون قد کفروا بالنعمة بانکارهم لدعوته ورفضهم الاذعان لرسالته فاحلّوا قومهم دار البوار، وفسّرها البعض الآخر بأهل البیت علیهم السلام حیث کفر بهم البعض أمثال بنی امیة، ولکن على الظاهر أنّ مفهوم الآیة أوسع من هذه الدوائر والاطر الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۹ فی مصادیق الآیة ویشمل جمیع النعم الإلهیة، وما ذکر آنفاً یعدّ من مصادیقها الواضحة، على الرغم من تصریح الآیات التی وردت بعدها بالأشخاص الذین ترکوا الإسلام والتوحید واختاروا الشرک

وعبادة الأصنام، ولكن هذه النماذج تعتبر أيضاً من مصاديقها البارزة. وقال البعض الآخر: مثل الفخر الرازى والمرحوم الطبرسى فى مجمع البيان، إنّ سبب النزول لهذه الآية ناظر لأهل مكّة الذين أعطاهم اللَّه تعالى أنواع النِعم وأهمها بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من بين ظهرانيهم، ولكنهم لم يقدّروا تلك النعمة وكفروا بها، فأصبحت عاقبتهم أليمة، فكفرهم بنعمة الرسول صلى الله عليه و آله هو نفس كفرهم باللَّه والرسالة! ولكننا نعلم أنّ شأن النزول لا يخصص مفهوم الآية بمورد خاص. وتأتى «الآية السابعة» لتتحدث عن جماعة أنعم اللَّه تعالى عليهم بنعمة ظاهرة وباطنة، نعمة الأمان والرزق الكثير والنعم المعنوية والروحية التى نزلت عليهم بواسطة نبيّهم ولكنّهم كفروا تلك النعم فعاقبهم اللَّه تعالى بعقاب الجوع والخوف: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» اختلف المفسّرون بأن هذه الآية هل تشير إلى مكان بالخصوص أم إنّها مثال عام كلى، فبعض يعتقد أنّها أرض مكّة، وتعبير «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...»، يقوى ذلك الاحتمال، لأنّه ينطبق بالكامل على أحوال وشرائط مكّة، إذ هى أرض جافة وصحراء قاحلة غير ذات زرع وماء ولكن اللَّه سبحانه قد باركها وأنزل عليها النعم من كل مكان. وتعبير «كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً» هو قرينة اخرى على أنّها مكّة، فأرض الحجاز غالباً ما كانت أرضاً غير آمنة إلّامكّة وذلك ببركة وجود الكعبة الشريفة. وعندما وصلت النعم المادية على أهل مكّة إلى الذروة أتمها اللَّه تعالى ببعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنّهم كفروا النعم الماديّة والمعنوية، فابتلاهم اللَّه تعالى بالقحط والخوف، وهذا هو مصير من كفر بأنعم اللَّه تعالى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۰ ومع ذلك فإنّ مفهوم الآية يمكن أن يكون أعم فيستوعب فى مضمونه جميع من يكفر بالنعمة وأرض مكّة هى أحد مصاديق هذه الآية، حيث ورد فى الروايات أن القحط والجوع أخذ منهم مأخذاً كبيراً بحيث كانوا يتغذّون على أجساد الموتى لسدّ جوعهم، وكذلك فى الغزوات الإسلامية، حيث أضرّت بهم كثيراً. «الآية الثامنة» من الآيات، تتطرق إلى قوم من أكفر الناس، وهم (قوم سبأ) حيث حباهم اللَّه تعالى: بأفضل النعم وأحسنها، ولكن غرورهم وغفلتهم واتباعهم لأهوائهم، أعماهم وأضلّهم، فكفروا، فأخذهم اللَّه بذنوبهم ومحق تلك النعم من أيديهم، فقال: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ». وقد ذكر المفسّرون أنّه على الرغم من أنّ أرض اليمن خصبة ولكن لفقدان الأنهار فيها، كانت أغلب أراضيها بائرة لا يستفاد منها، ففكر القوم ببناء سدّ يمنع السيول القادمة من الجبال، فبنوا عدّة سدود وأهمها (سد مأرب) حيث كان يقف أمام السيول بين جبلى بلق العظيمين، فتجتمع خلفه مياه كثيرة استطاعوا بواسطتها أن يزرعوا ويسقوا به جنائن وبساتين كثيرة قامت على طرفى السدّ، ونشأت حولها القرى وأصبحت مركزاً عظيماً للنشاط التجارى وتجمع الناس، فالقرى كانت متصلة ببعضها بحيث أن ظلال الأشجار كانت متصلة على طول الطريق ووفور تلك النعم كان مقترناً مع الأمان الاجتماعى والرفاه الاقتصادى، فكانت حياتهم هانئة جدّاً، اجتمعت فيها كل متطلبات الحياة آنذاك ومثل هذه الأجواء كان من شأنها أن تفضى لإطاعة اللَّه تعالى والتكامل الروحى. ويستمر القرآن الكريم، فيقول إنّ النعم أصبحت كثيرة جدّاً ممّا حدى بهم لأنّ تتحرك فيهم عناصر الطغيان فنسوا ذكر اللَّه تعالى وأخذوا يتفاخرون ويقسّمون الناس إلى طبقات، ولكنهم بالتالى ذاقوا وبال أعمالهم فأرسل البارى تعالى عليهم سيل العرم: «فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۱ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ». ومن عجائب هذه القصّة أنّ المفسّرين ذكروا هجوم الجرذان الصحروايّة على السدّ فأخذت تنخر فيه من الداخل دون أن يراها الناس المغرورون المشتغلون بالملذّات وكفران النعم، وفجأة أمطرت السماء مطراً شديداً، وتحرّك سيل عظيم وتجمعت المياه خلف السدّ، ولكن جدران السد لم تتحمل كل هذا الضغط، فانهارت وأخذ السيل طريقه للقرى والأراضى الزراعية، فلم يُبق لها شىء، لا مزارع ولا أنعام، وتبدل كل شىء إلى صحراء قاحلة لا ينمو فيها سوى النباتات البرية، ففرت الطيور الجميلة وحلّت محلّها الغربان والبوم، وتفرق الناس إلى الأطراف وأصبحوا من أفقر الناس يأسفون على ماضيهم الجميل، ولكن هيهات، حيث لا تفيد ساعة ندم. نعم فهذه هى حال الأقوام التى تغفل عن ذكر اللَّه وتكفر بأنعمه. والطريف فى الأمر أنّ الأثرياء منهم اعترضوا على قرب المسافات بينهم، حيث يستطيع أن يسافر كل أحد لقرب المسافة

ووفرة الخير فی الطريق، فقالوا: أصبح بإمكان الفقير أن يسافر معنا أيضاً، فطلبوا من اللّه تعالى أن يباعد بين أسفارهم حتى لا يستطيع الفقراء السفر معهم أيضاً، نعم فقد وصلوا إلى أعلى مراتب الطغيان، فعاقبهم اللّه تعالى بأشدّ العقاب، فتفرق جمعهم وأصبحوا مضرباً للأمثال وخصوصاً فی الفرقة، فقالوا فيهم: (تفرقوا أيادی سبأ). من مجموع الآيات محل البحث تتبين خطورة وبشاعة كفران النعم، حيث تناولت الآيات هذه المسألة وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع وخاصة ما أحلّ الكفران بالأقوام السابقة من نتائج مدمرة وعواقب مشؤومة فی حركة الإنسان والحياة.

كفران النعم فی الروايات الإسلامية:

اشارة

تناولت الروايات الإسلامية هذه المسألة بصورة واسعة ومفصّلة وتكلّمت عن آثار حالة الكفران المشؤومة وأضرارها، وكذلك تناولت بركات الشكر للنعم والمواهب الإلهية، ومنها: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۵۲ ۱- جاء فی حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَسرَعُ الذُّنُوبِ عُقُوبَةً كُفرانُ النِّعْمَةِ» «۱». ۲- ونقرأ فی حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «سَبَبُ زَوالِ النِّعَمِ الكُفرانُ» «۲». ۳- وعنه أيضاً عليه السلام: «كُفرُ النِّعْمَةِ مُزيلُها وَشُكرُها مُستَدِيمُها» «۳». ۴- فی حديث آخر عنه عليه السلام: «كُفرانُ النِّعَمِ يُزِلُّ القَدَمَ وَيَسلُبُ النِّعَمَ» «۴» ۵- وأيضاً عنه عليه السلام: «آفَةُ النِّعَمِ الكُفرانِ» «۵». ۶- وعنه عليه السلام أيضاً: «كافِرُ النِّعْمَةِ كافِرُ فَضلِ اللّهِ» «۶». ۷- والاستدراج هو أحد عقوبات البارى تعالى ويعنى أنّ اللّه تعالى يغدق على عبده الكافر نعمه ثم يسلبها منه حتى يحس بالألم والعناء الشديدين، وقد جاء فی حديث عن الإمام الحسين عليه السلام: «الإِستِدراجُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ لِعَبدِهِ أنْ يُسْبِغَ عَلَيهِ النِّعَمَ وَيَسلُبَهُ الشُّكرَ» «۷». ۸- عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «الذُّنُوبُ الَّتِی تُغَيِّرُ النِّعَمَ البَغیُ عَلَى النّاسِ والزَّوالُ عَنِ العادَةِ فِی الخَيرِ واصطِناعُ المَعرُوفِ، وَكُفرانُ النِّعَمِ وَتَركِ الشُّكْرِ» «۸». ۹- وفی حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «كُفرُ النِّعْمَةِ لُؤمٌ وَصُحْبَةُ الأحمَقِ شُؤمٌ» «۹». ۱۰- وختاماً نختم بحثنا بهذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام فی معرض حديثه عن جنود العقل وجنود الجهل، حيث أمر أصحابه بأن يتعرفوا على جنود العقل وجنود الجهل، وعندما سأله بعض أصحابه عنه قال: «إنّ اللّهَ جَعَلَ لِلعَقلِ خَمساً وَسَبعينَ جُندِياً وَضِدَهُ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۵۳ الجَهلُ إلى أن قال- والشُّكرُ وضِده الكُفرانُ» «۱». ما ذكر فی الروايات العشر السابقة، يبيّن مدى خطورة هذه الرذيلة وآثارها السيئة على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وكيف أنّ الإنسان ينحدر من أوج الكرامة وذروة النعمة إلى قعر الذلّة والمسكنة، وتسلب منه التوفيقات الإلهية ويبتعد عن اللّه تعالى ويقترب من الشيطان. وهنا يجدر الإشارة إلى عدّة نقاط:

۱- معنى كفران النعمة

الكفر يعنى فی الأصل الإخفاء، وبما أنّ الكافر يسعى فی إخفاء وتغطية النعمة، وقيمتها فسمّى عمله بالكفران. ومن البديهى أنّ الكفران مرّة يكون بالقلب واخرى باللسان واخرى بالعمل. ففی قلبه لا يستشعر الإنسان أهمية تلك النعمة، ويصرّح بلسانه بقلّة النعمة وعدم أهميتها، وفی العمل لا يتحرك من موقع الاهتمام بمواهب اللّه عليه، وبدلًا من أن يستعملها بالخير، يستعملها بالشر ولذلك قال كبار علماء الأخلاق: «الشُّكْرُ صَرفُ العَبدُ جَمِيعَ ما أَنْعَمَهُ اللّهُ تَعالى فِی ما خُلِقَ لأجلِهِ». لذلك فالكفران هو استعمال النعم فی غير محلها، فالعين التی وهبها اللّه تعالى للإنسان ليرى بها طريق الحق والآيات الإلهية ويشخص بها الطريق السوى من البئر لئلا يقع فيه، فإذا به يستعملها فی موارد الحرام، وكذلك اليد والاذن وغيرها من الجوارح أو المال والثروة. وكأنّ هذا الكلام مقتبس من كلام الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول: «شُكرُ النِّعمَةِ إجتِنابُ المَحارِمِ» «۲». وبهذا يتبيّن لنا معنى الشكر وعدم الشكر.

۲- عواقب الكفران

الكفران بالنعمة يفضى إلى نتائج سيئة كثيرة فى دائرة الماديات والمعنويات فى حياة الإنسان فمن ذلك أنّه يتسبب فى زوال النعم، لأنّ البارى تعالى حكيم، لا يعطى شخصاً شيئاً بدون حساب ولا يسلب أحداً شيئاً بلا مبرر، فالذين يكفرون بالمنعم فلسان حالهم يقول: بأننا لا نليق ولا نستحق هذه النعم، فتوجب الحكمة الإلهية سلب تلك النعم منهم، والذين يشكرون النعم فلسان حالهم يقول: إننا نستحق تلك النعم الإلهية وزد علينا يا ربّ، مثلًا عندما يرى الفلاح أنّ فى بستانه أشجاراً مورقة أكثر من غيرها فسوف يعتنى بها أكثر من غيرها حتى تنمو وتكبر بسرعة وتثمر، وإذا شاهد أشجاراً لا تثمر ولا تورق ولا ظلّ لها مهما أهتم بها وبذل لها العناية فى مجال السقى والتهذيب، فكفران الأشجار للنعمة يدعو الفلاح لعدم الاعتناء بها وتركها لحالها. وقد ورد فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَنْ شَكَرَ النِّعَمَ بِجنانِهِ استَحَقَّ المَزيدَ قَبْلَ أن يَظهَرَ عَلَى لِسانِهِ» «۱». وجاء فى روايات اخرى نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه وبمجرّد الحمد والثناء يصدر البارى تعالى أمره بزيادة النعم على ذلك العبد، فقال: «ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبدٍ مِنْ نِعمَةٍ فَعَرَفَها بِقَلبِهِ وَحَمِدَ اللَّهَ ظاهِراً بِلِسانِهِ فَتَمَّ كَلامُهُ حَتّى يُؤمَرَ لَهُ بِالمَزيدِ» «۲». وبديهى أنّ الكفران يفضى إلى نتائج معاكسة كذلك، ويمكن أن يلطف به اللَّه تعالى ويؤخر عنه سلب النعمة ولكن وعلى أية حال إذا لم يتنبه الإنسان وبقى على ما هو عليه فى دائرة الغفلة والجحود للنعمة، فستسلب منه بالتأكيد، لأنّ ذلك من لوازم الحكمة الإلهية. ومن جهة اخرى فإنّ الكفران يسبب البعد من اللَّه تعالى وهو الخسران الأكبر، فعظماء علماء الكلام فى أول أبحاثهم ذهبوا إلى أن شكر المنعم هو من أول الدوافع لمعرفة البارى تعالى وأنّ شكر المنعم أمر وجدانى، فعندما يرى الإنسان نفسه غارقاً بالنعم الظاهرة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۵ والباطنة، وأنّها ليست منه فسيسعى لشكر المنعم من خلال البحث عن مصدر النعمة، وهذا هو الذى يُمهد الطريق لمعرفة اللَّه تعالى، ولكنّ الناكرين لأنعم اللَّه والذين لا يقدّرون المنعم فسيحرمون من معرفة اللَّه تعالى، بالإضافة إلى ذلك فإنّ عدم شكر الخالق يفضى بدوره إلى عدم شكر المخلوق، فلا يقيم وزناً لجميل الآخرين ومعروفهم، وكأنّه هو الذى له الحق عليهم، ممّا يسبّب نفور الناس منه وكراهيتهم له، وبالتالى سيؤدى إلى العزلة والإنزواء فى حركة الواقع الاجتماعى وقلّة الصديق والناصر فى مقابل المشكلات وتحديات الواقع الصعبة.

أسباب ودوافع الكفران وطرق علاجه:

التقصير فى الشكر ينشأ من عدم معرفة الإنسان بالمنعم بصورة كاملة، وأساساً فانّه لا يتحرك فى طريق التدبّر فى النعم الإلهية، فمثلًا عندما ننظر إلى بدننا وما فيه من عجائب ودقائق وتفاصيل على مستوى الخلقة فسنتوجه إلى أهمية تلك النعم ويتحرك فينا حسّ الشكر للّه‌تعالى. وعلى سبيل المثال إذا استطاع البشر أن يصنع مثل الأجهزة الموجودة فى الإنسان (مثل القلب والكبد والكلية والرئتين) فستكون قطعاً أقل كيفية من صنع خالقها، وستكلفه الكثير جدّاً، وعلى هذا فإذا أردنا حساب قيمة ما يوجد لدينا من أعضاء وجوارح بدنية فسيتبين أنّ لدينا وبحوزتنا ثروة كبيرة جدّاً. أمّا النعم الخارجية، فيمكن أن تكون جرعة ماء تساوى الدنيا بما فيها، وقد نقل عن بعض العلماء أنّه دخل على أحد الملوك وكان بيد الملك قدح ماء فأراد أن يشرب فتوجه للعالم الكبير وقال له عِظنى، فقال له العالم: إذا كنت فى يوم من الأيّام عطشاناً لدرجة الموت وجاؤوك بالماء بشرط أن تتنازل عن الملك، فهل ستتنازل؟ فقال نعم، فلا حيلة فى ذلك. فقال له: كيف تتعلق بُملك وحكومة تساوى شربة ماء؟ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۶ ويرى الإنسان حيناً آخر مريضاً يصرخ من شدّة الألم بحيث يتمنى الموت على هذا الألم، فلو اعطيت للإنسان الدنيا بأسرها وهو على ذلك المرض، فلن يقبل بذلك، بل يرضى أن يأخذوا منه كلّ شىء إلّاالعافية. هناك نعمٌ ظاهرها غير مهم لكنّها إن فقدت فستتعرض حياة الإنسان للخطر، مثل غدد اللّعاب التى ترطب الشفاه والفم وتلين الأكل وتسهل عملية البلع، فإذا توقفت هذه الغدد فى يوم ما فسيجف الفم ويعسر عليه الأكل ويتوقف عن الكلام وتصبح الحياة مستحيلة، فذلك الجزء الصغير من بدن الإنسان أهم بكثير من ثروات الدنيا أجمع. وكذلك فى

نعمة الشمس والهواء والنباتات والمواهب الاخرى العظيمة وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا» «۱». ويجب التنبه أنّ كثيراً من النعم الإلهية لا يتسنى للإنسان معرفتها، لأنّها لن تُسلب منه، فبعض النعم والمواهب تعيش مع الإنسان فاذا سلبت منه عرفها وأقرّ بعظمتها، وبعضها سيبقى فى الكتمان وهى كثيرة جدّاً. مثلًا مسألة الجاذبية فلم يكن أحد يعرف قبل السفر إلى الفضاء وفقدان الجاذبية هناك، كم هى مهمّة هنا على الأرض، إذ لولاها لما استطاع الإنسان أن يفعل شيئاً لا زراعة ولا صناعة ولا حركة، فأقل حركة من الإنسان سيرتطم بالسقف والجدار وستتناثر الأطمعة والأشربة من المائدة ولن يستطيع الإنسان أن يأكل أو يشرب شيئاً، فحركة الأرض تؤدى إلى قدف كل شىء فى الفضاء لولا الجاذبية وستتحول الأرض إلى صحراء قاحلة محرقة، فتفكروا إننا لو قضينا العمر فى شكر هذه النعمة فهل ستؤدّى شكرها؟ وإذا أضفنا إليها النعم المعنوية وهداية الأنبياء وكلام المعصومين عليهم السلام ونزول الكتب الإلهية، والتى هى أعلى وأهم من النعم الماديّة، فسنعرف مدى عظمة وقيمة مواهب الرحمن وسنعرف قدرتنا على الشكر كم هى ضعيفة وضئيلة. فالتوجه لهذه الامور تقلع جذور الكفران وتحيى فيه روح الشكر. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۷ ومنها نعرف طريقة العلاج، ولذلك قالوا: إنّ أول طريق للشكر هو المعرفة والتفكير بالمواهب والصنائع الإلهية وأنواع نعمه الظاهرة والباطنة «۱». الطريقة الاخرى: هى النظر فى دائرة النعم والمواهب المادية إلى المستويات الدنيا للناس، فكلما فكّر الإنسان فيها فستبعث فيه روح الشكر، ولكن إذا نظر إلى من هو أعلى منه من حيث الثروة والنعمة فسوف تستولى عليه الوساوس الشيطانية وتؤذيه. ومن جهة ثالثة إذا ابتلى بمصائب الدنيا، فليعلم أنّه يوجد مصائب أكبر من التى اصابته وليشكر اللَّه أنّه لم يتورط بالأكبر والأشد منها. وقد نقل عن شخص أنّه اشتكى عند أحد العظماء أنّ السارق قد أتى وسرق كل شىء، فقال له: اذهب واشكر اللَّه تعالى إذ لم يأت الشيطان الى بيتك بدلًا من السارق، فلو أخذ منك إيمانك فما كنت تفعل؟ «۲» وقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب «التوحيد» المعروف بتوحيد المفضل حقائق توحيدية هامة من موقع تحليل ماهية النعم الإلهية فى تفاصيلها الدقيقة ومن خلالها ينفتح الإنسان على المنعم الحقيقى. ومن جملتها نعمة الكلام والكتابة وقد اعتبرها الإمام الصادق عليه السلام عمود الحضارة الإنسانية: وبعد شرح طويل لها قال: «فَإنّه لَو لَم يَكُن لَهُ لِسان مُهيأ للكَلام وَذِهن يَهتَدِى بِهِ لِلُامورِ لَم يَكُن لِيَتَكَلَّمَ أَبَداً، وَلَو لَم يَكُن لَهُ مُهيأةً وَأَصابِعَ لِلكِتابَةِ لَيكتُبَ أَبداً، واعتَبر ذَلِكَ مِنَ البَهائِمِ الّتى لاكَلامَ لَها ولا كِتابَةَ، فَأصلِ ذَلِكَ فَطرَةِ البارى عَزَّوجَلَّ وما تَفضل بِهِ عَلَى خَلقِهِ، فَمن شَكَرَ اثِيبَ، وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ العالَمِينَ» «۳».

الشكر قناة موصلة للنعم الإلهية:

النقطة المقابلة للكفران، هى شكر الإله، ومفهومها تقدير النعم بالقلب واللسان والعمل، أمّا التى بالقلب فهى معرفة الخالق والتسليم إليه والرضا بعطائه وذكر الامور التى تبيّن تقدير وشكر الخالق من قبل المخلوق فى مقابل نعمه تبارك وتعالى، أمّا من الناحية العملية فهو وضع النعم والمواهب الإلهية فى المكان اللائق والذى خلقها اللَّه تعالى لأجله. يقول الراغب فى المفردات: الشكر هو بمعنى التصور للنعمة واظهارها، وقال البعض أن الكلمة فى الأصل كانت «كشر» بمعنى الإظهار والابراز (والدابة الشكورة) تطلق على الحيوان الذى يواظب ويهتم بالزرع والماء وتسمن يوماً بعد يوم، و «العين الشكراء» بمعنى العين المليئة بالماء ولذلك فإنّ الشكر بمعنى امتلاء وجود الإنسان من ذكر المنعم للنعم. والشكر على نوعين: شكر تكوينى وشكر تشريعى، الشكر التكوينى هو شكر المخلوق للمواهب والنعم التى بحوزته وتحت تسلطه، لتنمو كالشجر والورد والثمرة تكون تحت إشراف الفلّاح الخبير الذى يعرف كيف تثمر الثمار الجيدة، والكفران هو عدم ظهور أثر للمحافظة والمراقبة فيها من قبل الفلّاح. لذلك فإنّ الذى يستعمل النعم الإلهية فى طريق العصيان فقد كفرها تكوينيّاً. الشكر التشريعى هو أن يقوم الإنسان بشكر الخالق بالقلب واللسان. وذكرنا سابقاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يؤدّى شكر الخالق ونعمه، لأنّ نفس هذا التوفيق للشكر هو نعمة منه تعالى وهو نفسه يحتاج لشكر آخر، ولذلك جاء فى رواياتنا الإسلامية أنّ أفضل شكر الإنسان هو أظهار العجز عن شكر اللَّه فى مقابل نعمه والمعذرة عن ذلك التقصير، لأنّه لا يستطيع أحد أن يؤدّى ما

یستحقه الباری تعالی. وذکرنا سابقاً الکثیر من مطالب الشکر وما یقابلها من الکفران، ولتکمیل هذا البحث نذکر بعض من الآیات والروایات عن المعصومین علیهم السلام، ونکتفی بهذا القدر منها: «وَمِنْ آیَاتِهِ الْجَوَارِی فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلَامِ* إِنْ یَشَأْ یُسْکِنِ الرِّیحَ فَیَظْلَلْنَ رَوَاکِدَ عَلَی ظَهْرِهِ إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیَاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۵۹ وشبیه لهذا التعبیر جاء فی آیات اخری. ومرّة یشیر إلی العین والسمع والعقل فإنّها أهمّ وسیلة للمعرفة الإنسانیة فیقول: وأمّا القرآن الکریم فقد جعل الصبر والشکر أحدهما قرین للآخر وهما وسیلتان لتفتح العلم والإیمان فی قلب الإنسان فقال: «وَجَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ» «۱». فالقرآن الکریم أشار فی موارد عدیدة لوجود هذه الفضیلة (فضیلة الشکر عند الأنبیاء العظام)، وأمرهم بالشکر «۲» ومرّة یخاطب آل داوود: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُکْراً وَقَلِیلٌ مِنْ عِبَادِیَ الشَّکُورُ» «۳». ویقول فی مکان آخر أنّ شرط رضا الباری تعالی هو الشکر: «إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَلَا یَرْضَی لِعِبَادِهِ الْکُفْرَ وَإِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ» «۴». الآیات حول الشکر فی القرآن الکریم کثیرة وتصل إلی حوالی ال ۷۰ آیة، والجدیر بالذکر أنّ صفة الشکور نسبت للّه‌تعالی فی سورة النساء الآیة ۱۴۷: «مَا یَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَکَانَ اللَّهُ شَاکِراً عَلِیماً». مفهوم الآیة یبیّن أنّ الشکر إذا صدر بصورة ومعنی حقیقی فإنّ العذاب الإلهی سیرتفع بالکامل، علاوة علی أنّ صفة الشکور نسبت للّه‌تعالی، فإنّ الشکر هو من الصفات المشترکة مع الباری تعالی، والفرق أن الإنسان بوضع النعمة فی موضعها السلیم یکون قد أدّی شکرها، وفی المقابل یکون شکر الباری تعالی بزیادة المواهب لعباده. وجاء فی بعض الآیات القرآنیة أن التوجه والانتباه للنعم الإلهیة هو السبب فی حثّ الإنسان علی الشکر ویکون هو الرادع عن الذنوب، ونقرأ فی سورة الأعراف فی خطابه للاقوام السابقة، الآیة ۷۴: «فَاذْکُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۶۰ وفی الآیة ۶۹ من نفس السورة یقول: «فَاذْکُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ». وهذا التعبیر صریح بأن الشکر یکون سبباً للفلاح. خلاصة القول، أنّ أساس کل سعادة وبرکة إلهیة هو الشکر، لأنّه یقرّب الإنسان یوماً بعد یوم من اللّه تعالی، ویحکم أواصر المحبّة بین العباد وخالقهم، وهو طریق التقوی والفلاح.

فلسفة الشکر:

الإنسان المنعم قد یتوقع الشکر من الطرف الآخر، أو ربّما یحتاجه فی بعض الأحیان، سواء کان احتیاجاً مادیاً أو معنویاً، أو لأجل موقعه ومرکزه الإجتماعی. ولکن الباری تعالی، هو الغنی عن العالمین، حتی ولو کفر الناس جمیعاً، فهو لا یحتاج لشکرهم، ومع ذلک فقد أکد علی الشکر، فمثله کمثل باقی العبادات، ونتیجته تعود علی نفس الإنسان، وإذا ما دققنا النظر قلیلًا فستتوضح فلسفته. إذا قدّر الشخص النعم الإلهیة سواء کان بالقلب أو اللسان أو بالعمل، فهو یستحق تلک النعمة، واللّه سبحانه وتعالی هو الحکیم لا یسلب النعمة من أحد من دون دلیل ولا یعطی لأحد من دون دلیل، فعندما یشکر الإنسان النعم فلسان حاله یقول إننی مستحق للنعم، وحکمة الباری لا- توجب له النعمة فقط بل تزیده أیضاً. ولکن لسان حال الکافر یقول: إنّنی غیر مستحق للنعمة وحکمة الباری تعالی توجب سلب تلک النعمة منه، وإذا شکر یوماً وکفر یوماً، فسیتعامل معه کالتالی: «ذَلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَی قَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» «۱». وعندما نقول أنّ الشکر سبب فی دوام النعمة فدلیله هذا بعینه، وفی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «بِالشُّکْرِ تَدُومُ النِّعَمِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۶۱ وفی حدیث آخر قال: «ثَمَرَةُ الشُّکْرِ زِیادَةُ النِّعَمِ» «۱». وعلاوة علی ذلک عندما یتم غرس روح الشکر عند الإنسان، فتصل إلی شکر المخلوق، فشکر المخلوق فی مقابل ما یؤدّیه من أعمال جیدة، یکون سبباً مؤثراً فی حرکة المجتمع وتفتح الاستعدادات الخلّاقة وفی أعماق الإنسان وبالتالی فسیتحرک المجتمع لشکر الخالق ومنه یفتح باب معرفته، فتتعمق العلاقة بین الإنسان وربّه، وکما أشرنا سابقاً فإنّ أول مسألة تبحث فی علم الکلام هی معرفة اللّه عزّ اسمه، وأهمّ دلیل فیها هو مسألة شکر المنعم والتی هی بدورها نابعة من الوجدان أو کما یقال بأنّ: قیاساتها معها. عملیة الشکر بالإضافة إلی أنّها تعرف الواهب، فإنّها تعرف النعم نفسها أیضاً، فالنعمة کلّما إزداد حجمها وکیفیتها، تستدعی شکراً أکبر وأکثر، ولأداء شکر المنعم

تكـون معرفـة النعمـة أمراً ضـرورياً، وبالتـالى تـؤدى إلى توثيـق الأواصـر بين الخـالق وعبـاده وتشـغل نيران الحب له فى القلوب، وكم استتبعت المواهب المادية، مواهب معنوية أعلى وأسمى!

الشكر فى مصادر الحديث

الروايات فى هـذا المجال لا تعـد ولا تحصـى، ونختار طائفة منها للقارىء الكريم: ۱- فى حـديث عن الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله: «الطّاعِمُ الشّاكِرُ لَهُ مِنَ الأجرِ كَأجرِ الصّائِمِ المُحتَسِبُ والمُعـافِى الشـاكِرُ لَهُ مِنَ الأجرِ كَأجرِ المُبتلى الصابرِ والمُعطى الشاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجرِ كأجر المَحرُوم القانِع» «۲». ۲- فى حـديث عن الإمـام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «مَكْتُوبٌ فِى التُوراةِ الشُّكرُ مِنَ النِّعَم عَلَيكَ، وَأَنعِم عَلى مَنْ شَكَرَكَ فَإِنَّهُ لازَوالَ لِلنَّعماءِ إِذا شُكِرَتْ وَلا بَقاءَ لَها إذا كُفِرَتْ» «۳». ۳- فيبيّن هذا الحديث أنّ اللّه تعالى وحده لا يزيد النعم فقـط عنـد الشـكر، بل وعلى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۲ الإنسان أن يزيـدها عند الشـكر أيضاً. ۳- وفى حـديث آخر عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «ثَلاثٌ لايَضُـرُّ مَعَهُنَّ شَـىءٌ، الـدُّعاءُ عِندَ الكَربِ، والاستِغفارُ عِندَ الذَّنْبِ، والشُّكْرُ عِندَ النِّعمَةِ» «۱». وأهميـة الـدعاء والاسـتغفار فى الثقافة الإسـلامية معلومة، ومع ما تقدم من الروايات أعلاه تتبيّن أهمية الشـكر للإنسان وأنّ أمامه ثلاث حالات لا رابع لها، فإمّا أن يكون قد اصـيب بمصـيبة، أو وصـلته نعمة، فهو خائف بسـبب الحفاظ عليها، أو يزلّ ويصدر منه ما يغضب الربّ، ودواء كـل واحـد منهـا ذكر فى الروايات، فالمشاكل تزول بالـدعاء والـذنوب بالاسـتغفار، وتثبيت النعم بالشـكر، وجاء فى هـذا المجال حديث عن الإمام عليه السـلام: «نِعمَةٌ لا تُشكَرُ كَسَيِّئَةٍ لا تُغفَرُ» «۲». ۴- فى حديث آخر عنه عليه السـلام أيضاً، أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان فى يوم من الأيام راكباً ناقته وفجأة نزل وسـجد خمس سـجدات، وعندما قام وركب مركبه، قلت له: يا رسول اللّه رأيت منـك اليوم أمراً لم أره من قبـل، فقـال: «نَعَمْ إسـتَقبَلَنى جِبرئِيـلُ فَبَشَّرنى بِبشـاراتٍ مِنْ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ فَسَـجَدتُ للّهِ شـكُراً لِكُلِّ بُشرى «۳». ونسـتوحى من هـذا الحديث أنّ القادة الإلهيين يؤدّون شـكر كل نعمة على حدة مهما اسـتطاعوا. ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه أمر بشـكر جامع وكامل فقال: «إذا أَصـبَحتَ وَأَمسَيتَ فَقُلْ عَشرَ مَرّات: اللّهُمَّ ما أَصبَحتْ بِى مِنْ نِعمَةٍ أو عافِيـةٍ مِنْ دِينٍ أو دُنيا فَمِنكَ وَحدَكَ لاشَـرِيكَ لَكَ، لَكَ الحَمدُ وَلَكَ الشُّكرُ بِها عَلَىَّ ياربَّ حَتّى تَرضـى وَبَعدَ الرّضا» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۳ وبعـدها قال الإمام الصادق عليه السـلام: إنّك إن فعلت ذلك فتكون قـد أدّيت شـكر النعم التى وافتك فى ذلـك اليوم. ۶- عن أميرالمؤمنين عليه السـلام فى أحـاديثه القصـار والمليئـة بالمعـانى الجميلـة، فيقول: «شُـكرُ النِّعمَـةِ أَمانٌ مِنْ تَحلِيلِها وَكَفِيلٌ بِتأييدِها» «۱». ۷- وقال عليه السـلام فى حديث آخر: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لايَشكُرُ النِّعمَةَ وَلا يرعى الحُرُمَةَ» «۲». والأحـاديث فى هذا المجال كثيرة جدّاً ولا يسعها هذا المختصر وما ذكر سابقاً هو نزر يسير منها.

الشكر فى سيرة المعصومين عليهم السلام:

نحن نعلم أنّ احـدى أشـكال الحـديث، هو فعل وتقرير المعصوم، وكما أنّ قوله يوضّح ويبيّن لنا معالم الدين ومعارفه، فكذلك بعمله وسـكوته فى المواقع والمواضع التربوية المختلفة، سـيرسم لنا معالم الطريق الصـحيح للأحكام والمعارف والأخلاق خصوصاً فى مجال الشكر، والأمثلة عليه كثيرة: ۱- قال الإمام الباقر عليه السلام: «كانَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه و آله عِندَ عائِشةَ لَيلَتها فَقالَتْ: يا رَسُولَ اللّهِ لِمَ تَتعَب نَفسَكَ وَقَـدْ غَفَرَ اللّهُ لَكَ ما تَقَـدمَ مِنْ ذَنبِكَ وَما تأَخرَ؟ فَقَالَ: يا عائِشـةَ أَلا أَكُونَ عَبـدَاً شَـكُوراً؟» «۳». ومنه يتبيّن أن الـدافع لعبادة الأولياء هو الشـكر، ونقلت هذه الجملة كثيراً عن الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله فى أحاديثه المختلفة، وهى «أفلا أَكُنْ عَبدَاً شَكُوراً». ۲- فى حـديث عن هشام بن الأحمر أنّه قال: «كُنتُ أَسِـيْرُ مَعَ أَبى الحَسن عليه السـلام (الكاظم) فِى بَعضِ أَطرافِ المَدِينـةِ إذ ثَنّى رِجلَهُ عَن دابَّتِهِ فَخَرَّ ساجِـداً، فَأَطـالَ وَطـالَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۴ وَرَكَـبَ دابَّتَهُ فَقُلْتُ: جُعلتُ فـداك قَد أَطلتَ السُّجُودَ؟ فَقالَ: «إنّنى ذَكَرتُ نِعمَةً أَنعَمَ اللّهُ بِها عَلَىّ فَأَحبَبتُ أَنْ أَشـكُرَ رَبِّى» «۱» ويعلم من هذه الرواية أنّ الأئمّة عليهم السلام،

كانوا ملتزمين بأداء الشكر لكل نعمة، وكانوا يوصون مريديهم ومحبّيهم بذلك أيضاً، حيث جاء فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا ذَكَرَ أَحَدُكُم نِعمَةَ اللَّهِ عَزَّوجَلَّ فَلْيَضَع خَدَّهُ عَلى التُّرابِ شُكراً لِلَّهِ، فَإِنْ كانَ راكِباً فَلْيَنزِل فَلْيَضَعَ خَدَّهُ عَلَى التُّرابِ، وإِنْ لَم يَكُن يَقدَرُ عَلَى النُّزُولِ لِلشُّهرَةِ فَلْيَضَع خَدَّهُ عَلى قَربُوسِه، وإن لَم يَقدر فَلْيَضَع خَدَّهُ عَلى كَفِّهِ ثُمَّ لِيحمِدَ اللَّهَ عَلى ما أَنعَم عَلَيهِ» «۲». ۳- فی حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه واسمه أبو بصير: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيشرَبَ الشَّربَةَ مِنَ الماءِ فَيُوجِبُ اللَّهُ لَهُ بِها الجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لَيَأخُذ الإِناءَ فَيَضَعهُ عَلى فِيهِ فَيُسمِّی ثُمَّ يَشرَبُ فَيُنَحِّيهِ وهُوَ يَشتَهِيهِ، فَيَحمدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَشرَب، ثُمَّ يُنَحِّيهِ فَيحمُدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيشرَب، ثُمَّ يُنَحِّيهِ فَيحمُدُ اللَّه، فَيُوجِبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بِها الجَنَّةَ» «۳».

كيف يتمّ الشكر:

قلنا فی تعريف الشكر أنّه التقدير وعرفان الحرمة سواء كان باللسان أم بالقلب، والكفر هو التحقير للنعمة، وتضييعها، وعدم الاعتناء بالمنعم لها. وأهمّ قسم من مراحل الشكر، هو الشكر العملی، وكم يوجد أفراد يشكرون باللسان ولكنهم يخالفون عملًا، ويكفرون بأنعم اللّه تعالی. فالمسرفين والمبذّرين والبخلاء والمتفاخرين والطاغين كل اولئك من مصاديق الجاحدين للنعم الإلهية، ويمشون فی طريق كفران النعم، بعكس اولئك الذين ينفقون أموالهم سرّاً وعلانية، ويتواضعون للّهوللناس رغم سعة أموالهم وتراثهم، ولا يريدون تضييع ما آثرهم اللّه تعالی به من فضله ويضعون الشیء موضعه، أو كما قال اللّه تعالی: «فِی أموالِهِم حَقٌّ مَعْلومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحرُومِ» اولئك المؤدّون شكر النعم حقّها فی مقابل المعطی الحقيقی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۶۵ لها، بل ويستحقون الزيادة، «وَلَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم» وورد فی الروايات الإسلامية اشارات لطيفة لمراحل الشكر الثلاثة. نقرأ فی حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ بِنِعمَةٍ فَعَرَفَها بِقَلبِهِ فَقَد أدّی شُكرَها» «۱». ومن البديهی أنّ معرفة النعمة وأهميتها وقيمتها، يؤدّی إلى معرفة الواهب لها ويحثّ على تأدية شكرها بالعمل واللسان. وورد فی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال لأحد أصحابه: «ما أَنعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبدٍ بِنعمَةٍ صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ فَقَالَ الحَمدُ للَّهِ إلّاأَدّی شُكْرَها» «۲». ومن المؤكد أنّ القصد من القول الحمد للّه، ليس هو لقلقة اللسان بل الحمد الحقيقی النابع من القلب والروح. ولذلك فإننا نقرأ فی حديث ثالث عنه عليه السلام، أنّ أحد أصحابه سأله: «هَلْ لِلشُّكرِ حَدٌّ إذا فَعَلَهُ العَبدُ كَانَ شاكِراً؟ قَالَ: نَعم، قُلتُ: ما هُوَ؟ قَالَ: يَحمدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ نِعمَةٍ عَلَيهِ فِی أَهلٍ وَمالٍ وإن كانَ فِيما أَنعَمَ عَلَيهِ فِی مالِهِ حَقٌّ أداهُ، وَمِنهُ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: «سُبحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هَذا وَما كُنّا لَهُ مُقرِنِينَ» ...» «۳». وكذلك فی حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «شُكرُ العالِمِ عَلى عِلمِهِ، عَمَلُهُ بِهِ وَبَذْلُهُ لِمُستَحِقِّهِ» «۴». فهذه اشارات للشكر العملی فی مقابل النعم الإلهية، وبالطبع إنّ العالم الذی لا يعمل بعلمه، أو يحجب علمه عن الآخرين، فهو عبد لا يؤدّی شكر النعم، ولسان حاله يقول: أننی لا أستحق هذه النعم العظيمة. ويجب الإشارة إلى أنّ الشكر العملی يختلف باختلاف الأفراد ويتغيّر شكله من مكان الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۶۶ إلى مكان، وكما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فی حديثه القصير القيم، حيث أشار إلى أربع نماذج، فقال: «شُكرُ إلهِكَ بِطُولِ الثَّناءِ، شُكرُ مَنْ فَوقَكَ بِصِدقِ الولاءِ، شُكرُ نَظِيرَكَ بِحُسنِ الإِخاءِ، شُكرُ مَنْ دُونَكَ بِسَببِ العَطاءِ» «۱». واحدی فروع الشكر العملی، وهو عندما ينتصر الإنسان على عدوّه، أو بعبارة اخرى العفو عند المقدرة على العدو ما لم يكن خطراً فعلياً، وليجعل العفو عنه هو علامة لشكر اللّه تعالی وانتصاره عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا قَدَرتَ عَلَى عَدوِّكَ فاجعَلِ العَفوَ عَنهُ شُكراً للقُدرَةِ عَلَيهِ» «۲». كما وتجدر الإشارة إلى أنّ أفضل طرق الشكر العملی للنعم، هو الانفاق منها فی سبيل اللّه تعالی، وقال على عليه السلام فی هذا المجال: «أحسَنُ شُكرِ النِّعَمِ الإنعامُ بِها» «۳». والطريقة الاخرى لشكر النعم العملی هی العبادة والدعاء، بل هو وحسب ما جاء فی الروايات الإسلامية أفضل دافع للعبادة، والحال أنّ العبادة لأجل الحصول على الجنّة هی من عبادة التّجار والعبادة خوفاً من النار تعتبر من عبادة العبيد، فإذا كان الدافع للعبادة هو الشكر، فتلك هی عبادة الأحرار، وقال على عليه السلام: «إنّ قَوماً عَبَدُوهُ شُكراً فَتِلكَ عِبادَةُ الأَحرارِ» «۴».

دوافع الشكر:

يمكننا تقوية روح الشكر ودوافعه، بطرق مختلفة متعددة، وأولها معرفة النعم، نحن نعلم أنّ اللَّه تعالى قد أغرق الإنسان بنعمه ظاهرة وباطنة وفردية واجتماعية، ولحسن الحظ فإنّ تقدم العلوم من عجائب ونعم اللَّه المحيطة بنا، من عجائب صنع الكون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۷ والعالم إلى عجائب خلقة الإنسان وكل واحدةٍ منها تعتبر نعمة عظيمة كبيرة تستحق الإجلال والوقوف عندها، فمثلًا الكل يعرف فى وقتنا الحاضر جسم الإنسان وتركيبه وأنّه مكوّن من مليارات الخلايا الصغيرة، وهى بدورها لها هيكل وشكل معقد محير للعقول، وكل خليّةٍ منها تعتبر نعمة تستحق الشكر، هذا بالنسبة للخلايا، وأمّا الدم فهو أيضاً يتكون من مكوّنات عديدة أحدها كريّات الدم البيض والتى القى على عاتقها مهمّة الدفاع عن الجسم فى مقابل الميكروبات والأمراض المختلفة التى تهجم عليه نتيجة لتعامل الإنسان مع البيئة التى يعيش فيها، وإذا ما قيل قديماً أنّ كل نفَس يستنشقه الإنسان يتألف من نعمتين وكل نعمة تستحق الشكر، اليوم وفى وقتنا الحاضر استحدثت آلاف بل ملايين النعم وكل واحدة منها تستحق الشكر فعلًا وحقاً. وإذا قال القدماء بأنّ العوامل الأربعة من الشمس والأرض والمطر والرياح تلتقى مع بعضها لتولّد لك رغيف الخبز، فنحن اليوم وبسبب تقدّم العلوم نعلم جيداً أنّ العوامل التى تهب لنا رغيف الخبز لا تقتصر على هذه العوامل الأربعة بل هناك ألالاف من العوامل البيئية والبشرية تلتقى لتولّد لنا هذه النعمة والموهبة الإلهية. وعليه فانّ دوافع المعرفة التى تتصل من خلال المعرفة تتسع يوماً بعد آخر وتأخذ أبعاداً جديدة ومتنوعة، وعلى هذا الأساس فإنّ استمرار حالة الشكر للنعم الإلهية يحصل ويتعمّق فى وجود الإنسان من خلال التدبّر ودوام التفكّر فى هذه النعم الإلهية فى حركة الحياة والواقع. الدافع الآخر للشكر هو أنّ الإنسان لابدّ أن ينظر فى الموارد الدنيوية إلى ما دونه من الناس ليدرك عظيم نعمة اللَّه عليه وما حباه من كثير المنّة وما أعطاه من القابليات والقوى والإمكانات التى يفتقدها الآخرون لأسباب مختلفة، وفى ذلك نقرأ فى الحديث الشريف الوارد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه لأحد أصحابه المعروفين (حارث الهمدانى) يقول: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۸ «وَأَكثِر أَنْ تَنظُرَ إِلى مَنْ فُضِّلتَ عَلَيهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبوابِ الشُّكرِ» «۱» فى حين أنّ الإنسان لو نظر إلى من فوقه من الأشخاص المثرين فإنّ ذلك سوف يتسبب له بتفعيل روح الطمع وعدم الشكر وبالتالى تتحرّك الوساوس الشيطانية فى نفسه لتثير فيه حالة الابتعاد عن اللَّه تعالى ونسيان النعمة، ومن الدوافع المهمّة الاخرى مطالعة بركات وآثار شكر النعمة والمنعم وما يترتب عليه من زيادة النعمة ودوامها كما تقدم ذلك بالتفصيل فى الأبحاث المتقدمة. ومن أفضل الطرق لتفعيل حالة الشكر بين الناس تجاه أحدهم الآخر أن يتحرك الناس باتجاه مكافأة المحسن وتقدير الأشخاص الذين يساهمون فى حركة الخدمة والإحسان فى المجتمع سواءً كان التشجيع والثناء كلامياً أو فعلياً ولذلك قال الإمام على عليه السلام فى عهده المعروف لمالك الأشتر: «ولا يَكُونَنَّ المُحسِنُ والمُسِيءُ عِندَك بِمَنزِلَةٍ سواءٍ فإنَّ فِى ذَلِكَ تَزهِيداً لأَهلِ الإحسانِ فِى الإحسانِ وَتَدرِيباً لأَهلِ الإساءَةِ عَلَى الإساءةِ» «۲».

شكر الخالق وشكر المخلوق:

لا شكّ أنّ الشكر للنعمة كما هو خُلق جميل بالنسبة للَّهلشكر اللَّه تعالى فكذلك هو خُلق جميل ومطلوب من الإنسان تجاه المخلوق أيضاً، فالشخص الذى يؤدّى خدمة إلى الآخر ويتحرك فى سبيل ايصال نعمة أو يتنازل عن خير من نفسه إلى الآخر فإنّ وظيفة الآخر الذى حصل على هذا الخير أن يشكر هذا الإنسان الذى تسبب فى إيصال النعمة له رغم أنّه لا يريد ولا يتوقّع الشكر من الآخر، فقد ورد فى الرواية المعروفة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «مَن لَم يَشْكُرِ المُنعِمَ مِنَ المَخلُوقِينَ لَم يَشكُرِ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۹ إنّ العبارة المعروفة: «مَنْ لَم يَشكُرِ المَخلُوقَ لَم يَشكُرِ الخالِقَ» رغم أنّها لم ترد فى الروايات الإسلامية بهذا النص إلّاأنّ هذا المضمون والمفهوم قدورد فى الروايات الشريفة عن المعصومين، ويمكن أن يكون لها معنيان

وتفسيران: الأول: أنّ ترك شكر المخلوق هو شاهد ودليل على روح العناد وكفران النعمة لدى هذا الشخص وبسبب ذلك فإنّه لا يعيش التقدير والاحترام للآخرين بل أحياناً تستولى عليه حالة انتظار الاحسان من الناس ويرى أنّهم مقصّرون فى حقّه، ومثل هذا الإنسان سوف لا يعيش الشكر للخالق جلّ وعلا ولا سيّما أنّ النعم والخيرات التى تصل إلى الإنسان عن طريق الآخرين تكون محدودة ولذلك يشعر بها الإنسان ويلمسها من قريب لأنّها تقع بين الفينة والاخرى، أمّا المواهب الإلهية فكثيرة ولا متناهية وتحيط بوجود الإنسان تماماً ولذلك فإنّها لشدّة ظهورها تكاد تخفى على الإنسان الغارق فى النعمة فلا يكاد يشعر بها. والآخر: أنّ شكر المخلوق هو فى الواقع شكر اللَّه تعالى، لأنّ شكر المخلوق ما هو إلّا واسطة للفيض وانتقال النعمة من اللَّه تعالى إلى الآخرين، وعليه فإنّ من لم يشكر المخلوق فهو فى الواقع لم يشكر اللَّه تعالى. وعلى كل حال فقد ورد التأكيد على هذا المعنى فى الروايات الإسلامية وأنّ المسلم لابدّ أن يعيش الشكر للمخلوق الذى أوصل إليه النعمة، وللخالق الذى هو أصل النعمة بل وينبغى اعطاء الشاكر مزيداً من النعمة تشجيعاً لواقع الشكر كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله، أنّه ورد فى التوراة: «اشكُرْ مَنْ أَنعَمَ عَلَيكَ وَأَنعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ» «۱». ونقرأ فى المفاهيم القرآنية أنّ اللَّه تعالى يأمر بتقديم الشكر للمخلوقين إلى جانب شكره تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ» «۲». ولا شكّ أنّ الوالدين لا يختصّون بإيصال الخير للإنسان أو أنّهما أصحاب الحق فقط عليه (رغم أنّ حقهما عظيم) فإنّ كل من كان له حق معنوى أو مادّى على الإنسان فلابدّ من تقديم الشكر له. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۰ ونشاهد هذا المعنى فى حالات وسيرة القادة الإلهيين حيث يشكرون الآخرين على أيّة خدمة مهما كانت ضئيلة ويجزلون العطاء على أقل نعمة تصل إليهم من الغير ومن ذلك ما ورد فى قصة احدى جوارى الإمام الحسين عليه السلام التى أهدت له وردة جميلة فما كان من الإمام عليه السلام إلّاأن أعتقها جزاء صنيعها هذا، وعندما سئل عن سبب ذلك وأنّ هذا الجزاء الكبير لا يتلاءم مع تلك الخدمة الصغيرة من الجارية قال: «كذا أدّبنا اللَّه» «۱». وكذلك القصّة المعروفة الاخرى عن الثلاثة الكرام وهم الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وعبداللَّه بن جعفر الذين كانوا فى قافلة فتأخروا يوماً عنها فلجأوا فى الصحراء إلى خيمة عجوز منفردة فسقتهم الماء وأطعمتهم من لحم الشاة الوحيدة لديها فلّما انتهوا من الطعام وأرادوا الرحيل عنها قالوا لها: إذا وردت المدينة فأتى إلى دورنا لنجازيك على هذه الخدمة الكبيرة، ثم مضت أعوام من القحط الشديد فى تلك الصحراء إلى درجة أنّ الأعراب وأهل الخيام فى تلك الصحراء جاءوا إلى المدينة طلباً للطعام والغذاء، وفى أحد الأيّام وقعت عين الإمام الحسن عليه السلام على تلك العجوز فى أزقّة المدينة تطلب لها طعاماً، فناداها الإمام وذكّرها بنفسه وأنّه قدم عليها مع أخيه وابن عمّه إلى خيمتها فاطعمتهم من ذلك الطعام ولكن العجوز لم تتذكر شيئاً ورغم ذلك فإنّ الإمام قال لها: إذا لم تذكرى ذلك فأنا أذكره ثم إنّه وهب لها مالًا كثيراً وأغناماً كثيرة وبعثها إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام، فقام الإمام الحسين عليه السلام بمثل ما قام به أخيه الإمام الحسن عليه السلام من العطاء والكرم إلى هذه المرأة الكريمة، ثم أرسلها إلى عبداللَّه بن جعفر الذى صنع مثل ما صنع الحسن والحسين عليهما السلام حتى أنّ هذه المرأة (صارت من أغنى الناس) كما ورد فى ذيل الحديث «۲». ونقرأ أيضاً قصّة (شيماء) بنت حليمة السعدية واُخت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من الرضاعة حيث حباها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتقدّم لها بفائق الاحترام والشكر جزاء للخدمة التى تقدّمت بها امّها حليمة السعدية للنبى صلى الله عليه و آله فى طفولته، فقد ذكر المؤرخون بأنّ طائفة كبيرة من قبيلة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۱ بنى سعد قبيلة حليمة السعدية وقعوا أسرى بيد المسلمين فى حرب حنين، وعندما رأى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله شيماء بين الأسرى تذكّر خدماتها هى وامّها فى أيّام طفولته، فنهض من مكانه إحتراماً لها وفرش عباءته على الأرض وأجلس شيماء عليها وأخذ يسألها بكل لطف ومحبّة عن أحوالها وقال: أنت صاحبة الفضل علىّ وكذلك امّك، فى حين أنّه قد مرّ على ذلك ستون سنة تقريباً، وهناك طلبت شيماء من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يطلق سراح أسرى قبيلتها فقال: أنا اوافق على هذا الطلب من سهمى، فعندما سمع المسلمون ذلك وهبوا حصّتهم كذلك من الأسرى لشيماء، وبالتالى تم تحرير جميع أسرى هذه القبيلة بسبب تلك المحبّة والخدمة التى عاشها النبى صلى الله عليه و آله فى مرحلة

الطفولة «۱». ومثال آخر على ذلك هو ما ورد فی سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله من أنّه کانت هناك امرأة تدعی (ثویبة) التی نالت شرف ارضاع رسول اللّه صلی الله علیه و آله قبل «حلیمة السعدیة» من لبن ولدها «مسروح»، فعندما هاجر النبی صلی الله علیه و آله ورزقه اللّه المال کان یرسل لها بعض الثیاب والهدایا إلی آخر حیاتها حیث توفیت بعد واقعة «خیبر». والعجیب أنّه جاء فی بعض التواریخ أنّ هذه الامرأة «ثویبة» کانت أَمة «أبی لهب» وعندما بشرت أبا لهب بولادة رسول اللّه أعتقها أبو لهب (ومعلوم أنّ أبا لهب فی ذلك الزمان قام بهذا العمل بسبب رابطة القرابة بینه وبین رسول اللّه صلی الله علیه و آله، حیث فرح أبو لهب لمّا رزق أخوه عبداللّه). وعندما مات أبو لهب بعد سنوات من العداء والأذی لرسول اللّه صلی الله علیه و آله رآه أخوه العباس فی عالم الرؤیا، فسأله عن حاله، فقال: أنا معذّب فی النار، ولکن یخفّف عنی العذاب فی لیالی‌الأثنین بحیث أشرب الماء من بین أصابعی، لأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله ولد یوم الأثنین، وعندما بشرتنی أمتی ثویبة بولادته وعلمت أنّها أرضعته لعدّة أیّام أعتقتها» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۷۲

الغیبة، التنابز بالألقاب وحفظ الغیب

تنویه:

تقدّم فی الجزء الأول من هذا الکتاب والذی یبحث عن الاصول العامة للقیم الأخلاقیة بحث حول علاج آفات اللسان علی أساس أنّها أول خطوات إصلاح الأخلاق وتهذیب النفس والسیر والسلوك إلی اللّه تعالی، وقد وعدنا هناك أن نفصّل الحدیث عن هذه الحالة ونذکر جزئیات اخری فی البحوث اللاحقة، وأحد افرازات آفة اللسان هذه هی مسألة (الغیبة) التی هی من أخطر المفاسد الأخلاقیة وأکثرها إتّساعاً وشیوعاً حیث تتسبب فی هتك حُرمة الآخرین، وکشف أسرارهم، وإشاعة الفحشاء، وتمادی المذنبین والمجرمین فی سلوکهم، وبالتالی تفضی إلی تزلزل إعتماد الناس وثقتهم بالبعض الآخر، ولا ریب أنّ لکثیر من الناس عیوب ونقاط ضعف مستورة غالباً، فإذا اتّضحت هذه العیوب ونقاط الضعف فسوف تتزلزل الثقة العامة بین الناس وتنتشر المفاسد الأخلاقیة العدیدة التی ذکرناها آنفاً فی الوسط الاجتماعی، ولذا نهی الإسلام عن ذلك بشدّة، وجاء فی کتب علماء الأخلاق أنّ الغیبة من أسوأ آفات اللسان (رغم أنّ الغیبة لا تنحصر بذکر الطرف الآخر باللسان، بل قد تتحقق بالقلم أو الإشارة أو التعرض بشکل من الأشکال للآخر). وبما أنّ السلوك إلی اللّه تعالی لا یمکن أن یتحقق للإنسان ولا یری المجتمع الإنسانی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۷۴ السعادة والصلاح بدون إزالة هذه الرذیلة الأخلاقیة بین أفراد المجتمع فلذلك نجد أنّ النصوص الدینیة قد اهتمت بهذا الأمر إهتماماً بالغاً. إنّ تسمیة الأشخاص الآخرین بأسماء وقحة وألقاب قبیحة فی غیابهم یعتبر فرع من فروع الغیبة المحرّمة، رغم أنّه قد یذکر بعنوان مستقل، ولذلك ذکرناهما تحت عنوان واحد. النقطة المقابلة للغیبة حفظ الغیب، أی أنّ الإنسان یذکر الآخرین من موقع المدح والثناء ویدافع عنهم فی حال تعرضهم للغیبة لحفظ کرامتهم وسمعتهم بما ستأتی الإشارة إلیه، وهذه احدی الفضائل الأخلاقیة المهمّة وتتضمّن برکات کثیرة علی مستوی الفرد والمجتمع. علی أیة حال ونظراً لأهمیة الموضوع، فقد تطرق القرآن الکریم فی مواضع عدیدة إلی هذه المسألة وأصدر أحکاماً مشددة علیها: ۱- «وَلَا یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَیُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ» «۱». ۲- «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «۲». ۳- «إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الْفَاحِشَةُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ» «۳». ۴- «لَایُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَکَانَ اللَّهُ سَمِیعاً عَلِیماً» «۴».

تفسیر واستنتاج:

تنطلق «الآیة الاولی» لتتحدث بصراحة عن ثلاث أشیاء نهی القرآن الکریم عنها، الأول: سوء الظن، ثم التجسس، ثم الغیبة، ومعلوم أنّ

سوء الظن يقود الإنسان إلى التجسس على أحوال الآخرين وكشف أسرارهم، وبما أنّ كل إنسان لا يخلو من نواقص ونقاط الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۵ ضعف، فسوف تنكشف من خلال التجسس، وبالتالى تكون موضوعاً للغيبة. هذا وأنّ القرآن الكريم اهتمّ بمسألة الغيبة فى هذه الآية أكثر من اهتمامه بمسألة سوء الظن والتجسس حيث تحرك فى استجلاء مضمونها من موقع الاستدلال وقال: «وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ». هذا التشبيه يشكل فى الواقع دليلًا منطقياً يبيّن جميع أبعاد المسألة، فالشخص الغائب قد شبّه هنا بالميت، والرابطة معه هى رابطة الاخوة، وسمعته وشخصيته بمثابة جسده، وغيبته بمثابة أكل لحمه، وهو العمل الذى ينفر منه وجدان كل فرد مهما كان ضعيفاً، ولا يجد كل إنسان الاستعداد لارتكابه حتى فى أشدّ الظروف وأقسى الحالات. وهذا التشبيه يمكن أن يكون إشارة إلى نكات اخرى كثيرة: فمن جهة أنّ الشخص الغائب مثل الميت فى عدم قدرته على الدفاع عن نفسه، والتهجم على من لا يقدر على الدفاع عن نفسه يعدّ من أسوأ الحالات الأخلاقية فى الدناءة والحقارة. ولا شك أيضاً أن تناول الميتة لا يتسبب فى سلامة البدن والروح، بل يفضى إلى الابتلاء بأنواع الأمراض، وعليه فإنّ المستغيب إذا ما استطاع اطفاء نار حسده وحقده بواسطة الغيبة وبصورة مؤقتة، فسوف لا يمضى وقت طويل حتى تورق بذور المفاسد الأخلاقية التى زرعها فى قلبه وتعمل على زيادة قلقه وتوتره النفسى. وكما أنّ الحيوان أو الإنسان الآكل للميتة يتسبب فى انتشار الأمراض والميكروبات فى الوسط الذى يعيش فيه، فكذلك الشخص المستغيب يعمل على إشاعة الفحشاء والمنكر بين المسلمين بذكره عيوب وذنوب الآخرين المستورة. عندما يذكر القرآن الكريم هذا المثال بتفاصيله الدقيقة فإنّه يروم إلى تثوير وجدان الإنسان وفطرته تجاه هذا الذنب الكبير، ولعل هذا هو السبب فى حكاية الآية المثال المذكور بصيغة سؤال لكى يجد الإنسان الجواب بنفسه فى أعماق وجدانه وبالتالى يكون تأثيره أكبر فى واقع الإنسان وأحاسيسه حيث تقول الآية: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً؟». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۶ وضمناً فانّ الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أن موارد الاستثناء من حكم الغيبة وجوازها (من قبيل التظلم والمشورة وإصلاح ذات البين) هى فى الواقع من قبيل المضطر لتناول الميتة حيث ينبغى به أن يقنع بالحدّ الأقل منها. ولكن قد يثار هذا السؤال، وهو أننا لا نرى فى جميع انحاء العالم من يتناول لحم إنسان ميت (فكيف إذا كان أخاه)، فانّ شناعة هذا الفعل وقبحه ممّا لا يكاد يخفى على أحد، فى حين أنّ ممارسة الغيبة تعدّ من الامور المتعارفة والمنتشرة فى المجالس إلى درجة أنّها تعدّ أحد وسائل الترفيه والفكاهة، فكيف نفسّر هذا الاختلاف بين هذين الحالين؟ الظاهر أنّ هذا الأمر لا دليل له سوى تفشى الغيبة وكثرة تداولها بين الناس بحيث أدّى إلى التقليل من قبحها إلى هذه الدرجة. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع التهديد الشديد لمن يمارس الغيبة (السخرية والاستهزاء) فى حق الآخرين وتقول بأنّ العذاب العظيم ينتظر هؤلاء الأشخاص الذين يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم بألسنتهم أو حركات أيديهم أو يغمزونهم بأعينهم من موقع التهمة والخصومة: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ». كلمة «لمزة» من مادة لمز على وزن رمز وكلمة «همزة» بنفس الوزن كليهما من صيغ المبالغة، واختلفوا هل أنّهما بمعنى واحد، أو يختلفان فى المعنى؟ هناك كلام بين المفسّرين، بعض يرى أنّهما بمعنى واحد، وبعض آخر يرى أنّ الهمزة بمعنى الغيبة واللمزة بمعنى التعيير، وذهب ثالث إلى عكس هذا المعنى، ورابع إلى أنّ الهمزة تقال لمن يعيب على الآخرين بالإشارة بينهما اللمزة تقال لمن يقوم بهذا العمل باللسان، وخامس يرى بأنّ الاولى هى تعيير الشخص بالعلن والثانية وبالخفاء وبعض يرى أنّ «الهُمزة» تقال لمن يعيب الشخص فى حضوره بينما «اللمزة» تقال لمن يعيب شخصاً فى غيابه. ويذكر بعض المفسّرين أنّ مقولة «الهمز واللمز» عبارة عن صفتين رذيلتين مركبتين من حالات الجهل والغضب والتكبّر، لأنّهما تتسببان فى إيذاء الآخرين وجرح عواطفهم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۷ وشخصيتهم وكذلك تتضمّنان نوع من حالة التفوّق وطلب العلو، وبما أنّ مثل هذا الإنسان لا يرى فى نفسه فضيلة وصفة حسنة فإنّه يتحرّك لجبران هذا النقص من موقع ذكر عيوب الآخرين ونقائصهم ليحرز بذلك تفوّقه «۱». وقد ذكرت بعض التفاسير وطبقاً لحديث شريف أنّ هاتين الصفتين هما من صفات المنافقين «۲»، والتعبير بكلمة (ويل) فى بداية هذه الآية والتى وردت فى سبع وعشرين مورداً فى القرآن الكريم هى إشارة إلى اللعن والهلاك وأنواع العذاب لمن يرتكب مثل هذه الأفعال، وما يقال من أنّ هذه الكلمة إشارة إلى بئر أو وادى عميق فى جهنّم

ملتهب بالنيران هو فی الواقع من قبيل تفسير الكلی بمصداقه. وهذه الكلمة وكذلك كلمة (ويس) و (ويح) كلّها تأتی لبيان حالة التأسف التی تصيب الإنسان، غاية الأمر أنّ (الويل) تأتی فی الموارد الشديدة القُبح و (ويس) تأتی فی مقابل حالة التحقير، و (ويح) تأتی فی مقام الترحّم «۳». ومع الالتفات إلی موارد استعمال كلمات (ويل) فی القرآن الكريم يتّضح جيداً أنّ هذه المفردة تستخدم فی الموارد التی يكون فيها العمل قبيحاً جدّاً، ومنه يتّضح كذلك أنّ الغيبة والتنابز بالألقاب يعتبر فی دائرة المفاهيم القرآنية من أقبح الأعمال. «الآية الثالثة» تتحدث عن الذين يشيعون الفحشاء بين الناس من موقع الذم لهم والتهديد الشديد بالعذاب الأليم لمرتكب هذه الرذيلة وتتضمّن كذلك ذم الغيبة لأنّ إشاعة الفحشاء تتمّ غالباً من خلال الغيبة أو التهمة فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِی الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِی الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وبالطبع فإنّ شأن نزول هذه الآية إنّما هو فی مورد التهمة التی نسبهما المنافقون لبعض زوجات النبی الأكرم صلی الله عليه و آله، ولكن مسألة إشاعة الفحشاء بين الناس لها مفهوم عام يستوعب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۷۸ موارد كثيرة لا سيما الغيبة. وفی الحقيقة إنّ الآية الاولی من الآيات المذكورة آنفاً تتحدث عن البعد الفردی لحق الناس بالنسبة إلی الغيبة ومن هذه الآية نستوحی الآفاق السلبية الاجتماعية لظاهرة الغيبة، لأنّه فی كل مورد يقوم الناس بارتكاب الخطايا والذنوب فی الخفاء ثم يفتضح أمرهم فإنّ الكثير من الأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان واهتزاز القيم الأخلاقية فی واقعهم سوف يجدون فی أنفسهم ميلًا ورغبة لإرتكاب مثل هذه الذنوب. «الفاحشة» من مادة فحش، وهی فی الأصل تعنی كل فعل خرج عن حدّ الاعتدال وأضحی فاحشاً، وعليه فإنّ هذه الكلمة تشمل جميع المنكرات والسلوكيات القبيحة فی دائرة الأخلاق رغم ورود هذه الكلمة فی القرآن الكريم فی عدّة موارد وكذلك فی المصطلح المتداول بين الناس بمعنی الانحراف الجنسی والتلّوث بأنواع المحرّمات للشهوة الجنسية، ولكن هذا لا يمنع من عمومية الفاحشة لموارد اخری، وفی الحقيقة إنّ استعمالها فی خصوص الانحرافات الجنسية هو من قبيل استعمال الكلی فی مصداقه البارز، وعليه فإنّ اشاعة الفحشاء الوارد فی هذه الآية لا ينحصر بالانحراف الجنسی، بل يرد فی موارد اخری تأتی غالباً عن طريق الغيبة. وفی الآية ۴۵ من سورة العنكبوت نقرأ عن الصلاة: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنهی عنِ الفَحشَاءِ والمُنكَرِ». ولهذا السبب ورد فی ذيل هذه الآية حديثاً شريفاً يقول: «مَنْ قالَ فِی مُؤمِنٍ ما رَأَتْهُ عَيناهُ وَسَمِعَتْهُ اذُناهُ فَهُوَ مِنْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فِی الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ» والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يذكر فی الآية أعلاه أنّ جزاء مثل هؤلاء الأشخاص هو العذاب الأليم فی الدنيا والآخرة، وهذا يؤكّد أنّ الغيبة وإشاعة الفحشاء لها آثار مخربّة فی حياة الإنسان علی المستوی الفردی والاجتماعی. وآخر ما يقال فی تفسير الآية محلّ البحث أنّ القرآن الكريم ولغرض التأكيد علی هذه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۷۹ المسألة المهمّة لم يقل إنّ الذين يشيعون الفحشاء لهم عذاب أليم فی الدنيا والآخرة بل قال: « «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِی الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِی الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وفی «الآية الرابعة» والأخيرة من الآيات محلّ البحث نقرأ إستثناءاً لحرمة الغيبة، وهو ما إذا كانت الغيبة صادرة من مظلوم يريد أن يأخذ بحقّه من الظالم ومن ذلك يتّضح جيداً أنّ الغيبة لا تجوز بدون مبّرر ومسوّغ فتقول الآية: «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً». والمراد بالجهر من القول هو أی نحوٍ من الإظهار اللفظی سواءاً كان بصورة شكوی أو حكاية أو غيبة أو لعن وذم وأمثال ذلك، وعليه فإنّ من وقع مظلوماً يحقّ له ولغرض الدفاع عن نفسه أن يفضح هؤلاء الظالمين ويذكر أعمالهم العدوانية للآخرين. ومن أجل، أن لا يسيء الناس الاستفادة من هذا الاستثناء ويتحرّكون من موقع الغيبة والوقيعة بالآخرين بحجّة أنّهم مظلومون فإنّ الآية الكريمة تعقّب فی آخرها بقوله تعالی: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، فهو مطّلع علی نيّات الأشخاص وأفكارهم ودوافعهم فی أعمالهم هذه. وممّا تقدّم من الآيات الكريمة نستوحی قبح وشناعة الغيبة وبالتالی فإنّ عواقبها الدنيوية والاخروية ستكون أليمة للغاية.

الغيبة فی الروايات الإسلامية:

وقد ورد فی المصادر الروائية وكتب الأخلاق روايات كثيرة فی ذم الغيبة، حيث تقرّر هذه الروايات فی مضامينها حقيقة مذهلة حول

الآثار الوخیمة للغیبة وعقوبتها الألیمة إلی درجة أنّه قلّما نجد بین الذنوب والمحرّمات ما ورد فی حقّه مثل هذه الکلمات والتعبیرات، ونحن نختار منها عشر روایات: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۸۰ ۱- نقرأ فی حدیث شریف أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله خطب یوماً فی المسلمین ونادی بصوتٍ رفیع بحیث سمعته النساء فی بیوتهنّ وقال: «یا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم یُؤمِنْ بِقَلبِهِ لا تَغتابُوا المُسلِمِینَ وِلا تَتَبَّعُوا عَوراتَهُم فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَورةَ أَخِیهِ یَتَتَبَّعُ اللَّهُ عَورَتَهُ حِتّی یَفْضَحَهُ فِی جَوفِ بَیتِهِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه خطب یوماً بالمسلمین وتحدّث عن ذم الربا حتی أنّه ذکر أنّ الدرهم من الربا أشدّ من ستة وثلاثین زنیة ثم قال: «إنّ أَربا الرِّبا عِرضُ الرَّجُلِ المُسلِمِ» «۲». هذا التعبیر الذی یقرّر أهمیّة ووخامة الغیبة بالنسبة إلی الزنا حیث ورد فی روایات متعددة وفی بعضها ذکر السبب فی ذلک وهو: «أمّا صاحب الزنا فیتوب فیتوب اللّه علیه، وأمّا صاحب الغیبة فلا یتوب اللّه علیه حتی یکون صاحبه الذی یحلّه» «۳». ۳- فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام یقول: «الغَیبَةُ حَرامٌ عَلی کُلِّ مُسلِمٍ وَأَنَّها لَتَأکُلُ الحَسناتِ کَما تأکلُ النّارَ الحَطَبَ» «۴». وهذه الخصوصیة تترتب علی الغیبة وکما سیأتی فی البحوث اللاّحقة بسبب أنّ الغیبة تتعرّض لحقّ الناس وبالتالی فإنّ حسنات المغتاب سوف تنتقل إلی صحیفة أعمال الشخص الآخر الذی وقع مورد الغیبة لجبران الخسارة والضرر الذی تحمّله من هذه الغیبة. ۴- وجاء فی حدیث قدسی أنّ اللّه تعالی خاطب نبیّه موسی علیه السلام وقال: «مَن ماتَ تائِباً مِنَ الغَیبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ یَدخُلِ الجَنَّةَ ومَن ماتَ مُصِرّاً عَلَیه، فَهُوَ أَوّلُ مَنْ یَدخُلُ النّارَ» «۵». وفی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله نجد تعبیراً مذهلًا عن مخاطرة الغیبة حیث قال: «مَن مَشی فِی غَیبَةِ أَخِیهِ وَکَشفِ عَورَتِهِ کانَ أَوَّلَ خُطوَةٍ خَطاها وَضَعَها فِی جَهَنّمَ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۸۱ ۶- وفی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «ما عُمّرَ مَجلِسٌ بِالغَیبَةِ إلّاخُرِّبَ بِالدِّینِ فَنَزِّهُوا أَسمَاعَکُم مِنْ اسْتِماعِ الغَیبَةِ فَإِنَّ القائِلَ وَالمُستَمِعَ لَها شَرِیکَانِ فِی الإثْمِ» «۱». ۷- وفی حدیث آخر أیضاً عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله یتحدّث فیه عن الأضرار المعنویة الکبیرة للغیبة ویقول: «مَن إغتابَ مُسلِماً أو مُسلِمَةً لَنْ یَقْبَلَ اللّهُ صَلاتَهُ وَلا صِیامَهُ أَربَعِینَ لَیلَةً إلّا أَنْ یَغْفِرَ لَهُ صاحِبُهُ» «۲». ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام: «مَن رَوی عَلی مُؤمِنٍ رِوایَةً یُرِیدُ بِها شَینَهُ وَهَدْمَ مُرُوَّتِهِ لِیَسْقُطَ مِنْ أَعیُنِ النّاسِ، وَأَخْرَجَهُ اللّهُ مِنْ وِلایَتِهِ إلی وِلایَةِ الشَّیطانِ فَلا یَقْبَلُهُ الشَّیطانُ» «۳». ومن الواضح أنّ المصداق البارز للروایة أعلاه هوالشخص المغتاب الذی یهدف من الغیبة إظهار عیوب المؤمنین المستورة ویعمل علی هدم شخصیتهم الاجتماعیة واسقاطهم بین الناس، فعذاب مثل هؤلاء الأشخاص عظیم إلی درجة أنّ الشیطان نفسه یستوحش من قبول ولایة هؤلاء ویتبرأ من رفقته وصحبته. ۹- وفی الحدیث الوارد فی مناهی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «نَهی عَنِ الغَیبَةِ وَقالَ مَنْ إغتابَ امرءً مُسلِماً بَطَلَ صَومُهُ وَنَقَضَ وَضُوءُهُ، وَجاءَ یَومَ القیامَةِ یَفُوهُ مِنْ فِیهِ رائِحَةٌ أَنتَنَ مِنَ الجِیفَةِ یَتَأَذّی بِهِ أَهلَ المَوقِفِ» «۴». ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام رغم وجود روایات کثیرة اخری فی هذا المجال ولکننا نکتفی بهذا المقدار الممکن من بیان عواقب الغیبة وآثارها الوخیمة الدنیویة والاخرویة حیث یقول: «إیّاکَ والغَیبَةِ فَإنّها تُمقِتُکَ إلی اللّهِ والنّاسِ وَتَحبِطُ أَجرَکَ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۸۲ ومن المعلوم أنّ حدیثاً واحداً من هذه الأحادیث یکفی للأحاطة بأهمیّة هذه المعصیة وخطرها علی واقع الإنسان وحیاته المعنویة فکیف لو ضممنا وجمعنا هذه الأحادیث بعضها إلی البعض الآخر؟ ولا شکّ أنّه مضافاً إلی القرآن الکریم وتواتر الروایات الإسلامیة وإجماع المسلمین علی حرمة الغیبة، فإنّ العقل أیضاً یقرّر قبح هذه الخطیئة ویذمّها باعتبارها أنّها من المصادیق البارزة للظلم والعدوان الذی هو من المستقلات العقلیة، وعلیه فإنّ حرمة الغیبة تقوم علیه جمیع الأدلة الأربعة الفقهیة. وبقیت هنا مسائل مهمّة لابدّ من استعراضها وبحثها:

تعریف الغیبة:

ورد تعریف الغیبة لأرباب اللغة والفقهاء وعلماء الأخلاق تعاریف وتفاسیر مختلفة تعود فی حقیقتها إلی معنی واحد رغم اختلافها علی مستوی التعمیم والتخصیص وغیر ذلک. یقول فی صحاح اللغة أنّ الغیبة هی أن یذکر الإنسان عیب الآخر وعمله فی حال عدم

حضوره بحيث لو سمعه ذلك الشخص لتألم وتأثر. ويقول فى المصباح المنير: أنّ الغيبة هى كشف العيوب المستورة للآخرين بحيث يتألمون منها وذلك غيبتهم. وينقل الشيخ الأنصارى قدس سره عن بعض كبار العلماء أنّ الإجماع والأحاديث الشريفة تدلّ على أنّ الغيبة فى حقيقتها هى (ذكر أخاك بما يكره) فى غيبته «۱». وهذا المضمون ورد أيضاً فى حديث نبوى شريف، وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فى تعريف الغيبة يقول: «الغَيبَةُ أنْ تَقُولَ فِى أَخِيكَ ما قَد سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيهِ ...» «۲». ويستفاد ممّا ذكر آنفاً أنّ للغيبة عدّة أركان، أوّلها أن يكون الكلام فى حال غيبة الشخص الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۳ المذكور، فلو قيل هذا الكلام فى حضوره فإنّه يكتسب عنواناً آخر (كعنوان الايذاء أو التهتك وأمثال ذلك) والآخر أن يكون الكلام من قبيل ذكر عيوب الشخص المستورة والخفيّة فلو كانت من العيوب البارزة والظاهرة لم تكن من الغيبة رغم أنّها قد تكون محرّمة بعناوين اخرى، والثالث أن يكون الكلام بحيث إذا سمعه الشخص المذكور بالغيبة فسوف يتألم ويتأثر، ولكن الظاهر أنّ هذا القيد قيد توضيحى فحسب، لأنّ إظهار العيوب المستورة للآخرين وخاصة فى غيبتهم تورث التألم والأذى، وقد يكون هناك بعض الأراذل الذين لا يمتعضون بذكر معايبهم ونشر فضائحهم بين الناس ولكن مثل هؤلاء الأشخاص قلّة نادرة. وممّا تقدّم آنفاً تتضح لنا هذه الحقيقة جيداً، وهى أنّه عندما يقال لبعض العوام من الناس: لماذا ترتكب غيبة الشخص الفلانى وتذمّه وراء ظهره؟ يقول: إننى أتحدث بهذا الكلام أمامه أيضاً وفى حضوره، فهذا من قبيل العذر أقبح من الذنب، لأنّ التحدّث بذلك أمامه وفى حضوره لا يجوّز غيبته أبداً، فذلك أيضاً ذنب كبير بدوره لأنّه يدخل تحت عنوان أذى المؤمن وكذلك هتك حرمته بين الناس وهدم شخصيته فى المجتمع. ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه ذكر بين يديه رجل فقال بعض الحاضرين: أنّه رجل عاجز وضعيف فقال: رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لقد اغتبتموه، فقالوا: يا رسول اللَّه لقد ذكرنا صفته فقال: «إنْ قُلتُم ما لَيسَ فِيهِ فَقَد بَهَتّموه» «۱». والعذر الآخر الذى يذكره بعض الجهّال كمسوّغ للغيبة ويتذرّعون به أمام من ينهاهم عن الغيبة يقولون: إنّما نقوله هو حق وليس بكذب، فالشخص الفلانى لديه هذا العيب، وهذه الذريعة لا تقل قبحاً عن سابقتها لأنّه لو لم يكن هذا العيب فى الطرف الآخر لدخل تحت عنوان التهمة لا الغيبة، فالغيبة كما ذكرنا هى ذكر العيوب الخفيّة للآخرين فى غيبتهم. ولابدّ من الإشارة أيضاً إلى أنّه يستفاد من بعض كلمات الأعاظم وعلماء الأخلاق أنّ الغيبة لا تقع بالنسبة إلى جميع المؤمنين، بل تقع فى مورد الأشخاص الذين تابوا من ذنوبهم وندموا على خطيئتهم وعادوا إلى جادة الصواب، وأمّا الفاسق والمذنب والمتجاهر بالإثم، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۴ فإنّ غيبته مباحة حتى لو كان ذنبه مستوراً ويتمسّكون فى هذا بالرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث أنّه قال: «مَنْ عامَلَ النّاسَ فَلَم يَظلِمهُم، وَحَدَّثَهُم فَلَم يَكذِبْهُم، وَوَعَدَهُم فَلَم يُخْلِفْهُم كَانَ مِمَّنْ حُرِّمَ غَيبَتُهُ وَكَمُلَتْ مُرُوَّتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ وَوَجَبَتْ إخُوتُهُ» «۱». وبهذا فإنّ الغيبة تكون محرّمة إذا كانت بالنسبة إلى الشخص العادل بينما الشخص الفاسق فيجوز غيبته حتى لو كان يمارس الذنب فى الخفاء. العلّامة المجلسى قدس سره يميل إلى هذا الرأى أيضاً فى الجزء ۷۲ من بحار الانوار باب كتاب العشرة رغم أنّه عدل عن هذا الرأى فى ذيل كلامه أيضاً «۲». ولكن من المسلّم أنّ هذه الرؤية تسبب فى أن يكون أكثر الناس تجوز غيبتهم وهذا على خلاف اطلاق الآية القرآنية والروايات العديدة فى مجال حرمة الغيبة. ومضافاً إلى الروايات الكثيرة التى تقرّر أنّ عدّة طوائف من الناس تجوز غيبتهم أو لا غيبة عليهم ومنهم الفاسق المتجاهر بالفسق ومن جملة ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَربَعَةٌ لَيسَتْ غَيبَتُهُم غَيبَةٌ، الفاسِقُ المُعلِنِ بِفِسقِه، ....» «۳». ونفس هذا المضمون ورد فى رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً. ويقول الإمام الصادق عليه السلام فى هذا الصدد: «إذا جاهَرَ الفاسِقُ بِفِسقِهِ فَلا حُرمَةَ لَهُ عَلى غَيبَةٍ» «۴». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ فَلا غَيبَةَ لَهُ» «۵» ، وهناك أحاديث متعددة اخرى صريحة فى هذا المعنى، وبمقتضى مفهوم الوصف لهذه الأحاديث، بل مفهوم الشرط حيث يكون الكلام فى مقام الاحتراز ونفى الغير يتّضح جيداً أنّه إذا إرتكب الشخص الذنب فى الخفاء فلا يجوز غيبته، وكما سوف يرد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۵ فى بحث إستثناءات الغيبة أنّ الشخص المتجاهر بالفسق تجوز غيبته فى خصوص الذنب الذى تجاهر به لا بالنسبة إلى جميع أفعاله الاخرى. ومضافاً إلى أنّ

حرمـة الغيبـة ثابتـة بدليل العقل أيضاً لأنّها نوع من الظلم والعدوان على الآخرين وإفشاء أسـرارهم وإسـقاط شخصـيتهم بين الناس، ولا شـكّ أنّه لاـ فرق بين الفـاسق والعـادل فى هـذا المجـال إلّاأن تكـون الغيبـة فى مـوارد النهى عن المنكر أو دفع الخطر أو الضـرر عن المجتمع الإسلامى وحينئذٍ لا فرق أيضاً بين الفاسق والعادل. وسيأتى فى بحث إستثناءات الغيبة تفصيل أكثر حول هذا الموضوع.

أقسام الغيبة:

أحيانـاً يتصوّر أنّ الغيبـة تقع باللسـان فحسب، فى حين أنّ حقيقـة الغيبـة كما إتّضـح آنفاً هى اظهار العيوب المسـتورة للشـخص الآخر بحيث إذا سـمع بـذلك تألّم وتأثر منها، وهـذا العمل يمكن أن يحصل بواسـطة اللسان أو بواسـطة القلم أو حتى بالإشارة باليـد والعين والحـاجب، وأحيانـاً تتخـذ الغيبـة صـبغة المزاح واخرى صـبغة الجـد، وكم من الـذنوب والآثـام التى يرتكبهـا البعض فى لباس المزاح والسـخرية حيث تكون أخطر من الذنوب التى تلبس لباس الجد، لأنّ الإنسان يتحرّك بحرية أكثر فى حالة المزاح بخلاف حالة الجد، حيث لا يكون قادراً على بيان المطلب المراد بصورة وافيـة فيذكره بصـبغة المزاح والإثاره للتفكّه والضـحك. مضافاً إلى أنّ الغيبة تارةً تقع بتعبيرات صـريحة (وبالاصطلاح المنطقى بالدلالة المطابقية والتضمنية) واخرى بالدلالة الالتزامية والتعبيرات الكنائية التى قد تكون أبلغ من التصـريح، مثلًا عنـدما يتحـدّث الشـخص عن أحـد المؤمنين يقول: سامحه اللّه لنسـكت عن هـذا فإنّ الشـرع المقدس قد أغلق أفواهنا، وبهذه الكلمات يريد أن يفهم الآخرين على أنّ ذلك الشخص قد إرتكب أفعالًا قبيحة وعظيمة، وقد يكون التصريح بها لا يثير المسـتمع كمـا هو الحال فى الكنايـة، ولكن بما أنّ مثل هـذا الكلام يثير تصوّرات مجملـة عن الموضوع فإنّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۶ ذهن المسـتمع قـد يتصوّر ذنوباً متنوعـة وكثيرة يكون الشـخص المذكور بريئاً منها. أو يقول: إنّ الشـخص الفلانى له صـفات جميلة وأفعال حسـنة ولكن ... ويسكت عن إكمال الحديث. وأحياناً اخرى يتحرّك المتكلّم من موقع النصيحة والتحرق القلبى ويقول: سامـح اللّه فلان وجعل عاقبته إلى خير، أو يقول: أنا خائف من عاقبـة أمره، فهو فى الحقيقـة يعرض الـذنب بلباس الطاعة والشـر بثياب الخير، وكما يقول بعض العلماء أنّه بـذلك يكون قـد ارتكب إثماً مضاعفاً، فيكون قـد اغتاب من جهة وارتكب الرياء من جهة اخرى، فمن جهـة قد إغتاب الشـخص الآخر بتلميحه لمعايب كثيرة ونسـبتها إلى الطرف الآخر، وتحرّك من موقع الرياء حيث تظاهر بأنّه ليس من أهل الغيبة، بل من أهل التقوى والطاعة لأوامر اللّه تعالى.

دوافع الغيبة:

إنّ للغيبـة عوامـل كثيرة ودوافع متعـددة يكـاد كـل واحـد منهـا يكون سـبباً كافياً لإرتكاب الغيبـة، ومن ذلك: ۱- الحسـد. ۲- الأنانية والعجب ورؤية الذات. ۳- الغرور والكبر. ۴- الحرص. ۵- الحقد. ۶- حبّ الجاه. ۷- حبّ الدنيا والثروة والمقام. ۸- الرياء. ۹- تزكية النفس واظهـار الطهارة والتقوى. ۱۰- طلب الترفيه عن النفس بـأمور غير مشـروعة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۷ ۱۱- سوء الظن. ۱۲- حبّ الانتقـام. ۱۳- التشـفى وإطفاء سورة الغضب. ۱۴- السـخرية والاسـتهزاء، وغير ذلك من أمثال هذه الدوافع النفسـية. والقدر المشترك بين هذه الامور هو أنّ الإنسان يسـعى لتسـقيط الشـخص الآخر وكسر شخصيته وموقعيته الاجتماعية ليضحى فى أنظار الناس ذليلًا ولاـ قيمـة له، ومن هـذا الطريق يجبر نقصه ويهـدأ غضبه ويشـيع حالـة الانتقـام من الطرف الآخر، أو يتحرك لحرمانه من المقام والثروة أو لاظهار الزهد والقداسة الزائفة أو يتحرك من موقع إثارة الضحك والسخرية أو يرى لنفسه امتيازاً ومقاماً على الآخرين. ومن هنا يتّضـح أولًا: أنّ الغيبـة مفهوم واسع الأطراف ولها عوامل متنوعة وكثيرة، ففى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «أَصلُ الغَيبَةِ تَتَنَوَّعُ بِعَشـرَةِ أَنواعٍ، شِـفاءِ غَيظٍ وَمُساعَـدَةِ قَومٍ وَتُهمَـةٍ، وَتَصدِيقِ خَبَرٍ بِلا كَشـفِهِ، وَسُوءِ ظَنٍّ وَحَسَدٍ وَسُـخرِيَّةٍ وَتَعَجُّبٍ وَتَبَرُّمٍ وَتَزَيُّنٍ، فَان أَرَدتَ السَّلامَةَ فَاذكُرِ الخالِقَ لاالمَخلُوقَ فَيَصِيرُ ذلِكَ مَكانَ الغَيبَةِ عِبرَةً وَمَكانَ الإِثمِ ثَواباً» «۱». ومن الواضح أنّ الإمام هنا فى صدد بيان قسماً من العوامل المهمّة للغيبة لأنّه كما تقدّم أنّ دوافع الغيبة متعددة وكثيرة غير ما ذكر فى الحديث الشريف.

العواقب السلبیة للغیبة:

للغیبة آثار سلبیة ونتائج مخربّة کثیرة علی الفرد والمجتمع البشری فلو تساهل الناس معها لأزداد الحال خطورة، ومضافاً إلی ذلک العواقب الوخیمة المعنویة والعقوبات الإلهیة المترتبة علی هذه المعصیة کما سبقت الإشارة إلیها فی الروایات الشریفة. وبالنسبة إلی المورد الأول یمکن الإشارة إلی مایلی: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۸۸ ۱- إنّ الغیبة تقوم بأتلاف أهم رأسمال للمجتمع البشری، والذی یتمثل بتبادل الثقة والاعتماد بین الأفراد، لأنّ أغلب الأشخاص لدیهم نقاط ضعف یسعون لکتمانها وسترها لیحفظوا ثقة الناس واعتمادهم، وقبح هذه النواقص ونقاط الضعف من شأنه أن یقطع أواصر الاعتماد والثقة بین الناس. ومن المعلوم أنّ الأساس فی ظاهرة التعاون الاجتماعی والتفاعل الإیجابی والعاطفی بین الناس یتمثل فی الاعتماد المتقابل بین أفراد المجتمع وبدون ذلک یتبدل المجتمع إلی جحیم لا یطاق من کثرة المشاکل الاجتماعیة. ۲- إنّ الغیبة تتسبب فی سوء الظن بین الأفراد، لأنّ العیوب المستورة للأشخاص عندما تنکشف للناس فتتسبب فی زوال حسن الظن لدی الإنسان بالنسبة لجمیع الأسویاء والصالحین أیضاً حیث یقول: إنّ هؤلاء قد یمارسون مثل هذه الأعمال الشنیعة فی الخفاء ویتظاهرون بالصلاح والخیر فلا نعلم من حقیقة حالهم. ۳- إنّ الغیبة هی أحد أسباب إشاعة الفحشاء والمنکر، لأنّ الذنوب المستورة إذا ظهرت بسبب الغیبة فإنّ ذلک سیؤدی إلی تشجیع الآخرین علی إرتکابها، وأساساً فإنّ إظهار الذنوب والکشف عنها من شأنه أن یزیل حالة الخشیة منها فیستصغرها الناس ویکون ذلک عذراً للفسّاق فی تبریر ذنوبهم وممارساتهم الخاطئة وأنّه إذا قمنا بارتکاب هذا الذنب فإنّ غیرنا ومن هو أفضل منّا وأعلم قد إرتکبه قبلنا. ونقرأ فی حدیث شریف عن الإمام الصادق أنّه قال: «مَنْ قالَ فِی مُؤمِنٍ ما رَأَتْهُ عَیناهُ وَسَمِعَتْهُ اذُناهُ فَهوَ مِنَ الَّذِینَ قالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الفاحِشَةُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أَلِیمٌ» «۱». ۴- إنّ الغیبة من شأنها أن تبعث الجرأة فی نفوس المذنبین علی ارتکاب الذنوب وکسر حاجز الحیاء، لأنّ أعمال الإنسان مادامت مستورة فإنّ الحیاء یمنعه من إرتکاب الأشنع منها والتجاهر بها خوفاً من الفضیحة والخزی أمام الآخرین، فلو أنّه إفتضح أمره، فحینئذٍ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۸۹ یزول مانع الحیاء من نفسه ویتجرّأ أکثر علی ارتکاب الذنب. ۵- إنّ الغیبة تورث الحقد والعداوة والبغضاء بین الناس لأنّ أهم رأسمال للإنسان فی المجتمع هو حیثیته وشخصیّته الاجتماعیة، والغیبة بإمکانها أن تذیب وتحرق رأس المال هذا فلا یبقی للإنسان شیئاً یعتدّ به فی حرکة الحیاة الاجتماعیة، ولذا تسبب الغیبة العداوة الشدیدة والحقد العمیق فی قلب الشخص المستغاب (فیما لو سمع بذلک). ۶- إنّ الغیبة من شأنها أن تسقط المستغیب فی أنظار الآخرین، لأنّهم سوف یتصوّرون أن هذا الشخص الذی یتحدّث لهم عن عیوب الآخرین سوف یتحدّث عن عیوبهم أیضاً للآخرین ویغتابهم، ولذلک ورد فی الروایة عن أمیر المؤمنین أنّه قال: «مَنْ نَقَلَ إِلَیکَ نَقَلَ عَنکَ» «۱». وفی حدیث آخر نقرأ: «لا مُرُوَّةَ لِمُغتابٍ» «۲». ۷- إنّ الغیبة من شأنها أن تکون عذراً لتبریر خطایا وذنوب الشخص المستغیب، فمن أجل أن یکون فی أمان من اعتراض الناس وهجومهم، فإنّه یتحرّک لممارسة هذا الذنب ویستغیب الآخرین لدفع التهمة عن نفسه. (وأمّا الآثار المعنویة السلبیة) للغیبة فأکثر من أن تحصی فی هذا البیان، ولکن نشیر إلی بعض ما ورد فی الروایات الإسلامیة عن ذلک: ۱- تقدّم فی الروایات السالفة أنّ الغیبة تمحق الحسنات وتبطل الأعمال الخیّرة کما تحرق النار الحطب، ویقول العالم الکبیر الشیخ البهائی قدس سره فی أحد کتبه: إنّ الغیبة کالصاعقة التی تحوّل الحسنات إلی رماد فی لمح البصر ثم یقول: إن الشخص الذی یرتکب الغیبة هو کمن نصب منجنیقاً واستهدف به حسناته لتحطیمها وتدمیرها «۳». ۲- إنّ الغیبة تعمل علی تدمیر إیمان الإنسان ودینه وتشویه قلبه کما یصنع مرض الجدری بجلد الإنسان. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۰ ۳- إنّ المرتکب للغیبة فی حالة العفو عنه سیکون آخر شخص یدخل الجنّة، وفی حالة عدم العفو عنه سیکون أول من یدخل النار. ۴- إنّ الغیبة تتسبب فی فضیحة الإنسان، فقد ورد فی الحدیث النبوی الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم یُؤمِنْ بِقَلبِهِ لاتَغتَابُوا المُسلِمِینَ وَلا تَتَبَّعُوا عَوراتِهِم فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَورَةَ أَخِیهِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَورَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَورَتَهُ یَفضَحُهُ فِی جَوفِ بَیتِهِ» «۱». ۵- إنّ الغیبة تؤدّی إلی انتقال حسنات

الشخص المغتاب إلى كتاب أعمال الطرف الآخر، وكذلك تؤدّى إلى انتقال سيئات الطرف الآخر المستغاب إلى كتاب أعمال المستغيب فنقرأ فى رواية عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يُؤتى بِأَحَدٍ يَومَ القِيامَةِ يُوقَفُ بَينَ يَدَى اللّهُ يُدفَعُ إلَيهِ كِتابُهُ فَلا يَرى حَسَناتَهُ فَيَقُولُ إلهى لَيسَ هذا كِتابِى فَإنِّى لا أرى فِيها طاعَتِى فَقالَ إنَّ رَبَّكَ لايُضِلُّ ولا يَنسى ذَهَبَ عَمَلُكَ بِاغتِيابِ النّاسِ ثُمَّ يُؤتى بِآخَرَ وَيُدفَعُ إلَيهِ كِتابُهُ فَيَرى فِيها طاعاتٍ كَثِيرَةً، فَيَقُولُ إلَهى ما هذا كِتابِى فَإنِّى ما عَمِلتُ هذِهِ الطاعاتِ، فَيَقُولُ: إنَّ فُلاناً إغتَابَكَ فَدُفِعَتْ حَسَناتُهُ إلَيكَ» «۲». ومن هذا المنطلق نقل عن بعض الشخصيات المعروفة السالفة أنّه أرسل إلى شخص إستغابه طبقاً من التمركهدية له وقال: إنّك قد أرسلت إلىّ حسناتك وأهديتها لى فأردت جبران صنيعك هذا بهذه الهدية. ونقل عن شخص آخر أنه كان يقول: أنّنى إذا أردت أن أستغيب أحد الأشخاص فإنّ امّى هى الأولى بذلك لأنّها أولى بحسناتى من الآخرين. ۶- إنّ الغيبة تتسبب فى أن لا تقبل صلاة المغتاب وصومه لمدّة أربعين يوماً كما ورد هذا المعنى فى الحديث النبوى الشريف قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ إغتابَ مُسلِماً أو مُسلِمَةً لَم يَقبَل اللّهُ تَعالى صَلاتَهُ ولا صِيامَهُ أَربَعِينَ يَوماً وَلَيلَةً إلّاأَنْ يَغْفِرَ لَهُ صاحِبُهُ» «۳».

علاج الغيبة:

اشارة

إنّ علاج هذا المرض الأخلاقى الخطير يشبه من جهات علاج سائر الأمراض الأخلاقية الاخرى، ويختلف عنها من بعض الجهات، وفى المجموع لابدّ من رعاية الامور التالية للوقاية من الوقوع فى هذا المرض أو علاجه: ۱- إنّ العلاج الحقيقى لكل مرض بدنى أو نفسى أو أخلاقى يتمثّل بالعثور على الجذور والأسباب الكامنة وراء الابتلاء بهذا المرض والسعى لإزالتها والقضاء عليها، وبما أنّ عوامل حصول هذه الصفة القبيحة فى النفس كثيرة ومتعددة فلابدّ من التوجه إلى تلك العوامل والاسباب، وقد رأينا أنّ من العوامل المهمّة هو: الحسد، الحقد، الأنانية، حبّ الانتقام، التكبّر والغرور وأمثال ذلك، وما دامت هذه الحالات النفسية السلبية موجودة فى أعماق النفس ومادام الإنسان لا يتحرّك على مستوى إزالتها من واقعه وذاته فإنّ هذه الحالة الرذيلة أى- الغيبة- لا تنقلع ولا تزول. وعندما لا يجد الإنسان فى نفسه حسداً على أحد ولا يعيش حالة الحقد والكراهية والمقت تجاه الآخرين ولا يرى فى نفسه إمتيازاً ولا تفوّقاً على الغير فلا مسوّغ له للتلوّث بخطيئة الغيبة ولا يجد فى ذاته رغبة وميلًا إلى ارتكاب هذا الفعل الذميم. ۲- ومن الطرق الاخرى لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية هو الالتفات والتفكّر فى عواقبها السلبية على المستوى المادى والمعنوى، والفردى والاجتماعى، فإنّ الإنسان متى ما إلتفت إلى أنّ الغيبة ستؤدّى به إلى المهانة والسقوط فى أنظار الناس فيعرفونه بأنّه شخص خائن، ضعيف النفس، ويشعر بالدونية والحقارة، فإنّهم سوف يتحرّكون فى الإرتباط معه من موقع عدم الثقة وسوف تهتز شخصيته ومكانته الاجتماعية لدى الآخرين، وأنّ الغيبة سوف تتلف حسناته وتهدر طاقاته وتنقل سيئات الآخرين إلى صحيفة أعماله، ولا تقبل عباداته لمدّة أربعين يوماً وهو أول من يدخل النار، وفيما لو تاب وقبلت توبته يكون آخر من يدخل الجنّة. وأيضاً عليه أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الغيبة هى حق الناس لأنّها تتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۲ هدم سمعتهم والذهاب بماء وجوههم، ونعلم أنّ قيمة ماء الوجه مثل قيمة النفس والمال لدى الإنسان أو أكثر وما لم يرض عنه صاحب الحق، فإنّ اللّه تعالى لا يرضى عنه، وربّما لا يتسنى له التوصل إلى كسب رضى الطرف الآخر أبداً وحينئذٍ سيتحمل وزر هذا الفعل مدى الحياة. أجل، فلو أنّ الإنسان تدبّر فى هذه الامور جيداً فسوف يندم بالتأكيد على عمله ويتحرّك بعيداً عن هذا السلوك المنحرف، والأشخاص الذين يعيشون ممارسة الغيبة فى مجالسهم وبهدف الترفيه والتفريح واللهو إذا ما فكّروا فى عواقب الغيبة فسوف يتحوّلون عنها بالتأكيد ولا يقتربون من ممارسة هذا السلوك السلبى والعدوانى. ۳- يجب أن ينتبه المستغيب إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ طاقات الإنسان محدودة، فلو أنّه بدلًا من إتلاف هذه الطاقات وصرفها فى تسقيط شخصية الآخرين وهدم مكانتهم الاجتماعية كان يستخدم هذه الطاقات والقابليات والمواهب الإلهية فى خط

الکمال المعنوی والمنافسة السلمیة والصحیحة بینه وبین الآخرین فقد لا تمضی فترة قصیرة إلّا ویحرز التوفیق فی الکمالات الإنسانیة والمعنویة علی الخیر ویصل إلی مراتب سامیة فی حرکة الحیاة والتکامل المعنوی والمادی من دون أن یجد حاجة إلی تسقیط الآخرین والعدوان علیهم وبالتالی سوف ینقذ نفسه من نتائج الغیبة وعواقبها الوخیمة فی الدنیا والآخرة. وبعبارة اخری أنّ الأفضل للإنسان أن یقوم باعمار بیته وبناء داره بدلًا من تخریب بیوت الآخرین لیعیش فی منطقة عامرة وفی دارٍ مشیّدة، ولکن الشخص الذی یتحرّک دائماً من موقع تخریب بیوت الآخرین فإنّ نتیجته سوف تکون تخریب بیوت المنطقة وتخریب بیته أیضاً فیعیش فی الأطلال والخرائب. یجب أن یلتفت المستغیب إلی هذه الحقیقة وهی أنّ الغیبة هی احدی العلامات البارزة لضعف الشخصیة وفقدان الهمّة والمروءة وأنّه یعیش عقدة الحقارة والدونیّة، ولذلک فهو یمارس الغیبة لجبران هذا الضعف النفسی وفی الحقیقة یقوم باظهار هذه العیوب الذاتیة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۳ والصفات الباطنیة ویجهر بها أمام الناس، فهو یقوم بتدمیر شخصیته وتحطیم کیانه قبل أن یحطّم شخصیة الآخرین الذین یغتابهم. وهناک ملاحظة جدیرة بالاهتمام وهی أنّه لابدّ لترک الغیبة وخاصة فیما لو أصبحت عادة لدی الشخص، أن یقوم قبل کل شیء بفرض الرقابة الشدیدة علی لسانه وکلماته ویتحرّک من موقع الضغط الأخلاقی فی دائرة الکلام، وکذلک ینبغی‌له أن یتجنّب معاشرة الأصدقاء الذین لا یجدون حرجاً فی ممارسة الغیبة ویدفعونه بهذا الاتجاه ویترک المجالس المهیئة للغیبة، بل وجمیع الامور التی توسوس له فی ممارسة الغیبة. وفی حدیث شریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «ما عُمِّرَ مَجلِسٌ بالغَیبَةِ إلّاخَرِبَ مِنَ الدِّینِ» «۱». الملاحظة الاخری هی أنّ أحد دوافع الغیبة هو السعی لتبرئة الذات والدفاع عنها، مثلًا أن یقول: إذا کنت قد إرتکبت هذا الذنب، فإنّ من هو أفضل منّی وأعلم قد ارتکبه أیضاً، والحال أنّ تبرئة الذات لها طرق اخری کثیرة لا تنتهی بهذا الذنب الکبیر أی- الغیبة- وأساساً فإنّ الاعتراف بالخطأ فی هذه الموارد یکون أسلم عذر وأفضل سبیل لتدارک الخطأ، مضافاً إلی أنّ أحد الأخطاء الکبیرة لدی الإنسان أن یقارن بینه وبین الفاسقین والأراذل من الناس ویترک المقارنة بینه وبین الأخیار والصلحاء من أفراد المجتمع. أحیاناً یتحرّک الشخص لتبرئة نفسه وتبریر سلوکه إلی التشبث بهذا العذر وهو أننی عندما رأیت العالم الفلانی قد إنحرف علی مستوی السلوک وارتکب الذنوب زالت عقیدتی وضعف إیمانی وأصبحت فی أمر العقیدة بالمبدأ والمعاد غیر مکترث، هذه المعاذیر والتبریرات هی المصداق الأتم لمقولة العذر أقبح من الذنب، ویترتب علی ذلک عواقب خطرة جدّاً، فما أحری بالإنسان أن یعترف بخطئه ویسعی فی تعامله مع الآخرین فی حمل سلوکیاتهم وأفعالهم علی الصحة، وعلی فرض أنّ أحد القادة أو العلماء أو الجهّال تصرّف من موقع الإنحراف وارتکب بعض الذنوب، فلا یکون ذلک مسوّغاً للآخرین علی سلوک هذا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۴ المسلک وتبریره بتلک الذریعة الشیطانیة، بل یجب علی الإنسان أن یجعل الصلحاء والأولیاء اسوة له فی دائرة السلوک والتکامل المعنوی والأخلاقی. بقی من موضوع الغیبة عدّة امور مهمّة لابدّ من التعرّض لها:

۱- استماع الغیبة

کما أنّ التحدّث بالغیبة من الذنوب الکبیرة فکذلک المشارکة فی مجلس الغیبة والاستماع للمغتاب فی تعرضّه للمؤمنین والوقیعة بالآخرین أیضاً من الذنوب الکبیرة، لأنّ جمیع المفاسد المترتبة علی الغیبة تتعلق بطرفین، المغتاب والمستمع للغیبة، فلو أنّ الشخص لم یجد فی نفسه استعداداً لسماع الغیبة فمضافاً إلی أنّه قد تقدّم خطوة فی طریق النهی عن المنکر، فکذلک لا یمکن للغیبة أن تتحقّق فی الواقع، فلا یجد المغتاب من یستمع له لیکشف عن عیوب الناس ولا یتمکن من تسقیط شخصیة الآخرین ولا هتک حرماتهم ولا یترتب علی ذلک المفاسد الاجتماعیة الاخری. ولهذا السبب نجدالروایات الإسلامیة قد شارکت المستمع للغیبة وجعلته أحد المغتابین کما ورد فی أحد الروایات عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «المُستَمِعُ أحدُ المُغتَابِینَ» «۱». وورد عن الإمام علی علیه السلام قوله: «السّامِعُ للغَیبَةِ أَحَدُ المُغتَابِینَ» «۲». وفی حدیث آخر عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه عندما رأی أحد الأشخاص یرتکب الغیبة فی حضور ولده الإمام الحسن علیه السلام فقال له: «یابُنَی نَزِّهِ سَمعَکَ عَنْ مَثلِ هذا فَإنَّهُ نَظَرَ إلی أَخبَثِ ما فِی وِعائِهِ فَأفرَغَهُ فِی

وِعائِکَ» «۳». وکذلک ورد فی الروایات الشریفة أنّ المستمع للغیبة یجب أن یتحرک من موقع الدفاع عن أخیه المسلم وذلک من خلال حمل سلوکه علی الصحّة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۵ وفی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یقول: «مَنْ أُغتِیبَ عِندَهُ أَخُوهُ المُسلِمُ فاستَطاعَ نَصرَهُ وَلَم یَنصُرهُ خَذَلَهُ اللَّهُ فِی الدُّنیا والآخِرةِ» «۱». وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «إذا وَقَعَ فِی رَجُلٍ وَأَنْتَ فِی مَلاءٍ فَکُنْ لِلرَّجُلِ ناصِراً وَلِلقَومِ زاجِراً وَقُم عَنهُم» «۲». وأیضاً ورد فی الحدیث النبوی الشریف قوله: «الساکِتُ شَرِیکُ المُغتَابِ» «۳». ونختم هذا البحث بالحدیث الشریف الوارد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً حیث قال: «ألا وَمَنْ تَطَوَّلَ عَلی أَخِیهِ فِی غَیبَةٍ سَمِعَها فِیهِ فِی مَجلِسٍ فَرَدَّها عَنهُ رَدَّ اللَّهُ عَنهُ أَلفَ بابٍ مِنَ الشَّرِّ فِی الدُّنیا وَالآخِرَةِ فإنْ هُوَ لَم یَرُدَّها وَهُو قادِرٌ عَلی رَدِّها کانَ عَلَیهِ کَوزرِ مَنْ إغتابَهُ سَبعِینَ مَرَّةً» «۴». ویمکن أن تکون هذه الروایة ناظرة إلی الموارد التی یکون فیها الشخص المستمع من أصحاب النفوذ والمکانة الاجتماعیة فی حین أنّ المغتاب لیس کذلک، ومن الواضح أنّ سکوت مثل هذا الشخص یترتب علیه نتائج وخیمة علی مستوی هتک حرمة ذلک الشخص المسلم حیث یکون استماعه لذلک أکثر ضرراً من کلام المغتاب نفسه.

۲- الغیبة حق الناس أو حق اللّه؟

وطبقاً لما ورد فی تعریف الغیبة سابقاً یتّضح أنّ الغیبة من حقوق الناس لأنّها تتسبب فی هتک حرمتهم وتسقیط شخصیتهم وإزهاق سمعتهم: ونعلم أنّ ماء وجه المسلم له من القیمة کما هو الحال فی روح المسلم وماله وعرضه. ومن التشبیه الوارد فی الآیة من سورة الحجرات حول الغیبة وأنّها کمن یأکل لحم أخیه میتاً یتّضح جیداً أنّ الغیبة من حق الناس؛ ومن الأحادیث الکثیرة یمکننا أن نستوحی هذا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۶ المفهوم أیضاً وهو أنّ الغیبة نوع من الظلم والعدوان علی الآخرین والذی یجب التحرک علی مستوی جبران هذا العدوان وتعویض الطرف الآخر لجبران الظلم الذی وقع علیه، ومن ذلک: ۱- أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال فی حجة الوداع: «أَیُّها النّاسُ إنَّ دِمائَکُم وَأَموالَکُم وَأَعراضَکُم عَلَیکُم حَرامٌ کَحُرمَةِ یَومِکُم هذا فِی شَهرِکُم هذا فِی بَلَدِکُم هذا إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الغَیبَةَ کَما حَرَّمَ المَالَ وَالدَّمَ» «۱». ولا شک أنّ کل دم بریء یسفک لابدّ من جبرانه، وکل مال مشروع یتُم اتلافه من قِبل شخص آخر یجب علیه أن یقوم بتعویضه، والغیبة أیضاً ومن خلال هذا المنطلق یجب العمل علی تلافیها وجبرانها بأی نحو ممکن. وأساساً فإنّ جعل عرض المؤمن إلی جانب ماله ودمه لهو دلیل واضح علی أنّ تسقیط شخصیة الإنسان وهتک حرمته إنّما هی من حق الناس. ۲- وفی حدیث آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بعد أن قارن الغیبة بالزنا وأنّها أشدّ إثماً منه قال: «إنّ صاحِبَ الغَیبَةِ لا یُغفَرُ لَهُ حتّی یَغفِرَ لَه صاحِبُهُ» «۲». ۳- وجاء فی کتاب مجموعة ورام أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قال: «کُلُ المُسلِمِ عَلَی المُسلِمِ حَرامٌ وَدَمُهُ وَمالُهُ وَعِرضُهُ، والغَیبَةُ تَناوُلِ العِرضِ» «۳». العبارة الأخیرة من هذا الحدیث الشریف وهی أنّ (الغیبة تناول العرض) مصداق التعرّض لناموس الشخص سواء کانت من کلمات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أو کلمات الرواة، فإنّها علی أی حال یمکن أن تکون شاهداً علی المقصود. والشاهد الآخر علی هذا المعنی هوالروایات الشریفة التی تتحدث عن أنّ الغیبة تسبب فی نقل حسنات المغتاب من صحیفة أعماله إلی صحیفة أعمال المغتاب، ونقل سیئات المستغاب إلی الشخص المرتکب للغیبة (کما تقدّمت الإشارة إلی ذلک) وهذا یعنی أنّ الغیبة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۷ هی من حق الناس، لأنّ نقل الحسنات والسیئات لجبران الضرر الذی لحق بالمستغاب یعنی أنّ الغیبة من حقوق الناس. وبعد أن اتّضح هذا المفهوم وأنّ حق الناس یجب أن یجبر ویعوّض یثار فی الذهن هذا السؤال، وهو أنّ المغتاب کیف یتمکن من جبران خطئه وذنبه؟ ویستفاد من بعض الروایات أنّ المستغاب لو علم بذلک وسمع بأنّ المستغیب یذکره بسوء، فیجب علی المستغیب أن یذهب إلیه ویطلب منه أن یرضی عنه ویجعله فی حِلّ وإلّا لو لم یتصل به فیجب علیه أن یستغفر اللَّه تعالی، ویدعو للمستغاب بالرحمة والمغفرة (لیتم له التعویض عن ذلک الظلم فی حق أخیه المؤمن) وهذا المضمون ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام حیث قال: «فَإنَّ اغتِیبَ فَبَلَغَ المُغتابَ فَلَم یَبقَ إلّاأَن تَستَحِلَّ مِنهُ وإنْ

لَم يَبلُغْهُ وَلَمْ يَلحَقهُ عِلمَ ذَلِكَ فاستَغْفِرِ اللَّه لَهُ» «۱». ويتّضح من هذا الحديث الشريف أنّه لو لم تصل الغيبة إلى مسامع المستغاب فإنّ نقل هذا الخبر إليه قد يتسبب فى أذاه أكثر ويترتب على ذلك مسؤولية أكبر، ولهذا السبب نجد أنّ الوارد فى الحديث الشريف هو الاستغفار فحسب، وعليه ففى الموارد التى لا يتأثر فيها المستغاب من خبر الغيبة فلا يبعد وجوب طلب التحلل منه وكسب رضاه. ومن هنا يتّضح جيداً ما ورد فى الروايات الشريفة أنّه: «كَفَّارَةُ الإغتِيابِ أَنْ تَستَغفِرَ لِمَنْ إغتَبتَهُ» «۲». والشاهد الآخر ما ذكر آنفاً هو الحديث الشريف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «مَنْ كانَتْ لأخِيهِ عِندَهُ مَظلَمَةٌ فِى عِرضٍ أو مالٍ فَلْيَتَحَلَّلها مِنهُ مِنْ قبلِ أَنْ يَأتِى يَومٌ لَيسَ هُناكَ دِينارٌ وَلا دِرهَمٌ إِنَّما يُؤخَذُ مِنْ حَسَناتِهِ فَإن لَم تَكُن لَهُ حَسَناتٌ اخِذَ مِنْ سَيِئَاتِ صاحِبِهِ فَزِيدَتْ عَلَى سَيئَاتِهِ» «۳». وجاء فى أدعية أيّام الاسبوع للإمام زين العابدين عليه السلام الواردة فى ملحقات الصحيفة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۸ السجادية عبارات واضحة لهذا المفهوم فى دعاء يوم الإثنين حيث يقول فيه الإمام (من خلال كونه اسوة للآخرين): «وَأَسأَلُكَ فِى مَظَالِمِ عِبادِكَ عِندِى، فَأَيُّما عَبدٍ مِنْ عَبِيدِكَ، أو أَمَةٍ مِنْ إمائِكَ كانَتْ لَهُ قِبَلِى مَظلَمَةٌ ظَلَمتُها إيَّاهُ فِى نَفْسِهِ أو عِرضِهِ أو فِى مالِهِ أو فِى أَهلِهِ وَوَلَدِهِ، أو غَيبَةٍ اغتَبتُهُ بِها، أو تَحامُلٍ عَلَيهِ بِمَيلٍ أو هَوىً، أو أَنَفَةٍ أو حَمِيَّةٍ أو رِياءٍ أو عَصَبِيةٍ غائِباً كانَ أو شاهداً، حَيّاً كانَ أو مَيتاً، فَقَصُرتْ يَدِى وَضاقَ وسِعِى عَنْ رَدِّها إلَيهِ، وَالتَّحلُّلِ مِنهُ. فَأَسأَلُكَ يا مَنْ يَملِكُ الحاجاتِ وَهِىَ مُستَجِيبَةٌ لِمَشِيَّتِهِ وَمُسرِعَةٌ إلى إرادَتِهِ أن تُصَلِّى عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وأَن تُرضِيَهُ عَنِّى بِما شِئتَ ...» «۱». وعلى أيّة حال فإنّ احتمال كون الغيبة من حق الناس قوى جدّاً، ولذلك فإنّه لو لم يكن أمامه مشكل فى طلب الرضا والتحلل منه وجب عليه ذلك. وهناك ملاحظة مهمّة وهى أنّ أحد طرق جبران الغيبة هو أن يقوم المستغيب بالحضور فى مجلس يحوى الأشخاص الذين كانوا قد حضروا مجلسه السابق، فيقوم بإعادة الشريط وتبرير سلوك أخيه المؤمن بما يوافق الأخلاق الحسنة والشرع المقدّس ويحمله على الصحة بحيث تزول من الأذهان آثار الغيبة وتعود المياه إلى مجاريها.

۳- مستثنيات الغيبة

يتفق علماء الأخلاق وكذلك الفقهاء على أنّ هناك موارد تجوز فيها الغيبة وقد تصبح واجبة أحياناً، وذلك بسبب طروء عوارض معينة على الغيبة ممّا يغيّر حكمها الأصلى. وبعبارة اخرى أنّ الغيبة بعنوانهاالأولى حرام بلا شك ومن الذنوب الكبيرة وفى ذلك يتفق علماء الإسلام، ولكن هناك عناوين ثانوية تطرأ على هذا الفعل بإمكانها أن تكون حاكمة على العنوان الذاتى والأولى ممّا يفضى إلى أن تكون الغيبة جائزة بل واجبة، وذلك فى الموارد التى تكون فيها المصلحة أهم ويكون حفظ هذه المصلحة غالب على المفاسد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۹ الكبيرة المترتبة على الغيبة. ومن جملة هذه الموارد التى تدخل فى مستثنيات الغيبة ما يلى: ۱- أن يكون الإنسان فى حالة التظلّم وطلب حقّه من الآخر ويسعى لرفع هذه الظلامة بحيث لو أنّه لم يتعرّض لذكر الطرف الآخر بالسوء ولم يصرّح للآخرين بسلوك ذلك الظالم فإنّه لا يصل إلى حقّه. وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى: «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» «۱». ۲- فى موارد النهى عن المنكر، أىّ فى حالة ما إذا لم يتحرّك الإنسان لفضح الطرف الآخر ويكشف عن أعماله السيئة، فإنّ ذلك المذنب سوف يستمر فى غيّه ويقوم على ذنبه، فهنا ترجح مصلحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على مفسدة الغيبة، بل قد تكون واجبة فى بعض الحالات. ۳- فى مورد أهل البدع وكذلك الذين يحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين بحيث لو أنّ أعمالهم الخفيّة تجلّت وكشفت للمسلمين، فإنّ الناس سوف يتصدّون لهم ويتحركون من موقع دفعهم وابطال مؤامراتهم، فهنا تكون غيبة مثل هؤلاء الأشخاص جائزة، بل واجبة. ۴- فى مورد ما إذا كان المسلم يعيش الخطر على نفسه أو ماله أو عرضه من شخص آخر وهذا المسلم لم يكن على علم بالخطر المحيط به، وهنا يكون إخباره بهذا الخطر جائز، بل واجباً أحياناً. ۵- فى مورد المشورة، بمعنى أنّ أحد الأشخاص أراد مثلًا الزواج من مسلمة وأراد طلب يدها من والديها أو أراد شخص تشكيل شركة أو السفر إلى أحد البلدان، وطلب من شخص آخر أن يشير عليه بما يراه صلاحاً له، فهنا لا يمكن القول بأنّ

الكشف عن عيوب الطرف الآخر حرام، بل إنّ أمانة المشورة تقتضي أن يقول المستشار ما يعلمه وما هو مطّلع عليه من نقاط القوّة والضعف، ولا ينبغي أن يحجم عن النصح والمشورة لأخيه المؤمن خوفاً الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۰ من الوقوع في الغيبة، لأنّ ستر مثل هذه المعايب يعتبر خيانة للمستشير والخيانة في المشورة حرام. ۶- في مورد الشهادة، وذلك عندما يطلب من الإنسان أن يدلي بشهادته في موقع التحكيم أو المحكمة، فهنا تجوز الغيبة، لأنّ مصلحة الشهادة أقوى، وكذلك في موارد إجراء الحدود الإلهية، فلو أنّ عدّة أشخاص رأوا بأنّ الشخص الفلاني يشرب الخمر أو يزني فلهم أن يأتوا إلى حاكم الشرع ويشهدوا عليه بذلك ليجرى عليه الحدّ، وكذلك فيما لو شهد أشخاص على أمر معيّن وكان هؤلاء الشهود في الواقع فسّاق ولم يكن الحاكم يعلم بخبرهم وحالهم، وهنا يجوز فضح هؤلاء الشهود، وبعبارة اخرى يجوز جرح الشهود (وطبعاً فإنّ جميع هذه الموارد هي فيما لو كان عدد الشهود كافياً لإثبات الموضوع).

۴- حكم المتجاهر بالفسق

يتفق علماء الأخلاق والفقهاء العظام عادةً على جواز غيبة المتجاهر بالفسق ويرون أنّها من مستثنيات الغيبة ويصرّحون بأنّ غيبة مثل هؤلاء الأشخاص الذين مزّقوا ستار الحياء وأجهروا بالمعاصي أمام الناس، فإنّهم لا غيبة لهم وقد تمسكوا في ذلك بروايات في هذا الباب. ففي حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «أَربَعَةٌ ليستْ غَيبَتُهُم غَيبَةَ الفاسِقُ المُعلِنُ بُفسقِهِ ...» «۱». وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ثَلاثَةٌ لَيسَ لَهُم حُرمَةٌ صِحبُ هَوىً مُبدِعٍ والإمامُ الجائِرُ والفاسِقُ المُعلنُ الفِسقَ» «۲». وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ فَلا غَيبَةَ لَهُ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۱ وفي حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَتنزَعُونَ عَنْ ذِكرِ الفاجِرِ أَنْ تَذكُرُوه، فَاذكُرُوهُ يَعرِفُهُ النّاسُ» «۱». والأحاديث في هذا الباب كثيرة. ولكن الظاهر أنّ مثل هؤلاء الأفراد خارجون بالتخصص من موضوع الغيبة لا أنّ حكم الغيبة يشملهم أولًا ثم يدخلون في مستثنيات الغيبة، لأنّ للغيبة شرطين: الأول: أن يكون العيب مستوراً وهذا الشرط لا يتوفر في هؤلاء الأشخاص. الثاني: كراهية الطرف الآخر لأن يذكر بسوء، وهذا الشرط أيضاً غير متوّفر فيما نحن فيه لأنّ المتجاهر بالفسق لو كان يتأثر ويتألم من ذكره بسوء لم يكن يرتكب ذلك العمل علانية وجهراً، وبتعبير علماء الاصول أنّ خروج مثل هؤلاء الأشخاص يكون بالتخصص لا بالتخصيص. وهنا تثار عدّة أسئلة في هذا الصدد، الأول هو أنّه هل أنّ جواز غيبة المتجاهر بالفسق يختص بالذنوب التي تجاهر بها أو يستوعب جميع الذنوب فتكون غيبته جائزة مطلقاً؟ والآخر هو أنّه إذا كان يتجاهر بالفسق عند جماعة معينة أو في مكان خاص ولكنه لا يرتكب ذلك المنكر أمام جماعة اخرى أو في مكان آخر فهل يجوز غيبة هذا الشخص أيضاً؟ والثالث هو هل أنّ جواز غيبة المتجاهر بالفسق مشروط بوجود شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي أن تكون الغيبة مؤثرة في عملية الردع وإلّا فلا تجوز؟ ونظراً لما تقدّم من بيان حالة هؤلاء الأفراد من الناحية الشرعية يتّضح الجواب عن هذه الأسئلة جميعاً، وهو أنّ غيبة هؤلاء الأشخاص إنّما تجوز في موارد التجاهر بالفسق، ولكن بالنسبة إلى الأعمال الاخرى أو الوسط الآخر والأجواء الاخرى، فلا تجوز، لأنّ أدلة حرمة الغيبة لا تشمل المتجاهر بالفسق ومن المعلوم أنّ حالة التجاهر لا يستوجب توّفر شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ضرورة لها لأنّ عناصر تشكيل الغيبة غير متوّفرة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۲ ويحتمل كذلك أنّ المقصود بالمتجاهر بالفسق هو الشخص الذي قام بتمزيق ستار الحياء وتحرّك في ارتكابه للمعاصي والذنوب من موقع الجرأة على الدين والمجتمع الإسلامي، فمثل هؤلاء الأفراد لا احترام لهم، بل يجب التعريض بهم وفضحهم ليكون الناس على حذر منهم وفي أمان من أعمالهم كما ورد في الحديث الشريف المتقدّم: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ» فحينئذٍ يقول الحديث «فاذكروه يعرفه الناس» فهو ناظر إلى هذا المعنى. و على هذا الأساس يمكن القول بأنّ المتجاهر بالفسق على نحوين: الأول: أن يكون متجاهراً بعمل معيّن فحينئذٍ تجوز غيبته في ذلك العمل بالخصوص، والآخر: الأشخاص الذين قاموا بتمزيق لباس العفة والحياء وانطلقوا وراء ارتكاب الذنوب بكل صلافة وجرأة من دون

رعایة القیم الاجتماعیة والدینیة، فمثل هؤلاء الأشخاص لا احترام لهم أبداً من فضحهم وکشف واقعهم أمام الناس کیما یحذر الآخرون من أخطارهم ومفاسدهم. ونتخم هذا الکلام بذکر ملاحظتین: الاولی: هی أنّنا نعلم أنّ أحد العلوم الإسلامیة المعروفة هو علم الرجال حیث یبحث فیه صدق وکذب الرواة وحالتهم علی مستوی کونهم ثقة أو غیر ثقة، وهناک بعض من لا خبرة له بالامور یتجنّب الخوض فی علم الرجال ویرفض تعلّم هذا العلم لأنّه بحسب تصوّره أنّه یفضی إلی الخوض فی الغیبة فی حین أنّ من الواضح أنّ حفظ حریم الشرع والأحکام الإسلامیة من المواضیع الکاذبة والأخبار المختلفة أهمّ کثیراً من التعرّض لبعض الرواة وجرحهم، وهذا الهدف السامی هو الذی یبیح لنا أن نتحرّک علی مستوی التحقیق فی سوابق الرواة وحالاتهم والبحث عن نقاط ضعفهم وإثباتها فی کتب الرجال لکی نأمن علی الشریعة المقدّسة من الأخبار المزیفة ولکی تکون الأحکام الإلهیة فی مأمن من تدخل الأهواء والنوازع الذاتیة لبعض الرواة. والاخری: هی أنّ المسائل الاجتماعیة والسیاسیة والمناصب الحساسة فی المجتمع الإسلامی تقتضی أحیاناً إفشاء بعض نقاط الضعف للمسؤولین، فهذا المعنی وإن کان فی حدّ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۳ ذاته مشمولًا لعنوان الغیبة ومصداقاً من مصادیقها إلّاأنّ أهمیة حفظ النظام الإسلامی وکشف وإبطال المؤامرات الموجهة إلی المجتمع الإسلامی أهم بکثیر ولذلک لا إشکال فی ذلک، بل قد یکون واجباً أحیاناً، والأشخاص الذین یتسترون علی عیوب هؤلاء لکی لا یقع فی ورطة الغیبة هم فی الواقع یضحّون بمصالح المجتمع الإسلامی من أجل الأفراد، وقد تقدّم فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه ذمّ هؤلاء وقال: «أَتنزَعُونَ عَنْ ذِکرِ الفاجِرِ أَنْ تَذکُرُوه، فَاذکُرُوهُ یَعرِفُهُ النّاسُ»، وأمر بفضحهم لیعرفهم الناس. ولکن هذا لا یعنی أن یقوم بعض الناس بهتک حرمة الأفراد وفضحهم بدون مبرّر أو یتحرّکون فی هذا السبیل أکثر من اللازم ویتعرّضون لحیثیة الأفراد ویتجاوزون حدودهم الشرعیة. وما تقدّم آنفاً یوضّح وظیفة الأجهزة الخبریة والمخابراتیة فی الدوله الإسلامیة، فإن کان نشاط هذه الأجهزة والمجامیع التجسسیة تصب فی غرض الکشف عن الخطر الذی یهدّد سلامة المجتمع الإسلامی وسلامة المناصب الحساسة فیغ الدولة الإسلامیة، فلا ینبغی أن یتجاوزوا الحدود المشروعة، وحینئذٍ فانّ عمل هؤلاء لا یحسب فی دائرة التجسس ولا یکون مشمولًا لعنوان الغیبة المحرمة، بل هو أداء للوظیفة الشرعیة والواجب الإنسانی.

۵- شمول دائرة الغیبة

لا شک فی حرمة غیبة الشخص المؤمن البالغ العاقل، ولا شک فی جواز غیبة الکافر الحربی الذی ینوی هدم الإسلام ویتحرّک من موقع التعرّض للمجتمع الإسلامی، لأنّه لا حرمة لمثل هذا الشخص. ولکن هل أنّ غیبة سائر فرق المسلمین وأهل الذمة (وهم الذین لدیهم کتاب سماوی من غیر المسلمین ویعیشون فی داخل إطار المجتمع الإسلامی) جائزة أو أنّ غیبتهم حرام کما هم محترمون فی أنفسهم وأموالهم؟ بعض الفقهاء مثل المحقق الأردبیلی والعلّامة السبزواری یرون حرمة الغیبة بشکل عام الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۴ ویتمسکون بالروایات الواردة بعنوان (المسلم) أو الناس وذهبوا إلی أنّ حرمة غیبة هؤلاء لیست عجیبة، لأنّ أموالهم وأنفسهم محترمة فلماذا لا یکون عرضهم کذلک؟ ولکن المرحوم صاحب الجواهر قدس سره خالف ذلک بشدّة وقال: «بأنّ ظاهر الروایات یدلّ بضم بعضها إلی بعض علی أنّ حرمة الغیبة مختصة بالمؤمنین وأتباع أهل البیت علیهم السلام وحتی أنّه استدل بالسیره المستمرة بین العلماء والعوام أیضاً. إذا کان مقصود هذا الفقیه الکبیر من المخالفین لأهل البیت علیهم السلام هم النواصب وأعداء المؤمنین والمسلمین فلا شک فی عدم حرمتهم وحرمة غیبتهم، ولکن إذا کان الکلام عن الفرق الإسلامیة التی من المقرر حفظ واحترام أنفسهم وأموالهم وکذلک أهل الکتاب من أهل الذمة فإنّ رأی المحقق الأردبیلی قدس سره هو الأقرب إلی الصواب، لأنّه فی کل مورد تکون نفس الإنسان وماله محترماً، فکذلک عرضه وماء وجهه فلا یجوز التعرّض له بالغیبة، وتوجیه الخطاب للمؤمنین فی الآیة ۱۲ من سورة الحجرات (آیة الغیبة) أو التعبیر بالمؤمن فی بعض الروایات لا یدلّ علی عدم شمول حکم الغیبة بالنسبة إلی الآخرین، وبعبارة اخری إنّ إثبات الشیء لا ینفی ما عداه. وعلی هذا الأساس یجب اجتناب غیبة جمیع الأشخاص الذین تکون نفوسهم وأموالهم

وأعراضهم محترمة وجميع هؤلاء يشملهم حق الناس، وطبعاً هذا فی صورة ما إذا لم يكن متجاهراً بالفسق ولم يكن يتحرّك من موقع المؤامرة والدسيسة على الإسلام والمسلمين، بل كانت لهم عيوب وذنوب مستورة وخاصة بهم، فيكون فضحهم والكشف عن هذه العيوب وإراقة ماء وجههم ليس مسوّغ شرعی قطعاً. وأمّا بالنسبة إلى الطفل المميّز الذی يتألم من الغيبة فأيضاً يجب القول بأنّ غيبته حرام كما أشار إلى ذلك الشيخ الأنصاری قدس سره فی المكاسب المحرّمة وقال: إنّ عنوان الأخ المؤمن صادق عليه أيضاً كما قال تعالى عن الأيتام: «وإنْ تُخالِطُوهُم فَاخوانُكُم» «۱». ولكنّ الصواب هو أنّه لا ينبغی تقييد المورد بالمميّز، لأنّ كشف العيوب المستورة للطفل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۵ غير المميز يعدّ هتكاً لشخصيته المستقبلية أو هتكاً لحيثية اسرته، وهو عمل مخالف للقيم الأخلاقية، ولهذا السبب فإنّ الشهيد الثانی قدس سره فی كتابه (كشف الريبة) لم يفرّق بين الصغير والكبير، بعبارة اخرى أنّ أطفال المؤمنين كالمؤمنين أنفسهم من حيث حرمة النفس والمال والعرض. ومن هنا يتّضح حكم المجانين والسفهاء أيضاً.

۶- الغيبة العامة والخاصة

أحياناً تكون الغيبة عن شخص خاص أو أشخاص معيّنين حيث تبيّن حكمها فی الأبحاث السابقة من جهات مختلفة، ولكن هناك موارد اخرى تكون الغيبة ذات جهة عامة وكلية، مثلًا يقول: إنّ أهل المدينة الفلانية بخلاء، أو جهلاء، أو سفهاء، أو يقول إنّ أهالی القرية الفلانية لصوص أو مدمنين أو متحلّلين أخلاقياً وأمثال ذلك. فهل أنّ جميع أحكام الغيبة ترد فی مثل هذه الموارد أم لا؟ يمكن القول أنّ الغيبة لها عدّة صور ووجوه: ۱- فيما إذا كانت الغيبة متوجّه لشخص أو أشخاص معدودين لا يعرفهم المخاطب، كأن يقول: إنّ فی المدينة أو القرية الفلانية عدّة أشخاص يشربون الخمر أو يرتكبون الأعمال المنافية للعفة، فلا شك فی عدم جريان أحكام الغيبة هنا، لأنّ المتكلم لم يذكر فی كلامه عيباً مستوراً عن شخص معيّن. ۲- أن يكون المورد من قبيل الشبهة المحصورة (وكما يصطلح عليه شبهة القليل بالقليل أو الكثير بالكثير) مثلًا يقول: أننی رأيت أحد هؤلاء الأربعة أشخاص يشرب الخمر (أو يذكر أسماء هؤلاء الأربعة أو يقول أنّ أولاد زيد وأمثال ذلك) أو يقول: أنّ جماعة كثيرة من أهالی القرية الفلانية يرتكبون هذا العمل بحيث أنّ التهمة تتوجه إلى الجميع من موقع الشك فيهم. والظاهر أنّ أدلة حرمة الغيبة تشمل هذا المورد، وعلى فرض عدم اطلاق اسم الغيبة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۶ عليها من حيث أنّها تعدّ كشفاً ناقصاً عن العيب المستور، فهی حرام من جهة هتك احترام المؤمن وجعله فی قفص الإتّهام. ۳- أن ينسب إلى جميع أهل البلدة أو القرية أمراً قبيحاً ومخالفاً للشرع والأخلاق، فلا شك فی جريان أحكام الغيبة على هذا المورد أو على الأقل صدق عنوان هتك احترام المؤمنين سواء كان مقصوده جميع أهالی البلدة بدون استثناء أو الأكثرية منهم. وعلى هذا الأساس لا يجوز نسبة بعض الصفات أو الممارسات القبيحة لأهالی بلدة معيّنة إلّاأن يكون هناك قرينة على أنّ مقصوده بعض الأشخاص القلّة منهم، وكما يصطلح عليه شبهة القليل فی الكثير أوالشبهة غير المحصورة، أو يكون كلامه عنهم معروفاً لدى الجميع وفی نفس الوقت لم يكن قاصداً لهتكهم وذمّهم.

۷- الدفاع فی مقابل الغيبة

هل يجب على الشخص المستمع للغيبة أن يدافع عن أخيه المؤمن الذی تعرّض للغيبه ويرد على المستغيب أم لا؟ مثلًا يقول فی دفاعه: أنّ الإنسان غير معصوم وكل شخص يتعرّض لارتكاب الخطأ أو يقول: أنّ من الممكن أن يكون قد صدر هذا الفعل منه سهواً أو نسياناً أو كان فی نظره حلالًا وهكذا يحمل فعل أخيه المسلم على الصحة، وعليه فلو كان الفعل قابلًا للتبرير فإنّه يتحرّك فی تبريره وتوجيهه، وإن لم يكن كذلك قال: من الأفضل أن نستغفر له بدل أن نقع فی غيبته لأننا جميعاً معرّضين لمثل هذه الأخطاء. بعض الفقهاء الكبار يرون وجوب الدفاع ومنهم شيخنا الأعظم العلّامة الأنصاری قدس سره فی بحث الغيبة فی المكاسب المحرّمة. وهناك

روایات کثیرة أیضاً تتحدّث عن لزوم ردّ الغیبة وقد ذکرها المرحوم صاحب کتاب وسائل الشیعة فی الباب ۱۵۶ من أبواب أحکام العشرة فی الحج ومنها: فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یا عَلی مَنْ اغتِیبَ عِندَه أخوهُ المُسلِمُ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۷ فاستَطاعَ نَصرَهُ وَلَم یَنصُرهُ خَذَلَهُ اللّهُ فِی الدُّنیا والأخِرَةِ» «۱». ونفس هذا المضمون أو ما یشبهه ورد فی روایات متعددة عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والإمام الصادق علیه السلام. وفی حدیث آخر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال فی خطبة له أمام الناس: «مَنْ ردّ عَنْ أَخِیهِ فِی غَیبَةٍ سَمِعَها فِیهِ فِی مَجلِسٍ رَدَّ اللّهُ عَنهُ أَلَفَ بابٍ مِنَ الشَّرِّ فِی الدُّنیا وَالآخِرَةِ فإنْ لَم یَرُدَّ عَنهُ وأَعجَبَهُ کانَ عَلَیهِ کَوزرِ مَنْ إغتابَهُ» «۲». وفی حدیث آخر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرضِ أَخِیهِ کانَ لَهُ حِجاباً مِن النّارِ» «۳». ولکنّ الصحیح أنّه لا یستفاد وجوب الدفاع من هذه الروایات، بل غایة ما یستفاد منها هو الاستحباب المؤکّد، لأنّ التعبیر لکلمة (خذله اللّه) الوارد فی عدّة روایات من هذا الباب لا یقرّر أکثر من أنّ اللّه تعالی لا یعین هذا الشخص ویترکه لحاله (لأنّ معنی الخذلان هو ترک النصرة والمساعدة) وکذلک ما ورد فی الثواب والجنّة أو النجاة من النار فی بعض الروایات فانّه فی قوله: «کانَ عَلَیهِ کَوزرِ مَنْ إغتابَهُ» قد تدل علی وجوب الدفاع ولکنّ الوارد فی هذه الروایة هو أنّ الإثم لا یقتصر علی الاستماع وعدم الدفاع فقط بل ینشرح ویفرح من سماعه لهذه الغیبة، وعلی أیة حال فسواء کان الدفاع عن المسلم فی مقابل الغیبة واجباً أو مستحباً مؤکّداً فانّه یعدّ وظیفة مهمّة فی دائرة المفاهیم الإسلامیة، وإذا کان الدفاع نهیاً عن المنکر فهو واجب قطعاً.

۸- غیبة الأموات

أحیاناً یتصوّر البعض أنّ مفهوم الغیبة الوارد فی الروایات الشریفة ناظر إلی الأحیاء من المسلمین ولا یشمل الأموات، وعلیه یجوز غیبة الأموات، ولکنّه خطأ فاحش، لأنّ الوارد فی الروایات الإسلامیة أنّ «حرمة المیت کحرمته وهو حی» بل یمکن القول بأنّ غیبة المیت أقبح وأشنع من بعض الجهات من غیبته وهو حی لأنّ الأحیاء یمکن أن یصل إلیهم خبر الغیبة ویتحرّکون من موقع الدفاع عن أنفسهم ویردّون علی من إغتابهم، ولکنّ المیت غیر قادر علی الدفاع أبداً، مضافاً إلی أنّ الشخص المرتکب للغیبة قد یری الطرف الآخر فیما بعد ویطلب منه الصفح وأن یکون فی حلّ ولکن هذا المعنی لا یصدق علی الأموات. ومضافاً إلی ذلک الأوامر والإرشادات الدینیة الواردة فی ضرورة احترام جسد المیت المسلم من قبیل الأمر بغسله وتکفینه والصلاة علیه والمفاهیم الواردة فی الصلاة علیه ودفنه وزیارة أهل القبور وحرمة هتک قبر المؤمن وأمثال ذلک کلّها یدلّ علی وجوب حفظ حرمة المیت المسلم.

حسن الخلق وسوء الخلق

تنویه:

حسن الخلق بمعناه الخاص هو أن یعیش الإنسان فی تفاعله الاجتماعی وعلاقاته مع الآخرین بصورة حسنة وکلام طیب ووجه بشوش وسلوکیات قابلة للمرونة والتلاءم مع الآخرین ویتحدّث معهم من موقع المحبّة واللطف وترتسم علی شفتیه الابتسامة والانفتاح، وکل هذه تعتبر من الفضائل الأخلاقیة المؤثرة إیجابیاً فی تعمیق الروابط الاجتماعیة. (وعلی العکس من ذلک سوء الخلق ومواجهة الآخرین بوجه خشن والتقطیب فی وجوههم والجفاف فی معاملتهم والخشونة فی التحدّث معهم، فهو من الرذائل الأخلاقیة التی تمتد فی جذورها إلی أعماق النفس الإنسانیة وتبعث علی تنفّر الآخرین وإبتعادهم عن هذا الشخص وتؤدّی بالتالی إلی إرباک العلاقات الاجتماعیة وضعف الروابط الأخویة بین الأفراد. وهناک مطالب کثیرة فی هذا المجال فی القرآن الکریم والروایات الشریفة وسیرة المعصومین علیهم السلام تحکی عن الأهمیة البالغة لهذه الفضیلة وتلک الرذیلة علی مستوی الفرد والمجتمع. ومن المعلوم أنّ جانباً

مهمّاً من نجاح الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى مهمّته ورسالته، وكذلك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۰ سائر المعصومين وكبار العلماء والقادة المصلحين مدين لهذه الخلّة الحسنة فى تعاملهم مع أفراد المجتمع وهى (حسن الخلق)، ومن الأسباب المهمّة فى عدم موفقيّة بعض القادة والعظماء فى التاريخ البشرى رهين لسوء خلقهم أيضاً، إنّ تاريخ الأنبياء والأولياء والمعصومين وسائر القادة المصلحين فى العالم ملىء بشواهد حيّة على هذا الموضوع. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما يرشدنا فى هذا الطريق ويسلّط الضوء على زواياه المعتّمة: ۱- «فَبِما رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» «۱». ۲- «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۲». ۳- «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» «۳». ۴- «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» «۴». ۵- «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» «۵» ۶- «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۶».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» وردت مسألة (حسن الخلق) بعنوان أنّها أحد الخصوصيات للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأحد العوامل المهمّة لتقدّم وتكامل الدعوة الإسلامية فى المجتمع العربى آنذاك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۱ فتقول الآية: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...». وعلى هذا الأساس فانّ حسن خلق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو فى الحقيقة رحمة إلهية له ولُامّته، وبديهى أنّ هذا الخلق الحسن وقابلية الانعطاف ومداراة الآخرين تعد من البركات والمواهب الإلهية على كل إنسان يتحلّى بهذه الخصال والسلوكيات الحميدة. ومن التعبير أعلاه فى الآية الشريفة نجد النقطة المقابلة لهذا السلوك، وهو أن يكون الإنسان غليظ القلب وسىء الخلق وخشناً فى التعامل مع الآخرين حيث تشير الآية إلى نتائج مثل هذا السلوك السلبى، وهى تفرّق الناس وانفضاضهم عن هذا الإنسان الخشن وإبتعادهم عنه، وبعبارة اخرى أنّ (حسن الخلق) يمثّل اللبنة الاساسية فى شد أوصال المجتمع وتقوية وشائج المحبّة بينهم، وسوء الخلق عامل لتفرّق الأفراد وإيجاد الخلل فى العلاقات الاجتماعية ويؤدّى إلى نفور الناس. إنّ كلمة (فظ) و (غليظ القلب) يأتيان بمعنى واحد ويراد بذلك التأكيد، ويمكن أن يكون لهما معنى مختلف عن الآخر، ويقول (الطبرسى) فى مجمع البيان فى كلمة جامعة: «وقيل إنّما جمع بين الفظاظة والغلظة وإن كانا متقاربين لأنّ الفظاظة فى الكلام فنفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه» وعليه فكلا الكلمتين تردان بمعنى الخشونة والجفاء، وأحدهما فى الكلام، والاخرى فى السلوك والفعل. وعلى أى حال فانّ اللَّه تعالى قد وهب نبيّه الكريم حالة اللّيونة والانعطاف والبشاشة وحسن التعامل مع الآخرين بحيث أنّه كان يسلك هذا السلوك مع أعتى الناس وأخشنهم وأقساهم قلباً، وبهذه الطريقة جذب هؤلاء القساة إلى الإسلام فاعتنقوا الإسلام من موقع الرغبة والشوق والإنجذاب لهذا الخلق الرفيع. وبتبع ذلك توجّه الآية سلسلة إرشادات وأوامر عملية تخرج حالة (حسن الخلق) والبشاشة من صورتها الظاهرة وتلبسها ثياباً عملية على مستوى الممارسة والتطبيق وتقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۲ وعلى هذا الأساس استقطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أبعد الناس عن اللَّه تعالى والدين والأخلاق وجذبهم إليه وأصبح قدوتهم وأسوتهم فى حسن الأخلاق. إنّ سياق هذه الآيات يشير إلى أنّ هذه الآية متعلقة بالآيات النازلة فى معركة أحد حيث كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين يعيشون أشدّ الظروف وأقسى الحالات النفسية طيلة هذه الحرب، وبديهى إنّ عملية العفو والاستغفار والانفتاح على الآخرين من موقع المحبّة واللطف جعلت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى أسمى مراتب حسن الخلق وحسن التعامل الكريم مع الغير، وقلّما نجد إنساناً يتمكّن فى مثل تلك الظروف الصعبة والتحديّات الشرسة أن يحافظ على حسن أخلاقه ولا ينفعل أمام تحديّات الواقع الصعب. وتأتى

«الآية الثانية» لتشير إلى حسن الخلق العجيب للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث تعبّر عنه بالخلق العظيم وتقول: «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ». (خُلُق) على وزن افق، مفرد وهو مع كلمة خُلْق (على وزن كُفر) بمعنى واحد، ويستفاد من مفردات الراغب أنّ خَلْق (على وزن حلق) تشترك فى جذر واحد معها غاية الأمر أنّ (خَلْق) تطلق على الصفات الظاهرية، و (خُلْق) تطلق على الصفات الباطنية. ويرى بعض أرباب اللغة أنّ كلمة (خُلْق) و (خُلُق) تردان بمعنى الدين والطبع والسجية حيث يقصد بها الصورة الباطنية للإنسان «۱». وعلى أيّة حال فانّ وصف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأنّه ذو خلق عظيم يدلّ على أنّ هذه الصفة الأخلاقية من أعظم صفات الأنبياء، ويرى بعض المفسّرين أن الخلق العظيم للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله يتمثّل فى صبره وتحمّله فى طريق الحق وسعة بذله وكرمه، وتدبير امور الرسالة والدعوة، والرفق والمداراة للناس وتحمّل الصعوبات الكبيرة فى مواجهة تحدّيات الواقع الصعب فى طريق الدعوة إلى اللّه والجهاد فى سبيله وترك الحرص والحسد والتعامل مع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۳ الأعداء والأصدقاء من موقع العفو واللطف والمحبّة «۱» وكل هذه الامور تشير إلى أنّ الخلق العظيم لا ينحصر بالبشاشة والانعطاف فى مواجهة الآخر، بل هو مجموعة من الصفات الإنسانية السامية والقيم الأخلاقية الرفيعة، وبعبارة اخرى: يمكن القول بأنّ جميع الأخلاق الحسنة الرفيعة جُمعت فى عبارة (خلق عظيم). وممّا يؤيد هذا المعنى ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَدّبَ نَبِيَّهُ فَأَحسَنَ أَدَبَهُ فَلَمّا أَكمَلَ لَهُ الأَدَبَ قالَ إِنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۲». وعندما نقرأ فى بعض الروايات أنّ الخلق العظيم يراد به الإسلام أو الآداب القرآنية إنّما هو لأنّ الإسلام والقرآن يحويان جميع الفضائل الأخلاقية، فى حين أنّ بعض الروايات الواردة فى تفسير هذه الآية فسّرت (حسن الخلق) بالبشاشة والمداراة ومن ذلك الحديث الذى أورده (نور الثقلين) فى ذيل هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن حسن الخلق فى هذه الآية فقال: «تَلِينُ جانِبَكَ وَتُطَيِّبُ كَلامَكَ وَتلقى أَخاكَ بِبُشرٍ حسنٍ» «۳». ولكن الظاهر عدم التنافى بين هذين المعنيين. وآخر ما يقال فى هذا المورد والجدير بالتأمل فى هذه الآية هو أنّ بعض المفسّرين إستفادوا من كلمة (على) فى قوله «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» والتى تفيد مفهوم التسلّط والقدرة أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله له تسلط كامل على الفضائل الأخلاقية وكأنّ الأخلاق والقيم الإنسانية جزء من كيانه الشريف حيث يتحرّك من هذا الموقع بدون تكلّف وتصنّع. وتستعرض «الآية الثالثة» وصايا ونصائح (لقمان الحكيم) لولده حيث يذكر له أربعة امور مؤكّداً عليها: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۴ الأول: قول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». ثم أضاف «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» وفى الثالث والرابع من هذه النصائح القيمة يوصى لقمان ابنه بالاعتدال فى المشى وعدم رفع الصوت ويقول: «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ». وهذه الامور الأخلاقية تمثّل جزءاً مهمّاً من (حسن الخلق) فى التعامل مع الآخرين وطريقة السلوك الاجتماعى بين الناس والمقترنة بالبشاشة والتواضع والإتّزان فى الكلام والسلوك، ونستوحى من ذلك أنّ اللّه تعالى قد إهتم بكلمات لقمان الحكيم هذه بحيث ضمّنها فى كتابه الكريم. (تصعر) من مادة (صَعَرَ) على وزن خطر، وهى فى الأصل نوع من الأمراض التى تصيب الابل فتلوى أعناقها، ثم اطلقت على أى نوع من ميل العنق، وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ سوء الخلق نوع من المرض الذى يشبه فى سلوكه سلوك الحيوان، والملفت للنظر أنّ هذا النهى عن هذا العمل لا يقتصر على المؤمنين بل يستوعب جميع أفراد البشر ويقول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». وعلى أيّة حال فإنّ جعل هذه الصفة الرذيلة إلى جانب التكبّر والافراط فى المشى والصوت يبيّن أنّ جميع الصفات الرذيلة تؤدّى بشكل من الأشكال إلى نفور الناس وامتعاضهم. وفى الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير عبارة «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» قال: «أى لاتَذُل لِلنَّاسِ طَمعاً فِيما عِندَهُم وَلا تَمشِ فِي الأَرضِ مِرَحاً أى فَرحاً» «۱». «الآية الرابعة» من هذه الآيات محل البحث نقرأ خطاباً إلهياً لبنى اسرائيل على أساس من العهد الإلهى للمخاطبين بعد التأكيد على التوحيد الخالص والاحسان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، يقول تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». فهذا الخطاب يبيّن التوحيد من جهة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من جهة اخرى يبيّن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۵ أهميّة حسن المعاملة ومداراة الناس والتعامل بالأخلاق الحسنة، وبهذا يكون حسن الخلق فى عملية التفاعل الاجتماعى وعلى مستوى

الروابط الأخلاقیة الحسنة للآخرین فی عداد أهم التشریعات الإسلامیة والمقرّرات الدینیة. وفی الواقع بما أنّ مال الإنسان محدود ولا یمکن أن یصل باحسانه المادی إلی المحتاجین کافة من الأقرباء والأصدقاء وسائر الفقراء فقد ورد جبران ذلک بالبشاشة وحسن الخلق مع الناس حیث یمثّل کنزاً لا یفنی کما ورد فی الحدیث المعروف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إِنّکُم لاتَسَعُونَ النّاسَ بِأَموالِکُم وَلَکن یَسَعُهُم مِنکُم بَسطَ الوَجهِ وَحُسنِ الخُلقِ» «۱». وفی حدیث آخر عن الإمام الباقر فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «قُولُوا لِلنّاسِ أَحسَنِ ما تُحِبُّونَ أَن یُقالُ لَکُم» «۲». وصحیح أنّ المخاطبین بهذه الآیة هم بنو اسرائیل، ولکنّ خصوصیة المورد لا تخصّص الآیة بهؤلاء المخاطبین حیث إنّ هدف القرآن الکریم هو بیان أصل کلّی لجمیع أفراد البشر. «الآیة الخامسة» تتحرّک من خلال بیان مسألة البشاشة والتعامل مع الآخرین حتّی لو کانوا أعداءاً ولا سیّما فی مقام دعوتهم إلی الحق والطریق القویم، ومن ذلک نجد أنّ الأمر الإلهی لموسی علیه السلام بایصال الرسالة الإلهیة إلی فرعون الطاغیة الذی إستعبد بنی اسرائیل وأنّ الآیة تتحدّث عن خطاب اللّه تعالی لموسی وهارون علیهما السلام: «اذْهَبَا إِلَی فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَی* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَیِّناً لَعَلَّهُ یَتَذَکَّرُ أَوْ یَخْشَی». هذا التعبیر یبیّن أنّ الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر والدعوة إلی الحق لابدّ أن تکون مقرونة باللّیونة واللطف والتعامل من موقع المحبّة والرحمة لا سیما مع الاشخاص الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۶ المنحرفین بأمل أن یؤثر هذا السلوک الأخلاقی والإنسانی فیقلوبهم. وهنا یثار هذا السؤال، وهو ما الفرق بین قوله: «یَتَذَکَّرُ أَوْ یَخْشَی»؟ ویمکن القول بأنّ المقصود من ذلک أنّکما إذا حدثتماه بکلام لیّن وفی نفس الوقت ذکرتم له بصراحة ووضوح مضمون الدعوة الإلهیّة وبدلائل منطقیّة فلعله یقبل ویؤمن بها من أعماق قلبه، ولو لم یؤمن فلا أقل فانه سیخاف من العقوبة الإلهیة بسبب العناد والاصرار علی الکفر والابتعاد عن طریق الحق: ویقول (الفخر الرازی): «نحن لا نعلم لماذا أرسل اللّه تعالی موسی إلی فرعون مع أنّه یعلم أنّه لا یؤمن أبداً؟ ثم یقول: فی مثل هذه الموارد لیس لنا سوی التسلیم فی مقابل الآیات القرآنیة ولا سبیل إلی الاعتراض» «۱». ولکن جواب هذا السؤال واضح ولا ینبغی أن یخفی علی من مثل الفخر الرازی، لأنّ اللّه تعالی یهدف إلی إتمام الحجة، أی حتّی بالنسبة إلی الأشخاص الذین لا یؤمنون قطعاً فإنّ اللّه تعالی یتمّ الحجّة علیهم کی لا یقفوا فی الآخرة موقف الاعتراض علی العقاب الاخروی وأنّهم لم یصل إلیهم النداء الإلهی ولم یجدوا رسولًا أو نبیّاً یخبرهم بالخبر کما ورد هذا المضمون فی الآیة ۱۶۵ من سورة النساء حیث یقول تعالی: «رُسُلًا مُبَشِّرِینَ وَمُنذِرِینَ لِئَلّا یَکُونَ لِلنّاسِ عَلی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ». وأمّا قوله لعله (یتذّکر أو یخشی) فهو بمعنی أنّ طبیعة التبلیغ لابدّ وأن تکون مقرونة باللین والمداراة لیصل الإنسان إلی النتیجة المتوخّاة، رغم أنّه قد یواجه النبی الإلهی موانع صعبة تنبع من ذات الأفراد، وبعبارة اخری أنّ التبلیغ المقرون باللّین والمحبّة هو مقتضی للقبول لا علّة تامّة. وبدیهی أنّه بالرغم من أنّ المخاطب فی هذه الآیة هو موسی وهارون فحسب ولکن مفهوم الآیة شامل لجمیع المبلّغین لرسالات اللّه والآمرین بالمعروف والناهین عن المنکر، وهکذا یتّضح أنّ الإنسان قد یتحرّک من موقع هدایة الناس باللّین والعطف والمداراة ویحقّق الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۷ نجاحاً أکبر بکثیر ممّا لو استخدم طرق اخری مقرونة بالخشونة والجفاء الروحی لتحقیق هذا الهدف، وهذا المعنی مجرّب علی مستوی الممارسة بکثرة. «الآیة السادسة» والأخیرة من الآیات محل البحث تقرّر أنّ المداراة واللّین محبّذة حتی مع الأعداء الشرسین وتؤثر فی أعماق نفوسهم تأثیراً بالغاً وتقول الآیة: «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ». وبالطبع فإنّ دفع السیئات بالحسنات له طرق ومصادیق مختلفة، أحدها أن یتعامل الشخص من موقع المداراة والأدب والبشاشة مع عدوّه المعاند والحقود إلی درجة بحیث یمکن أن ینقلب هذا الإنسان الحقود إلی صدیق محبّ ویتحوّل بصورة تامّة من حالة العداوة والبغضاء إلی حالة الصداقة والمحبّة. والملفت للنظر أنّ الآیة التی تلیها تؤکد علی أنّ هذه المرتبة هی من شأن الصابرین والذین یتمتّعون بحظ وافر من الإیمان والتقوی والتوفیق وتقول: «وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ». وطبعاً فالوصول إلی هذه المرتبة من حسن الخلق بحیث یواجه الإنسان السیئات بعکسها من الحسنات لیست من شأن کلّ إنسان لأنها تحتاج إلی تسلط کامل علی قوی النفس ولا یستطیع ذلک إلّا من اوتی حظاً عظیماً من سعة الصدر وتخلّص من عقدة الانتقام. ومن مجموع الآیات محل البحث نستوحی هذا المفهوم القرآنی فی دائرة الأخلاق الإسلامیة وهو أنّ القرآن الکریم

دعی النـاس إلی حسن الخلق والتعامـل فیمـا بینهم من موقع المحبّـة والمـداراة، وفی ذلـک کـان رسول اللّه صـلی الله علیه و آله اسوة ونموذجاً کاملًا فی هذا السلوک الإنسانی بحیث یمکن القول بأنّ أحد معجزات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله هی سلوکه الأخلاقی العظیم.

أهمیّة حسن الخلق فی الروایات الإسلامیة:

هناک روایات کثیرة مـذکورة فی المصادر الإسـلامیة حول حسن الخلق مع الناس وکیفیة التعامل معهم فی حرکة التفاعل الاجتماعی، والتعبیرات الواردة فی هـذه الروایات عن هـذه الفضیلة الأخلاقیـة إلی درجـة من الکثرة والتأکیـد أننا قلّما نجـد نظیراً لها فی النصوص الإسـلامیة، وهـذا یبیّن مـدی إهتمام الإسـلام فی هـذه الخصـلة الحمیدة، ونختار من بین الروایات الکثیرة ما یلی: ۱- ورد عن الرسـول الأکرم صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «الإسـلامُ حُسنُ الخُلُقِ» «۱». ۲- ونقرأ عن الإمام علی علیه السـلام فی حدیث لطیف یقول: «عِنوانُ صَحِیفَـةُ المُؤمنُ حُسنُ خُلُقِهُ» «۲». ونعلم أنّ مـا یـذکر فی عنوان الصـحیفة وکتـاب عنوان أعمـال الإنسان هو أفضل ما یمکن ذکره فی هذه الصـحیفة، وبعبارة اخری یکتب فی العنوان القدر الجامع والمشترک لجمیع مفردات الأعمال والسلوک الأخلاقی فی واقع الإنسان ونفسه. ۳- وفی حـدیث عن الرسول الأـکرم صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَکثَرُ ما تَلِـجُ امَّتِی الجَنَّةَ التّقوی وَحُسنُ الخُلُق» «۳». ۴- وفی حـدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام قـال: «أَکْمَلُکُم إِیماناً أَحسَـنَکُم خُلقاً» «۴». ومـا ذکر آنفـاً من الأحادیث الشـریفة هو بعض الروایات فی أهمیّـة حسن الخلق. والآن نسـتعرض قسـماً آخر من الروایات التی تتحـدّث عن النتائج والآثار المادیّة والمعنویة علی هذا السلوک الأخلاقی: ۱- نقرأ فی حدیث عن الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الخُلْقُ الحَسَنُ یُذِیبُ السَّیِّئَةَ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۹ ۲- وفی حدیث آخر عنه صـلی الله علیه و آله قال: «إِنَّ صاحِبَ الخُلقِ الحَسَنِ لَهُ مِثلُ أَجرِ الصَّائِمِ» «۱». ۳- ورد فی حدیث ثالث عن الإمام الصادق علیه السـلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبارَکَ وَتَعالی لَیُعطی العَبدَ مِنَ الثَّوابِ عَلی حُسنِ الخُلقِ کَما یُعطی المُجاهِدُ فِی سَبیلِ اللَّهِ» «۲». وبهـذا یتبیّن أنّ صـاحب الخلق الحسن یتمیّز علی من یقوم اللیل فی العبادة والمجاهـد فی سبیل اللّه ویضاهیهما فی الثواب حیث یطهّر حسن الخلق النفس الإنسانیـة من أدران الذنوب وتلوّثات الأهواء والنوازع الدنیویة، هذا بالنسـبة إلی النتائج المعنویة لحسن الخلق، أمّا بالنسـبة إلی الآثار والنتائـج المادیة والدنیویة فقد وردت تعبیرات مهمّة فی النصوص الدینیة منها: ۴- نقرأ فی حدیث عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «حسُنُ الخُلقِ یُثبِتُ المَوَدّةَ» «۳». ۵- وفی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال: «لا ـ عَیشَ أَهنَأَ مِنْ حُسنِ الخُلقِ» «۴». ۶- ورد عن الإمـام الصـادق علیه السـلام أنّه قال: «البِرُّ وَحُسنُ الخُلقِ یَعمُران الـدِّیارَ وَیَزِیـدانِ فِی الأَعمارِ» «۵». ۷- وفی حـدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السـلام قال: «حُسنُ الخُلقِ یُدِرُّ الأرزاقَ» «۶». ۸- وفی حدیث آخر عنه علیه السـلام قال: «فِی سَعَةِ الأخلاقِ کُنُوزُ الأرزَاقِ» «۷». ومن مجموع هـذه الروایات الإسـلامیة المذکورة أعلاه ندرک جیداً الأهمیّة البالغة لحسن الخلق فی حرکـة الحیاة المادیة والمعنویة للإنسان، ویتّضح من خلال ذلک تأکید الإسـلام علی هذا الأمر المهم، وفی الواقع أنّ جمیع النتائج الإیجابیة والبرکات المادیة والمعنویة مترتبة علی حسن الخلق مع الناس بحیث یمکن القول بأنّ حسن الخلق أحد الاسس فی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۰ دائرة المفاهیم الإسلامیة والتعلیمات الدینیة. وهنا ینبغی الإشارة إلی بعض النقاط:

تعریف حسن الخلق:

لعل من الامور الواضـحة هو مفهوم حسن الخلق فلا حاجـة إلی تعریفه لوضوح معناه ومـداه لـدی الناس، ولکن لغرض إسـتجلاء هـذا المفهوم أکثر نقول: إنّ حسن الخلق عبارة عن مجموعـة من الصـفات والسـلوکیات التی تتمثّل بمـداراة الناس، البشاشة، الکلام الطیب وإظهـار المحبّـة، ورعایـة الأـدب، التبسّم، والتحمّـل والحلم مقابـل أذی الآـخرین وأمثال ذلک، فلو إمتزجت هـذه الصـفات مع العمل وترجمهـا الإنسـان فی حرکـة الواقع الخـارجی سـمّی ذلک حسن الخلق. وفی حـدیث جامع جمیل عن الإمام الصادق علیه السـلام فی

تعريف حسن الخلق ورد أنّ أحد أصحاب الإمام سأله: ما حَدُّ حُسنِ الخُلقِ؟ قال الإمام عليه السلام: «تَلِينُ جانِبَكَ وَتُطَيِّبُ كَلامَكَ وَتلقى أَخاكَ بِبُشرٍ حسنٍ» «۱». وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تفسير حسن الخلق قال: «إِنَّما تَفسِيرُ حَسنُ الخُلقِ ما أَصابَ الدُّنيا يَرضى وَإِن لَم يُصِبهُ لَم يَسخَطْ» «۲».

النتائج المترتبة على حسن الخلق:

قرأنا فى الروايات المذكورة آنفاً نقاط مهمّة تتحدّث عن النتائج والآثار المادية والمعنوية لحسن الخلق فى حركة الإنسان والواقع الاجتماعى وتحتاج إلى شىء من التفصيل والتحليل. ومن الآثار الاجتماعية والدنيوية لهذه السمة الأخلاقية هو أنّ حسن الخلق يتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۱ كسب محبّة الآخرين وتعاطفهم مع صاحب هذا الخلق، وهذه المسألة ثابتة بالتجربة للجميع تقريباً وأنّه يمكن اصطياد قلوب الناس من خلال التعامل معهم من موقع المحبّة وحسن الخلق ورعاية الأدب وليس فقط أنّ الأشخاص العاديين ينجذبون إلى حسن الخلق بل أهل النظر والمعرفة والعلم كذلك. ومن النتائج الاخرى أنّ حسن الخلق والبشاشة تعمّر الديار وتطيل العمر، لأنّ خراب الديار معلول للتضارب والنزاع وحالات الصراع بين الأفراد، فإذا أخلى النزاع والصراع الاجتماعى مكانه لحسن الخلق والتعامل باللطف والمحبّة بين الأفراد، فإنّ ذلك كفيل بتعميق أواصر الاخوة وتعميق عنصر التعاون بين الأفراد والذى يعتبر محور الخير وعامل مهم من عوامل البناء، مضافاً إلى ذلك فإنّ حسن الخلق يورث الإنسان الهدوء النفسى والاطمئنان الروحى الذى يعتبر من النتائج المباشرة للتعامل الأخلاقى الحسن مع الناس وعاملًا مهمّاً من عوامل طول العمر، لأنّ من الثابت علميّاً هو أنّ من العوامل المهمّة لسرعة الموت وكثرته هو عنصر القلق والاضطراب الروحى الذى يعيشه الإنسان فى مقابل تحدّيات الواقع الصعبة وبالتالى تكون منشأ لكثير من الأمراض المختلفة، ومن المسلّم أنّ حسن الخلق والتعامل باللّطف والمحبّة مع الناس يقلّل من شدّة الضغط العصبى والقلق النفسى وبالتالى يسبب طول العمر، والشىء الآخر أنّ حسن الخلق يسبّب زيادة الرزق وكثرة العوائد المادية والموفقيّة فى الكسب والتجارة، لأنّ التاجر والكاسب أو الطبيب لا يكون موفّقاً فى عمله إلّابكسب المراجعين والمشترين، وأحد عوامل كسب الثقةوالاطمئنان بالشخص هو حسن خلقه وأدبه مع الطرف الآخر، فالكثير من الأشخاص يفضّلون شراء البضاعة وما يحتاجونه من السوق من امور المعاش من الكاسب الحسن الاخلاق والمعاملة مع المشترى ويرجّحونه على الشخص العبوس والحاد المزاج، ولهذا السبب فإنّ المؤسسات والشركات الاقتصادية الكبيرة تسعى إلى تعليم موظفيها على كيفية التعامل مع الزبائن بالصورة المطلوبة، ومن خلال ذلك يتحرّكون فى كسب ثقة الزبائن بمؤسساته التجارية وشركاته الصناعية. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۲ وقد رأينا كثيراً فى الرحلات الجوية أنّ بعض الشركات تقدّم لزبائنها ومسافريها بعض لعب الأطفال وقطع الحلوى مجّاناً لأطفالهم المسافرين معهم، ولعلّ قيمة هذه اللّعب ليست بكثيرة ولكنّها ذات أثر عميق فى نفسيّة الأفراد وهذه الطريقة من التعامل مع الزبائن تورث فى أنفسهم حسن الظن والثقة للطرف الآخر. وطبعاً فالإسلام يؤيّد حسن الخلق من موقع الصفاء الذاتى والتعامل الإنسانى لا كما هو السائد من الرياء والتظاهر فى العالم المادى المعاصر، ولكن فى نفس الوقت فانّه يعتبر أنّ حسن الخلق له آثار مادية ودنيوية كثيرة تمثّل فى زيادة النعمة والبركة فى حركة الحياة والواقع المادى. وبالنسبة إلى البعد المعنوى فإنّ الثواب المترتّب على حسن الخلق يعادل ثواب المجاهدين فى سبيل اللَّه، ودليل ذلك واضح لأنّ المجاهد يسعى لنشر راية الإسلام ويتحرّك فى هذا السبيل لأعلاء كلمة اللَّه، وصاحب الخلق الحسن أيضاً يتسبب فى تعميق الثقة والانفتاح على الإسلاك فى قلوب الناس، وقد ورد فى الروايات الشريفة أيضاً أنّ أجر صاحب الخلق الحسن مثل أجر الصائم القائم، لأنّ الصائم القائم يتحرّك فى هذا السلوك العبادى من موقع تهذيب النفس وتصفيتها، فكذلك الأشخاص الذين يتعاملون فى مواجهة تحدّيات الواقع الصعب من موقع غلبة الأهواء وحفظ النفس فى اطار الضوابط الأخلاقية والشرعية فى سبيل اللَّه تعالى. والخلاصة أنّ صاحب الخلق الحسن يكون محبوباً عند اللَّه تعالى وعند الخلق كذلك، ويكون موفقاً فى حياته الشخصية والفرديّة وكذلك موفّقاً فى حياته الاجتماعية. ومن المعلوم أنّ حسن الخلق يعدّ أحد

أركان عناصر الإدارة ولو أنّ عشرات من الشروط المتوفّرة فى المدير المدبّر من دون عنصر حسن الخلق لما تسنى لهذا المدير أن يكون موفّقاً فى عمله وتدبيره فى حين أنّه لو كان حسن الخلق فانّ هذه الصفة بإمكانها العمل على ستر الكثير من نقاط الضعف أو جبرانها.

منابع حسن الخلق:

إنّ بعض الناس يتمعتون بحسن الخلق بشكل طبيعى، وهذا يعدّ من المواهب الإلهية للإنسان التى لا تكاد تكون من نصيب كل شخص، وعلى هذا الإنسان أن يشكر اللّه تعالى بجميع وجوده على هذه الموهبة العظيمة. ولكن الكثير من الناس ليسوا كذلك، فعليهم أن يقوموا بتعميق وتوكيد حسن الخلق فى نفوسهم من خلال التمرين والممارسة على أرض الواقع العملى بحيث يكتسبوا طبيعة ثانية لهم ويكون حسن الخلق نافذاً وراسخاً فى وجودهم وواقعهم النفسى، وأفضل طريق إلى نيل هذه الصفة الأخلاقية والمرتبة الكمالية هو أن يتفكّر الإنسان فى الآثار المعنوية والمادية لهذه الصفة الأخلاقية ويطالع الروايات الشريفة المذكورة سابقاً فى هذا الباب ويتأمل فيها ويقوم بتكرارها بين الحين والآخر لتترسخ مضامينها فى أعماق نفسه. ومن جهة اخرى يجب أن يتحرّك الإنسان على المستوى العملى لتطبيق وترجمة هذه الصفة فى سلوكه الخارجى، لأنّ الفضائل الأخلاقية كالقابليات البدنية تقوى وتشتد بالتمرين والتكرار كما نرى فى الرياضيين أنّهم بعد مدّة من التمرين يتمتعون بأبدان قوية وجميلة فكذلك الرياضة الأخلاقية بإمكانها أن تقوّى روح الإنسان. ويقول علماء الأخلاق فى صدد تربية الأفراد البخلاء على صفة الكرم أنّ الإنسان البخيل يجب أن يضغط على ميوله النفسى وحرصه على الأموال، ويتحرّك على مستوى بذل المال للآخرين فى البداية، ورغم أنّ هذا العمل يكون عسيراً فى البداية إلّاأنّه تدريجياً يصبح ميسوراً وبالتالى يعتاد الإنسان على حاله البذل والكرم بحيث أنّه لو لم يبذل من أمواله يوماً لوجد فى نفسه امتعاضاً. وكذلك يوصى علماء الأخلاق الشخص الجبان بأن يحضر إلى ميادين القتال والمواجهة مع العدو حتى تزول عنه حالة الخوف والجبن بالتدريج ويحل محلّها صفة الشجاعة والجرأة والإقدام. وهكذا بالنسبة لأصحاب الخلق السيء، فإنّهم من خلال التمرين والممارسة المستمرة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۴ لموارد ومصاديق حسن الخلق فإنّهم سيتمكّنون فى المستقبل من توفير رأس مال كبير من هذه الصفة الإنسانية وينتفعون من بركاتها ونتائجها الإيجابية فى حياتهم النفسية والاجتماعية. ومضافاً إلى كل ذلك ونظراً إلى أنّ أحد عوامل سوء الخلق هو التكبّر والغرور وكذلك الحدّة والغضب وروح الانتقام وأحياناً يكون بسبب الحرص والبخل والحسد، فلو أنّ الإنسان أراد أن يكون حسن الخلق فى جميع موارد الحياة الفردية والاجتماعية لوجب عليه أن يدفع ويزيل هذه الصفات والحالات السلبية عن واقعه النفسى. عليه أن يراعى حدّ الاعتدال فى القوّة الغضبيّة والشهوية وأن تكون له سعة الافق وشرح الصدر ليتمكّن بذلك من تطهير قلبه وروحه من الأنانية والحسد والبخل وبالتالى يورثه ذلك حسن الأخلاق ويكون فى أمان من سوء الخلق مع الناس. وعليه فإنّ تحصيل هذه الفضيلة الأخلاقية الكبيرة تتطلب وجود وتوفر مجموعة من الصفات الحسنة فى واقع الإنسان النفسى حيث إنّه بدونها لا يكون حسن الخلق فى سلوكه الأخلاقى. ويقول (الغزالى) فى هذا الصدد: كما أنّ صاحب الوجه الحسن لا يكون كذلك بجمال العين فقط بل لابدّ أن يضم إليه جمال الأنف والفم وجميع أعضاء الوجه، ليكون جميلًا وكاملًا فى مجال الجمال البدنى والمادى، فكذلك حال الجمال الباطنى والمعنوى فما لم يصل الإنسان إلى حد الاعتدال فى قواه الأربعة ... العلم والغضب والشهوة والعدالة، فإنّه لا يصل إلى مقام الجمال الباطنى. ولا شك أنّ عامل (الوراثة) يوثّر فى سلوك الإنسان الأخلاقى حيث يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «حُسنُ الخُلقِ بُر هانُ كَرمِ الأعراقِ» «۱». ويقول عليه السلام فى مكان آخر: «أطهَرُ النّاسِ أعراقاً أحسَنُهُم أخلاقاً» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۵ وهناك ملاحظة ينبغى الالتفات إليها فى البحوث الأخلاقية وهى، أنّ الفضائل الأخلاقية لا يمكن إكتسابها وتحصيلها من دون التوفيق الإلهى والامداد الربّانى، فيجب الاستمداد من اللّه تعالى فى سبيل تحصيل هذه الملكات الأخلاقية الفاضلة وغرسها وتنميتها فى واقع الإنسان وروحه. ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الأخلاقُ مَنائِحُ

مِن اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَإذا أَحَبَّ عَبداً مَنَحَهُ خُلُقاً حَسَناً وَإذا أَبغَضَ عَبدَاً مَنَحَهُ خُلقاً سَيِّئاً» «۱».

سيرة الأولياء:

ومن أفضل الطرق لكسب فضيلة حسن الخلق وملاحظة نتائجها الإيجابية على واقع الإنسان هو التحقيق فی سيرة الأولياء العظام. ۱- نقرأ فی حديث عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله دَائِمُ البُشر، سَهلُ الخُلق، لَينُ الجَانبِ، لَيسَ بِفَظٍّ ولا غلِيظٍ ولا سَخّابٍ، ولا فَحّاشٍ، ولا عيّابٍ، ولا مَدّاحٍ، ولا يَتَغافَلُ عَمّا لايَشتَهِی، ولا يُؤيس مِنهُ، قَد تَركَ نَفسَهُ مِنْ ثَلاث: كَانَ لايَذُمُ أَحداً، ولا يُعيّرُه، ولا يَطلُبُ عَورَتَهُ، ولايَتَكَلَّمُ إلّا فَيما يَرجُو ثَوابَهُ، إذا تَكَلَّمَ أرقَ جُلساؤُهُ كَأَنّما عَلی رُؤوسِهِم الطَّيرُ، وإذا تَكَلَّمَ سَكَتُوا وإذا سَكَتَ تَكَلَّمُوا لايُسارِعُون عِندَهُ بِالحَديثِ، مَن تَكَلَّمَ نَصتُوا لَهُ حَتّی يَفرَغَ حَدِيثُهُم عِندَهُ حَديث إلَيهم، يَضحَكُ ممّا يَضحَكُونَ مِنهُ، وَيَتَعَجَّبُ ممّا يَتَعَجَّبُونَ مِنهُ، يُصبِّرُ الغريبَ عَلی الجَفوةِ فِی المنطِقِ، وَيَقُولُ: (إذا رَأَيتُم صاحِبَ الحَاجَةِ يَطلُبُها فَأَرفِدُهُ)، ولا يَقبَلُ الثَّناءَ إلّامِنْ مُكافیء، ولا يَقطَعُ عَلَی أَحدٍ حَدِيثَهُ حَتّی يَجُوزَهُ فَيَقطَعُهُ بِانتهاء أو قِيام» «۲». ۲- ونقرأ فی حالات الإمام علی عليه السلام فی الرواية المعروفة أنّ الإمام كان قاصداً الكوفة فصاحب رجلًا ذميّاً فقال له الذمّی: أين تريد يا عبداللّه، قال: اريد الكوفة، فلما عدل الطريق الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۶ بالذمّی عدل معه علی عليه السلام، فقال له الذمی: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال: بلی. فقال له الذمی: فقد تركت الطريق، فقال عليه السلام: قد علمت، فقال له: فلم عدلت معی وقد علمت ذلك؟ فقال له علی عليه السلام: «هذا مِن تمام الصُّحبةِ أن يُشيِّعَ الرّجلُ صاحِبهُ هُنيئةً إذا فارَقَهُ وَكَذلِكَ أَمرنا نَبيِّنُا». فقال له الذمی: هكذا أمركم نبيّكم؟ فقال: نعم، فقال له الذمّی: لا جرم إنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهد علی دينك، فرجع الذمّی مع الإمام علی عليه السلام، فلما عرفه أسلم» «۱». ۳- وفی حديث آخر فی تفسير الإمام الحسن العسكری أنّه قال: حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: إنّ لی والدة ضعيفة وقد لبس عليها فی أمر صلاتها شیء وقد بعثتنی إليكِ فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك فثنت فأجابت ثم ثلثت إلی عشرة فأجابت ثم خجلت فی الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول اللّه صلی الله عليه و آله قالت فاطمة: هاتی وسلی عمّا بدا لك، أرأيت من اكتری يوماً يصعد إلی سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار يثقل عليه؟ فقالت: لا، فقالت: اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملأ ما بين الثری إلی العرش لؤلؤاً فأحری أن لا يثقل علیَّ، سمعت أبی صلی الله عليه و آله يقول: «علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم خلع الكرامات علی قدر كثرة علومهم وجدهم فی إرشاد عباد اللّه ..» «۲». وهذا الصبر العجيب والتعامل الملیء بالمحبّة واللطف وهذا التشبيه الجميل الباعث علی إزالة الحياء من السائل من كثرة سؤاله كل واحدة منها مثال جميل علی حسن خلق الأولياء العظام حيث ينبغی أن يكون درساً بليغاً وعبرة نافعة فی طريق إرشاد الناس إلی سلوك مثل هذه الممارسات الأخلاقية. ۴- وممّا ورد عن حلم الإمام الحسن عليه السلام أنّ شامياً رآه راكباً (فی بعض أزقة المدينة) الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۷ فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلمّا فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسلّم عليه وضحك فقال: «أَيُّها الشّيخ أَظُنُّك غَريباً، وَلَعَلَّك شُبّهت، فَلَو استَعتَبتَنا أَعتَبناكَ، وَلَو سَأَلتَنا أَعطَيناكَ، وَلَو استَرشَدتَنا أَرشدناك، وَلَو استَحمَلتَنا أَحملناكَ، وإن كُنتَ جائِعاً أَشبَعنَاك، وَإن كُنتَ عُرياناً كَسوناك، وإن كُنتَ مُحتاجاً أَغنَيناكَ، وإن كُنتَ طَريداً آويناكَ، وإن كانَ لَكَ حاجَةً قَضيناها لَكَ، فَلَو حَركتَ رَحلَكَ إلينا وَكُنتَ ضَيفَنا إلی وَقتِ إرتحالِكَ كانَ أَعود عَلَيكَ، لأنَّ لَنا مَوضِعاً رَحباً وَجاهاً عَريضاً وَمالًا كَثيراً». فلمّا سمع الرجل كلامه بكی، ثم قال أَشهدُ أَنّك خَليفة اللّه فی أرضه، اللّهُ أَعلَمُ حيثُ يَجعلُ رسالتهُ وكنتَ أَنت وأبوك أبغضُ خلق اللّه إليَّ، والآن أَنت وأبُوكَ أحبُّ خلق اللّهِ إليَّ، وَحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلی أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم «۱». ۵- وجاء فی كتاب «تحف العقول»: أنّ رجلًا من الأنصار جاء إلی الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يسأله حاجة، فقال عليه السلام: «يا أخا الأنصار صُن وَجهك عَن بَذلِ المسألةِ وارفع حاجَتَك فِی رقعةٍ فإنّی آت فِيها ما ساركَ إن شاء اللّه»، فكتب الأنصاری: يا أبا عبداللّه إنّ لفلان علیَّ خمسمائة دينار وقد الجّ بی فكلّمه ينظرنی إلی ميسرة، فلما قرأ الإمام الحسين عليه السلام الرقعة، دخل إلی منزله فأخرج صرّة فيها ألف

دینار وقال علیه السلام له: «أما خمسمائة فاقض بها دینک وأمّا خمسمائة فاستعن بها علی دَهرِکَ ولا تَرفع حاجتَکَ إلّاإلی أحد ثلاث: إلی ذی دین، أو مروّة، أو حسب، فأمّا ذو الدین فَیصُون دِینُهُ، وأَمّا ذو المُروة فإنّه یستحی لمروّته، أَمّا ذو الحسب فیعلم أنّک لم تکرم وجهکَ أن تَبذلُه فِی حاجتِکَ فَهو یَصون وَجهکَ أن یردَک بِغیر قضاءِ حاجتِک» «۲». ۶- ونقرأ فی حالات الإمام زین العابدین أنّه وقف علی علی بن الحسین علیه السلام رجل من أهل بیته فأسمعه وشتمه فلم یکلّمه، فلما انصرف قال لجلسائه: قد سمعتم ما قال هذا الرجل وأنا احب أن تبلغوا معی إلیه حتّی تسمعوا منّی ردی علیه. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۸ فقالوا له: نفعل ولقد کنّا نحبّ أن تقوله له ونقول، قال: فأخذ نعلیه ومشی وهو یقول: «... وَالْکَاظِمِینَ الْغَیْظَ وَالْعَافِینَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ» «۱». فعلمنا أنّه لا یقول له شیئاً قال: فخرج إلینا متوثباً للشر وهو لا یشک أنّه إنّما جاءه مکافیاً له علی بعض ما کان منه فقال له علی بن الحسین علیه السلام: «یا أَخی إنَّکَ کُنتَ قَد وَقفتَ علیَّ آنفاً قُلتَ وَقُلتَ فإن کُنتَ قَد قُلتَ ما فیَّ فأنا استغفرُ اللَّهَ مِنهُ وإن کُنتَ قُلتَ ما لَیس فیَّ فَغفرَ اللَّهُ لَکَ». قال (الراوی) فقبل الرجل بین عینیه وقال: بلی قلت فیک ما لیس فیک وأنا أحق به. قال الراوی الحدیث: والرجل هو الحسن بن الحسن علیه السلام «۲». ۷- ونقرأ فی حالات الإمام الباقر: عن محمد بن سلیمان عن أبیه قال: کان رجل من أهل الشام یختلف علی أبی جعفر علیه السلام (الإمام الباقر) وکان مرکزه بالمدینة یختلف إلی مجلس أبی جفعر یقول له: یا محمد ألا تری أنّی إنّما أغشی مجلسک حیاء منک ولا أقول أنّ أحداً فی الأرض أبغض إلیَّ منکم أهل البیت، وأعلم أنّ طاعة اللّه وطاعة رسوله وطاعة أمیرالمؤمنین فی بغضکم ولکن أراک رجلًا فصیحاً لک أدب وحسن لفظ، فإنّما اختلافی إلیک لحسن أدبک. وکان أبو جعفر علیه السلام یقول له خیراً ویقول: لن تخفی علی اللّه خافیة فلم یلبث الشامی إلّا قلیلًا حتی مرض واشتدّ وجعه، فلمّا ثقل دعا ولیّه وقال له: إذا أنت مددت علیَّ الثوب فأت محمد بن علی علیه السلام وسله أن یصلّی علیَّ واعلمه إنّی أنا الذی أمرتک بذلک. قال: فلمّا أن کان فی نصف اللیل ظنّوا أنّه قد برد وسجّوه، فلمّا أن أصبح الناس خرج ولیّه إلی المسجد، فلمّا أن صلّی محمد بن علی علیه السلام وتورّک وکان إذا صلّی عقب فی مجلسه، قال له: یا أبا جعفر إنّ فلان الشامی قد هلک وهو یسألک أن تصلی علیه. فقال أبوجعفر علیه السلام: کلّا إنّ بلاد الشام بلاد صرد والحجاز بلاد حر لهبها شدید انطلق فلا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۹ تعجلنّ علی صاحبک حتی آتیکم ثم قام علیه السلام من مجلسه فأخذ وضوءاً ثم عاد فصلّی رکعتین ثم مدّ یده تلقاء وجهه ما شاء اللّه ثمّ خرّ ساجداً حتّی طلعت الشمس ثم نهض فانتهی إلی منزل الشامی، فدخل علیه فدعاه فأجابه ثم أجلسه وأسنده ودعا له بسویق فسقاه وقال لأهله: املؤوا جوفه وبرّدوا صدره بالطعام البارد. ثمّ انصرف علیه السلام، فلم یلبث إلّا قلیلًا حتّی عوفی الشامی فأتی أبا جعفر علیه السلام فقال: اخلنی فأخلاه، فقال: أشهد أنّک حجّة اللّه علی خلقه وبابه الذی یؤتی منه فمن أتی من غیرک خاب وخسر وضلّ ضلالًا بعیداً. قال له أبو جعفر علیه السلام: وما بدا لک؟ قال: أشهد أنّی عهدت بروحی وعاینت بعینی فلم یتفاجأنی إلّاومناد ینادی اسمعه بأذنی ینادی وما أنا بالنائم ردّوا علیه روحه فقد سألنا ذلک محمد بن علی. فقال له أبوجعفر علیه السلام: «أَما عَلِمتَ أنّ اللَّهَ یُحبُّ العَبدَ ویُبغِضُ عَمَلهُ ویُبغض العبد ویحبّ علمه؟»، (أی کما أنّک کنت مبغوضاً لدی اللّه لکنّ عملک وهو حبّنا مطلوباً عنده تعالی). قال الراوی: فصار بعد ذلک من أصحاب أبی جعفر علیه السلام «۱». ۸- ورد فی الحدیث المعروف فی حالات الإمام الصادق المذکور فی مقدمة (توحید المفضل) أنّ المفضل بن عمر قال کنت ذات یوم بعد العصر جالساً فی الروضة وبین القبر والمنبر وأنا مفکّر فیما خصّ اللّه به سیّدنا محمداً من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرّفه به وحباه لا یعرفه الجمهور من الامّة، وما جهلوه من فضله وعظیم منزلته وخطر مرتبته، فإنّی لکذلک إذ أقبل ابن أبی العوجاء فجلس بحیث أسمع کلامه، فلمّا استقرّ به المجلس إذا رجل من أصحابه قد جاء فجلس إلیه فتکلّم ابن أبی العوجاء؟ فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العزّ بکماله، وحاز الشرف بجمیع خصاله، ونال الحظوة فی کل أحواله، فقال له صاحبه: إنّه کان فیلسوفاً إدّعی المرتبة العظمی والمنزلة الکبری، وأتی علی ذلک بهجرات بهرت العقول، وضّلت فیها الأحلام، وغاصت الألباب علی طلب علمها فی بحار الفکر فرجعت خاسئات وهی حسیر، فلمّا استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۳۰ دخل الناس فی دینه أفواجاً فقرن اسمه باسم ناموسه،

فصار يهتف به على رؤوس الصوامع فى جميع البلدان ... فقال ابن أبى العوجاء: دع ذكر محمد، فقد تحيّر فيه عقلى، وضلّ فى أمره فكرى، وحدثنا فى ذكر الأصل الذى يمشى به، ثمّ ذكر ابتداء الأشياء وزعم أنّ ذلك باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع له ولا مدبّر، بل الأشياء تتكوّن من ذاتها بلا مدبّر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال. قال المفضّل: فلم أملك نفسى غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدوّ اللَّه ألحدت فى دين اللَّه، وأنكرت البارى جلّ قدسه الذى خلقك فى أحسن تقويم، وصوّرك فى أتمّ صورة، ونقلك فى أحوالك حتى بلغ بك إلى حيث انتهيت. فقال ابن أبى العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك، فإن ثبت لك حجّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد (الصادق)، فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش فى خطابنا ولا تعدّى فى جوابنا، وإنّه للحلوم الرزين العاقل الرصين لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، ويسمع كلامنا ويصغى إلينا ويستعرف حجّتنا حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننا أن قد قطعناه أدحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فان كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه «۱». ۹- ونقرأ فى حالات الإمام موسى بن جعفر أنّ رجلًا من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذيه ويشتم علياً عليه السلام قال: وكان قد قال له بعض حاشيته دعنا نقتله فنهاهم عن ذلك أشدّ النهى وزجرهم أشدّ الزجر وسأل عن العمرى فذكر له أنّه يزرع بناحية من نواحى المدينة، فركب إليه فى مزرعته فوجده فيها فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمرى لا تطأ زرعنا فوطئه بالحمار حتى وصل إليه فنزل فجلس عنده وضاحكه وقال له: كم غرمت فى زرعك هذا قال له: مائة دينار قال: فكم ترجو أن يصيب، قال له: أنا لا أعلم الغيب، قال: إنّما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۱ قلت لك كم ترجو أن يجيئك فيه قال: أرجو أن يجيئنى مائتا دينار، قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، قال: فقام العمرى فقبل رأسه وانصرف. قال الراوى: فراح المسجد فوجد العمرى جالساً فلمّا نظر إليه قال: اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، قال: فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتّك؟ قد كنت تقول خلاف هذا، قال: فخاصمهم وشاتمهم، قال: وجعل يدعو لأبى الحسن موسى كلّما دخل وخرج، قال فقال أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام لحاشيته الذين أرادوا قتل العمرى: «أيما كان خير ما أردتم أو ما أردت أصلح أمره بهذا المقدار» «۱». ۱۰- وهكذا ورد فى سيرة الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وكيفية تعامله مع الناس من موقع المحبّة واللطف، نقل عن اليسع بن حمزة، قال: كنت فى مجلس أبى الحسن الرضا عليه السلام احدثه وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم فقال: السلام عليك يابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رجل من محبيك ومحبّى آبائك وأجدادك مصدرى من الحج وقد افتقدت نفقتى وما معى ما أبلغ به مرحلة، فإن رأيت أن تنهضنى إلى بلدى وللَّه علىَّ نعمة، فإذا بلغت بلدى تصدقت بالذى تولينى عنك فلست بموضع صدقة. فقال له الإمام عليه السلام: اجلس يرحمك اللَّه، واقبل على الناس يحدثهم حتّى تفرقوا وبقى هو وسليمان الجعفرى وخيثمة وأنا، فقال: أتأذنون لى فى الدخول؟ فقال له سليمان: قدم اللَّه أمرك، فقام ودخل الحجرة وبقى ساعة ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، وقال اين الخراسانى؟ فقال: ها أناذا. فقال عليه السلام: خذ هذه المأتى دينار فاستعن بها فى مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عنّى واخرج فلا أراك ولا ترانى، ثم خرج، فقال سليمان الجعفرى: جعلت فداك لقد اجزلت ورحمت فلماذا استرت وجهك عنه؟ فقال عليه السلام: مخافة أن أرى ذلّ السؤال فى وجهه لقضائى حاجته، أما سمعت حديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «المُستَتِرُ بِالحسنَةِ تَعدِلُ سَبعِينَ حِجَّةً، وَالمُذِيعُ بِالسيئَةِ مَخذُولٍ، وَالمُستَتِرُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۲ بِها مَغفُورٌ لَهُ»، أما سمعت قول الأول: متى آته يوماً اطالب حاجة رجعت إلى أهلى ووجهى بمائه «۱». ۱۱- ونقرأ فى حالات الإمام الجواد عليه السلام، عن على بن جرير قال: كنت عند أبى جعفر ابن الرضا عليهما السلام جالساً وقد ذهبت شاة لمولاة له فأخذوا بعض الجيران يجرّونهم إليه ويقولون: أنتم سرقتم الشاة، فقال أبو جعفر الإمام الجواد عليه السلام: ويلكم خلّوا عن جيراننا فلم يسرقوا شاتكم الشاة فى دار فلان، فاذهبوا فأخرجوها من داره، فخرجوا فوجدوها فى داره، وأخذوا الرجل وضربوه وخرقوا ثيابه، وهو يحلف أنّه لم يسرق هذه الشاة إلى أن صاروا إلى أبى جعفر عليه السلام فقال: ويحكم ظلمتم الرجل فإنّ الشاة دخلت داره وهو لا يعلم بها، فدعاه فوهب شيئاً

بدل ما خرق من ثيابه وضربه «۲». ۱۲- وكذلك ورد فى سيرة الإمام الهادى عليه السلام عن أبى هاشم الجعفرى قال: أصابنى ضيقة شديدة فصرت إلى أبى الحسن على بن محمد (الإمام الهادى عليه السلام) فأذن لى فلمّا جلست قال: يا أبا هاشم أى نعم اللَّه عزّوجلَّ عَلَيكَ تُريدُ أن تُؤدّى شُكرَها؟ قال أبو هاشم: فوجمت فلم أدرى ما أقول له. فأبتدأ عليه السلام فقال: «رَزَقَكَ الإيمانَ فَحرَّمَ بَدَنَكَ عَلى النّارِ، وَرَزَقَكَ العافِيةَ فَأعانَتكَ عَلَى الطّاعَةِ، وَرَزَقَكَ القُنُوعَ فَصانَكَ عَن التَّبَذُّلِ، يا أبا هاشم إنَّما ابتدأتُكَ بِهذا لأنّى ظننتُ تُريدُ أن تَشكُو لِى مَن فَعَلَ بِكَ هذا، وَقَد أَمرتُ لَكَ بِمائةِ دينار فَخُذها» «۳». ۱۳- وأورد (الكلينى) فى الجزء الأول من اصول الكافى- حول الإمام العسكرى عليه السلام- أنّه قال: «حُبِس أبو مَحمّد (الإمام العسكرى) عِندَ عَلى بن نارمش وهَو أنصب الناس وأشدّهم عَلى آل أبى طالب وَقِيلَ لَهُ: افعل به وافعل- يعنى مِن السوء وَالاذى- فما أقام- الإمام- عِندَهُ إلّايَوماً حَتّى وَضَعَ خديَّه لَه، وَكانَ لايَرفَع بَصره إليهِ إجلالًا وإعظاماً فَخرجَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۳ مِن عِندِهِ وهو أحسنَ النّاسَ بَصيرةً وَأحَسنهم فِيهِ قَولًا» «۱». ۱۴- وجاء فى الروايات عن الإمام المهدى أرواحنا فداه وحسن خلقه وعنايته بالأشخاص الذين يتشرفون بلقائه روايات وقصص كثيرة، منها ما ذكره المرحوم (المحدّث النورى) فى كتابه (جنّة المأوى) عن أحد علماء النجف الأشرف أنّه قال: كان فى النجف الأشرف رجل مؤمن يسمّى الشيخ محمد حسن السريرة، وكان فى سلك أهل العلم ذا نية صادقة، وكان معه مرض السعال إذا سعل يخرج من صدره مع الأخلاط دم، وكان مع ذلك فى غاية الفقر والاحتياج لا يملك قوت يومه، وكان يخرج فى أغلب أوقاته إلى البادية إلى الأعراب الذين فى اطراف النجف الأشرف ليحصل له قوت ولو شعير وما يتيسر ذلك، وكان يكفيه مع شدّة رجائه وكان مع ذلك قد تعلق قلبه بتزويج امرأة من أهل النجف، وكان يطلبها من أهلها وما أجابوه إلى ذلك لقلّة ذات يده، وكان فى هم وغم شديد من جهة ابتلائه بذلك، فلما اشتدّ به الفقر والمرض وأيس من تزوج البنت عزم على ما هو معروف عند أهل النجف من أنّه من أصابه أمر فواظب الرواح إلى مسجد الكوفة أربعين ليلة أربعاء، فلابدّ أن يرى صاحب الأمر عجّل اللَّه فرجه من حيث لا يعلمويقضى له مراده، فواظب على ذلك أربعين ليلة أربعاء، فلما كان الليلة الأخيرة وكانت ليلة شتاء مظلمة وقد هبّت ريح عاصفة فيها قليل من المطر وأنا جالس فى الدكة التى هى داخل باب المسجد وكانت الدكة الشرقية المقابلة للباب الأول تكون على الطرف الأيسر عند دخول المسجد ولا أتمكن الدخول فى المسجد من جهة سعال الدم ولا يمكن قذفه فى المسجد وليس معى شىء اتقى فيه عن البرد وقد ضاق صدرى واشتد علىَّ همّى وغمّى وضاقت الدنيا فى عينى وافكر أن الليالى قد انقضت وهذه آخرها وما رأيت أحداً ولا ظهر لى شىء وقد تعبت هذا التعب العظيم وتحملت المشاق والخوف فى أربعين ليلة أجيىء فيها من النجف إلى مسجد الكوفة ويكون لى الاياس من ذلك، فبينما أنا افكر فى ذلك وليس فى المسجد أحد أبداً وقد أوقدت النار الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۴ لأسخن عليها قهوة جئت بها من النجف لا أتمكن فى تركها لتعودى عليها وكانت قليلة جدّاً إذا بشخص من جهة الباب الأول متوجهاً إلىَّ، فلما نظرته من بعيد تكدرت وقلت فى نفسى هذا اعرابى من أطراف المسجد قد جاء إلىَّ ليشرب من القهوة أبقى بلا قهوة فى هذا الليل المظلم ويزيد علىَّ همّى وغمّى، فبينما أنا افكر إذا به قد وصل إلىَّ وسلّم علىَّ باسمى وجلس فى مقابلى فتعجبت من معرفته باسمى وظننته من الذين أخرج إليهم فى بعض الأوقات من أطراف النجف أسأله من أى العرب يكون؟ قال: من بعض العرب، فصرت أذكر له الطوائف التى فى أطراف النجف فيقول: لا- لا وكلما ذكرت له طائفة قال: لا لست منها فاغضبنى، وقلت له: أجل أنت من طريطرة مستهزءاً هو لفظ بلا- معنى، فتبسّم عليه السلام من قولى ذلك وقال: لا عليك من اين كنت ما الذى جاء بك إلى هنا، فقلت: وأنت ما عليك السؤال عن هذه الامور؟ فقال: ما ضرّك لو أخبرتنى فاعجبت من حسن أخلاقه وعذوبة منطقه فمال قلبى إليه وصار كلّما تكلم ازداد حبّى له فعملت له السبيل من التتن وأعطيته فقال: أنت اشرب فأنا لا أشرب وصببت فى الفنجان قهوة وأعطيته فأخذه وشرب شيئاً قليلًا منه ثم ناولنى الباقى وقال: أنت اشربه فأخذته وشربته ولم التفت إلى عدم شربه تمام الفنجان، ولكن ازداد حبّى به آناً فآناً. فقلت له: يا أخى قد ارسلك اللَّه إلىَّ فى هذه الليلة تأتينى أفلا تروح معى إلى أن نجلس فى حضرة مسلم عليه السلام ونتحدّث؟ فقال: أروح معك فحدّث حديثك. فقلت له: أحكى لك الواقع أنا فى غاية الفقر والحاجة مذ شعرت على نفسى ومع ذلك معى سعال أتنخع الدم

وأقذفه من صدرى منذ سنين ولا أعرف علاجه وما عندى زوجة وقد علق قلبى بامرأة من أهل محلتنا فى النجف ومن جهة قلّة ما فى اليد ما تيسّر أخذها. وقد غرّنى هؤلاء الملائية وقالوا لى: اقصد فى حوائجك صاحب الزمان وبت أربعين ليلة أربعاء فى مسجد الكوفة فانك تراه ويقضى لك حاجتك وهذه آخر ليلة من الأربعين وما رأيت فيها شيئاً وقد تحملت هذه المشاق فى هذه الليالى فهذا الذى جاءنى هنا وهذه حوائجى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۵ فقال لى وأنا غافل غير ملتفت: أمّا صدرك فقد برأ وأمّا الامرأة فتأخذها عن قريب، وأمّا فقرك فيبقى على حاله حتى تموت وأنا غير ملتفت إلى هذا البيان أبداً. فقلت: ألا تروح إلى حضرة مسلم؟ قال: نعم فقمت وتوجّه أمامى فلّما وردنا أرض المسجد فقال: ألا تصلّى تحية المسجد، فقلت: افعل فوقف هو قريباً من الشاخص الموضوع فى المسجد وأنا خلفه بفاصلة فاحرمت الصلاة وصرت أقرأ الفاتحة. فبينما أنا أقرأ وإذا يقرأ الفاتحة قراءة ما سمعت أحداً مثلها أبداً، فمن حسن قراءته قلت فى نفسى لعله هذا هو صاحب الزمان وذكرت بعض كلمات له تدل على ذلك ثم نظرت إليه بعدما خطر فى قلبى ذلك وهو فى الصلاة وإذا به قد أحاطه نور عظيم منعنى من تشخيص شخصه الشريف وهو مع ذلك يصلّى وأنا أسمع قراءته وقد ارتعدت فرائصى ولا استطيع قطع الصلاة خوفاً منه فأكملتها على أى وجه كان وقد علا النور من وجه الأرض فصرت اندبه وأبكى واتضجر واعتذر من سوء أدبى معه بباب المسجد وقلت له: أنت صادق الوعد وقد وعدتنى الرواح معى إلى مسلم. فبينما أنا اكلم النور وإذا بالنور قد توجّه إلى جهة مسلم فتبعته فدخل النور الحضرة وصار فى جو القبة ولم يزل على ذلك ولم ازل أندبه وأبكى حتى إذا طلع الفجر عرج النور. فلّما كان الصباح التفت إلى قوله، أمّا صدرك فقد برأ وإذا أنا صحيح الصدر وليس معى سعال أبداً، وما مضى اسبوع إلّاوسهّل اللَّه على أخذ البنت من حيث لا أحتسب وبقى فقرى على ما كان كما أخبر صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين «۱». وما ذكر أعلاه نماذج ونقاط مضيئة من سيرة الأئمّة والأولياء العظام وبما يكون بمثابة تجلّيات نورانية لسلوكهم الأخلاقى السامى وحسن تعاملهم مع الصديق والعدو، وهذه النماذج القليلة تدل على مدى تأكيد هؤلاء العظام والقادة على هذه السجية وأهميّتها فى حياة الإنسان المعنوية، وما ورد فى القرآن الكريم حكاية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من حسن الخلق العظيم نجده مترجماً فى سلوكيات الأئمّة الكرام عليهم السلام فى دائرة العمل والسلوك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۶ الأخلاقى، نعم فإنّ الدعوة إلى حسن الخلق لا- تكون باللسان فقط ومن خلال التوصيات والإرشادات الكلامية، بل إنّ الممارسة الأخلاقية والتحرّك الأخلاقى العملى يمثّل أسمى نداء أخلاقى وإرشاد تربوى فى عملية التكامل المعنوى والحضارى للبشرية.

نتائج سوء الخلق:

النقطة المقابلة لحسن الخلق فى واقع الإنسان وسلوكه الأخلاقى هى (سوء الخلق) حيث يمكن أن يفسّر على مستوى الخشونة والحدّة وسوء الكلام. الأشخاص الذين يعيشون سوء الخلق مع الناس هم بمثابة بلاء عظيم على أنفسهم واسرتهم ومجتمعهم الذى يعيشون فيه. إنّ سوء الخلق من أهم عوامل إيجاد الكراهية والتنفّر والتفرّق بين أفراد المجتمع، والأشخاص الذين يعيشون الابتلاء بهذه الحالة السيئة، فإنّهم غالباً ما يعيشون الانزواء فى المجتمع حيث يبتعد الناس عنهم ويتجنّبون معاشرتهم، وحتى لو اجبروا على معاشرتهم بسبب بعض الواجبات الاجتماعية أو بسبب مقامهم ومكانتهم الاجتماعية فإنّهم يشعرون بالنفور منهم فى قلوبهم ويجدون فى أنفسهم الرغبة فى الابتعاد عنهم مهما أمكنهم ذلك. وعندما يتوفّر هذا الخلق السيء والمرض النفسى لدى علماء الدين ورجال المذهب، فإنّ ذلك يمثّل خطراً كبيراً على الدين والمجتمع ويتسبب فى سوء ظن الناس بأساس الدين وفرارهم من التعاليم والإرشادات الدينية وهذا بحدّ ذاته ذنب عظيم جدّاً لا يمكن جبرانه. ولهذا السبب ورد فى الروايات تعبيرات شديدة تتحدّث عن سوء الخلق وأحياناً نقرأ فيها كلمات مذهلة ومخيفة عن النتائج الوخيمة والآثار السلبية لهذا المرض الأخلاقى، ومن ذلك نقرأ ما ورد فى بعض هذه الروايات: ۱- جاء فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «إيّاكُم وَسُوءَ الخُلقِ فَإنَّ سُوءَ الخُلقِ فِى النَّارِ لامَحالَةَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۷ ۲- وفى حديث آخر- عبرّ عنه بأنّه لا توبة لصاحب الخلق السيء- وعنه صلى الله عليه و آله قال: «أَبى اللَّهُ لِصاحِبِ

الخُلقِ السَّیء بِالتَّوبَةِ» قیل: وکیف یا رسول اللّه؟ قال: «لأنَّهُ إذا تابَ مِنْ ذَنبٍ وَقَعَ فِی أعْظَمَ مِنَ الـذَّنبِ الَّذِی تابَ مِنهُ» «۱». ویمکن أن یکون المقصود من هـذا الحـدیث الشـریف أنّ الشـخص السـیء الخلق عندما یتوب فی مورد من الموارد ویقلع عن بعض الممارسات الأخلاقیة، فإنّ ذلک من شأنه أن یوقعه فیما هو أسوأ من ذلک، لأنّ جذور هذا المرض لا زالت موجودةً فی أعماق نفسه ممّا یزید فی عقدته النفسیّة، ولهذا السبب فإنّه لا یوفّق للتوبة الکاملة إلّابالاقلاع عن هذه الرذیلة الأخلاقیة واجتثاث جذور من واقعه النفسـی وباطنه المعنوی. ۳- وجـاء عن الإمام علی علیه السـلام فی تقریره لحالـة سوء الخلق أنّ: «أشَـدُّ المَصائِبِ سُوءُ الخُلقِ» «۲». وهل هناک مصیبة أعظم من أن یکون الإنسـان منزویـاً ومعزولًا فی مجتمعه وبین أرحـامه ومعارفه ویقطع الصـلة بینه وبین الخلق والخالق علی السواء. ۴- ونقرأ فی الروایـة الواردة عن هـذا الإمـام العظیم أنّه قـال: «لا وَحشَـةَ أوحَشُ مِنْ سُوء الخُلقِ» «۳». ودلیل ذلک واضـح وهو أنّ الإنسان السـیء الخلق یغرق فی الوحـدة الموحشـة ویعیش وحیـداً منقطعاً عن الآخرین، ولهـذا السبب ورد فی حـدیث آخر أنّه قال: «لا عَیشَ لِسَیِّیء الخُلـقِ» «۴». لأنّه یعیش دائمـاً حالـة الضـجر والتعب فی نفسه ویودّی أیضـاً إلی تعب المعاشـرین له. ۶- وشبیه هـذه الروایة مع اختلاف یسیر ما ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام أمیر الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۳۸ المؤمنین أیضاً أنّه قال: «لا سُؤدَدَ لِسَیِّیءِ الخُلقِ» «۱». فالإنسـان السـیء الخلـق لاـ یکون کـبیراً فی مجتمعه ودلیـل ذلـک واضـح أیضـاً، لأـنّ من أول شـروط تحصـیل المکـانة الاجتماعیـة والسـیادة والعزّة لدی الأهل والعشـیرة هو التعامل الأخلاقی الحسن مع الآخرین ومراعاة الأدب واللّیونة واللطافة، فمن إفتقد رأس المال هـذا فإنّه لا یصل إلی ذلک المقام. ۷- وورد عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السـلام أیضاً قوله: «المُؤمِنُ لَیِّنُ الأرِیکَةَ، سَـهلُ الخَلِیقَةَ، والکَافِرُ شَرِسُ الخَلِیقَةَ سَیِّیءُ الطَّرِیقَةَ» «۲».

علاج سوء الخلق:

إنّ ما أوردنا فی الروایات أعلاه وروایات اخری کثیرة لم نـذکرها حرصاً علی الایجاز وعدم الأطالة هو شاهد علی أنّ سوء الخلق یعتبر أحـد أسوأ الصـفات النفسـیة والأخلاقیـة فی واقع الإنسـان وسـلوکه الاجتمـاعی حیث یـترتب علیهـا نتائـج وخیمـة فی حرکـة الإنسـان والمجتمع ویفضـی إلی تـدمیر افق الحیـاة السـعیدة ویبـدّل عناصـر الخیر والسـعادة فی حیاة الإنسان إلی الشـر والشـقاء. وعلی هـذا فإنّ الأشـخاص الـذین یعیشون هـذه الرذیلـة الأخلاقیة یجب علیهم علاج أنفسـهم بأسـرع ما یمکن، والاسـتفادة من کلمات ونصائح علماء الأخلاق فی هـذا المجال ومنها قولهم: إنّ من یبتلی بهـذه الصـفة الرذیلـة یجب علیه أن یفکّر ویتـدبّر فی عواقبها الوخیمـة فی کل یوم ویقرأ باسـتمرار الروایـات التی تتحـدّث عن آثارهـا السـلبیة فی الـدنیا والآـخرة کما تقـدمت الإشارة إلیها، ویشاهـد ما یجری فی حیاة المبتلین بهـذا المرض وکیف أنّ الناس تنفر منهم وتبتعـد عنهم وبـذلک یعیشون حالة الوحشة والصـعوبة فی مقابل تحدّیات الواقع فلا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۳۹ یشارکهم أو یواسـیهم أحد من الناس فیما یصـیبهم من بأساء وضـرّاء فی حرکة الحیاة، والخلاصة أنّه یتّعظ من حیـاة هؤلاء الـذین یعیشون العزلـة علی اللّه والخلق. وما یجـدر ذکره هو أنّه ینبغی لغرض قلع جـذور الصـفات الأخلاقیة القبیحة من واقع الإنسان وروحه أن یتحرّک الإنسان علی مسـتوی التمرّن وممارسة الریاضة المعنویة والاصـرار فی سـلوک هذا الطریق وإن کان بواسـطة التصـنّع لیکون حسن الخلق له بصورة عادة وملکـة، وفیما إذا وجـد فی نفسه عناصـر وعوامل نفسـیة تبعث علی سوء الخلق فانّه یتحرّک فوراً لازالتها وتطهیر نفسه منها وذلک من خلال ممارسـة الصـلاة والعبادة وزیارة المراقـد المقدّسـة أو یتحرّک من موقع الترفیه السلیم والألعاب المسلّیة المشروعة لیدرأ هذا المرض وهذه العوامل السلبیة من کیانه وشخصیته. وکذلک یتحرّک الإنسان فی طریق تهدید نفسه من خلال التلقین، وذلک بالایحاء إلی نفسه بأنّه صاحب خلق حسن ویتّصف بحسن التعامل والطیبة واللطف مع الآخرین، فمن شأن هذا التلقین أن یؤثّر أثره بالتدریج فیغرس فی قلبه نبتة حسن الخلق ویعمل علی تقویتها وتعمیقها وإزالة عناصر الشر وعوامـل سوء الخلق من ذاته. وأحیانـاً یتحقّق سوء الخلق فی النفس بسـبب الجوع والعطش أو بعض الأمراض البدنیـة حیث ینبغی علی هـذا الإنسان أن یعالـج هـذه المسألـة من الأساس والجـذور ویحاول الابتعاد عن الناس والتعامل معهم فی هـذه الحالة الاسـتثنائیة مهما

أمكن. وأحياناً تنقل هذه الرذيلة الأخلاقية الإنسان من رفاقه وأصدقائه من الأراذل والأخلاء السيّيء الخلق، فينبغى عليه أن يقطع أواصر الصداقة مع هؤلاء ويحاول الإرتباط من موقع الصداقة والمودّة مع من هم أهل لذلك ويعيشون الفضيلة وحسن الخلق مع الناس، وهكذا فإنّ أسوأ الناس أخلاقاً إذا تحرّك فى اصلاح نفسه فى علاج مرضه الأخلاقى من خلال ممارسة هذه التعليمات المذكورة آنفاً وعزم على تحقيق هذه الملكات الأخلاقية فى نفسه بإرادة قويّة وسعى لإصلاح نفسه بتصميم راسخ فإنّه سوف يحصل على النتائج المرجوّة حتماً.

المزاح:

لقد ورد فى الروايات الإسلامية وكذلك كلمات علماء الأخلاق بحوث واسعة عن (المزاح) حيث يتوصّل الإنسان من خلال مطالعتها ودراستها إلى هذه النتيجة، وهى أن المزاح إذا كان فى حدّ الاعتدال ولم يكن ملوّثاً بالإثم والمعصية فإنّه ليس فقط غير قبيح، بل يمكن اعتباره من مصاديق حسن الخلق والأخلاق الفاضلة وحسن المعاشرة مع الناس، ولا شك أن الافراط فى ذلك إمّا أن يوقع الإنسان فى المعصية والإثم يتحول إلى أحد الرذائل الأخلاقية، وأحياناً يكون خطره أكثر من خطره فى الكلام إذا كان من موقع الجد، لأنّ فى المزاح نوع من الحرية لا توجد فى الكلام الجدّى والذى ينطلق من موقع المسؤولية. ويستفاد من سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وعلماء الدين أنّهم كانوا يمارسون المزاح بشكل معتدل فى معاشرتهم مع الناس. وبهذه الإشارة نستعرض بعض الروايات التى تقرر حسن المزاح بصورة عامّة، ثم نستعرض الروايات التى تذم المزاح، ثم نذكر طريق الجمع بين هاتين الطائفتين من الروايات الشريفة: ۱- ما ورد فى الحديث عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله لَيَسُرُّ الرَّجُلَ مِنْ أَصحابِهِ إِذا رَآهُ مَغمُوماً بِالمُدَاعَبَةِ» «۱». أجل فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يستخدم المزاح لتحقيق الأغراض الإنسانية وادخال السرور على القلوب المهمومة والنفوس الكئيبة. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: «كَيفَ مُداعَبَةِ بَعضُكُم بَعضاً». قلت: قليل. فقال الإمام عليه السلام: «أَفَلا تَفعَلُوا فإنّ المُداعَبَةَ مِنْ حُسنُ الخُلقِ وَإنَّكَ لَتُدخلُ بِها السُّرورَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۱ عَلى أَخِيكَ وَلَقَد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله يُداعِبُ الرَّجُلَ يُريدُ أَن يَسُرَّهُ» «۱». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «ما مِنْ مُؤمِنٍ إلّاوَفِيهِ دُعابَةٌ، قلت: وَما الدُّعابَةُ؟ قال: المِزاح» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أن المؤمن لا ينبغى أن يكون جافّاً، بل إنّ أغصان حسن الخلق هو المزاح وطبعاً مقرون بالتقوى. ۴- ويستفاد من الروايات الشريفة أنّ المعصومين عليهم السلام أحياناً كانوا يتحرّكون لحث الآخرين للتمازح فى مجلسهم ليتمّ بذلك إدخال السرور على قلوب المؤمنين، ففى كتاب الكافى للمرحوم (الكلينى قدس سره) نقرأ حديثاً شريفاً يرويه عن معمر بن خلّاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام قلت: جعلت فداك الرجل يكون مع القوم فيجرى بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال عليه السلام: «لا بأسَ ما لَم يَكُن، فَظَننتُ أَنّه عنى الفحش، ثُمَّ قال: إنّ رَسُولُاللَّهِ صلى الله عليه و آله كانَ يَأتِيهِ الأعرابِى فَيَهدِى لَهُ الهدِيَّةَ ثُمَّ يَقُولُ مكانَهُ: أَعطِنا ثَمَنَ هَدِيتِنا فَيضحَكُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وَكَانَ إذا اغتَمَّ يَقُولُ: ما فَعَلَ الأَعرابى لَيتَهُ أتانا» «۳» ۵- وقد ورد فى الأحاديث الشريفة نماذج من موارد مزاح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع أصحابه منها ما ورد عن امرأة تدعى (ام أيمن) جاءت إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: إنّ زوجى يدعوك، فقال: ومن هو أهو الذى بعينه بياض، فقالت: واللَّه ما بعينه بياض، فقال: بلى أنّ بعينه بياضاً، فقالت: لا واللَّه. فقال صلى الله عليه و آله: ما أحد إلّاوبعينه بياض» .وفى مقابل هذه الأحاديث هناك أحاديث كثيرة تنهى عن المزاح منها: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۲ ۱- فى الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إيّاكُم وَالمَزاحَ فَإنَّهُ يَذهَبُ بِماءِ الوَجهِ وَمَهابَةِ الرِّجالِ» «۱». ۲- وأيضاً فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «إذا أَحبَبتَ رَجُلًا فَلا تُمازِحهُ وَلا تُمارِهِ» «۲». ۳- وفى حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إيّاكُم وَالمَزاحَ فَإنَّهُ يَجُرُّ السَّخِيمَةَ وَيُورِثُ الضَّغِينَةَ وَهُو السَّبُّ الأصغَرُ» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تُمازِح فَيُجتَرَءُ عَلَيكَ» «۴».

*** وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ المزاح يبعث على الذهاب بوقار الإنسان والحط من شخصيّته أمام الناس ويسبب العداوة والبغضاء بينهم ويوجب تجرّؤ الجهّال ويعرّض شخصية الإنسان إلى المهانة والضعف والاهتزاز. ومن خلال مطالعة التعبيرات الواردة فى روايات الطائفة الاولى المادحة للمزاح وروايات الطائفة الثانية الناهية عنه يمكن معرفة السبل إلى الجمع بين هاتين الطائفتين، وتوضيح ذلك أنّ المزاح أمر معقّد وأحياناً يتّسم بأنّه أشدّ من حالة الجدية فى الكلام وبعبارة اخرى أنّ المزاح أمر رقيق جدّاً بحيث أنّه إذا خرج قليلًا عن حدّ المقرّر، فإنّ له آثار مخرّبة مدمّرة. إذا كان المزاح فى الأطار المقبول ولم يخرج عن حدّ الاعتدال وكان لغرض رفع السأم والتعب والحزن عنهم مع رعاية الجهات الشرعية فإنّه يقع مطلوباً ومورد رضا اللّه تعالى. ولكن إذا كان المزاح لغرض الانتقام والسخرية بالطرف الآخر وبدافع الحقد والكراهية وخاصة إذا كان بلباس الجدّية فإنّه لا يحقق الامور المذكورة فحسب، بل إنّ البعض قد يهدف إلى أغراض شيطانية من خلال المزاح فلا شك فى أنّه يقع مبغوضاً ومنفوراً وأحياناً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۳ يكون أشدّ من السب والشتم. وكذلك إذا استخدمت فى المزاح كلمات واهنة ومبتذلة فلا شك أنّها تتسبب فى هتك حرمة الإنسان وإزهاق شخصيته. وهكذا إذا كان المزاح أمام أشخاص ليست لهم قابلية على تقبّله أو لا يحفظون حريم شخصيّة الإنسان ممّا يؤدّى إلى جرأتهم وتطاولهم على الكبير فيقولون من موقع المزاح ما يوهن شخصيته ويطعن فى احترامه. ومثل هذه الانحاء من المزاح ليست فقط غير مطلوبة بل أحياناً تقع فى دائرة الذنوب الكبيرة أيضاً. فعلى السالكين طريق الحق والذين يتحرّكون فى تهذيب النفس وتزكيتها يجب عليهم الانتباه فلا يشطبون على المزاح تماماً ويحذفونه من حياتهم ويتحوّلوا إلى أشخاص جامدين ويعيشون الجفاف الروحى والعواطف البشرية واللطافة والمحبّة مع الآخرين، ولا يتورّطون مقابل ذلك فى الذنوب أو الأعمال المنافية للمروءة عند ممارسة المزاح، فكثيراً ما رأينا بعض الأشخاص المتدينين حسب الظاهر عندما يتحدّثون فى مجالسهم ويتمازحون مع الآخرين يطلقون ألسنتهم بالحكايات المبتذلة التى يشمّ منها رائحة الغيبة أحياناً أو التهمة أو إشاعة الفحشاء أو يتسبب كلامهم فى إهانة بعض المسلمين وجرح كرامتهم. وحتى لو كان المزاح يخلو من أى مطلب منافى للشرع، فإنّ الإكثار منه يسّبب آثار سلبية وكما يقول بعض العلماء (المَزاحُ فِي الكلامِ كَالمِلحِ فِي الطَّعامِ)، فلو كان أكثر من اللازم أو أقل منه لما كان الطعام سائغاً وطيّباً. ومضافاً إلى ذلك فإنّ من يكثر من المزاح فانّ كلامه الجدّى سوف يكون بدون قيمة، ولا يقبل الناس كلامه الجدّى كما يرام، وهذا المضمون ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين قال: «مَن كَثُرَ هَزَلُهُ بَطَلَ جِدُّهُ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۴ والملاحظة الجديرة بالذكر أنّ المزاح أحياناً يهدف إلى أغراض معقولة ومهمّة، فلو كانت هذه الأهداف الجديّة تدخل فى المسائل التربوية والبنّاءة لكان مفيداً جدّاً، مثلًا أن يسعى الشخص لافهام الطرف الآخر من خلال المزاح أن يواظب على المسائل الدينية والقيم الأخلاقية، فمثل هذا العمل مفيد جدّاً، ولكن لو كان الهدف الجدّى المتضمّن للمزاح يؤدّى إلى مفسدة أو كان لغرض الانتقام وتخريب شخصية الآخرين، فإنّ ذلك المزاح يكون مبغوضاً ومذموماً جدّاً وذلك بأن يقوم الإنسان بهتك حرمة الأشخاص فى لباس المزاح ويهدم شخصيّتهم ويعمل على تسقيطهم بهذه الوسيلة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۵

الأمانة والخيانة

تنويه:

(الأمانة) من أهمّ الفضائل الأخلاقية والقيم الإسلامية والإنسانية والتى وردت كثيراً فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وقد أولاها علماء الأخلاق والسالكون إلى اللّه تعالى أهميّة كبيرة على مستوى بناء الذات والشخصية، وعلى العكس من ذلك (الخيانة) التى تعدّ من الذنوب الكبيرة والرذائل الأخلاقية فى واقع الإنسان وسلوكه الإجتماعى. الأمانة هى فى الحقيقة رأس مال المجتمع الإنسانى والسبب فى شدّ أواصر المجتمع وتقوية الروابط بين الناس فى نظامهم الاجتماعى وحياتهم الدنيوية والاخروية فى حين أنّ الخيانة

بمثابة النار المحرقة التی تحرق جمیع العلاقات الاجتماعیة وتؤدّی إلی الفوضی والفقر والشقاء وبالتالی تخریب الاطر الإنسانیة والحضاریة فی المجتمعات البشریة. الأمانة من الصفات التی تربط الإنسان من جهة مع اللّه تعالی وکذلک تربطه مع غیره من أفراد البشر، ومن جهة ثالثة ترسم علاقته مع نفسه أیضاً ومع الطبیعة والبیئة کذلک وقد اعتبرت الکتب السماویة والشرائع الإلهیة أنّها أمانة بید البشر. إنّ جمیع النعم المادیة والمواهب المعنویة الإلهیة علی الإنسان فی بدنه ونفسه هی فی الحقیقة أمانات بید الإنسان. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۶ وهکذا الأموال والثروات المادیة والمقامات والمناصب الاجتماعیة والسیاسیة هی أمانات بید الناس ویجب علیهم مراعاتها من موقع الحفظ وأداء المسؤولیة. الأولاد أمانة أیضاً بید الوالدین، والطلاب أمانة بید المعلمین، الماء والتراب والهواء وجمیع ما خلقه اللّه تعالی من الکائنات الطبیعیة لتیسیر حیاة الإنسان فی حیاته الدنیا کل ذلک یعتبر أمانة غالیة بید الإنسان والتی یعدّ التفریط فیها وعدم أداء حقّها خیانة بالنسبة إلی هذه المواهب ومن الذنوب الکبیرة. ونظراً إلی سعة مفهوم الأمانة والخیانة وإستیعابها لأبعاد مختلفة وواسعة من حیاة الإنسان ندرک جیداً أهمیّة هذه الفضیلة الأخلاقیة. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الحکیمة ما یلقی الضوء علی صفة الأمانة والخیانة فی حرکة الإنسان والمجتمع. إنّ «الأمانة» وردت فی القرآن الکریم مرّات متعددة بصورة مفردة أحیاناً وبصورة جمع أحیاناً اخری. وقد وردت بالنسبة إلی ستة من الأنبیاء الکبار بعبارة: «إِنّی لَکُم رَسُولٌ أَمِینٌ» عن النبی نوح علیه السلام فی سورة (الشعراء، ۱۰۷) والنبی هود علیه السلام (الشعراء، ۱۲۵) والنبی صالح علیه السلام (الشعراء، ۱۴۳) والنبی لوط علیه السلام (الشعراء، ۱۶۲) والنبی شعیب (الشعراء، ۱۷۸) والنبی موسی (الدخان، ۱۸) وهذا یدلّ دلالة واضحة علی أهمیّة هذه الفضیلة الأخلاقیة إلی جانب مهمّة إبلاغ الرسالة الإلهیة، وبدون ذلک لا یمکن لهؤلاء الأنبیاء من کسب ثقة الناس واعتمادهم علی أقوالهم. ومضافاً إلی ذلک فهناک آیات متعددة فی سور مختلفة تتحدّث عن أهمیّة الأمانة ولزوم رعایتها فی سلوک الإنسان الفردی والاجتماعی حیث نستعرض الآن هذه الآیات ونفسّرها: ۱- «وَالَّذِینَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۷ ۱- «إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَی أَهْلِهَا وَإِذَا حَکَمْتُمْ بَیْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا یَعِظُکُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ کَانَ سَمِیعاً بَصِیراً» «۱». ۳- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِکُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» «۲». ۴- «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُکُمْ بَعْضاً فَلْیُؤَدِّ الَّذِی اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْیَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» «۳». ۵- «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ کَانَ ظَلُوماً جَهُولًا» «۴»

تفسیر وإستنتاج:

«الآیة الاولی» تتحرّک من خلال بیان أوصاف المؤمنین الحقیقیین وضمن تبشیرهم بالفلاح والنجاة فی الآخرة، وبعد بیان أهمیّة الصلاة والأبتعاد عن اللغو والکلام لفارغ وأداء الزکاة واجتناب أی لون من ألوان الانحراف الجنسی یشیر القرآن الکریم فی الآیة الخامسة والسادسة إلی مسألة حفظ الأمانة والالتزام بالعهد ویقول: «وَالَّذِینَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». ونفس هذا التعبیر ورد فی سورة المعارج الآیة ۳۲ ضمن بیان أوصاف الإنسان الجمیلة والفضائل الأخلاقیة ومنها الأمانة والوفاء بالعهد. والملفت للنظر أنّ (الأمانات) الواردة فی هذه الآیة ذکرت بصورة الجمع وهی إشارة إلی أنّ الأمانة لها أنواع وأشکال مختلفة والکثیر من المفسّرین ذکروا أنّ مفهوم الأمانة فی هذه الآیة لا یقتصر علی الأمانة المالیة بل یشمل الأمانات المعنویة کالقرآن الکریم والدین الإلهی والعبادات والوظائف الشرعیة وکذلک النعم الإلهیة المختلفة علی الإنسان فی حرکة الحیاة المادیة والمعنویة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۸ ومن هنا یتّضح أنّ المؤمن الواقعی والإنسان الذی یتمتع باللّیاقة الکاملة هو الذی یتحرّک فی سلوکه من موقع مراعاة الأمانة بصورها المختلفة ویهتم بالحفاظ علیها من موقع المسؤولیة وأداء الوظیفة. أمّا عطف الوفاء بالعهد علی حفظ الأمانة فیبیّن هذه الحقیقة، وهی أنّ هذین المفهومین یعودان إلی جذر واحد ویشترکان فی الأصل، لأنّ نقض العهد یعتبر نوع من الخیانة فی العهد والمیثاق، ورعایة الأمانة نوع من الوفاء بالعهد والمیثاق أیضاً. وتعبیر (راعون) مأخوذ من مادة (رعایة) وهی من مادة (رعی) التی یراد بها رعی

الأغنام ومراقبتها فى عملية سوقها إلى حيث الماء والكلاء فى الصحراء، وهذا إنّما يدلّ على أنّ المقصود من هذه العبارة فى الآية الكريمة هو أكثر من أداء الأمانة فى مفهومها الظاهرى، أى النظر والمحافظة والمراقبة للشيء من جميع الجوانب. وبديهى أنّ الأمانة تارة تكون ذات بعد فردى وتسلّم بيد شخص معين (كالأمانات المالية التى يودعها الإنسان لدى الآخرين) وتارة اخرى لها بعد جماعى مثل حفظ القرآن الكريم من التحريف والدفاع عن الإسلام والمحافظة على كيان الدول الإسلامية، فهى كلّها أمانات وضعت بيد المسلمين وعليهم أن يتحرّكوا بصورة جماعية ويتكاتفوا فيما بينهم من أجل حفظ وصيانة هذه الأمانات الإلهية. وتتحرك «الآية الثانية» لتثبيت أمرين إلهيين: الأول: يتحدّث عن أداء الأمانة. الثانى: يتحدّث عن الحكم بالعدل فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً». ومع أنّ مسألة الحكومة العادلة أو التحكيم الصحيح والسليم بين الناس له مكانة سامية فى نظر القرآن الكريم، ولكن فى نفس الوقت ورد الأمر بأداء الأمانة قبله وهذا يبيّن الأهميّة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۹ العظيمة للأمانة وأنّ لها مفهوم عام يستوعب فى مضمونه التحكيم بين الناس من موقع العدل وأنّه أحد مصاديق أداء الأمانة، لأنّ الأمانة بمفهومها العام تشمل جميع المقامات والمناصب الاجتماعية التى تعتبر أمانات إلهية، وكذلك أمانات بشرية من قبل الناس بيد أصحاب المناصب هذه. والتأكيدات الواردة فى ذيل الآية الشريفة تقرّر من جهة أنّ الأمر بالأمانة والعدالة ما هى إلّا موعظة إلهية حسنة للناس، ومن جهة اخرى تحذّر الجميع بأنّ اللّه تعالى يراقب أعمالكم وسلوكياتكم، وهذا يعطى أهميّة مضاعفة على هذين المفهومين وهما رعاية الأمانة والعدالة. ونقرأ فى التفسير الكبير للفخر الرازى أنّ الأمانة لها ثلاث موارد وفروع: الأمانة الإلهية، وأمانة الناس، وأمانة النفس، ثم يتطرّق الفخر الرازى إلى شرح كل واحدة من هذه الفروع والأغصان للأمانة بالتفصيل ومن جملتها أداء الواجبات وترك المحرمات حيث يعتبرها من موارد الأمانات الإلهية، ويقسّمها إلى تقسيمات عديدة، منها أمانة اللسان، أمانة العين والاذن (أى أنّ الإنسان يجب أن لا يتحرّك بالمعصية، والعين لا تنظر بنظر الخيانة، والاذن لا تسمع الكلام المحرّم). أمّا الأمانات البشرية فهى من قبيل الودائع التى يضعها بعض الناس لدى البعض الآخر وكذلك ترك التطفيف فى الميزان وترك الغيبة ورعاية العدالة من جهة الحكّام والامراء وعدم تحريك العوام من موقع التعصّب للباطل وأمثال ذلك، أمّا أمانة الإنسان بالنسبة إلى نفسه فيرى الفخر الرازى أنّ على الإنسان أن يختار لها خير الدين والدنيا ولا يستسلم لدوافع الشهوة والغضب وما يترتب عليهما من ذنوب وآثام. «۱» إنّ سعة مفهوم الأمانة وشمولها لكثير من الوظائف المهمّة والنعم الكثيرة قد ورد فى الكثير من التفاسير المهمّة، منها تفسير (أبو الفتوح الرازى) و (القرطبى) وتفسير (فى ظلال القرآن) وتفسير (مجمع البيان) وغيرها من التفاسير الاخرى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۰ وقد ورد التصريح بهذا المعنى أيضاً فى الروايات الإسلامية التى سوف نشير إليها لاحقاً. أمّا ما ورد فى شأن نزول هذه الآية فأنّه يشير بوضوح إلى سعة مفهوم الأمانة أيضاً، لأنّ سبب نزول هذه الآية كما ورد فى الروايات هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما دخل مكّة منتصراً جاءه (عثمان بن طلحة) خازن الكعبة بأمر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله وسلّم إليه مفاتيح الكعبة ليطهرها من الأصنام الموجودة فى داخلها، وبعد أن تمّ تطهير الكعبة من الأوثان جاء العباس عمّ النبى صلى الله عليه و آله وطلب من رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يكون خازن بيت اللّه وأن يسلّمه مفاتيح الكعبة والذى يعتبر منصباً مهمّاً لدى المجتمع العربى والإسلامى آنذاك، ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم يوافق على هذا الطلب وأعاد المفتاح إلى (عثمان بن طلحة) ثم تلى هذه الآية الشريفة («إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ...» هذا فى حين أنّ عثمان بن طلحة لم يعتنق الإسلام بعد. «الآية الثالثة» تتحرّك من موقع النهى عن ثلاثة أشياء مخاطبة المؤمنين فى هذا النهى وهى: خيانة اللّه، خيانة الرسول، خيانة أمانات الناس، وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ «۱» وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». والمشهور بين المفسرين أنّ المقصود بحفظ أمانة اللّه ورسوله والنهى عن خيانتهما هو عدم إفشاء أسرار المسلمين حيث قام بعض الأفراد من ضعفاء الإيمان إلى إفشاء أسرار المسلمين إلى المشركين بهدف حفظ منافعهم الشخصية ولكنّ اللّه تعالى أعلم بيّنة ذلك، وكنموذج على هذا المضمون هو قصة (أبو لبابة) الذى أخبر عن بعض الأسرار العسكرية للمسلمين وكشفها لأعدائهم من اليهود من (بنى قريظة)، أو قصة

حركة النبى لفتح مكّة وإفشاء هذا السر لأبى سفيان، والمراد من الخيانة فى أماناتكم الوارد فى الآية الشريفة هو الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۱ الأمانات المتداولة بين الناس. ويرى بعض آخر من المفسّرين أنّ المراد من خيانة اللّه هى ما يتعلق بالوظائف والواجبات الدينية والشرعية، أمّا الخيانة للنبى فهى ما يتعلق بالسنن والسلوكيات الأخلاقية، وأمّا خيانة أمانات الناس فهى ما يتعلّق بأموالهم المودعة لدى الآخرين. وهناك احتمال آخر أيضاً أفضل وأشمل من الاحتمالات السابقة، وهو أنّ مفهوم الآية عام وشامل لجميع مصاديق ومفردات الأمانات المعنوية والمادية والمالية وغير المالية، وعلى هذا الأساس فالخيانة محرّمة لجميع أشكال الأمانة: الإلهية منها وأمانة النبى وهو الدين الذى أودعه النبى لدى امته، وكذلك أمانات الناس بيد بعضهم للبعض الآخر سواءً كانت متعلّقة بالامور المالية أو بأسرار المعيشة والحياة الشخصية لدى الأشخاص، ولذلك ورد فى الحديث النبوى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لأبى ذر رضى الله عنه: «يا أبا ذر المَجالِس بِالأمانَةِ وإفشاءِ سرّ أَخِيكَ خِيانَة» «۱». وتوضح الآية ۲۸ من سورة الأنفال هذه اللاحقة لهذه الآية أنّ الخيانة محرّمة حتى لو عرّضت أموال الإنسان ومنافع أولاده إلى الخطر (كما قرأنا فى قصة أبى لبابة وأنّ وجود أمواله وأولاده لدى اليهود هو السبب فى إفشاءه أسرار المسلمين العسكرية للعدو) فتقول الآية «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» وعلى هذا فالأمانات الإلهية والبشرية ليست شيئاً يمكن التضحية والتساهل معه وخيانة هذه الأمانات بأعذار وتبريرات مختلفة. «الآية الرابعة» تتعرض للأمانات والودائع المالية لدى الناس وتتحدّث فى سياقها عن لزوم تنظيم الوثائق والمستندات بالنسبة إلى هذه الودائع وتقول: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». أى يمكنه ذلك بدون كتابة السند أو أخذ الرهن، وفى هذه السورة على الأمين حفظ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۲ الأمانة وردّها إلى صاحبها بالموقع المناسب وعليه أن يخاف اللّه فيما لو تحدّثت له نفسه بالخيانة. أنّ تعبير الأمانة فى الآية أعلاه يمكن أن يكون إشارة إلى القروض المالية التى يقرضها المسلم لأخيه المسلم من دون كتابة وثيقة أو تأمين وديعة ورهن وذلك بسبب الثقة المتبادلة بين الأفراد، أو أنّها إشارة الى الأموال التى توضع لدى الشخص بعنوان الرهن، أو كليهما، وعلى كل حال فانّ الآية فيها دلالة واضحة على لزوم احترام الأمانة وأدائها فى أيّة حالة. أمّا «الآية الخامسة» والأخيرة من الآيات مورد البحث فتتحدّث أيضاً عن الأمانة الإلهية العظيمة التى عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وحفظها ولكن الإنسان حملها لوحده وتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا». فما هى هذه الأمانة العظيمة التى خشيت السماوات مع عظمتها والأرض مع سعتها والجبال مع صلابتها أن يحملنها فى حين أنّ الإنسان الضعيف والصغير جدّاً قد حملها؟ ولقد أورد المفسّرون من القدماء والمعاصرين احتمالات كثيرة فى تفسير هذه الآية، ولكنّ ما يقرب للنظر هو أنّ المقصود من الأمانة الإلهية الكبيرة هذه هو المسؤولية والتكليف الملقى على عاتق الإنسان حيث لا يتيسّر ذلك إلّابوجود العقل والحرية والإرادة. أجل فإنّ التكليف والمسؤولية أمام اللّه تعالى والناس والنفس هى وظيفة ثقيلة لا يكاد يتحملها ولا يليق بحملها أى موجود آخرسوى الإنسان، وبتبع ذلك فقد جعل اللّه تعالى العقل والحرية والإرادة فى عملية الانتخاب هى الثواب والعقاب، ومجموع هذه الصفات الثلاث تبيّن عظمة الإنسان بين المخلوقات بحيث إختاره الله لمقام الخلافة الإلهية وميزه على سائر المخلوقات الاخرى فى عالم الوجود. ولكن هذا الإنسان الظلوم والجهول لم يقدّر هذا المقام الرفيع وتورّط فى منزلقات الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۳ الشهوة والأهواء الرخيصة وبذلك ظلم نفسه وحرمها من نيل السعادة العظيمة التى تنتظره فى حركته التكاملية نحو الحق والانفتاح على اللّه. وعلى هذا الأساس فكون الإنسان ظلوماً وجهولًا إنّما هو لم يكن بسبب قبول هذه الأمانة الإلهية، لأنّ قبولها علامة العقل وسبب الافتخار، ومن دون ذلك لا يصل إلى مقام الخلافة الإلهية، بل كونه ظلوماً وجهولًا بسبب عدم حفظ هذه الأمانة وسلوكه طريق الخيانة فى أداء هذه المسؤولية الكبيرة. أجل فإنّ الأمانة التى من شأنها أن توصله إلى ذروة السعادة الحقيقية فى حال حفظها، فإنّ خيانتها يتسبب كذلك فى سقوط هذا الإنسان فى مستنقع الذلّة والمسكنة والشقاء حتى أنّه يكون مصداق (بَل هُم أَضَلُ مِنَ الأنعامِ والدّوابِ). وبعبارة اخرى: أنّ السموات والأرض والجبال مع عظمتها وسعتها ليست لها القابلية على قبول هذه الأمانة الإلهية، وأعلنت عدم صلاحيتها لذلك بحالتها التكوينية وبلسان حالها، ولكن الإنسان وبسبب

وجود هـذه القابليـة والقوى الكريمـة التى منحه اللّه تعالى إيّاها أصبح لائقاً تكوينياً لقبول هـذه المنحة والأمانة الإلهية، وهذا بحدّ ذاته إفتخـار عظيم للإنسـان من بين المخلوقات. ولكن بما أنّ أكثر الناس لم يراعوا حق هـذه الأمانـة الإلهيـة ولم يتحرّكوا فى سبيل حفظها وأدائها فلذلك إسـتحقوا عنوان الظلوم والجهول، لأنّهم ظلموا أنفسـهم أشدّ الظلم بحرمانها من نيل هذا الإفتخار العظيم الذى منحه اللّه تعالى للإنسان وعاشوا الغفلـة عن هـذه الموهبة الإلهية العظيمة وتركوها وراء ظهورهم. وفى ذيل هذه الآية نجد إشارة إلى هذه النقطة المهمّة، وهى أنّ الخيانة فى الأمانة إنّما تنشأ من الظلم والجهل، وهذا هو ما نسـعى لتحقيقه وتقريره فى هذا البحث الأخلاقى، أجل فانّ حفظ الأمانـة يـدل على العقل والعدالـة، بينما الخيانـة هى دليل على الظلم والجهالـة. وممّا تقـدّم آنفاً يتّضـح جيـداً أنّ المراد من كون الإنسان ظلوماً وجهولًا هم الأشـخاص الذين يعيشون حالة الكفر أو الذين يعيشون ضعف الإيمان والتقوى، وإلّا فإنّ أولياء اللّه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۴ تعالى والصالحين من العباد الذين يتحرّكون فى سلوكهم الأخلاقى والاجتماعى تبعاً للأنبياء والأولياء فإنّهم يراعون حق هـذه الأمانـة ويسـعون لأدائها والقيام بهـذه المسؤوليـة الكبيرة الملقاة على عاتقهم، وفى الحقيقـة إنّ هؤلاء يمثّلون الهدف الأسـمى من وجود عالم الخليقـة ووجود الإنسان. ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه يتّضح جيداً أهميّة حفظ الأمانة (سواءً الأمانات الإلهيّة أو الإنسانية) وجعله من علامات العقل والإيمان والعدالة.

الأمانة والخيانة فى الروايات الإسلامية:

أمّا ما ورد من الأحاديث الشريفة عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فإنّه يحكى عن الأهميّة البالغة لهذه المسألة حيث وردت الأمانة تارة بعنوان أنّها من الاصول والمبادىء الأساسية المشتركة بين جميع الأديان السـماوية، وتارة اخرى بعنوان أنّها علامـة للإيمان، وثالثة بعنوان أنّها سـبب نيل الرزق والثروة والثقة والاعتماد لدى الناس وسـلامة الدين والدنيا والغنى وعدم الفقر وأمثـال ذلك، وفيما يلى نختار من هـذه الروايات الشـريفة ما يتضـمّن هـذه المعانى والمفاهيم العميقـة: ۱- ورد فى حـديث عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله أنّه قـال للإمـام على عليه السـلام: «يـا أبا الحَسَنِ أَدِّ الأَمانَـةَ لِلبِرِّ والفاجِرِ فِى ما قَلَّ وَجَلَّ حتّى فِى الخَيطِ وَالمَخِيطِ» «۱». ويقول الإمـام على عليه السـلام أنّ النبى قال لى ذلك فى الساعـة الأخيرة من حياته وكررها علىّ ثلاث مرّات. ۲- وفى حـديث آخر عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا إيمانَ لِمَنْ لاأَمانَـةَ لَهُ» «۲». ۳- وفى حـديث آخر عن الإمام الصادق أنّه قـال: «إنّ اللّهَ عَزَّوَجَـلَّ لَم يَبعَثْ نَبِيّاً إلّابِصِـدقِ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۵ الحَـدِيثِ وَأداءِ الأَمانَـةِ إلىَ البِرِّ وَالفاجِرِ» «۱». وهذا التعبير يوضّـح أنّ جميع الأديان السـماوية قـد جعلت الصـدق والأمانة جزءً مهمّاً من تعليماتها الدينية والإنسانية ومن الاصول الثابتة فى الأديان الإلهية. ۴- ورد عن الإمـام أيضـاً على مستوى إمتحـان إيمـان النـاس أنّه قال: «لا تَنظُروا إلى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُـجُودِهِ فَإنَّ ذَلِكَ شَـىءٌ إعتادَهُ فَلَو تَرَكَهُ إسـتَوحَشَ لِذلِكَ وَلَكِنْ انظُرُوا الى صِدقِ حَدِيثِهِ وَأَداءِ أَمانِتِهِ» «۲». ۵- ومثل هـذا المعنى ورد عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله تعبير شديد حيث قال: «لا تَنظُروا إلى كَثْرَةِ صَـلاتِهِم وَصَومِهِم وَكَثْرَةِ الحَجِّ وَالمَعرُوفِ وَطَنطَنَتِهِم بِاللَّيلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إلِى صِـدقِ الحَدِيثِ وَأَداءِ الأَمانَةِ» «۳». والهـدف من هذا التعبير ليس هو أنّ هؤلاء لا يهتمّون بصـلاتهم وصومهم أو يسـتخفّون بحجّتهم وإنفاقهم بل الهدف هو أنّ هذه الامور ليست هى العلامة الوحيدة لإيمان الفرد بل هناك ركنان أساسـيان لدين الشـخص أى الصدق والأمانة. ۶- وورد عن الإمام زين العابـدين عليه السـلام فى هـذا المجال تعبير عجيب حيث يقول لشيعته: «عَلَيكُم بِأَداءِ الأَمانَةِ فَـوالَّذى بَعَثَ مُحَمَّداً صـلى الله عليه و آله بِـالحَقِّ نَـبِيَّاً لَـو أَنَّ قاتِـلَ أَبِى الحُسَـينِ ابنِ عَلَىٍّ عليه السـلام ائتَمَنِنِى عَلَى السَّيفِ الَّذِى قَتَلَه بِهِ لَأَدَّيتُهُ إِلَيهِ» «۴». ۷- ومثـل هـذا المعنى ولكن بتعبير آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إَنَّ ضارِبَ عَلِىٍّ بِالسَّيفِ وَقاتِلَهُ إذا إئتَمَنَنِى وَاستَنصَـحَنِى وَاستِشارَنِى ثُمَّ قَبِلتُ ذَلِكَ مِنهُ لَأَدَّيتُ إِلَيهِ الأَمانَةَ» «۵». ۸- وفى حديث آخر عن الإمام أيضاً يستفاد أنّ الوصول إلى المقامات الساميـة حتّى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۶ للأئمّة المعصومين عليهم السـلام مثل الإمام على عليه السـلام يتم عِبر صدق الحديث وأداء الأمانة، حيث يقول الإمام الصادق لأحد أصـحابه ويدعى (عبد اللّه بن أبى يعفور): «انظُر ما بَلَغَ بِهِ عِندَ رَسُولِ اللّهِ

صلى الله عليه و آله فَأَلزَمَهُ» ثم قال: «فَإنَّ عَلِيّاً عليه السلام إنّما بَلَغَ ما بَلَغَ عِندَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله بِصدقِ الحَدِيثِ وَأداءِ الأمانَةِ» «۱». ۹- ونقرأ فى حديث آخر بالنسبة إلى الآثار والنتائج الدنيوية المهمّة للأمانة والخيانة فقد ورد عن على عليه السلام أنّه قال: «الأمانَهُ تَجُرُّ الرِّزقَ وَالخِيانَهُ تَجُرُّ الفَقرَ» «۲». ۱۰- وفى حديث مختصر وعظيم المعنى عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «رَأسُ الإسلامُ الأَمانَهُ» «۳» ۱۱- وورد شبيه لهذا الحديث مع اختلاف يسير عن لقمان الحكيم حيث أنّه قال: «يا بُنَيَّ أَدِّ الأَمانَهَ تَسلُمُ لَكَ الدُّنيا وَآخِرَتُكَ وَكُنْ أَمِيناً تَكُن غَنِيّاً» «۴». ۱۲- ونختم هذا البحث بحديث شريف آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا تَزَالُ امَتِى بِخَيرٍ ما تَحابُوا وَتَهادُّوا وَأَدُّوا الأَمانَهَ وَاجتَنبُوا الحَرامَ وَوَقَّرُوا الضَّيفَ وَأَقامُوا الصَّلاهَ وَآتوا الزَّكاهَ فَاذا لَم يَفعَلُوا ذَلِكَ إبتَلَوا بِالقَحطِ وَالسِّنِينَ» «۵». *** هذه الروايات ما هى إلّاموارد مختارة من المصادر الإسلامية الواردة فى باب الأمانة وتوضّح جيداً أن هذا المفهوم الأخلاقى على درجة عالية من الأهمية من بين التعليمات الإسلامية، وكذلك الصفة التى تقع فى مقابل الأمانة أى الخيانة ومدى اضرارها بدين الإنسان وشخصيته من موقع تخريب الإيمان وأنّها تورث الشقاء والبعد عن اللَّه تعالى، وكل واحدة من هذه الروايات المذكورة آنفاً تشير إلى أحد الأبعاد والآثار البنّاءة للأمانة أو الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۷ الأبعاد والنتائج السلبية والمخرّبة للخيانة، بحيث إنّ الإنسان عند مطالعتها والتأمل والتدبّر فيها يستوحى الكثير من المفاهيم الإسلامية والقيم الأخلاقية والاجتماعية المهمّة والبنّاءة فى حركة الحياة والمجتمع.

فروع الأمانة:

عندما نتحدّث عن الأمانة فإنّ أغلب الناس يتبادر إلى أذهانهم الأمانة فى الامور المالية، ولكن كما تقدّم فى تفسير الآيات الواردة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أنّ الأمانة لها مفهوم واسع جدّاً بحيث تستوعب جميع المواهب الإلهيّة والنعم الربانيّة على الإنسان. هذه النعم والمواهب الإلهيّة المندرجة فى مفهوم الأمانة تشتمل على مصاديق لا تعد، فهى ترد بالنسبة إلى القرآن الكريم والإسلام والإيمان والولاية وحتّى إلى أقل النعم والمواهب المادية والمعنوية. الأحاديث الشريفة التى تؤكد على أنّ الأمانة تورث الغنى، وأنّ الخيانة تورثالفقر ناظرة إلى الأمانة المالية والمادية، ولكنّ الآية الشريفة وبعض الروايات التى تشير إلى عرض الأمانة على السموات والأرض لا تقصد الأمانة المادية والمالية قطعاً بل تمتد أبعد من ذلك وتنظر إلى الأمانات المعنوية. ونقرأ فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما يحين وقت الصلاة فإنّ حاله يتغيّر وعندما سئل عن ذلك قال: «جاءَ وَقتُ الصَّلاهِ، وَقتُ أَمانَهٍ عَرَضَها اللَّهُ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرضِ فَأَبَينَ أنْ يَحمِلنَها وأَشفَقنَ مِنها» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالى خَلَقَ الأَرواحَ قَبلَ الأَجسادِ بِألفَى عام فَجَعَلَ أَعلاها وَأَشرَفَها أَرواحَ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفاطِمَهَ وَالحَسنِ والحُسَينِ وَالأَئِمَهُ بَعدَهُم صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيهِم فَعَرَضَها عَلى السَّمواتِ والأَرضِ وَالجِبالِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۸ إلى أن يقول: فولايَتُهُم أَمانَهٌ عِندَ خَلقِى» «۱». ويستفاد من أحاديث اخرى أنّ مفهوم خلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «۲» أيضاً مصداق مهم من مصاديق الأمانة. وكذلك الصلاة والزكاة والحج هى أمانات وودائع إلهيّة. «۳» وكذلك الزوجة أيضاً أمانة إلهيّة «۴». ونقرأ فى نهج البلاغة فى كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى الأشعث بن قيس، يقول له: «وإنَّ عَمَلَكَ لَيسَ لَكَ بِطُعمَهٍ وَلَكِنَّهُ فِى عُنُقِكَ أَمانَهٌ» «۵». وكذلك نقرأ فى الحديث النبوى الشريف الذى ذكرنا فيما سبق أنّ «المَجالِس بِالأَمانَهِ» ، لأنّ فى المجالس الخصوصية تذكر أسرار تخص المجلس. وحتى ورد فى بعض الروايات أنّ غسل الجنابة (بعنوان أنّه تكليف إلهى) هو أمانة إلهية لدى المسلم «۷». وعلى أى حال فإنّ الأمانة والخيانة لا تختصان بعمل معيّن ومصداق خاص ومحدود، لأنّ النتائج المترتبة على هاتين الصفتين لا تتحدد بالامانة والخيانة المالية.

معطيات الخيانة والأمانة:

إنّ أهمّ معطيات الأمانة على المستوى الاجتماعى هى مسألة الاعتماد وكسب ثقة الناس، ونعلم أنّ الحياة الاجتماعية مبتنيّة على أساس التعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۹ لحل المشاكل والتخفيف من تحدّيات الواقع والظروف القاهرة والاستفادة الأفضل من مواهب الحياة والطبيعة، ولهذا فإنّ مسألة الثقة والاعتماد لها دور أساس فى تأصيل هذا المفهوم الاجتماعى لأنّه لولا- وجود الاعتماد المقابل فإنّ المجتمع سيتحوّل إلى جهنّم لا- يطاق، ويتعامل الأفراد بينهم من موقع التوحّش والأنانية، ويسود قانون الغاب فى مثل هذا المجتمع، وبدلًا من أن تتكاتف القوى والطاقات على مستوى بناء المجتمع والتصدى لتحدّيات الظروف القاهرة فإنّ هذه القوى سوف تتحرّك بالجهة المقابلة لتعميق التوحّش والتنفّر فى المجتمع. وبعبارة اخرى: إنّ المجتمع البشرى سيفقد كل شىء بدون وجود حالة الاعتماد المتقابل بالرغم من توفّر كافة الأمانات والمواهب الطبيعية الاخرى، وبعكس ذلكإنّ المجتمع الذى تتوفّر فيه حالة الاعتماد المتقابل سيحصل على كل شىء بالرغم من فقدانه للإمكانات والموارد الطبيعية. وهذا الاعتماد الاجتماعى يرتكز على ركنين: ۱- الأمانة. ۲- الصدق. وما ورد فى الروايات المذكورة آنفاً أنّ الأمانة تورث الغنى وعدم الحاجة والخيانة تورث الفقر فإنّ ذلك إنّما يشير إلى هذا الدليل. وأمّا ما ورد فى الروايات الشريفة أنّ جميع الأنبياء الإلهيين جعلوا من الأمانة وصدق الحديث محوراً لتعليماتهم فهو أيضاً ناظر إلى هذا المعنى. ويذكر الكلينى فى (الكافى) قصّة جميلة فى هذا الصدد ويقول: عن الحسين بن محمد، عن محمد بن أحمد النهدى، عن كثير بن يونس، عن عبدالرحمن بن سيّابة قال: لما هلك أبى سيّابة، جاء رجل من إخوانه إلىَّ فضرب الباب علىَّ، فخرجت إليه فعزّانى، وقال لى: هل ترك أبوك شيئاً فقلت له: لا، فدفع إلىَّ كيساً فيه ألف درهم وقال لى: أحسن حفظها وكُلْ فضلها، فدخلت إلى امّى وأنا فرح، فأخبرتها، فلمّا كان بالعشىّ، أتيت صديقاً كان لأبى فاشترى لى بضائع سابرى، وجلت فى حانوت فرزق اللَّه جلّ وعزّ فيها خيراً كثيراً، وحضر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۰ الحج، فوقع فى قلبى، فجئت إلى امّى وقلت لها: إنّه قد وقع فى قلبى أن أخرج إلى مكّة؟ فقالت لى: فردّ دارهم فلان عليه فهاتها، وجئت بها إليه فدفعتها إليه فكأنى وهبتها له، فقال: لعلّك استقللتها فأزيدك؟ قلت: لا، ولكن قد وقع فى قلبى الحج فأحببت أن يكون شيئك عندك، ثم خرجت فقضيت نسكى، ثمّ رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبى عبداللَّه عليه السلام- وكان يأذن إذناً عاماً- فجلست فى مواخير الناس وكنت حدثاً، فأخذ الناس يسألونه ويجيبهم، فلما خفّ الناس عنه، أشار إلىَّ فدنوت إليه، فقال لى: ألك حاجة؟ فقلت: جُعلتُ فداك أنا عبدالرحمن بن سيّابة، فقال لى: ما فعل أبوك؟ قلت: هلك، قال: فتوجّع وترحّم، ثم قال: قال لى: أفترك شيئاً قلت: لا- قال: فمن أين حججت؟ قال: فابتدأت وحدثته بقصّة الرجل، قال فما تركنى أفرغ منها حتّى قال لى: فما فعلت فى الألف؟ قال: قلت: رددتها على صاحبها، قال: فقال لى: قد أحسنت، قال لى: ألا اوصيك؟ قلت: بلى جُعلت فداك. قال عليه السلام: «عَلَيكَ بِصدقِ الحَدِيثِ، وَأَداءِ الأمانَةِ تُشرك النّاسَ فِى أَموالِهِم هكذا- وجمع بين أصابعه-»، فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائة ألف درهم «۱». ونحن أيضاً رأينا فى حياتنا أشخاصاً مثل هؤلاء الأشخاص فقد كان هناك تاجر متدّين فى النجف الأشرف يعرفه الكثير من المعاصرين أيضاً وبسبب إشتهاره بالأمانة فإنّ الناس كانوا يودعون عنده أموالهم وودائعهم مطمئنون إلى حد أنّ الكثير من العلماء والفضلاء وطلّاب العلوم الدينية كانوا يسجّلون سندات بيوتهم بإسمه لأنّه كان يمتلك الجنسيةالعراقية ولعلّه كان عند وفاته قد بلغ عدد البيوت المسجّلة باسمه ما يربو على الخمسماة بيت لهؤلاء العلماء والطلّاب ولم يواجه أى واحد منهم مشكلة فى هذا المورد. ومن جهة اخرى عندما تسود الأمانة فى المجتمع وفى العائلة فإنّها ستكون سبباً لمزيد من الهدوء والسكينة الفكرية والروحية، لأنّ مجرّد احتمال الخيانة فإنّ ذلك يسبب القلق والخوف للأفراد بحيث يعيشون حالة من الإرتباك فى علاقاتهم مع الآخرين ومن الخطر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۱ المحتمل الذى ينتظر أموالهم أو أنفسهم أو أغراضهم أو مكانتهم الاجتماعية، ومن المعلوم أنّ الاستمرار فى مثل هذه الحياة المربكة والموحشة عسير جدّاً وقد يورثهم الكثير من الأمراض الجمسية والروحية أيضاً. ومن جهة ثالثة فإنّ الأمانة تقلل كثيراً من نفقات المعيشة ومصاريف الحياة وتسبب فى الاقتصاد فى الوقت والعمر والمال، لأنّ الخيانة إذا فتحت طريقها إلى المجتمع فانّ المسؤولين وأصحاب المواقع الاجتماعية يضطرون إلى تخصيص نفقات باهظة لإيجاد سجّلات خاصة

ومحاسبين ومفتشين لدرء احتمال الخيانة فى حساباتهم، وأحياناً يضطرون إلى إيجاد مفتشين على المفتشين الأوائل لضبط أعمالهم ويشرفوا على حساباتهم، ومع ذلك فانّ مثل هذه الامور لا تستطيع أن تحلّ المشاكل الناشئة من الخيانة تماماً، ولكن على أى حال يقتضى الواقع المفروض تخصيص هذه النفقات للتصدّى إلى هذه المشكلة، ونشاهد فى مجتمعنا الحالى أيضاً مثل هذه الامور الأليمة بالنسبة إلى الامور المالية وعدم الأمن الاقتصادى وكثرة من يلقى فى السجن بسبب زوال الثقة وعدم الاعتماد المتقابل بين الناس، ولو أنّ أفراد المجتمع تحلّوا بقليل من الصدق والأمانة بدلًا من هذه النفقات والمصروفات والجهود المهدورة، فاننا سوف لا نبتلى بمثل هذا الاسراف الفضيع وإتلاف الثروات الاجتماعية الكبيرة. ومن جهة رابعة فإنّ الأمانة قد تسبب فى كسب المحبّة وتعميق أواصر الصداقة بين الأفراد، فى حين أنّ الخيانة تعتبر عاملًا للكثير من الجرائم والحوادث السلبية وأشكال الخلل الاجتماعى، وإذا طالعنا وثائق المحاكم والسجون لرأينا أنّ الكثير من هذه الجرائم معلولة لحالة الخيانة، وعندما ندرس ظاهرة كثرة الطلاق وحالة إنحلال الأُسر وتلاشى العوائل نرى أنّ الكثير من هذه الحالات يعود إلى خيانة أحد الزوجين بالنسبة للآخر. وفى بعض الروايات إشارة لطيفة إلى هذا المعنى حيث يقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا تَزَالُ امَتِى بِخَيرٍ ما تَحابُوا وَتَهادُّوا وَأَدُّوا الأَمانَةَ وَاجتَنَبُوا الحَرامَ وَوَقَّرُوا الضَّيفَ وَأَقامُوا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۲ الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ فَاذا لَم يَفعَلُوا ذَلِكَ إبتَلَوا بِالقَحطِ وَالسِّنِينَ» «۱». ومن جهة خامسة فإنّ مفهوم الأمانة يمتد ويتسع ليشمل الموارد والمسائل العلمية، فإنّ تطور العلوم والمعارف البشرية كان بسبب وجود العلماء الذين كانوا يتحرّكون من موقع الأمانة والصدق فى تحقيقاتهم ومطالعاتهم وتجاربهم العلمية فكانوا يقدّمون للآخرين ما اكتسبوه من تجارب ثمينة وعلوم جديدة بأمانة وصدق، وهذا هو الذى أدّى إلى التطور الحضارى والعلمى فى عالمنا المعاصر فى حين أنّه لو لم يكن أصل الأمانة فى المطالعات العلمية فإنّ ذلك قد يفضى إلى التيه العلمى ويتسبب فى اضلال الناس ووقوعهم فى التخبط الثقافى والعلمى. ونقرأ فى هذا الصدد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كُلُّ ذِى صَناعَةٍ مُضطَرٌّ إلى ثَلاثِ خِلالٍ يَجتَلِبُ بِها المَكسَبَ وَهُوَ أنْ يَكُونَ حاذِقاً بِعَمَلِهِ مُؤَدِّياً لِلأَمانَةِ فِيهِ، مُستَمِيلًا لَمَنْ إستَعمَلَهُ» «۲». والجدير بالذكر أنّ الأمانة تدعو الإنسان إلى صدق الحديث أيضاً كما أنّ صدق الحديث يدعو الإنسان إلى الأمانة فى الجهة المقابلة، لأنّ صدق الحديث نوع من الأمانة فى القول، والأمانة نوع من الصدق فى العمل، وعلى هذا الأساس فإنّ هاتين الصفتين يرتبطان بجذر مشترك ويعبّران عن وجهين لعملةٍ واحدة، ولذلك ورد فى الأحاديث الإسلامية عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الأمانَةُ تُؤدِّى إلى الصِّدقِ» «۳». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «إذا قَوِيَتْ الأَمانَةُ كَثُرَ الصّدقُ» «۴».

دوافع الأمانة والخيانة:

إنّ أغلب الأشخاص الذين يتحرّكون فى سلوكياتهم من موقع الخيانة ويفضّلونها على الأمانة فأنّهم يعيشون ضيق الافق فى منافعهم ومصالحهم ويفكّرون فى المنافع العاجلة فحسب، لأنّ الخيانة تؤفّر لهم فى الكثير من الموارد هذه المنافع العاجلة وتحقق لهم بعض المصالح الفردية على حساب اهتزاز كرامتهم المعنوية ومن دون أن يتفكّروا فى العواقب الوخيمة لهذا السلوك فى المستقبل على المستوى الدنيوى والاخروى ومكانتهم الاجتماعية. هؤلاء الأفراد يعيشون فى سجن الحرص والطمع فلذلك قليلًا ما يفكّرون فى عواقب الخيانة، لأنّ المنافع العاجلة حجبت أعينهم وعقولهم عن مشاهدة ما يترتب على ذلك من سلبيات كثيرة فى المستقبل. هؤلاء وبسبب ضعف الإيمان وعدم الالتفات إلى القدرة الإلهيّة المطلقة التى تكفّلت برزق الناس جميعاً ووعدت من يعيش الأمانة والصدق منهم بالثواب العاجل والآجل فإنّهم قد حجبوا بصيرتهم عن ذلك جميعاً وتحرّكوا من موقع التغافل عن الوجدان وعن تحذيرات الشرع وتورّطوا فى شراك الخيانة وفخاخ الشيطان. وعلى هذا الأساس يمكننا فى هذا الصدد ذكر دوافع الخيانة فيما يلى: ۱- ضعف الإيمان وإهتزاز العقيدة وعدم التوجّه إلى حالة التوحيد الأفعالى للّه‌تعالى وحاكميته المطلقة على جميع الأشياء. ۲- غلبة الأهواء والشهوات وحبّ الدنيا. ۳- تسلّط حالة الحرص والطمع على الإنسان. ۴- عدم التفكّر فى نتائج الخيانة فى حركة الحياة المادية والمعنوية. ۵-

ترک السعی المستمر والعمل الدؤوب لتحصیل المقاصد الدنیویة بطرق مشروعة وذلک بسبب التکاسل وحبّ الراحة وضعف الإرادة. وعند الإلتفات إلی هذه الامور تتّضح النقطة المقابلة لها، وهی دوافع الأمانة وذلک: إنّ الأمانة تنبع من الإیمان والیقین بقدرة اللّه تعالی وعلمه المطلق والاعتماد علیه فی جمیع الامور. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۶۴ الأمانة تعدّ من معطیات العقل والتدبّر السلیم والإلتفات إلی عواقب الامور ونتائج الأفعال. الأمانة هی دلیل علی أنّ الإنسان یعیش الواقع الحاضر ویری حقائق الامور ویترک الخوض فی الأوهام والخرافات والتصورات الزائفة. الأمانة تنبع من شخصیة الإنسان السامیة وتمثّل نتیجة لحالة التفانی والتعالی فی الروح الإنسانیة، لأنّ مثل هذا الإنسان لا یکون مستعداً لئن یبیع شخصیته ووجدانه لتحصیل المال والمقام وزخارف الدنیا عن طریق الخیانة. وبکلمة واحدة فإنّ الأمانة ولیدة الفهم والشعور والعقل والإیمان والاخلاص وأصالة الشخصیة، وأحیاناً یکون الفقر والظلم عاملان من عوامل الخیانة، فمن لا یحصل علی حقوقه المشروعة فی المجتمع من الطرق الصحیحة ویقع تحت طائلة الفقر والعوز فإنّه قد یؤدّی به إلی التلّوث بالخیانة، ولهذا نری أن التعالیم الدینیة أکّدت علی أن یموّل القاضی من بیت المال بشکل تام کیما یحفظ أمانته فی القضاء بین الناس، ونقرأ فی عهد الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السلام لمالک الأشتر أنّه یقول: «وَافسَحْ لَهُ فِی البَذلِ ما یُزیلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حاجَتُهُ إِلَی النَّاسِ، وَأَعطِهِ مِنَ المَنزِلَةِ لَدیکَ ما لایَطمَعُ فِیهِ غَیرُهُ مِنْ خاصَّتِکَ لِیَأمَنَ بِذَلِکَ إغتِیالَ الرِّجالَ لَهُ عِندَکَ فَانظُر فِی ذَلِکَ نَظَراً بَلِیغاً» «۱». ونختم هذا البحث بحدیث مهم عن الإمام الصادق علیه السلام فی هذا الصدد یشیر فیه إلی مصادر الخیانة المتنوعة ویوصی بالتوجّه إلیها لحفظ الأمانة فی واقع الإنسان والمجتمع فیقول: «مَنْ اؤتُمِنَ عَلی أَمانَةٍ فَأَدّاها فَقَد حَلَّ أَلفَ عُقدَةٍ مِنْ عُقَدِ النّارِ، فَبادِرُوا بِأَداءِ الأَمانَةِ، فَإِنَّ مَنْ اؤتِمِنَ عَلی أَمانَةٍ وَکَّلَ بِهِ إبلِیسَ مِائَةَ شَیطانٍ مِنْ مَردَةِ أَعوانِهِ لِیُضِلُّوهُ وَیُوسوِسُوا إِلَیهِ حتّی یُهلِکُوه إلّامَنْ عَصَمَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ» «۲».

طرق الوقایة والعلاج:

إنّ تعمیق روح الأمانة فی أفراد المجتمع والوقایة من الخیانة لا یتسنی إلّافی ظل التقوی والإیمان والالتزام الدینی والأخلاقی، لأنّه کما تقدّم فی الأبحاث السابقة أنّ أحد جذور الخیانة هو الشرک وعدم الاعتقاد الکامل بقدرة اللّه تعالی ورازقیته، ولهذا فالأشخاص الذین یعیشون ضعف الإیمان ویتصوّرون أنّهم سوف یعیشون الفقر فی حالة تحلّیهم بالأمانة والصدق وأنّهم سوف لا یحصلون علی ما یحتاجونه إلّابواسطة الخیانة یکبلون أنفسهم بطوق الخیانة، ولکن عندما یتحرّکون من موقع تقویة دعائم الإیمان فی قلوبهم وتعمیق حالة التوکّل والاعتماد علی اللّه تعالی والثقة بوعده، فانّ ذلک یتسبب فی تصحیح مسارهم فی عملیة الوصول وتحصیل مواهب الحیاة. ومن جهة اخری فبما أنّ أحد العوامل المهمّة للخیانة هی الحاجة فاذن لابدّ للإنسان من تدبیر حاجاته وحاجات من یلوذ به المعقولة والمشروعة بصورة حسنة لئلّا یضطرّ إلی کسر قیود الأمانة والتلّوث بالخیانة بدافع من حاجاته المادیة والنفسانیة. ومن جهة ثالثة فانّ من الأسباب والعوامل المهمّة فی الوقایة من التورط بالخیانة هو التفکّر فی عواقبها الوخیمة فی الدنیا والآخرة وما یترتب علیها من فضیحة وحرمان وزوال الثقة وماء الوجه أمام الخلق والخالق وبالتالی الابتلاء بالفقر المزمن الذی سعی إلی الفرار منه بارتکاب الخیانة، ومن المعلوم أنّ التأمل فی هذه النتائج والافرازات السلبیة لسلوک طریق الخیانة سوف یضعف الدافع فی الإنسان لارتکابها. عندما یتأمل الشخص نصیحة لقمان لابنه علی مستوی بیان معطیات الأمانة حیث یقول: «یا بُنَیَّ أَدِّ الأَمانَةَ تَسلُمُ لَکَ الدُّنیا وَآخِرَتُکَ وَکُنْ أَمِیناً تَکُن غَنِیّاً» «۱». فعندها یعیش الشوق فی وجوده نحو تحصیل هذه الفضیلة الأخلاقیة أی الأمانة ویجتنب التحرّک فی خط الخیانة، ولو تأملنا کذلک کلام أمیر المؤمنین علیه السلام حیث یقول: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۶۶ «رَأسُ الکُفرِ الخِیانَةُ» «۱». ویقول فی مکان آخر: «رَأسُ النِّفاقِ الخِیانَةُ» «۲». ویقول أیضاً فی حدیث آخر: «جانِبِ الخِیانَةَ فَإِنَّها مُجانِبَةِ الإِسلام» «۳» فعندها یسیطر علیه الخوف من الخیانة ویدرک عظمة هذا الذنب الکبیر الذی یساوق فی إثمه وابتعاده عن اللّه تعالی والإسلام الکفر والنفاق، وحینئذٍ سیتحرّک بعیداً عن ممارسة الخیانة أوالتفکیر بها. وإذا أردنا أن نتعمّق فی خطر الخیانة وشؤمها فلنستمع إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی

حديثه المثير عن بعض عناصر الشر وعوامل الانحراف حيث يقول: «أَربَعٌ لاتَدخُلِ بَيتاً واحُدَةٍ مِنهُنَّ إلّاخَرَبَ وَلَم يَعمُرْ بِالبَرَكَةِ الخِيانَةِ والسَّرقَةُ وَشُربُ الخَمرِ والزِّنا» «۴». ومن المعلوم أنّ المجتمع الذى يعيش أحد هذه العناصر الأربعة أو كلّها فانّه يكون مصداقاً لهذا الحكم النبوى وسوف يخلو من البركة وبالتالى يصيبه الدمار والاندثار. ومن الملفت للنظر أنّه كما أنّ الشخص الأمين يجب أن لا يخون الأمانة، فكذلك المودع للأمانة وصاحب المال يجب أن يكون ذكياً ولا يودع أمانته عند أى شخص كان، فإذا وضع أمانته تحت تصرّف شخص سيء السمعة ثمّ خانه هذا الشخص فعليه أن يلوم نفسه كما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم أنّه قال: «من أئتمن غير أمين فليس له على اللَّه ضمان لأنّه قد نهاه أن يأتمنه». ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «من إتمن غير مؤتمن فلا حجه له على اللَّه». وعلى هذا الأساس يجب على جميع الإداريين وأصحاب المسؤوليّات فى المجتمع الإسلامى أن يكونوا على درجة من الذكاء والحنكة ولا يضعوا امور الناس والمناصب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۷ الحسّاسة فى الحكومة والتى هى أهم أمانة إلهيّة بيدهم عند الأشخاص الذين يشم منهم رائحة الخيانة، فإنّه عند ذلك سوف يفسد دينهم ودنياهم ويكونون مسؤولين أمام اللَّه تعالى.

الأمانة والخيانة فى بيت المال:

إنّ الأمانة خلق محمود ومطلوب فى أى مكان ومورد، ولكن بالنسبة إلى بيت المال ورؤوس الأموال المادية والمعنوية المتعلّقة بالمجتمع لا بشخص معيّن فقد ورد التأكيد على الأمانة فيها بشكل خاص فى النصوص الدينية، والحكمة فى ذلك واضحة لأنّه أولًا: أنّ البعض يتصوّر أنّ مثل هذه الأموال بما أنّها لا تقع فى دائرة الممتلكات لشخص معيّن بل هى ملك عموم الناس فإنّهم أحرار فى تصرفاتهم وتعاملهم بها. وثانياً: إذا تفشّت الخيانة بالنسبة إلى الأموال العامة وبيت المال فإنّ نظم المجتمع سوف يتلاشى وينهار، فلا يرى مثل هذا المجتمع البشرى وجه السعادة أبداً. ومن أجل درك أهميّة هذا الموضوع يكفى مطالعة قصّة (الحديدة المحماة) حيث ورد أنّ عقيل رضى الله عنه جاء إلى أخيه على بن أبى طالب عليه السلام وطلب منه أن يزيده قليلًا من حصّته وسهمه من بيت المال دون مراعاة ضوابط العدالة والمساواة بين المسلمين على أساس العلاقة الاخويّة بينه وبين الإمام على عليه السلام، فما كان من الإمام على عليه السلام إلّاأن أحمى له حديدة وقرّبها منه، صرخ عقيل من حرارتها فقال له الإمام عليه السلام: «يا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحماها إنسانَها لِلَعبِهِ وَتَجِرُّنِى إلى نارٍ سَجَرَها جَبارُها لِغَضَبِهِ، أَتَئِنُّ مِنْ الأَذى وَلا أَئِنُّ مِنْ لَظى «۱». وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى مكان آخر كلاماً مثيراً بالنسبة إلى عطايا عثمان من بيت المال إلى أقربائه وذويه حيث عزم الإمام على عليه السلام على ردّها جميعاً إلى بيت المال وقال: «وَاللَّهِ لَو وَجَدته قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ ومُلِكَ بِهِ الإماءُ لَرَدَدتُهُ، فَإنَّ فِى العَدلِ سَعَةً، وَمَنْ ضاقَ عَلَيهِ العَدلُ فَالجَورُ عليه أَضيَقُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۸ وعندما اقترح عليه استخدام الأشخاص المعروفين فى تدبير أمر الحكومة وزيادة رواتبهم وعطاياهم من بيت المال لغرض الإستعانة بهم فى امور الدولة والحكومة (ولا أقل فى بداية خلافته) فقال: «أَتَأمُرُنِى أَنْ أَطلُبَ النَّصرَ بِالجَورِ فِيمَن وُلِّيتُ عَلَيهِم وَاللَّهِ لاأَطُورُ بِهِ ما سَمَرَ سَمِيرٌ وَما أَمَّ نَجمٌ فِى السَّماءِ نَجماً، وَلَو كانَ المَالُ لِى لَسَوَّيتُ بَينَهُم فَكَيفَ وَإنَّما المَالُ مالُ اللَّهِ» «۱». بل إنّ الإمام على عليه السلام تحرّك لحفظ الأمانة فى بيت المال من موقع التهديد الشديد لأقرب المقرّبين إليه حتّى يتّعظ بذلك الأبعد من الناس ويعلم أنّ المسألة هنا جدّية فلا مهادنة فى بيت المال، ولذلك نقرأ فى الكتاب الذى أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض امرائه فى البلد الإسلامى الذى أساء الاستفادة من بيت المال وأنفقه فى موارد اخرى، فكتب له الإمام يقول: «فَاتَّقِ اللَّهَ واردُد إلى هَؤلاءِ القَومِ أَموالَهُم فَإنَّكَ إنْ لَم تَفعَل ثُمَّ أَمكَنَنِى اللَّهُ مِنكَ لَأعذِرنَّ إلى اللَّهِ فِيكَ وَلَأضرِبَنَّكَ بِسَيفِى الَّذِى ما ضَرَبتُ بِهِ أَحداً إلّا دَخَلَ النَّارَ، وَوَاللَّهِ لَو أَنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ فَعَلا مِثلَ الَّذِى فَعَلتَ ما كانَتْ لَهُما عِندِى هَوادَةٌ، ولا ظَفِرَا مِنِّى بِإرَادَةٍ حَتّى آخُذَ الحَقُّ مِنهُما» «۲». ونعلم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما فتح مكّة قد عفى عن قريش وجميع المجرمين والجناة من قريش وغير قريش الذين حاربوه قرابة عشرين سنة وسفكوا دماء الكثير من المسلمين ورغم ذلك فقد أصدر النبى أمره بالعفو عنهم وإسدال الستار على ما مضى من جرائمهم وعداوتهم، ولكن مع ذلك فقد استثنى النبى الأكرم صلى الله عليه و

آله عدّة أشخاص من هذا العفو وأهدر دمهم وأمر بقتلهم فى أى مكان كانوا، وأحد هؤلاء هو (ابن خطل) وكان ذنبه أنّه اعتنق الإسلام فى الظاهر وهاجر إلى المدينة، فجعله النبى صلى الله عليه و آله على الزكاة وجمعها وأرسل معه شخصاً من قبيلة خزاعة، فعندما ذهب لجمع الزكاة واجتمع لديه مقدار مهم من الزكاة قتل صاحبه وهرب بالأموال إلى مكّة، وعندما سأله المشركون فى مكة عن سبب رجوعه قال: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۹ «لم أجد ديناً أفضل من دينكم»، وأخذ يهجو النبى بقصائد من الشعر وكانت لديه بعض الجوارى المغنيّات والراقصات، فكان يجلس مجالس الطرب واللّهو ويشترك معه مجموعة من المشركين فيشربون الخمر ويهجون النبى بهذه الأشعار، وبما أنّه بلغ من الوقاحة والخيانة فى بيت المال إلى هذه الدرجة العظمية حتّى أنّ هذه الخيانة تسببت فى إرتداده عن الإسلام وهتكه لحرمة النبى الأكرم، فلذلك أصدر النبى أمره هذا، فلّما سمع بذلك التجأ إلى الكعبة، وبما أنّ من يلوذ بالكعبة سوف يصان دمه، فلذلك سحبوه إلى خارج الحرم وقتلوه «۱». فهذه التصريحات الشديدة والأحاديث المثيرة تشير إلى أنّ الخيانة فى بيت مال المسلمين ورغم أنّ البعض يتصوّر أنّها سهلة ويسيرة فإنّها من أعظم الذنوب والخطايا، وعقوبتها من أشدّ أنواع العقوبات الدنيوية والاخروية. ونختم هذا البحث بالإشارة إلى حادثة وقعت فى زمان رسول اللّه حيث تبيّن الأهميّة الكبيرة لبيت المال، والحادثة هى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله عندما عاد من خيبر ووصل إلى وادى القرى كان معه غلام أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى قال: فواللّه إنّه ليضع رحل رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا أتاه سهم غرب فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنّة، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «كَلّا والذى نفس محمد بيده إنّ شَملتَهُ الآن لتحترق عليه فى النار كان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر». قال: فسمعها رجل من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأتاه فقال: يا رسول اللّه أصبت شراكين لنعلين لى، قال: فقال عليه السلام: «يُقد لك مثلهما من النار» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۰

الصدق

تنويه:

إنّ هذه الصفة هى أحد العلائم المهمّة فى عناصر الشخصية لكل إنسان، وعندما يجتمع الصدق مع الأمانة تشكل من ذلك أساس الشخصية الإنسانية السويّة والكاملة بحيث لا يمكن اطلاق اسم الإنسان الحقيقى عند من يخلو من هاتين الصفتين الأخلاقيتين. وهاتان الصفتان لهما جذر وأصل مشترك، لأنّ الصدق ليس شيئاً سوى الأمانة فى القول، والأمانة ليست شيئاً سوى الصدق فى العمل، ولهذا السبب فقد وردت فى الروايات الإسلامية وكلمات المعصومين عليهم السلام هاتان الصفتان أى (صدق الحديث وأداء الأمانة) سوية. وإلى جانب هذه الصفة نرى وجود صفات ممتازة اخرى فى منظومة القيم الأخلاقية لدى الإنسان والتى هى فى الواقع من قبيل اللازم والملزوم، لأنّ الصادقين هم عادة يتحلّون بالشجاعة، صراحة اللهجة، قلّة الطمع، الأخلاص، الابتعاد عن الافراط فى الحب والبغض والتعصب، فى حين أنّ من يعيش الكذب فى سلوكه وأقواله فهو يتحلّى عادة بصفة الخوف، الرياء، التعصّب واللجاجة، الطمع، والافراط فى الحب والبغض. الإنسان يعيش الانضباط فى حياته باصول أخلاقية ويتحرّك من موقع المسؤولية مع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۲ الآخرين فى حين أنّ الشخص الكاذب منافق عادة ويعيش الحالة الانتهازية فى تعامله مع الناس. وبكلمة واحدة يمكن القول: إنّ الصدق والأمانة مفتاحان للكشف عن باطن الأشخاص فى أبعاد مختلفة، ولذلك كما سوف يأتى فى البحث الروائى فى كلمات المعصومين أنّ هاتين الصفتين يمثلان الأداة البليغة لأختبار الأشخاص، فلو أردت معرفة حسن الشخص أو سوئه فعليك بأمتحانه واختباره بالصدق وأداء الأمانة. وبهذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الشريفة التى تتحدّث فى أجواء الصدق والدوافع والنتائج المترتبة على هذه الصفة الأخلاقية وبعض النقاط المتعلّقة بهما ثمّ نستعرض بعض ما يتعلق بصفة الكذب وآثاره السلبية فى حركة الإنسان والمجتمع. وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تتحدّث عن أهميّة الصدق منها: ۱- «قَالَ اللَّهُ

هَـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِـدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِـىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» «۱». ۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» «۲». ۳- «لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُوراً رَحِيماً» «۳». ۴- «إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ... أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيمـاً» «۴». ۵- «طَاعَـةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَـإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَـدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ» «۵». ۶- «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» «۶».

تفسير واستنتاج:

إنّ العبارات الواردة فى الآيات الكريمة التى تتحدّث عن أهميّة الصدق لا نجد مثيلًا لها فى دائرة المفاهيم القرآنية الكريمة، ومن جملة التعابير الشديـدة الواردة فى هـذه الصـفة الأخلاقيـة هو ما ورد فى «الآية الاولى» من الآيات محل البحث والتى جاءت بعد بيان مفصّـل عن ظاهرة انحراف النصارى عن دائرة التوحيد وسؤال اللَّه تعالى المسيح يوم القيامة عن سبب هذا الانحراف وتبرئة المسيح لنفسه عن هـذه التهمة وحينئذٍ تقول الآية: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» وهذه إشارة إلى أنّ اتصافهم بالصدق فى الحياة الدنيا سوف ينفعهم فى حياتهم الاخروية يوم القيامة ويكون سبباً لنجاتهم من النار (لا أنّ صدقهم يوم القيامة سيكون سبباً لنجاتهم فى ذلك اليوم لأنّه لا تكليف يوم القيامـة). ثمّ تستمر الآية الشريفة فى استعراض ما يترتب من النتائج الايجابية والثواب العظيم على هؤلاء الصادقين وتقول: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِـىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». فمن جهة سوف ينالون الجنّة ويتمتعون بعظيم نعيمها ومواهبها الخالـدة، ومن جانب آخر ينـالون رضا اللَّه تعالى عنهم، والتعبير بالفوز العظيم فى الآيـة يـدلّ بوضوح على عظمـة مقام الصادقين، ولعلّه لهـذا السبب فإنّه بالإمكان جمع كافة أعمال الخير والصـلاح وإدخالها فى دائرة الصدق، أو بتعبير آخر أنّ الصدق هو مفتاح لكافّة أعمال الخير والصـلاح. ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى إذا رضى عن عبد فإنّه سوف يعطيه ما يريد، وطبيعى أنّ الإنسان إذا أعطى كل ما يريد فإنّه سيعيش حالة السعادة المطلقة وعليه فإنّ رضى اللَّه تعالى سيتسبب فى رضا العبد، وهذا الرضا المتقابل يعـدّ نعمـة عظيمة لا تصل إليها أى نعمة اخرى، وهى موهبة إلهية للصادقين من الناس. وعبارة (رضـى اللَّه عنهم ورضوا عنه) وردت فى القرآن الكريم فى أربع موارد والتوفيق فيها يبيّن عظمـة هذا المفهوم السامى، ففى أحد الموارد يتحدّث القرآن الكريم عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۴ المهاجرين والأنصار والتابعين، وفى مكان آخر يتحدّث عن حزب اللَّه تعالى، وفى مورد ثالث يتحـدّث عن (خير البريـة)، وفى هـذه الآية محل البحث يتحدّث عن الصادقين، وهذا يدلّ على أنّ الصادقين هم حزب اللَّه تعالى وخير البريـة، ومن المهـاجرين والانصـار والتـابعين. «الآيـة الثانيـة» تخـاطب جميع المؤمنين من موقع الأمر بتقوى اللَّه تعـالى الـذى يقترن مع الصـدق وتقـول: «يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّادِقِينَ». ونظراً إلى أنّ مثـل هـذه الخطابـات القرآنيـة وكمـا ورد فى الاصـطلاح أنّها خطابات المشافهة فإنّها تسـتوعب فى دائرتها ومصاديقها جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان، ومن الواضح أنّ الكون مع الصادقين وظيفـة وواجب على الجميع فى أى مكان وزمان، وهـذا يـدلّ على أنّ الإنسان إذا أراد التحرّك فى خط التقوى والإيمان والاسـتقامة فعليه أن يعيش مع الصادقين ويلتزم بهم. أمّا المقصود من الصادقين فى هـذه الآيـة ما هو؟ فهناك تفاسير متعـددة لذلك، فـالبعض ذكر أنّ المقصود هو النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وأصـحابه، وذهب البعض الآـخر إلى أنّ مراد الآيـة من الصادقين هم الأشـخاص الـذين يتمتعون بصـدق النيّة والصـلاح فى العقائد والأعمال، وأورد آخرون تفاسير اخرى لهذه العبارة. ولكن عند الرجوع لسائر الآيات القرآنية نجد أنّ القرآن نفسه يفسّر المراد من هذه الآية حيث يقول فى سورة الحجرات: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِى سَبِيـلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ» «۱» وهكـذا نرى أنّ هـذه الآيـة قد ذكرت للصادقين صفات سامية كالإيمان الذى لا يشوبه أى شك وريب والجهاد فى سبيل اللَّه بالمال والنفس وأمثال ذلك. وقد ذكرت الآية ۸ من سورة الحشر أحد المصاديق البارزة للصادقين وهم المهاجرون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۵ الذين تركوا أموالهم وبيوتهم

وهاجروا فی سبیل اللّه وکانوا ینصرون دین اللّه ونبیّه الکریم دائماً. ونقرأ فی الآیة ۱۱۷ من سورة البقرة صفات مهمّة اخری لهؤلاء الصادقین من قبیل الإیمان باللّه تعالی ویوم القیامة والکتب السماویة والأنبیاء وإنفاق الأموال فی سبیل اللّه وإقامة الصلاة وأداء الزکاة والوفاء بالعهد والصبر علی المشکلات والصعوبات التی یواجهها المؤمن فی حالات الجهاد. ومن مجموع هذه الصفات الکریمة یتبیّن جیداً أنّ الصادقین لیس هم الصادقین فی الکلام فقط، بل الصدق فی الإیمان والعمل من خلال التقوی والتضحیة وطاعة اللّه تعالی والتحرّک فی خط الإیمان، رغم أنّ هذا المفهوم یمتد لیستوعب دائرة واسعة من المفاهیم الأخلاقیة لکن النموذج الأکمل والأتم لذلک هم المعصومون علیهم السلام ولذلک ورد فی الروایات الشریفة من طرق الشیعة وأهل السنة فی تفسیر هذه الآیة أن المقصود بها علی بن أبی طالب علیه السلام وأصحابه، وکذلک ورد أنّ المقصود علی بن أبی طالب وأهل بیته علیهم السلام. وقد أورد العلّامة (الثعلبی) فی تفسیره عن ابن عباس أنّه قال: «مَعَ الصّادِقِینَ یَعنِی مَعَ عَلی بن أَبِی طالب وَأصحابِهِ» «۱». وقد ذکرت جماعة اخری من علماء أهل السنة مثل العلّامة الگنجی فی کفایة الطالب وسبط ابن الجوزی فی التذکرة نفس هذا المعنی والمضمون مع تفاوت أنّه بدل کلمة الأصحاب وأورد ذکر أهل البیت علیهم السلام حیث یقول فی ذیل هذه الروایة: «قَالَ ابنُ عَباس: عَلِیٌّ سَیِّدُ الصَّادِقِینَ» «۲». وجاء فی الروایة الشریفة عن جابر بن عبداللّه الأنصاری رضی الله عنه عن الإمام الباقر علیه السلام فی تفسیر الآیة أنّه قال: «أی آلُ مُحَمّد» «۳». وقد استوحی الکثیر من المفسّرین من اطلاق هذه الآیة أنّ هذا الأمر یشمل جمیع الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۷۶ المسلمین فی کل زمان ومکان، وبما أنّ الصادق المطلق هو الإمام المعصوم فالآیة تدلّ علی أنّه یجب وجود إمام معصوم فی کل زمان (والتعبیر بصیغة الجمع «الصادقین» لغرض أنّ المخاطب هو کافة الناس فی کل زمان). والنتیجة المستوحاة من هذه الآیة هی أننا جمیعاً مطالبون فی أن نکون دائماً مع الصادقین، وهم الذین وردت أوصافهم فی الآیات أعلاه والمصداق الأکمل لهم هم المعصومون علیهم السلام. «الآیة الثالثة» تتحدّث عن الثواب الذی ینتظر الصادقین یوم القیامة وقد جعلتهم الآیة فی مقابل المنافقین، وبعد أن بیّنت حال المؤمنین الصادقین والذین استشهدوا فی سبیل اللّه وکذلک من ینتظر الشهادة منهم فتقول: «لِیَجْزِیَ اللَّهُ الصَّادِقِینَ بِصِدْقِهِمْ وَیُعَذِّبَ الْمُنَافِقِینَ إِنْ شَاءَ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ کَانَ غَفُوراً رَحِیماً». وبهذا یتبیّن الثواب العظیم علی المستوی المادی والمعنوی الذی ینتظر الصادقین فی الجنّة، وهم الصادقون فی القول والعمل والعقیدة، وأمّا من خرج من دائرة الصدق وسلک فی خط الباطل والکذب فإنّه یسقط فی وادی النفاق والضلال. «الآیة الرابعة» من الآیات محل البحث تشیر إلی عشرة طوائف مبشّرة إیّاهم بالمغفرة والثواب الجزیل، والطائفة الرابعة منهم هم الصادقون والصادقات، وهذا یعنی أنّ الإنسان بعد إعتناق الإسلام والإیمان والطاعة للّه‌تعالی فلا فضیلة بعدها أعلی من الصدق فی السلوک العملی حیث تبیّن هذه الآیة إلی أیة درجة یرتقی الصدق بالإنسان سواء الرجل أو المرأة، وقد ورد فی الحدیث النبوی المعروف: «لا یَستَقِیمُ إِیمانُ عَبدٍ حَتّی یَستَقِیمَ قَلبُهُ وَلا یَستَقِیمُ قَلبُهُ حَتّی یَستَقِیمَ لِسانُهُ» «۱». ویستفاد من هذا الحدیث أنّه حتی الإیمان الکامل لا یحصل للإنسان إلّابعد الصدق الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۷۷ وإصلاح اللسان والقول، وأمّا الأشخاص الذین یعیشون الکذب فی کلامهم فهم الفارغون من الإیمان الکامل. «الآیة الخامسة» وبعد الإشارة إلی الحالة السلبیة للمنافقین وتذبذبهم وتناقضهم فی القول والعمل وخوفهم العظیم من الجهاد فی سبیل اللّه تعالی الذی هو فی الحقیقة أصل العزّة والفخر للإنسان المؤمن تقول الآیة: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَکَانَ خَیْراً لَهُمْ». فهؤلاء کانوا یقولون أننا عندما ینزل علینا الأمر بالجهاد فسوف نتحرّک من موقع الطاعة ولا نقول سوی المعروف والصدق، ولکن عندما یحین الوقت وینزل الأمر بالجهاد یتجلّی حینئذٍ عدم صدقهم وتهافتهم وتخاذلهم فی حین أنّهم لو صدقوا اللّه لکان خیراً لهم. هذا التعبیر یدلّ علی أنّ الکذب هو أحد علامات المنافقین، فقبل أن یواجهوا الأمر الواقع وتحین لحظة الحسم فأنّهم ینطلقون من موقع الوعد بالجهاد والثبات والانطلاق من موقع المسؤولیة، ولکن عندما تحین اللحظة الحاسمة یتّضح کذبهم ونفاقهم، أی أنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة وهی الکذب تعدّ باباً ومفتاحاً للنفاق. «الآیة السادسة»: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَلَیَعْلَمَنَّ الْکَاذِبِینَ». ولا شک أنّ أصحاب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قد تجاوزوا اختبارات صعبة فی میدان العمل والواقع، وأحد أهم هذه الاختبارات هی مسألة الهجرة، التی تعنی ترک البیوت

والأموال وغض الطرف عن الأوطان وجميع التعلّقات التى ألفها الإنسان فى وطنه والانتقال إلى مكان آخر يبدأ فيه الحركة والحياة من نقطة الصفر ويعيش هناك مع أنواع الحرمان والنقص فى موارد المعيشة، وفى حالة ما إذا لم تهاجر معه الزوجة والأطفال فالصعوبات التى يواجهها هذا الإنسان المهاجر ستتضاعف وتشتد. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۸ القرآن الكريم يتحرّك فى هذه الآية من موقع التحذير لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ هذه الهجرة هى إمتحان إلهى كبير (فاذا بقوا فى مكّة فسوف ينالهم أنواع التعذيب من قبل المشركين ولو هاجروا إلى المدينة فسيواجهون أنواع الحرمان والفاقة) فيقول لهم القرآن الكريم أنّه لا تتصوّروا أنّ هذا الامتحان العسير فى مواجهة تحدّيات الواقع من تعذيب المشركين أو الهجرة إلى المدينة أو الجهاد فى سبيل اللّه ومواجهة الأعداء فى ميدان القتال وأمثال ذلك منحصر بكم، فقد سبق أن اختبرنا الأقوام السالفة بأنواع الاختبارات والابتلاءات، وأساساً فإنّ الحياة الدنيا تدور حول الإمتحان والاختبار الإلهى ليتبيّن الصادق فى إيمانه من الكاذب والمدّعى. وفى الواقع أنّ هذه الآية تتحدّث عن الصدق بعنوان أنّه علامة الإيمان والكذب علامة النفاق والكفر. وطبعاً إنّ الصدق والكذب فى هذه الآية هو الصدق والكذب فى العمل لا فى القول، العمل الذى ينسجم ويتوافق مع ا دّعاءات الإنسان السابقة ويرسم له سلوكه الاجتماعى فى حركة الحياة، والكاذب هنا هو الذى لا يتحرّك فى سلوكه بما ينسجم مع إدعاءاته، وأيضاً الصدق والكذب فى العمل وفى القول لهما جذر مشترك، لأنّ الصدق هو بيان الحقيقة والكذب على العكس من ذلك، وهذا التبيّن تارة يكون بوسيلة القول واخرى بوسيلة العمل. ومن مجموع الآيات أعلاه يتبيّن الأهميّة الكبيرة للصدق والصادقين وأنّ هذه الصفة تعد فضيلة أخلاقية من الفضائل التحتية للبناء الأخلاقى الفوقانى للإنسان، نعم فإنّه متى ما وجد الصدق فإنّ الصفاء والأمانة والثقة والاعتماد والشجاعة سوف تحصل للإنسان بالتبع، ولو لم يكن الصدق فى واقع الإنسان فإنّ جميع هذه الصفات ستتبخّر وتتلاشى ويعيش الإنسان بدونها حالة الفراغ الروحى والجفاف المعنوى وحتّى أنّ الإيمان والعقيدة سوف لا تبقى سليمة كما هو المطلوب، والملفت للنظر أنّ الآيات الكريمة تذكر الصدق بعنوان أنّه صفة من الصفات الأصلية للقادة الإلهيين كما أشارت إلى ذلك الآيات أعلاه وهذا إنّما يدلّ على أنّ سائر فضائل الإنبياء والأولياء تدور حول محور الصدق وعلينا إذا أردنا معرفتهم والاطّلاع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۹ على أحوالهم أن نتحرّك لتتبع أثر هذه الصفة الأخلاقية فيهم.

الصدق فى الروايات الإسلامية:

اشارة

إنّ أهميّة هذه الفضيلة الأخلاقية فى الروايات الإسلامية أكثر من أن يقال أو يذكر فى هذا المختصر، فالأحاديث الشريفة الواردة عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فى هذا المجال تجاوزت حد الحصر، ولكننا نكتفى فى هذا الفصل بذكر نماذج منها لبيان أهميّة هذه الصفة من بين الصفات الأخلاقية للإنسان حيث يستفاد جيداً من الروايات أنّ جميع الفضائل الإنسانية تنبع من حالة الصدق. ۱- ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى بيان أهميّة الصدق والذى تقدّم ذكره فى الفصل السابق ولكننا نذكره مرة اخرى لأهميته: «لا تَنظُروا إلى كَثْرَةِ صَلاتِهِم وَصَومِهِم وَكَثْرَةِ الحَجِّ وَالمَعرُوفِ وَطَنطَنَتِهِم بِاللَّيلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إلى صِدقِ الحَدِيثِ وَأَداءِ الأَمانَةِ» «۱». ۲- ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِن اللَّهَ لَم يَبعَثْ نَبِيّاً إلّابِصدقِ الحَدِيثِ وَأَداءِ الأَمانَةِ إِلَى البِرِّ والفاجِرِ»». ۳- وفى حديث آخر عن هذا الإمام يقول حول تأثير الصدق فى جميع أعمال الإنسان وسلوكياته «وَمَن صَدَقَ لِسانُهُ زَكَى عَمَلُهُ» «۳» ، لأنّ الصدق يمثل الجذر والأساس لجميع الأعمال الصالحة، وسوف يأتى لاحقاً بيان هذا المطلب بالتفصيل. ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق أيضاً فى كتابه إلى أحد أصحابه ويُدعى عبداللّه بن أبى يعفور حيث قال له: «انظُر ما بَلَغَ عَلِيٌّ بِهِ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَأَلزَمَهُ، فَإِنَّ عَلِيّاً عليه السلام إِنّما بَلَغَ ما بَلَغَ عِندَ

رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله بِصدقِ الحَدِیثِ وَأَداءِ الأمانَةِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۰ هذا التعبیر یدلّ علی أنّ الإنسان حتّی لو کان شخصیة کبیرة وعظیمة مثل علی بن أبی طالب علیه السلام إنّما وصل إلی هذا المقام السامی عند رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ببرکة هاتین الصفتین: صدق الحدیث، وأداء الأمانة. ۵- وقد ورد فی الحدیث الشریف أنّه سُئل أمیرالمؤمنین علیه السلام: «أی النّاسِ أَکرمُ؟ فَقَالَ: مَنْ صَدَقَ فِی المَواطِن» «۱». ونظراً إلی أنّ القرآن الکریم یقول: «إنّ أَکرَمَکُم عِندَ اللَّهِ أَتقاکُم» «۲» یتضّح أنّ روح التقوی هی الصدق فی الحدیث. ۶- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام یتحدّث فیه عن تأثیر الصدق فی نجاة الإنسان من الأخطار والمشکلات حیث یقول: «ألزموا الصدق فإنّه منجاة». وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام ورد تشبیهاً جمیلًا عن الصدق حیث یقول: «الصِّدقُ نُورٌ غَیرَ مُتَشَعشِعٍ إلّا فِی عالَمِهِ کَالشَّمْسِ یَستَضیءُ بِها کُلُّ شَیٍّ یَغْشَاهُ مِنْ غَیرِ نُقصانٍ یَقَعُ عَلی مَعناها». ویقول الإمام علیه السلام فی ذیل هذا الحدیث: «الصِّدقُ سَیفُ اللَّهِ فِی أَرضِهِ وَسَمائِهِ أَینما هَوی بِهِ یُقَدُّ» «۳». ۷- وعن أهمیّة الصدق یکفی أن نذکر الحدیث الشریف الوارد عن أمیر المؤمنین علیه السلام حیث یقول: «الصِّدقُ رأسُ الدِّینِ». ویقول فی حدیث آخر: «الصِّدقُ صَلاحُ کُلِّ شَیءٍ». ویقول فی حدیث آخر أیضاً: «الصِّدقُ أَقوی دَعائِمُ الإیمانِ». وفی روایة اخری یقول: «الصِّدقُ جَمالُ الإنسانِ وِدَعامَةُ الإیمانِ». وأخیراً یضیف إلی ذلک تعبیراً مهمّاً آخر عن الصدق ویقول: «الصِّدقُ أَشرَفُ خَلائِقِ المُؤمِنِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۱ ۸- ونختم هذا البحث الطویل بحدیث شریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یتحدّث فیه عن مفتاح الجنّة والنار ویقول: «إنّ رَجُلًا جاءَ إلی النَّبِیِّ فَقالَ یا رَسُولَ اللَّهِ ما عَمَلُ الجَنَّةِ؟ قالَ: الصِّدقُ، إذا صَدَقَ العَبدُ بَرَّ وإذا بَرَّ آمَنَ، وإذا آمَنَ دَخَلَ الجَنَّةَ قالَ: یا رَسُولَ اللَّهِ وَما عَمَلُ النَّارِ؟ قالَ: الکِذبُ، إذا کَذِبَ العَبدُ فَجَرَ، وَإذا فَجَرَ کَفَرَ، وإذا کَفَرَ دَخَلَ النَّارَ» «۱». والملفت للنظر أنّ هذا الحدیث الشریف یعدّ الصدق منبع الخیر والصلاح وبالتالی فهو منبع الإیمان أیضاً، وما ذلک إلّالأنّ الفاسق یتحرّک فی تبریر أعماله الدنیئة من موقع الکذب والدجل والخداع، هذا من جهة، ومن جهة اخری فإنّ روح الإنسان ستضعف بسبب الکذب وتدریجیاً یضعف الإیمان أیضاً وبالتالی یفضی ذلک إلی الکفر والسقوط من درجة الإنسانیة کما قال القرآن الکریم: «ثُمَّ کَانَ عَاقِبَةَ الَّذِینَ أَسَاءُوا السُّوءَی أَنْ کَذَّبُوا بِآیَاتِ اللَّهِ وَکَانُوا بِهَا یَسْتَهْزِئُون» «۲». ۹- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبدَاً أَلهَمَهُ الصِّدقَ» «۳». ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «أَربَعٌ مَنْ اعطِیَهُنَّ اعطِی خَیرَ الدُّنیا وَالآخِرَةِ صِدقُ حَدِیثٍ وَأَداءُ أَمانَةٍ وَعِفَّةُ بَطنٍ وَحُسنُ الخُلقِ» «۴». ومن مجموع هذه الأحادیث الشریفة یمکننا أن نستوحی نکات مهمّة فی دائرة هذه الصفة الأخلاقیة: إنّ الصدق هو أحد الطرق التی تتجلّی فیها شخصیة الإنسان وإیمانه وبذلک یمکن اختباره من هذا السبیل. إنّ الدعوة إلی الصدق هی أحدی البنود الأساسیة لدعوة الإنبیاء والمرسلین فی خط الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۲ التکامل المعنوی والإلهی. إنّ الصدق یتسبب فی طهارة الأعمال وقبول الأفعال. إنّ المقام المعنوی للإنسان عند اللَّه تعالی یدور مدار الصدق. إنّ أکرم الناس هم الصادقون. إنّ الصدق یتسبب فی النجاة فی الآخرة. إنّ الصدق أقوی دعائم الدین. إنّ الصدق مفتاح الجنّة. الصدق علامة محبوبیة الإنسان لدی اللَّه تعالی. إنّ الإنسان الصادق سینال خیر الدنیا والآخرة. ونظراً إلی هذه النتائج والمعطیات العشرة للصدق یتّضح جیداً أنّ هذه الصفة الأخلاقیة المهمّة لا تلحقها صفة اخری بهذه المعطیات الکثیرة. بقی هنا فی هذا الموضوع المهم أن نذکر عدّة امور (رغم أنّه قد أشرنا إلیها فی ضمن الأبحاث السابقة).

۱- تأثیر الصدق فی حیاة الإنسان

بالرغم من أنّ تأثیر الصدق فی حیاة الإنسان یعدّ بدیهیّاً وتوضیح هذا الأمر یعدّ من توضیح الواضحات، ولکن عندما ندخل تفاصیل المسألة نواجه المعطیات الإعجازیة الکبیرة للصدق فی جمیع مفاصل الحیاة البشریة، والالتفات إلی هذه المعطیات المهمّة بإمکانه أن یکون دافعاً قویاً للتحلّی بهذه الصفة الأخلاقیة الکبیرة. وأول تأثیر للصدق فی حیاة الإنسان هو مسألة الثقة وجلب الاطمئنان والاعتماد المتقابل بین أفراد المجتمع فی حرکة التفاعل الاجتماعی. ونعلم أنّ أساس الحیاة الاجتماعیة للإنسان هو العمل علی المستوی

الجماعی ولا یتسنی ذلک إلّابأن یتعامل أفراد المجتمع فیما بینهم من موقع الثقة المتبادلة واعتماد البعض الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۳ علی البعض الآخر، وهذا المعنی لا یتحصّل إلّابتوفر عنصر الصدق والأمانة بینهم، أجل فإنّ أهم وسیلة مؤثّرة فی جذب إعتماد الناس هو الصدق، وأخطر وسیلة وأداة لهدم العلاقات الاجتماعیة وتخریب أواصر المودّة بین الأفراد هو الکذب، ولا فرق فی هذا الأمر بین المجالات العلمیة والثقافیة والاقتصادیة والسیاسیة. فالرجل السیاسی المحنّک والذی یعتمد علیه الناس إذا تورط فی مورد أو عدّة موارد من الکذب وسمع منه الناس ذلک، فإنّهم سیتباعدون عنه وبهذا یخسر نفوذه وشخصیته بین الناس. والعالم أو المکتشف إذا تلّوث بالکذب فی تحقیقاته العلمیة فقد إعتماد المحافل العلمیة باختراعاته وتحقیقاته وبالتالی تذهب أتعابه أدراج الریاح وتکون تحقیقاته المدوّنة حبراً علی ورق. المؤسسات الاقتصادیة أیضاً إذا تعاملت فی الأعلان عن منتوجاتها وبضائعها من موضع الکذب والدجل فإنّ الناس سوف لا یثقون بمنتوجاتها بعد ذلک وسوف تخسر هذه المؤسسات زبائنها سریعاً. وفی دائرة الإدارة إذا لم یصدق المدیر مع مرؤوسیه وموظفیه فإنّ نظم هذه الدوائر أو المؤسسة سوف یتلاشی بالتأکید، وعلی هذا نصل إلی هذه النتیجة وهی أنّ أساس جمیع أشکال التقدّم المعنوی والمادی فی المجتمع یتمثّل بالاعتماد المتقابل بین الأفراد والذی یعتمد بدوره علی الصدق. ولذلک ورد فی الروایة الشریفة عن أمیر المؤمنین أنّه قال: «الصِّدقُ صلاح کُلِّ شیءٍ والکِذبُ فَسادُ کُلِّ شَیءٍ» «۱». وقال أیضاً فی حدیث آخر: «الکَذّابُ والمَیِّتُ سَواءٌ فإنَّ فَضیلَةَ الحَیِّ عَلَی المَیِّتِ الثِّقَةُ بِهِ، فَإذا لَمْ یُوثَقْ بَکلامِهِ فَقَد بَطَلَتْ حَیاتُهُ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۴ والأمر الآخر هو أنّ الصدق یهب لصاحبه شخصیة اجتماعیة مرموقة فی حین أنّ الکذب یتسبب فی فضیحته وذهاب ماء وجهه وسمعته، والإنسان الصادق یعیش حیاة العزّة والکرامة دائماً أمّا الکاذب فیعیش حالة الدناءة والحقارة والانتهازیة. ولهذا ورد عن أمیرالمؤمنین أنّه قال: «عَلَیکَ بِالصِّدقِ فَمَنْ صَدَقَ فِی أَقوالِهِ جَلَّ قَدرُهُ» «۱». ومن جهة ثالثة نجد أنّ الصدق والأمانة یهبان للإنسان الشجاعة والشهامة فی حین أنّ الکذب والخیانة یجرّان الإنسان إلی السقوط فی هوة الخوف والفزع من إنکشاف أمره وافتضاح حاله وبالتالی خسران جمیع ما أعدّه سلفاً لحیاة کریمة وسعیدة من خلال الکذب والخداع والخیانة. ومن جهة رابعة فإنّ الصدق بإمکانه أن ینقذ الإنسان من کثیر من الذنوب والآثام، لأنّه فی حال ما لو ارتکب ذنباً معیناً ثمّ سأل عنه فإنّه لا یستطیع الإقرار بهذا الذنب والاعتراف به، فمن الأفضل له أن لا یرتکبه سلفاً. وقد ورد فی الحدیث الشریف المعروف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه جاء رجل إلیه صلی الله علیه و آله وقال: أنا یا رسول اللّه استسر بخلال أربع، الزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والکذب، فأیّتهنّ شئت ترکتها لک، قال صلی الله علیه و آله: «دع الکذب». فلما ولی هم بالزنا فقال: یسألنی فان جحدت نقضت ما جعلت له وإن أقررت حددت، ثم هم بالسرقة ثم بشرب الخمر ففکر فی مثل ذلک فرجع إلیه فقال: قد أخذت علیَّ السبیل کلّه فقد ترکتهنّ أجمع «۲». ومن جهة خامسة نجد أنّ الصدق یعمل علی حلّ الکثیر من المشاکل والأزمات فی المجتمع ویسهّل للإنسان الوصول إلی مقصده ویقلّل من نفقات المسیر ویهب الناس هدوءاً وطمأنینة ویزیل الاضطراب والقلق والتوتر الذی ینشأ من حالات احتمالات الکذب فی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۵ أقوال الطرف الآخر ویوطد أرکان المحبّة ویعمّق وشائج المودّة بین أفراد المجتمع وبذلک یفضی علی شخصیة هؤلاء الأفراد نوراً وبهاءاً أکثر، وقد أشارت الروایات الکریمة إلی هذا المعنی أیضاً وأنّ شخصیة الإنسان الذاتیة هی التی تدعو لئن یکون الإنسان صادقاً کما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «أَحسَنُ مِنَ الصِّدقِ قائِلُهُ وَخَیرٌ مِنَ الخَیرِ فاعِلُهُ» «۱». ونختم هذا الکلام بحدیث شریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام کشاهد صدق علی هذا المطلب حیث یقول: «یَکتَسِبُ الصَّادِقُ بِصِدقِهِ ثَلاثاً، حُسنُ الثِّقَةِ والمَحَبَّةِ لَهُ وَالمَهابَةُ مِنهُ» «۲».

۲- دوافع الصدق

إنّ هذه الفضیلة الأخلاقیة کسائر الفضائل الأخلاقیة الاخری لها جذور ودوافع فی أعماق روح الإنسان منها: الف: الاعتماد علی النفس وعدم الشعور بالحقارة والدونیة، حیث تدعوه هذه الحالة النفسیة الإیجابیة إلی الصدق والتعامل مع الآخرین من موقع الثقة بالنفس

والواقع. ب: الشجاعة والشهامة الذاتية والإكتسابية فلا يخاف من ذكر الامور الواقعية. ج: الطهارة القلبية من أدران الذنوب وعدم وجود نقطة ضعف فی شخصية الإنسان تدعوه إلى قلب الواقع، فی حين أنّ الملّوث بالعيوب والخطايا قد يدعوه ذلك إلى الكذب لتغطية نقاط الضعف هذه. د: والأهم من ذلك جميعاً هو أن يتجلّى الإنسان بالإيمان باللّه والآخرة ويتحرّك فی خط التقوى والاستقامة، فذلك من شأنه أن يكون عاملًا أساسياً للصدق، ولهذا السبب ورد فی الحديث المعروف فی نهج البلاغة قوله عليه السلام: «أَن تُؤثِرَ الصِّدقَ حَيثُ يَضُرُّكَ عَلَى الكِذبِ حَيثُ يَنفَعُكَ» «۳».

۳- مفهوم الصدق

ورغم أننا نفهم من هذه المفردة وضوح المعنى والمفهوم، ولكن فی نفس الوقت هناك الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۶ خلاف كثير بين العلماء فی تعريفها، فالبعض ذهب إلى أنّ الصدق هو مطابقة محتوى الكلام للواقع، فی حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ الصدق هو مطابقة الكلام لاعتقاد الشخص واستدل بالآية الشريفة من سورة المنافقين حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» «۱». ومن البديهی أنّ المنافقين الذين يشهدون على نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله تكون شهادتهم هذه مطابقة للواقع، ولكن بما أنّها غير مطابقة لاعتقادهم، فلذلك ذكرهم اللّه تعالى بأنّهم كاذبون ونسبهم إلى الكذب، لأنّ هؤلاء يستخدمون هذه الشهادة بنبوّة النبی الأكرم صلى الله عليه و آله كأداة للتغطية على شخصيتهم حيث يكون مفهوم كلامهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لاعتقادهم الباطنی، وبما أنّ هذا الكلام غير مطابق لواقعهم، فلذلك كانوا كاذبين، أی أنّ هؤلاء يكذبون فی ادعاءاتهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لمعتقدهم الباطنی، وعلى هذا الأساس يتبيّن أنّ الصدق على كل حال هو تطابق الكلام مع الواقع سواءاً كان الواقع الخارجی أو الباطنی. ولكننا نقرأ فی الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام تعريفاً آخر للصدق والكذب وهو ناظر إلى بعد العبودية للّه‌تعالى حيث يقول: «الصِّدقُ مُطابَقَةُ المَنطِقِ لِلوَضعِ الإِلَهی والكِذبُ زَوالُ المَنطِقِ عَنِ الوَضعِ الإِلَهی» «۲». والمقصود من الوضع الإلهی ظاهراً هو وضع عالم الخلقة والوجود، الذی يتحرّك بإرادة اللّه تعالى، وعليه فإنّ هذا التعريف لا يخرج عن إطار التعريف السابق إلّابدخوله فی دائرة المضمون التوحيدی. وبالطبع فإنّ الصدق والكذب كما يجريان فی كلام الشخص فكذلك يجريان فی عمله وسلوكه أيضاً، فالأشخاص الذين يخالف عملهم ظاهرهم فإنّهم كاذبون من هذه الجهة، والأشخاص الذين يتطابق ظاهرهم مع باطنهم وأعمالهم، فإنّهم صادقون أيضاً.

الكذب وآثاره وعواقبه

تنويه:

كان من المفروض أن نبحث الصدق والكذب فی فصل واحد للملازمة الشديدة بينهما، ولأنّ أحدهما لا يعرف بدون الآخر، ولكن بما أنّ هذه المسألة وردت فی الآيات والروايات الشريفة وكلمات علماء الأخلاق بصورة منفصلة رأينا أنّ من الأفضل التفكيك بينهما لنؤدی المطلب حقّه من البحث والتفصيل. أجل فإنّ المفاهيم الإسلامية تؤكّد كثيراً على مسألة محاربة الكذب والدجل إلى درجة أنّ الكاذبين فی النصوص الدينية فی عداد الكفّار والملحدين وأنّ الكذب هو مفتاح جميع الذنوب كما ورد التصريح بذلك فی الروايات الشريفة، بل إنّ الإنسان ما لم يترك الكذب بشتى أنواعه وأقسامه لن يذوق طعم الإيمان أبداً. ونكتفی بهذه الإشارة إلى آثار الكذب وأخطاره لنعود إلى القرآن الكريم ونستوحی من آياته ما يتعلّق بهذا المفهوم والصفة الأخلاقية الذميمة: ۱- «إِنَّمَا يَفْتَرِی الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۸ ۲- «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِی مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» «۱». ۳- «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» «۲». ۴- «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»

«۳». ۵- «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» «۴». وفی مسألة التكذيب الإلهی الذی هو أيضاً نوع من الكذب، وردت تعابير مهمّة فی القرآن الكريم، منها: ۶- «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ» «۵». ۷- «ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» «۶».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولی» تتحدّث عن أنّ الكاذب هو الشخص الذی إنعدم فيه الإيمان باللَّه تعالی وأنّ الكاذب الحقيقی هو غير المؤمنين فتقول: «إِنَّمَا يَفْتَرِی الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ». وهذا فی الوقت الذی كان فيه أعداء الإسلام من المشركين الجاهليين عندما يرون بعض آيات القرآن الكريم قد نسخت بسبب تغيير الظروف الزمانية وإستبدلت الأحكام السابقة بأحكام جديدة، فكان ذلك ذريعة لديهم فی إتهامهم النبی صلی الله عليه و آله بالكذب، وقولهم أنّ هذا النبی له معلّم يعلّمه هذه الآيات (ومرادهم من المعلّم غلامين نصرانيين أحدهما يدعی يسار، والآخر جبر، أو رجل نصرانی يدعی بلعام الرومی) فی حين أنّ القرآن الكريم نزل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۸۹ بلسان عربی فصيح وهؤلاء كانوا من الأعاجم. القرآن الكريم فی مقام الجواب علی إدّعاءات المشركين الواهية يقرّر أنّ النبی الأكرم يتلقی الوحی الإلهی الذی ينزل به روح القدس من اللَّه تعالی وأنّ آثار الإيمان والصدق جليّة فی كلامه، والأشخاص الذين يكذبون فی كلامهم لا يؤمنون باللَّه تعالی، أی أنّ الإيمان لا يجتمع مع الكذب، والمؤمن الحقيقی لا يتحرّك لسانه من موقع الكذب اطلاقاً. وجملة (يفتری الكذب) فی الواقع تأكيد علی كذبهم، أی أنّهم يرتكبون الكذب والتهمة فی نفس الوقت، أو كما يقول الطبرسی فی مجمع البيان بمعنی (يخترع الكذب) وهذا يعنی أنّهم يختلقون كلاماً لا أصل له (الافتراء بمعنی فرية، هو فی الأصل بمعنی قطع، ثم استعمل فی كل عمل سلبی ومذموم ومنه الشرك والكذب والتهمة). وفی الواقع فإنّ النسبة بين الكذب والافتراء هی نسبة العموم والخصوص المطلق، فالكذب يعنی كل كلام مخالف للواقع، ولكنّ الافتراء أو التهمة هی أن يكون الكلام يحتوی فی مضمونه علی نسبة عمل مذموم إلی شخص معيّن. ويحتمل أنّ قوله (يفتری الكذب) إشارة إلی رؤساء المشركين وقادة الكفر حيث يختلقون الكذب والعناوين من قبيل شاعر وساحر وينسبونها إلی النبی صلی الله عليه و آله ويتبعهم الآخرون بذلك. وعلی أية حال فإنّ الآية أعلاه تبيّن بوضوح أنّ الكذب لا يجتمع مع الإيمان اطلاقاً، ولذلك ورد فی تفسير هذه الآية رواية عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله عندما سُئل: «يا رَسُولَ اللَّهِ المُؤمِنُ يَزنی؟ قال: بلی، قالوا: المُؤمِنُ يَسرُقُ؟ قال: بلی، قالوا: المُؤمِنُ يَكذِبُ؟ قال: لا، ثُمَّ قرأ هذه الآية ..» «۱». وبالطبع فلابدّ من ملاحظة أنّ الإيمان له مراحل ومراتب مختلفة. «الآية الثانية» من الآيات محل البحث تصّرح «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِی مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۰ ومن المعلوم أنّ الهداية والضلالة هما بيد اللَّه تعالی حتی النبی الأكرم صلی الله عليه و آله لا يتمكن أن يهدی شخصاً ما لم تتعلّق بذلك مشيئة اللَّه تعالی وإرادته كما ورد فی الآية الشريفة: «إِنَّكَ لَا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِی مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» «۱». ولكن هذا لا يعنی أنّ اللَّه تعالی يجبر بعض الناس علی الهداية والبعض الآخر علی الضلالة والانحراف، ثمّ يهب الجنّة ونعيمها الدائم الی الطائفة الاولی ويرسل الطائفة الثانية إلی النار، فهذا هو مذهب الجبر الذی لا ينسجم مع العقل والمنطق ولا مع العدل الإلهی. والمقصود من ذلك أنّه متی ما تهيأت الأرضية للهداية والضلالة فی الإنسان بواسطة أعماله وأفعاله فإنّ اللَّه تعالی سيمدّه بما يتوافق مع لياقته وقابلياته، فيعين الطائفة الاولی للوصول إلی كمالهم المعنوی فی خط الإيمان والعبودية والطاعة ويزيدهم من فضله ولطفه، ويرفع يده عن الطائفة الثانية ليبقوا فی حيرتهم وفی دوّامة من السلوكيات المنحرفة والعقائد الباطلة التی لا يصلون معها إلی مقصودهم النهائی. ومن أهم الامور التی توفّر الأرضية للضلالة والزيغ والانحراف هو الكذب والاسراف وكفران النعمة التی وردت فی هاتين الآيتين حيث يفهم بوضوح من سياق هاتين الآيتين أنّ من يقول بالجبر وأنّ اللَّه تعالی هو الذی يهدی ويضل عباده دون أن يكون لهم الخيرة فی ذلك فإنّ كلامهم هذا واعتقادهم مجانب للحق والصواب كثيراً وأنّ استدلالهم بهاتين الآيتين هو فی الواقع خلاف الظاهر من جو هاتين الآيتين وسياقهما. أجل، فإنّ الكذب يعتبر من أهم العوامل فی اضلال الإنسان وشقائه. ويمكن أن يكون مورد هاتين الآيتين هو نسبة

الكذب إلى اللّه تعالى والانحراف عن أصل التوحيد، ولكنّ المورد لا يخصص الوارد كما فى الاصطلاح، أى أنّ خصوصيۀ المورد لا تمنع من عموميۀ الحكم الوارد فى هاتين الآيتين. أمّا العلاقۀ بين الكذب وكفران النعمۀ الوارد فى الآيۀ الاولى فهو يشير إلى هذه الحقيقۀ وهى أنّ بنى اسرائيل كفروا بنعمۀ وجود موسى عليه السلام فيما بينهم لهدايتهم وكذّبوه، والعلاقۀ بين الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۱ الاسراف والكذب فى الآيۀ الثانيۀ هو من جهۀ أنّ الفراعنۀ تحرّكوا من موقع عصيان الأمر الإلهى وظلمهم لبنى اسرائيل وقتل أولادهم، فهؤلاء سلكوا طريق الاسراف وكذّبوا بنبوّۀ موسى عليه السلام. «الآيۀ الرابعۀ» تستعرض اسلوب المنافقين فى التظاهر بالإيمان والعمل الصالح وتتحدّث عن (ثعلبۀ بن حاطب الأنصارى) الذى كان قد عاهد اللّه تعالى أنّه إذا رزقه مالًا كثيراً فإنّه سيتصدّق على الفقراء والمساكين ولكنّ سلوكه العملى كان مخالفاً لقوله ووعده حيث نقض عهده مع اللّه تعالى بعد أن رزقه المال والثروۀ وأصبح من الموسرين، ويقول اللّه تعالى فى هذه الآيۀ: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ». ثم تضيف الآيۀ أنّ ذلك كان بسبب نقضهم للعهد وكذبهم على اللّه تعالى: «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». والجدير بالذكر أنّ نقض العهد مع اللّه تعالى يعتبر نوع من الكذب العملى. وعلى أيۀ حال فالآيۀ أعلاه تصرح بأنّ نقض العهد كذب يورث الإنسان روح النفاق فى قلبه إلى آخر حياته، وما أشدّ هذه العقوبۀ فى دائرۀ أركان الشخصيۀ ودعائمها. أمّا العلاقۀ بين هذين الذنبين (نقض العهد والكذب) وبين النفاق فواضحۀ، لأنّ النفاق ليس شيئاً سوى اختلاف الظاهر والباطن وأن يكون الإنسان ذا لسانين كما فى اصطلاح الروايات، ونقض العهد والكذب أيضاً هو عبارۀ عن التظاهر بالتمسك والانضباط بالوعد وبالميثاق من موقع المسؤوليۀ والتعهد القلبى فى حين أنّ الواقع الباطنى لا يتطابق مع هذا الظاهر الخادع. أجل، فإنّ الكثيرين من أمثال ثعلبۀ بن حاطب الأنصارى عندما يعيشون حالۀ الضيق والعسر فى حركۀ الحياۀ يلجأون إلى اللّه تعالى بجميع وجودهم وكيانهم ليحل لهم مشكلاتهم ويبذلون له العهود والمواثيق والنذور فى هذا السبيل، ولكن عندما يستجيب اللّه تعالى لهم وتنفرج الأزمۀ ويحصلون على ما يريدون يتعاملون مع عهودهم ومواثيقهم من الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۲ موقع النسيان والتغافل، وهذا هو المصداق لنقض العهد والكذب والنفاق فى عمليۀ التعامل مع الحياۀ والواقع (نسأل اللّه تعالى أن يحفظنا من شرّ هذه الآثام والسلوكيات الدنيئۀ). «الآيۀ الخامسۀ» تتحدّث عن صفات وأعمال المنافقين القبيحۀ وتسلّط الضوء خاصۀ على مسألۀ الكذب وتقول: «فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». فهذه الآيۀ لم تتحدّث بشكل دقيق عن نوع الكذب الذى كانوا يرتكبونه ولعله إشارۀ إلى الكذب الذى أشارت إليه الآيۀ السابقۀ، ومن ذلك إدّعائهم الإيمان باللّه فى حين أنّهم غير مؤمنين فى قلوبهم، والآخر الخداع والغش الذى كانوا يمارسونه مع المؤمنين ويستغفلونهم فى عمليۀ التعامل معهم، والأهم من ذلك أنّهم كانوا يستفيدون من كل فرصۀ فى سبيل تكذيب الرسالۀ الإلهيۀ والرسول الكريم، ولكن على أيّۀ حال، فإنّ هذه الآيۀ تقول: إنّ العذاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء هو بسبب كذبهم، وهذا يدل على أنّ أشدّ وأشنع أعمال المنافقين هو أنّهم كانوا يرتكبون الكذب ويخترعون الإفك، بالرغم من أنّهم كانوا يرتكبون ذنوباً كثيرۀ إلى جانب الكذب. ومن الواضح أنّ المقصود بالمرض فى هذه الآيۀ هو مرض النفاق الذى يعدّ مرضاً أخلاقياً ناشئاً من انفصام شخصيۀ المنافق واهتزاز وجدانه بحيث يعيش بين الناس بلسانين ووجهين وظاهره يختلف عن باطنه. «الآيۀ السادسۀ» تتحرّك على مستوى بيان قسم خاص من أقسام الكذب، وهو الكذب على اللّه تعالى، حيث تخاطب الآيۀ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ». أساساً فانّ الكذب لا يجتمع مع الفلاح والموفقيۀ فى حركۀ الحياۀ وخاصّۀ إذا كان الكذب على اللّه والأنبياء الإلهيين، والمراد من الكذب على اللّه فى هذه الآيۀ (وبقرينۀ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۳ الآيات السابقۀ لها) هو أنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ الملائكۀ هم بنات اللّه، وقيل أنّ المراد هو دعوى المسيحيين بأنّ المسيح ابن اللّه، وكذلك دعوى اليهود بأنّ عزير إبن اللّه، وعلى أيۀ حال فانّ نسبۀ هذه الامور إلى اللّه تعالى من الكذب الفاضح والجلى، لأنّ اللّه تعالى ليس بجسم ولا يتصف بالعوارض الجسمانيّۀ وليست له زوجۀ وأبناء. وأساساً فانّ فلسفۀ وجود الابن تكون معقولۀ فى دائرۀ نظام الخلقۀ على مستوى الإنسان وحاجاته الفطرّيۀ والطبيعيۀ، فانّ الإنسان يحتاج إلى الأبناء لبقاء النسل والقيام بمعونته وإسناده فى حركۀ المعيشۀ الشاقّۀ

أمـام تحـدّيات الواقع والحيـاة، أمّـا مفهوم الأبن بالنسـبة إلى اللّه تعالى وهو الغنى على الاطلاق والقادر على كل شـيء فلا معنى له فى دائرة العقل والمنطق. ومن الجدير بالتأمّل أنّ الآية المذكورة اعتبرت عمل المشـركين مصداقاً للكذب والإفتراء، وهذا يعنى أنّ الكذب له مفهوم واسع يستوعب فى مضمونه الإفتراء أيضاً (وكما فى الأصطلاح أنّ النسبة بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق) فالكذب هو أن يتحدّث الإنسان بكلام مخالف للواقع سواءً كان يتحدّث عن شـخص معيّن أو شيء آخر، ولكنّ التهمة والإفتراء هو نسبة عمل قبيح وغير واقعى إلى شـخص معيّن، فهنا يتحقق مصـداق الكـذب ومصـداق التهمـة أيضاً. ونفس مضـمون هذه الآية ورد فى الآية ۱۱۶ من سورة النحل حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُون» «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث تستعرض واقعة المباهلة المعروفة والتى تسـتبطن فى طيّاتها الكلام عن قسم خاص من أقسام الكذب، أى نسبة الكذب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ويترتّب على ذلك لعنـة اللّه على الكاذبين حيث تقول الآيـة: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَـنَا وَأَنْفُسَـكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۴ (المباهلة) فى الأصل من مادّة بهل (على وزن سهل) بمعنى الترك للشيء، وقد ورد فى التفاسير أنّ المباهلة تعنى فى المصطلح الدينى أن تجتمع فئتـان كـل واحـد منهما على مـذهب معيّن فيتحاجون وأخيراً يتلاعنون ويـدعون اللّه تعالى بأن ينزل لعنته على الطرف الآخر الكاذب، وأى فئة تحقّق فى موردها اللّعن ونزل عليها العذاب فهذا دليل على حقّانيّة الطرف الآخر، وقد حدث ذلك فى صدر الإسلام بين نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله ونصارى نجران، فعنـد ما تقرّرت المباهلـة بينهما جاء النبى صـلى الله عليه و آله ومعه الإمام على وفاطمة والحسن والحسـين عليهم السلام إلى ساحة المباهلة وكانت تبدوا على سيماهم المباركة آثار إستجابة الدعاء، فتراجع النصارى عن إدّعائهم وصالحوا النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله على أمور مـذكورة بالتفصيل فى التفاسير الشـريفة ذيل هـذه الآية ولذلك لا حاجـة إلى الإطالـة والتفصـيل. والمراد من قوله: «فَنَجْعَـلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»، لبيان عظمـة الكـذب وأنّه يسـتحق نزول اللّعنـة على صاحبه. والآية أعلاه والتى إسـتعرضت تأكيدات قرآنية مهمّة بالنسبة إلى قبح الكذب وآثاره المشؤمة وعواقبه الوخيمة توضّح جيداً أنّ هـذا الـذنب إلى أى درجـة من القبـح والشـر فى دائرة المفاهيم القرآنيـة، فينبغى على المؤمنين فى المجتمع الإسـلامى أن يعيشوا حالة التنفّر والكراهية لهذا النوع من السلوك الخاطىء والخلق الذميم ويتحرّكوا على مستوى تطهير مجتمعهم من شر هذه الخطيئة.

الكذب فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى الروايـات الإسـلامية تعـابير مثيرة ومدهشـة تتحـدث عن قبـح الكـذب وشـناعته وفيمـا يلى نماذج منها: ۱- يسـتفاد من بعض الروايات أنّ الكذب مفتاح الذنوب، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السـلام قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلشَّرِّ اقْفالًا وَجَعَلَ مَفاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفـالِ الشَّرابَ، وَالْكِـذْبُ شَـرٌّ مِنَ الشَّرابِ» «۱». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۵ ۲- وورد فى حـديث آخر عن الإمـام الحسـن العسكرى عليه السلام قوله: «جُعِلَتِ الْخَبائِثُ كُلُّها فِي بَيْتٍ وَجُعِلَ مِفْتاحُهُ الْكِذْبَ» «۱». والعلّة فى ذلك جليّة، وهى أنّ الإنسان الكاذب عندما يجد نفسه فى معرض الفضيحة فأنّه يتحرك فى عمليّة التغطية على نقائصه ومعايبه من موقع الكذب والخداع، وبعبارة اخرى: إنّ الكذب يبيح له إرتكاب أنواع الذنوب من دون أن يخاف الفضـيحة، فى حين أنّ الإنسان الصادق سـيجد نفسه مضطراً إلى ترك سائر الذنوب لأنّ الصدق لا يسوغ له إرتكاب الذنب، والخوف من الفضيحة بسبب الصدق يدعوه إلى ترك الذنوب. وكما سبق وأن ذكرنا الحديث المعروف عن الرجل الذى جاء إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وهو ملّوث بأنواع الذنوب وطلب منه النبى صلى الله عليه و آله أن يترك الكـذب فقط فقبل منه ذلك، وكان هذا سـبباً فى أن يترك جميع الذنوب «۲». ۳- ويستفاد من الأحاديث الاخرى أنّ الكـذب لا ينسـجم اطلاقاً مع الإيمان كما نقرأ فى الحديث الشـريف: «سُـئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صـلى الله عليه و آله يَكُونُ الْمُؤمِنُ جُباناً؟ قالَ: نَعَمْ؛ قَيـلَ وَيَكُونُ بَخِيلًـا؟ قـالَ نَعم، قِيلَ يَكُونُ كَـذاباً قالَ: لَا»». ونفس هـذا المضـمون ورد بصورة اخرى عن أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث يقول: «لا يَجِـدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمانِ حَتّى يَتْرُكَ الْكِذْبَ هَزْلَهُ وَجِدَّهُ» «۴». ولكن لماذا لا ينسـجم الكذب مع الإيمان؟ لأنّ الكذب

إمّا أن يكون لغرض تحصيل الإنسان لمنفعة معيّنة أو للخلاص من مشكلة وأزمة، فلو كان إيمان الإنسان قوياً ومستحكماً فى القلب فأنّه يرى أنّ الخير والشر كلاهما بيد اللّه تعالى وهو الذى بأمكانه حلّ مشكلاته وإنقاذه من الازمات التى يمر بها فى مواجهة تحدّيات الواقع والحياة وهو الذى يدفع عن الإنسان أنواع البلايا والمخاطر، فلو أنّ الإنسان تمسك بغصن من أغصان التوحيد الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٩۶ الأفعالى واعتقد بذلك بصدق فلا يجد نفسه بحاجة إلى التمسّك بذيل الكذب حينئذٍ. ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «وَشَرُّ الْقُولِ الْكِذْبُ» «١» ، لأنّ آثاره السلبية والمدّمرة أشد من كل ذنب آخر. ۵- ونقرأ أيضاً فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام حيث يقرّر أنّ الكذب من أعظم الخطايا ويقول: «أَعْظَمُ الْخِطايا عِنْدَ اللَّهِ الْلِسانُ الْكَذُوبِ وِشَرُّ النَّدامَةِ نَدامَةُ يَوْمِ الْقِيامَةِ» «٢». ۶- وورد فى حديث آخر أنّ الكذب مصدر الفجور ومنبع الفحشاء وسبب الدخول فى النار كما فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث يقول: «إِيَّاكُم وَالكِذبَ فإنَّ الكِذبَ يَهدِى إِلَى الفُجُورِ وَإنَّ الفُجُورَ يَهدِى إِلَى النّارِ» «٣». ٧- إنّ الكذب لا يتناغم ولا ينسجم مع العقل كما ورد هذا المضمون فى الحديث الشريف عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إنَّ العاقِلَ لايَكذِبُ وَإن كانَ فَيهِ هَواهُ» «۴». ٨- إنّ الكذب يبعد ملائكة الرحمة عن هذا الإنسان الكاذب ففى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا كَذِبَ العَبدُ تَباعَدَ المَلَكُ مِنهُ مَسيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتنِ ما جاءَ بِهِ» «۵». لأنّ الإنسان إذا تحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الكذب، فإنّه يتظاهر فى نفس الحال بمظهر الصدق فى حين أنّ باطنه يختلف عن ذلك، وهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن نوع من أنواع النفاق، ولذلك كان الكذب من جملة الأعمال الشائعة لدى المنافقين. ١٠- إن الكاذب يخسر اعتماد الناس وثقتهم به كما نقرأ ذلك فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَنْ عُرِفَ بِالكِذبِ قَلَّتْ الثِّقَةُ بِهِ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٩٧ والنقطة المقابلة لذلك وردت أيضاً فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ تَجَنَّبَ الكِذبَ صَدَّقَتْ أَقوالُهُ» «١». ١١- ونختم هذا البحث الطويل بحديث آخر من الأحاديث الحكيمة لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يحذّر الناس من الصداقة والتعامل مع الكاذبين ويقول: «وَإِيَّاكَ وَمُصادَقَةَ الكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرابِ يُقَرِّبُ عَلَيكَ البَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيكَ القَرِيبَ» «٢». ويستفاد من الروايات أعلاه أنّ الكذب منبع الذنوب والمعاصى المختلفة وعنصر اهتزاز الإيمان باللّه والثقة بين الناس ويعتبر أشنع أقسام الكلام وفرع من فروع النفاق ويفسد العلاقة بين أفراد المجتمع ويعمل على هدم إتّحادهم ومروءتهم وقلّما نجد مثل هذه الآثار الذميمة لذنب آخر من الذنوب الفردية والاجتماعية. بقيت هنا نقاط مهمّة نذكرها بشكل مختصر:

الآثار السلبية للكذب:

بالرغم من أنّ الآيات والروايات المذكوره آنفاً قد درست هذه المسألة بشكل مفصّل وكشفت الستار عن نقاط مهمّة فيها، ولكن أهميّة هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أكثر وأعمق. وأول: أثر من الآثار المضرّة والسلبية للكذب هى الفضيحة وذهاب ماء الوجه وانهيار المكانة الاجتماعية للشخص الكاذب وسلب الثقة منه لدى الناس. وكما يقول المثل المعروف: (الكاذب قرين النسيان) فإنّ التجارب تثبت أنّ الكلام الكاذب لا يمكن أن يستمر لمدّة طويلة فى حجبه الحقيقة عن الناس، وقد تطوى المسألة فى زاوية النسيان إذا لم تكن ذات أهميّة، ولكن إذا كانت المسألة مهمّة فإنّ الحقيقة سوف الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٩٨ تتجلّى فى دائرة ويفتضح الكاذب حينئذٍ لا من أجل أنّ الكاذب ينسى ما قاله سابقاً، بل من أجل أنّ الكذب بنفسه لا يتأطر بأطار الحافظة، لأنّ الحادثة الواقعة فى الخارج ترتبط بسلسلة من الحوادث الاخرى ومن موقع العلّة والمعلول وترتبط بما حولها من الحوادث بروابط عديدة وحتميّة، فالشخص الذى يصوغ حادثة مختلقة يجد نفسه مضطراً إلى أن يربطها بما قبلها وبعدها من ظروف الزمان والمكان والأشخاص والحوادث المحيطة بها وكل ذلك يجب أن يختلقة بما ينسجم مع هذه الحالة الكاذبة، وبما أنّ هذه الروابط ليس لها حد وحصر، وعلى فرض أنّه استطاع أن يختلق عدّة حوادث وروابط منسجمة مع بعضها إلّا أنّه قد يترك ثغرات فى كلامه حيث يتّضح من ذلك كذبه مثل ما رأينا من قصّة يوسف عليه السلام حيث جاء الأُخوة بقميصه الدامى إلى أبيهم واختلقوا قصّة أكل الذئب له،

ولكنّهم نسوا أن يمزقوا القميص من عدّة أماكن، وهكذا إتّضح كذبهم من بقاء القميص سالماً، أو مثل زوجة عزيز مصر عندما إدّعت كذباً بأنّ يوسف كان يقصد بها سوء ولكنّها نسيت أنّ قميص يوسف عليه السلام قد قُدَّ من خلفه، وهذا دليل واضح على كذبها وأنّها هى التى كانت تلحق يوسف عليه السلام لا العكس. وفى هذا العصر فإنّ المحققين فى عالم الجريمة يستطيعون بكل سهولة ومن خلال الأسئلة المتعددة عن الحادثة ولوازمها وخصوصياتها أن يكشفوا صدق أو كذب المدّعى بحيث نادراً ما يفلت منهم كاذب دون أن يفتضح، أجل فإنّ الكاذب ليست له حافظة قويّة، وسوف يفتضح سريعاً على أيّة حال. الثانى: من النتائج السلبية للكذب هو أنّه يجر الإنسان إلى أن يكذب مرّات عديدة أو يرتكب ذنوباً اخرى للتغطية على كذبته الاولى أو يرتكب حماقات خطيرة لهذا الغرض. الثالث: من مضرّات الكذب هو أنّه يبيح للشخص الكاذب أن يغطى على خطيئته وإثمه ولو بشكل مؤقت ويتستر على سلوكياته المنحرفة فى حين أنّه لو كان يتحرّك من موقع الصدق فإنّه يجد نفسه مضطراً إلى ترك هذه الأعمال القبيحة. الرابع: من مضرّات الكذب هو أنّه يدفع بصاحبه إلى أن يسلك فى خط النفاق ويصبح من الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۹ زمرة المنافقين، لأنّ الكذب فرع من فروع النفاق، والكاذب هو الذى يظهر غيرما يبطن ويتكلم بخلاف الواقع وبخلاف ما يعلمه فى نفسه، فهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن سوف يسرى بالتدريج إلى سائر أعماله وسلوكياته حتى يمسى منافقاً كاملًا. وقد ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الكذب يؤدى إلى النفاق». الخامس: من مضرات الكذب هو أنّه لو كان الشخص يتمتع بلياقات كثيرة وطاقات ايجابية يمكنه إستخدامها فى حركة التفاعل الإجتماعى فأنّه لو كان كاذباً فى هذا المجال فسوف لا يستطيع الناس الإستفادة من لياقاته وطاقاته الإيجابيّة لأنهم سوف يتعاملون معه من موقع الشك والترديد فى سلوكياته وكلماته. ولهذا السبب نجد أنّ الروايات الإسلامية إعتبرت الكاذب مثل الميّت حيث ورد: «الكَذَّابُ والمَيِّتُ سَواءٌ فإنَّ فَضِيلَةَ الحَيِّ عَلَى المَيِّتِ الثِّقَةُ بِهِ، فَإذا لَمْ يُوثَقْ بَكلامِهِ فَقَد بَطَلَتْ حَياتُهُ» «۱». السادس: من النتائج السلبية المترتبة على الكذب هو أنّ الإنسان وبالإستفادة من أداة الكذب يمكنه أن يرتكب أعمالًا قبيحة اخرى، فالحسود والحاقد والبخيل كل منهم يجد فى الكذب وسيلة للتغطية على أعمالهم وسلوكياتهم وهكذا الحال فى سائر الذنوب الاخرى، مثلًا عند ما يأتى إليه شخص ويطلب منه قرضاً فأنّه يكذب عليه ويقول: لقد إقترضت الآن مبلغاً من المال وليس لدى ما أعطيك منه، أو عندما يطلب منه أن يصف شخصاً من الأشخاص فأنّه وبسبب الحسد لا يذكر منه سوى صفاته السلبيّة والحال أنّ ذلك الشخص هو إنسان شريف وثقة. السابع: هو ما نراه من الآثار المخربة فى دائرة العلوم والمعارف البشرية، فلو أنّ المحققين والمخترعين والعلماء تحرّكوا من موقع الكذب فى تحقيقاتهم واكتشافاتهم فانّ جميع الكتب والدراسات العلميّة سوف يلحقها فيروس الشك والترديد وبالتالى لا يضحى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۰ هناك إعتماد على تحقيقات ودراسات الآخرين فتتوقف حركة التطور الحضارى والعلمى فى المجتمع البشرى. وهناك نتائج سلبية ومضرات كثيرة اخرى تترتب على الكذب فى حركة الحياة الفردية. ومضافاً إلى هذه النتائج والآثار فى حركة الحياة للإنسان فانّ هناك مضرات معنوية تترتب على الكذب وردت الإشارة إليها فى الروايات الشريفة ومن ذلك: أنّ الملائكة تبتعد عن الإنسان كما قرأنا ذلك سابقاً فى الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال: «إذا كَذِبَ العَبدُ تَباعَدَ المَلَكُ مِنهُ مَسيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتنِ ما جاءَ بِهِ» «۱». والآخر إنّ الكاذب يحرم من صلاة الليل كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «انَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ فَيُحرَمُ بِها صَلاةَ اللَّيلِ، فَاذا حُرِمَ صَلاةُ اللَّيلِ حُرِمَ بِها الرِّزْقُ» «۲». والثالث أنّ الكذب يؤدّى إلى عدم قبول بعض العبادات، كما ورد فى الصوم فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «فَإذا صُمتُم فَاحفَظُوا أَلسِنَتَكُم عَنِ الكِذبِ وَغُضُّوا أَبصارَكُم» «۳». وهذا الحديث يدلّ على أنّ مثل هذه الأعمال المنافية للأخلاق تقلّل من قيمة الصوم. والآخر أنّ الكذب يتسبب فى قطع البركات الإلهية على الإنسان كما نقرأ ذلك فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إذا كَذِبَ الولاةُ حُبِسَ المَطرُ» «۴». وقد وردت بعض الآثار السلبية للكذب فى الروايات والتى لها بعد معنوى مضافاً إلى البعد الاجتماعى والظاهرى، ومن ذلك ما يستفاد من الروايات المتعددة من أنّ الكذب يتسبب فى حرمان الإنسان من الرزق ويؤدّى به إلى الوقوع فى هوّة الفقر والمسكنة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۱ ففى الحديث الشريف

عن أميرالمؤمنين قال: «إعتِيادُ الكِذبِ يُورثُ الفَقرَ» «۱». وفى حديث آخر عن رسول اللّه أنّه قال: «الكِذْبُ يُنقِّصُ الرِّزقَ» «۲». وهذا النقصان فى الرزق يمكن أن يكون له نتائج وخيمة فى دائرة الرزق المعنوى أو فى العلاقات الاجتماعية، لأنّ الكذب يسلب اعتماد الناس وثقتهم من هذا الشخص الكاذب، وبذلك سوف تتحدّد فعّاليته الاقتصادية ويتراجع نشاطه الاقتصادى وبالتالى يؤدّى إلى نقصان رزقه المادى أيضاً.

دوافع الكذب:

إنّ الكذب كما هو فى سائر الصفات الرذيلة له أسباب ودوافع مختلفة وأهمّها: ۱- ضعف الإيمان والعقيدة، لأنّه لو كان الكاذب عالماً بأنّ اللّه تعالى قادر رحيم وعالم بأمره فإنّه لا يجد فى نفسه حاجة إلى الكذب فى سبيل تحصيل المال أو نيل الجاه والمقام، ولا يرى أنّ توفيقه فى حركة الحياة مرتبط بالكذب ولا يخاف من الفقر ولا من تفرق الناس من حوله وزوال موقعيته الاجتماعية وقدرته على الكسب والرزق بل يرى ذلك مرتبط باللّه تعالى فلا يحتاج إلى الكذب فى نيل تحصيلها ولذلك ورد فى الرواية الشريفة عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «جانِبُوا الكِذْبَ فإنَّ الكِذْبَ مُجانِبُ الإيمانَ» «۳». ۲- والآخر من دوافع الكذب هو ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من ضعف الشخصية والحقارة يضطرون إلى التستر على ضعفهم ودناءتهم من خلال استخدام الكذب، وقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا يَكذِبُ الكَاذِبُ إلّا مِنْ مَهانَةٍ نَفسِهِ عَلَيهِ» «۴». ۳- ومن دوافع الكذب أيضاً حالات الحسد والبخل والتكبر والغرور والعداوة بالنسبة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۲ إلى الآخرين حيث يدفعه ذلك إلى إتهامهم بما ليس فيهم أو التحدّث عنهم من موقع الكذب، وما دامت هذه الحالات السلبية تعتلج فى ذات الإنسان وباطنه فإنّه سوف لا يجد خلاصاً من الكذب. ولهذا نرى أنّ المنافقين يتوسلون بحبل الكذب للتغطية على واقعهم السيء كما تقدّمت الإشارة إليه سابقاً. ۴- وممّا يورث الكذب لدى البعض هو الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والتلّوث بأنواع الذنوب والانحراف عن خط الحق والفطرة بحيث يصل به الحال إلى أن يقول: إننى إذا لم أكذب فسوف لا أستطيع التعامل مع الآخرين ونيل الموفقية فى حركة الحياة الاجتماعية من الكسب والتجارة وأمثال ذلك. ۵- الدوافع الاخرى لشيوع الكذب هو العلاقة الشديدة بالدنيا وحفظ المقامات الاجتماعية وحتّى أنّه قد يتوسل إلى ذلك بالكذب على اللّه ورسوله. ونقرأ فى الخطبة ۱۴۷ من نهج البلاغة قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «وإنّه سَيأتِى عَلَيكُم بَعدِى زَمانٌ لَيسَ فِيهِ شَيءٌ أَخفَى وَلا أَظهَرَ مِنَ الباطِلِ وَلا أَكثَرَ مِنَ الكِذبِ عَلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ».

طرق علاج الكذب:

لابدّ لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية وقطع جذورها من واقع النفس من سلوك الطريق المستخدم لعلاج سائر الرذائل الأخلاقية الاخرى، أى التعرّف فى البداية على جذورها ودوافعها، فما لم يستطع الإنسان من إقتلاع جذور هذه الرذيلة من نفسه فإنّ هذه الشجرة الخبيثة سوف تبقى وتشتد فى المستقبل، فلو كان الدافع للكذب هو ضعف الإيمان والاعتقاد بالنسبة إلى التوحيد الأفعالى، فيجب عليه تقوية دعائم الإيمان فى نفسه وباطنه وليعلم أنّ اللّه تعالى قادر على كلّ شيء وأنّ مفاتيح الرزق والموفقية والعزّة والكرامة بيده فقط، ولذلك يتسنى له جبران عناصر الضعف فى دائرة الإيمان وبالتالى يصدّه ذلك عن الكذب، وإذا كان الدافع لذلك هو الحسد والبخل والتكبر والغرور وأمثال ذلك من الحالات الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۳ السلبية فى دائرة الأخلاق، فيجب عليه السعى لعلاجها، وليعلم أنّه ما لم يقطع عن نفسه جذور هذه الحالات السلبية ويداوى هذه الأمراض الأخلاقية فإنّه لا يتسنى له أن يعيش الصدق والكرامة والشرف فى حياته الفردية والاجتماعية. ومن جانب آخر يجب عليه التفكّر فى الآثار السيئة والأضرار الوخيمة للكذب والتى تسبب له الفضيحة فى الدنيا والآخرة، ومن المعلوم أنّ كل شخص يتفكّر ويتدبّر جيداً فيما ذكرناه سابقاً من هذه الأضرار للكذب وخاصة ما ورد فى الروايات الشريفة فى هذا الباب فإنّ ذلك سيكون رادعاً قوياً له عن سلوك هذا الطريق المنحرف. إنّ لقادة

المجتمع وكبار الأشخاص فی الاسرة دوراً مهمّاً فی دفع الناس والأفراد نحو سلوك طريق الصدق، لأنّه لو رأى الناس أو أفراد الاسرة أنّ كبيرهم وقائدهم لا يتحرّك فی تعامله مع الآخرين إلّامن موقع الصدق، فإنّهم سوف يتحرّكون كذلك فی تعاملهم وسلوكهم الاجتماعی، بخلاف ما لو رأوا أنّ الكبار يتعاملون مع الآخرين بالكذب والدجل والخداع، فإنّ أفراد المجتمع والاسرة سرعان ما يتلوثوا بهذه الصفة الرذيلة. كما نقرأ فی الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ضمن بيانه عدم تلقين الناس الكذب حيث يقول: «لا تُلَقِّنُوا النّاسَ فَيَكذِبُونَ فَإنَّ بَنِی يَعقُوبَ لَمْ يَعلَمُوا إنَّ الذِّئبَ يَأكُلُ الإنسانَ فَلَمّا لَقَّنَهُم إنِّی أَخافُ أنْ يَأكُلَهُ الذِّئبُ، قَالُوا أَكَلَهُ الذِّئبُ» «۱». أجل، فإنّ ترك الأولى هذا قد صار ذريعة بيد أبناء يعقوب ليتحرّكوا من موقع الكذب فی مواجتهم للمشكلة. وأحد الطرق المؤثرة فی علاج الكذب هوإيجاد قوّة الشخصية لدى الأفراد لأنّه كما سبقت الإشارة إليه أنّ أحد العوامل المهمّة للكذب هو الشعور بالحقارة وضعف الشخصية، فالكاذب يريد جبران هذا النقص من خلال الكذب، فلو أنّه كان يجد الثقة فی نفسه ويعيش حالة قوة الشخصية ويرى أنّه قادر على كسب المقامات العالية فی المجتمع بما لديه من قابليات وملكات إيجابية فلا يجد فی نفسه حاجة إلى اختلاق شخصية كاذبة عن نفسه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۴ والظهور إلى الآخرين بغير واقعه. وخاصة إذا التفت المربّون والمصلحون إلى هذه الحقيقة فی دائرة تربية الأفراد على الصدق، وهی أنّ الصادق فی كلامه سيكون فی مرتبة المقرّبين والصديقين عند اللّه تعالى، يحشر مع الإنبياء والشهداء يوم القيامة، فبديهی أنّ ذلك سيكون مشجعاً وحافزاً على إقبال الناس نحو الصدق، ويقول القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً» «۱». والجدير بالذكر أن توغّل حالة الكذب الذميمة فی باطن الإنسان كما هو الحال فی الصفات الذميمة الاخرى يبتدأ من صغائر الامور وبالتدريج تجرّه إلى ما هو أخطر وأعظم كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إتَّقُوا الكِذبَ فِی صَغِيرِ وَكَبِيرِ فِی كُلِّ جِدٍّ وَهَزَلٍ فَإنَّ الرَّجُلَ إذا كَذِبَ فِی صَغِيرِ إجتَرأَ عَلَى الكَبِيرِ» «۲».

إستثناءات الكذب:

وبالرغم من أنّ الكذب من أهمّ الذنوب وأخطرها بحال الإنسان على المستوى المادی والمعنوی، والفردی والاجتماعی، ولكن مع ذلك هناك موارد عديدة وردت فی الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء وعلماء الأخلاق على شكل إستثناء من قبح الكذب. وهذه الموارد عبارة عن: ۱- الكذب لإصلاح ذات البين. ۲- الكذب لخداع العدو وفی ميادين القتال. ۳- الكذب فی مقام التقية. ۴- لدفع الظالمين. ۵- الكذب فی جميع الموارد التی يجد الإنسان نفسه وناموسه فی خطر محدق ولا نجاة له إلّابالتوسل بالكذب. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۵ ففی جميع هذه الموارد يمكننا استخلاص قاعدة كلية، وهی أنّه إذا كانت الأهداف الأهم فی خطر ولا يجد الإنسان لدفع هذا الخطر إلّابواسطة الكذب فيجوز له ذلك، وبعبارة اخرى: إنّ جميع هذه الموارد مشمولة لقاعدة الأهم والمهم، وعلى سبيل المثال فلو ابتلى الإنسان بجماعة متعصبة وجاهلة ومتوحشة وسألوه عن مذهبه، فلو أنّه قال الحقيقة لهم فأنّهم سوف يسفكون دمه فوراً، فالعقل والشرع هنا لا يبيحان له أن يصدقهم فی جوابه بل يجوز له الكذب حينئذٍ لإنقاذ نفسه من شرّهم، أو فی الموارد التی يكون هناك اختلاف شديد بين شخصين ويجد الإنسان لحلّ هذا الاختلاف والمشكلة العالقة بينهما طريقاً إلى ذلك بالاستعانة بالكذب (كأن يقول لأحدهما أنّ الشخص الفلانی يحبّك ويذكرك بالخير دائماً فی المجالس) ممّا يثير فی نفس الطرف الآخر أجواء المحبّة والصفاء والصلح بينهما، وهكذا فی أمثال هذه الأهداف المهمّة والغايات الخيّرة، لا أنّ الإنسان وبدافع من منافعه الشخصية والمصالح الجزئية يستخدم الكذب، فهذا الاستثناء لقبح الكذب تدخل فی دائرة الضرورة ولا يصح أن تكون مسوّغاً وذريعة بيد الأفراد لاستخدام أداة الكذب فی كل مورد من الموارد الجزئية. وفی الحقيقة فإنّ اباحة الكذب فی هذه الموارد الضرورية هی من قبيل حلّية (أكل الميتة) فی المواقع الضرورية حيث يجب التناول منها بمقدار الضرورة ولا يسلك الإنسان هذا الطريق إلّافی مواقع الضرورة. والدليل على هذه الاستثناءات مضافاً إلى القاعدة العقلية المذكورة أعلاه (قاعدة الأهم والمهم) هو الروايات المتعددة

المذکورة فی المصادر الإسلامیة عن المعصومین علیهم السلام: ۱- ففی حدیث معروف عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «لَیسَ شَیءٌ مِما حَرَّمَ اللَّهُ إلّاوَقَد أَحَلَّهُ لِمَنِ اضطُرَّ إلَیهِ» «۱». ۲- وقد ورد عن الإمام علی علیه السلام عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «إحلِفْ بِاللَّهِ کاذِباً ونَجِّ أَخاکَ مِنَ القَتلِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۶ ۳- وفی حدیث عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «کُلُّ الکِذبِ یَکتُبُ عَلَی إبنِ آدَمَ إلّا رَجُلٌ کَذَبَ بَینَ رَجُلَینِ یُصلِحُ بَینَهُما» «۱». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «الکِذبُ مَذمُومٌ إلّافِی أَمرَینِ دَفعُ شَرِّ الظَّلَمةِ وَإصلاحُ ذاتِ البَینِ» «۲». ۵- وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «کُلُّ الکِذْبِ مَکتُوبٌ کِذباً لامَحالَةَ إلّا أنْ یَکذِبَ الرَّجُلُ فِی الحَربِ فَإنَّ الحَربَ خُدعَةٌ أو یَکُونَ بَینَ رَجُلَینِ شَحناءَ فَیُصلِحُ بَینَهُما أو یُحَدِّثُ إمرأَتَهُ یِرضِیها» «۳». والمراد من الجملة الأخیرة لیس هو أنّ الإنسان متی ما أراد الکذب علی زوجته جاز له ذلک، بل ناظرة إلی موارد تکون الزوجة لها توقّعات کثیرة وغیر معقولة من زوجها أو أنّ إمکانات الزوج لا تستوعب کلّ هذه التوقّعات ولذلک یتحرّک الزوج فی تعامله معها من موقع الکذب والوعد بتحقیق مطالبها لیسکت اعتراضها ولیهدّیء من ثورتها ویحتمل أن تنسی ذلک فیما بعد وتنتهی المنازعة فیما بینهما. ویصدق هذا المعنی أیضاً علی توقّعات الزوج غیر المنطقیة کما وردت الإشارة إلی ذلک فی بعض الروایات أیضاً.

طریق الفرار من الکذب (التوریة):

التوریة (علی وزن توصیة) تقال للکلام الذی یثیر فی نفس المستمع معنیً آخر غیر ما یقصده القائل، أو بتعبیر آخر: الکلام الذی یحتمل وجهین، ویتعلق به الأشخاص الذین یجدون فی أنفسهم حرجاً من الکذب، فمن جهة لا یرتکبون ذنب الکذب، ومن جهة اخری لا یخبرون السامع بسرهم. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۷ والأمثلة التالیة توضّح هذا المعنی بصورة کاملة: ۱- إذا سأل الإنسان: هل إرتکبت المعصیة الفلانیة، فیقول فی مقام الجواب: استغفر اللَّه، (فالمستمع یفهم من هذه العبارة النفی فی حین أنّ مراد المتکلّم هو الاستغفار من إرتکابه لذلک العمل). ۲- وقد یسأل شخص من آخر: هل أنّ فلاناً قد استغابنی وتکلّم عنّی بسوء أمامک؟ فیجیب: وهل أنّ هذا ممکن ومعقول (فالمستمع یفهم من هذا الکلام النفی فی حین أنّ مقصود المتکلّم هو الاستفهام لا غیر). ۳- إذا جاء شخص إلی باب دار شخص آخر وقال: هل أنّ فلاناً موجود فی البیت؟ فیقول الآخر فی مقام الجواب مشیراً إلی مکان معیّن: کلا لیس هنا (فالمستمع یتصوّر أنّه غیر موجود فی البیت فی حین أنّ مراد القائل أنّه غیر موجود فی ذلک المکان بالخصوص). ۴- وقد سئل من أحد العلماء عن الخلیفة الحق بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من هو؟ ولم یکن ذلک العالم فی حالة تسمح له بالجواب بصورة صحیحة وشفافة فقال فی جوابه: (من بنته فی بیته). فتصوّر المستمع أنّ المراد هو أبا بکر الذی کانت إبنته عائشة فی بیت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی حین أنّ مراد القائل هو أنّه إبنته أی إبنة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فاطمة فی بیته، أی بیت علی بن أبی طالب علیه السلام. ۵- ونقرأ فی قصة محادثة سعید بن جبیر مع الحجّاج عندما سأله الحجاج عدّة أسئلة کذریعة لقتله فکان ممّا سأله: کیف تجدنی فی نظرک؟ فقال: أنت عادل (والعادل فی نظر العرب ترد فی معنیین) أحدهما بمعنی العدالة والآخر بمعنی العادل عن الحق، أی الکافر أو الذی یری عدیلًا أو شریکاً للَّه‌تعالی کما ورد ذلک فی القرآن الکریم: «ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ» «۱». أی یجعلون له عدیلًا وشریکاً. وممّا تقدّم آنفاً یتّضح أنّ التوریة لیست من الکذب، لأنّ القائل لیس فی نیّته سوی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۸ الصدق وإرادة الجانب الصادق من کلماته، رغم أنّ المستمع یتصوّر المعنی الآخر من ذلک الکلام، ومن الواضح أنّ اشتباه المستمع فی فهم معنی کلام القائل لا ربط له بالقائل نفسه. وهنا یتّضح أیضاً أنّه فی الموارد التی یجد الإنسان ضرورة للاستفادة من الکذب إذا یمکن من التوریة وجب علیه استخدامها للتخلّص من الوقوع فی الکذب، وعلی هذا الأساس فإنّ الکذب لا یکون مباحاً فی موقع الضرورة إلّافیما لو کانت أبواب التوریة موصدة أیضاً، والاصطلاح العلمی أنّه لا تکون لدیه مندوحة. ومن هنا یتّضح أیضاً خطأ ما ذهب إلیه الغزالی من عدّه التوریة من مصادیق الکذب، ولکنّه قال بأنّ قبحها وفسادها أدقّ من مصادیق الکذب الاخری،

إلّاأن یکون مراده من التوریـة أمر آخر بحیث تعـدّ من مصادیق الکذب واقعاً. وعلی أیّة حال فإنّ قبح الکذب وفساده إلی درجة کبیرة بحیث أنّ الإنسان لابدّ له من إجتنابه بالمقدار الممکن حتّی لو تمکّن إجتنابه عن طریق التوریة. ونلاحظ فی کلمات الأنبیاء الواردة فی القرآن الکریم والروایات الشـریفة أنّهم قد یتخلّصون من الکذب بالتوریة فی بعض الحالات من قبیل ما نراه من محاججة إبراهیم علیه السـلام لقومه من عَبَّدْة الأوثان عندما سألوه عن الشخص الذی إرتکب عملیة تحطیم الأوثان والأصنام فقال فی مقام الجواب: «بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ کَانُوا یَنطِقُونَ» «۱». فرغم أنّ السـامع لهـذا الکلام یمکن أن یفهم منه أنّ إبراهیم علیه السـلام نسب تحطیم الأصنام إلی کبیرهم أی الصنم الکبیر ولکنّ جملة (إن کانوا ینطقون) جاءت بعنوان شرط للمراد من الکلام، أی أنّهم لو کانوا ینطقون فـإنّ هـذا الفعـل من فعـل کبیرهم. وکـذلک جملـة «إِنَّکُمْ لَسَارِقُونَ» التّی قالها عمال یوسف لأخوته، فمع ملاحظـة الآیات السابقـة قد ینعکس إلی الذهن أنّ هؤلاء الأخوة هم الذین سرقوا مکیال الملک فی حین أنّ مرادهم هو سرقة الأخوة لیوسف من أبیهم فی کنعان. وخلاصـة الکلام أنّ التوریـة والتکلّم بکلام یحتمل وجهین لیس من مصادیق الکـذب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۹ اطلاقاً رغم أنّ السامع قد یفهم منه شـیء آخر غیر ما یقصده المتکلّم وغیر ما یتطابق مع الواقع، ویکون مراد المتکلم صـحیحاً ومتطابقاً للواقع، وأمّا من یری فی معیـار الصـدق والکـذب هو ظـاهر الکلام لاـ المراد والمقصود القلبی للمتکلم فیمکن أن یعتبر التوریـة نوع من الکـذب الخفیف فی حین أنّها لیست کـذلک، فمعیار الصـدق والکـذب هو المراد الجـدّی للمتکلم الذی یتطابق مع محتوی ومضـمون العبارة. مثلًا قـد یسأل شـخص من آخر: هل أنّ هـذا اللباس قد أهداه لک الشـخص الفلانی؟ فی حین أنّ المخاطب قد لا یکون راغباً فی نفی هـذا المطلـب بصـراحة فیقـول فی جـوابه من موقـع التوریـة: أطـال اللّه عمره، فیحسب السـامع من هـذا الکلام أنّ المتکلم قـد أجـاب بالإیجاب فی حین أنّ المتکلم لم یکن یقصد ذلک بل دعا إلی ذلک الشخص فقط. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۱۰

الوفاء بالعهد ونقض العهد

تنویه:

رأینا سابقاً أنّ أهم رأسـمال وأقوی دعامة فی حیاة المجتمع الانسانی هو الأعتماد المتبادل بین الأفراد، فکل شیء یؤدّی إلی تقویة هذا الإعتماد والثقـة المتبادلـة فانّ ذلک من شأنه أن یحقق للجمیع السـعادة والتطور الحضاری والإنسانی، وعلی العکس من ذلک فانّ کلّ شیء یفضـی إلی ارباک هـذا العنصـر المهم فأنّه یؤدّی إلی إنحطاط المجتمع وسـقوطه. ومن أهم الامور التی تعمل علی تقویـة دعائم الثقـة العامـة والخاصـة بین الأفراد هو (الوفاء بالعهـد والمیثاق) الـذی یعـد من الفضائل الأخلاقیـة المهمـة فی حرکة الإنسان التکاملیة، وبعکس ذلـک (نقض العهـد) الـذی یعـد من أسوأ الخصـال والرذائـل الأخلاقیـة. إنّ لزوم الوفـاء بالعهـد یعـدّ رکناً من أرکان الفطرة الإنسانیـة السـلیمة، وبتعبیر آخر إنّ هـذا المفهوم هو من الأمـور الفطریـة غیر القابلـة للإنکـار. والفطرة هی من الامور التی یـدرکها کل إنسان ویقبلها کل شـخص بـدون الحاجة إلی دلیل وبرهان، من قبیل حسن العدل وقبح الظلم وکذلک أهمیة الوفاء بالعهد وقبح نقض العهد حیث تعتبر من أوضح الامور الفطریة لدی الناس، وکل إنسان عندما یراجع وجدانه یری صحة هذه المفاهیم ویسلم بها من موقع القبول والإذعان الوجـدانی، ولهذا السـبب فانّ هذه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۱۲ المفاهیم یقبل بها کل قوم من الأقوام البشـریة سواءاً کانوا علی دین معین ومذهب سـماوی أولم یکونوا کذلک، فانّ الوفاء بالعهد مطلوب عند جمیع الأمم والشـعوب حتی أنّ الذی یتحرک علی مسـتوی نقض العهد یسـعی إلی ذریعة وحجة لتبریر هذا التصـرف حتی لا یتهم بنقض العهد ولا یزول إعتباره وشخصیته بین الآخرین، لأنّه یعلم أنّ الناس لا ترضـی بنقض العهـد ولا تحب المرتکب لهـذا الفعل حیث لا تبقی قیمـة وإعتبار لـدیهم لمن یتهم بنقض عهـده ووعـده وسـیفقد بـذلک تأیید الناس وحبّهم وتعاونهم معه. وحتی فی الأقوام الجاهلیة نری أنّ الوفاء بالعهد والمیثاق یعدّ من الوظـائف والواجبـات الحتمیـة للأفراد حیث نجـد سـعیهم الکبیر فی حفـظ عهودهم والتعامـل مع الآـخرین من موقع الوفـاء بالعهد

والميثاق، ونقرأ فى الآيات القرآنيـة والروايات الإسـلامية فى هـذا الباب تعابير قويـة وشديـدة تبين الوفاء بالعهـد وتـذم الذين ينقضون العهـد والميثـاق. وبهـذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته وضوحاً أكثر فى هـذا الباب: ۱- «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» «۱». ۲- «وَالَّذِينَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» «۲». ۳- «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» «۳». ۴- «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»» .۵- «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» «۵». ۶- «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۳ ۷- «وَمَا وَجَدْنَا لِاكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» «۱». ۸- «أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايُؤْمِنُونَ» «۲».

تفسير وإستنتاج:

«الآيـة الأولى» من الآيات محل البحث تتحدث عن الأساس والأصل لجميع أعمال الخير والصـلاح وتذكر ستة صفات وعناوين لذلك، الأول منها هو الإيمان باللَّه تعالى ويوم القيامة والملائكة والأنبياء والكتب السـماوية، ثم تأتى بعدها مسألة الأنفاق فى سبيل اللَّه وتشير أيضاً إلى إقامة الصلاة وأداء الزكاة، وتذكر فى الصفة الخامسة من هذه الصفات (الوفاء بالعهد) وفى الصفة السادسة تأتى أهمية الصبر والأستقامة فى مقابـل تحـدّيات الواقع الصـعبة والمشاكل التى تواجه الإنسان فى حركـة الحياة والصبر فى ميـدان القتال، وبالنسبـة إلى الوفاء بالعهـد تقول «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا». وهذا التعبير يوضّح، أنّ الوفاء بالعهد فى دائرة المفاهيم الإسـلامية والقرآنية مهم إلى درجة أنّه وقع رديفاً للإيمان باللَّه والصلاة والزكاة. ومع ملاحظة أنّ المادة الأصلية لهذه الكلمة (وفى هى أن يصل الشيء إلى حدُّ الكمال والتمام، فعندما يترجم الشخص عهده ووعده عملياً على أرض الواقع يقال له (وفى بعهده) أو (أوفى بعهده)، وعليه فإنّ الثلاثى المجرّد أو المزيد لهذه المفردة يأتيان بمعنى واحد. وكلمة (عهد) تأتى فى الأصل بمعنى (الحفظ) ولهذا فإنّها تقال لكل شيء لابدّ من حفظه والاهتمام به فيقال (عهـد) لذلك. والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم حث على وجوب الوفاء بالعهد فى هذه الآية بدون أى قيد وشـرط، وعليه فإنّه يشـمل جميع أشـكال العهـد مع اللَّه تعالى ومع الناس، سواءً كانوا مسـلمين أو غير مسـلمين، أى مادام الشـخص قد ارتبـط بعهـد وميثاق مع المسلمين، فيجب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۴ عليهم مراعاة عهـده والوفاء به. «الآية الثانية» تستعرض صفات المؤمنين الحقيقيين وتفتتـح السورة آياتها بالقول «قَد أَفلَحَ المُؤمِنُونَ» ثم تـذكر سـبع صـفات من الصـفات المهمّة والأساسـية للمؤمنين، وفى الصفة الخامسة والسادسة تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». وفى هذه الآية والتى وردت فى القرآن الكريم فى سورتين نجد أنّها أشارت إلى الأمانة والعهد بصورة مقترنة، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ الأمانات هى نوع من العهد والميثاق كما أنّ العهـد هو نوع من الأمانـة. والتعبير بكلمة (راعون) المأخوذة فى الأصل من (رعى) يتضـمّن مفهوماً أعمق من مفهوم الوفاء بالعهد، لأنّ الرعاية والمراعاة تأتى بمعنى المراقبة الكاملة من موقع المحافظة بحيث لا يصل أى مكروه أو ضـرر للشـيء، فالإنسان الذى قبل الأمانة أو ارتبط مع غيره بعهـد وميثاق يجب عليه مراعاته بحيث لا يصل أى ضـرر لهذه الأمانة والعهد. وطبعاً فإنّ الأمانة لها مفهوم واسع جدّاً وكـذلك العهـد أيضاً حيث سـتأتى الإشارة إلى ذلك لاحقاً. «الآيـة الثالثـة» تتحدّث عن مسألة لزوم الوفاء بالعهد بتعبير جديد وتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». وقد ذكر المفسّرون تفسيرات عديدة فى جملة «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». أحدها: ما ذكرنا آنفاً من أنّ الإنسان هو المسؤول، والعهـد مسؤول عنه، يعنى أنّه يسأل الإنسان عن وفائه بعهده. والآخر: أنّ نفس العهد يكون مسؤولًا، كما ورد فى عبـارة الموؤدة التى يسـأل عنهـا «إذا المَوؤُدةُ سُئِلتْ» وكـأنّه إشارة إلى الموجودات العاقلـة والحيـة التى يسأل منها، هل نالت حقّها ووفى الإنسـان لهـا أم لا-؟ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۵ وهـذا هو نوع من المجاز الـذى يستعمل للتأكيد. ولكن التفسـير الأول أقرب لسـياق الآية وأكثر إنسـجاماً معها. وضـمناً يجب الالتفات إلى أنّ سورة الاسـراء وردت فى بيان أهم الأحكام الإسلامية من الآية ۲۲ إلى ۳۹، من مسألة التوحيد إلى حق الوالدين إلى قتل النفس والزنا وأكل أموال اليتامى والوفاء بالعهد وحتى مسؤولية العين والاذن

والقلب، وهـذا يبيّن أنّ مسألة الوفاء بالعهد جاءت ضـمن إطار أهم الأحكام الإسـلامية. واللطيف أنّ هذه الأحكام ختمت بقوله تعالى: «ذَلِكَ مِما أَوحَى إِلَيكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكمَةِ». وفى «الآيـة الرابعـة» بعـد أن يـذم القرآن الكريم طائفـة من أهل الكتاب الذين لم يراعوا الأمانـة فى تعـاملهم تقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ». وهنا نجـد أنّ الوفاء بالعهـد وقع رديفاً للتقوى التى هى أفضل زاد السالك إلى اللّه تعالى وسـبب ورود الإنسان إلى الجنّـة والمعيار الأتم لشخصـية الإنسان ومقامه عند اللّه تعالى. وهذا التعبير يـدلّ على أنّ الوفاء بالعهد هو أحد الفروع المهمّة للتقوى، وتعبير الآية هنا هو من قبيل ذكر العام بعد ذكر الخاص. «الآية الخامسة» من الآيات مورد البحث تتحدّث عن ضـرورة احترام العهود من قبل المسـلمين تجاه المشركين وتأمرهم بالوفاء بعهودهم ما دام المشركون لم يتحرّكوا فى تعاملهم مع المسـلمين من موقع النقض لهذه العهود (رغم أنّ الصارف المقابل هم من الكفّار المشركين)، فتقول الآية: (بعد إعلان البراءة من المشـركين كافّة) «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلَى مُـدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِـبُّ الْمُتَّقِينَ». ونعلم أنّ مراسم الـبراءة من المشـركين وقعت فى السـنة التاسـعة للهجرة وبعـد فتـح مكّة الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۶ واسـتقرار الإسـلام فى ربوع الحجاز والجزيرة العربيـة حيث أمر النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله الإمام على عليه السـلام بقراءة الآيات الاولى من سورة براءة لمراسم الحج أمام جميع الناس والإعلان للمشـركين بأنّه بقيت لهم فرصـة أربعة أشـهر فأمّا أن يتركوا الشرك ويدخلوا فى الإسلام أو يمتنعوا من الدخول إلى المسجد الحرام، وبعد انقضاء الأشهر الأربعة عليهم فيما لو لم يتركوا الشـرك وعبادة الأوثان أن يسـتعدوا لمواجهـة المسـلمين عسـكرياً. ولكن مع هذا الحال فإنّ بعض المشـركين كانت تربطهم بالمسـلمين رابطـة العهـد والميثاق فأمر اللّه تعالى أن يحفظوا لهم عهودهم إلى انتهاء مدّتهم. وهنا يتبيّن من خلال إسـتثناء هذه الطائفـة إلى جانب ما ورد من التعبير الشديـد فى بدايـة سورة التوبة، يتبيّن من ذلك الأهميّة الكبيرة التى يوليها الإسـلام للوفاء بالعهد، ويتبيّن أيضاً ضـمن هذا الاسـتثناء أنّه عندما يلغى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عهده وميثاقه مع بعض الطوائف الاخرى فالسبب فى ذلك أنّهم كانوا قد بدأوا نقض العهد أولًا، وإلّا فلا دليل على اختلاف تعامل النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله معهم عن غيرهم. وفى ذلـك اليوم كـانت وظيفـة الإمام على عليه السـلام هى أن يعلن للناس فى مراسم الحـج أربع مواضـيع: ۱- إلغاء العهود مع المشـركين الذين سبق وأن نقضوا عهدهم مع المسلمين. ۲- منع المشركين من الاشتراك فى مراسم الحج للسنة القادمة. ۳- منع ورود المشركين إلى بيـت اللّه الحرام. ۴- منع الطواف فى حالـة التعرّى والتى كانت سائـدة فى ذلك الزمان. وعلى أيـة حال ونظراً إلى أنّ هـذه الواقعة كانت بعد فتح مكّة وأنّ المسـلمين كانوا قد سـيطروا على تلك المنطقة سـيطرة تامّة ولا تستطيع أى قدرة أن تقف فى مقابلهم إلّاأنّهم فى نفس الوقت احترموا عهودهم مع طائفـة من المشـركين، وبـذلك يتّضـح أنّ مسألة الوفاء بالعهد لا تقبل المساومة تحت أية ظروف «۱». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۷ والملفت للنظر أنّ مـدّة العهد الباقية لهذه الطائفة (قبيلة بنى خزيمة) عشـر سـنوات منذ صـلح الحديبيـة، وكان قـد بقى لديهم من هذا الزمان وهو عام الفتح سبع سـنين، حيث يجب على المسـلمين تحمّل وجودهم إلى نهاية هذه المـدّة الطويلة، فمع أنّ موقف الإسـلام الشديد تجاه مسألة الشـرك والوثنية إلّاأنّه مع ذلك أوجب على المسـلمين رعاية هذا الحق فى هذه المدّة الطويلة. «الآية السادسة» تخاطب جميع المسـلمين وتأمرهم بالوفاء بعهد اللّه وتقول: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْـدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا». أمّا المراد من عهد اللّه تعالى فى هذه الآية ما هو؟ فهناك اختلاف بين المفسّـرين، فمنهم من ذهب إلى أنّ معنـاه هو العهود التى يبرمهـا الناس مع اللّه تعالى، أو البيعـة مع رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد هو جميع العهود التى يبرمها الإنسان مع اللّه تعالى أو مع الناس أو النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، وعليه يكون لها مفهوم عام وأنّ اللّه تعالى أمر بـذلك، فهو نوع من عهد اللّه تعالى، أو يكون المراد العهود التى تبرم بين الأشـخاص فى ظل اسم اللّه تعالى كما يشـبه الإيمان القسم الـذى يورده الإنسان باسم اللّه مع الآخرين. وعلى كلّ حال فإنّ مفهوم الآيـة سواء كان عامّاً أو خاصّاً فإنّه يـدل على أهميـة الوفاء بالعهـد فى دائرة المفهوم القرآنى والإسـلامى. واللطيف أنّ القرآن الكريم بعد أن ذكر مسألة الوفاء بالعهـد والقسم فى هذه الآية فإنّه يتابع ذلك بالقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ»

«۱». ويستفاد من هذا التعبير أنّ عدم الالتزام باليمين والعهد من موقع الوفاء والانضباط هو نوع من الحماقة والسفه، وكذلك الحال فى الاستفادة من العهود لغرض الخيانة والخداع والفساد. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۸ ودليل ذلك واضح، لأنّه لو تزلزلت أركان الوفاء بالعهد واليمين فى المجتمع البشرى فإنّ ذلك من شأنه أن يثير الفوضى وعدم الثقة بالآخرين، وفى الواقع فإنّ الناقضين للعهود يضربون جذورهم بأيديهم، ولهذا فلا يوجد عاقل يرتكب مثل هذه الحماقة. ونظراً إلى أنّ بعض الأقوياء أو الفئات المتنفّذة فى المجتمع تبيح لنفسها أحياناً نقض العهد بذرائع واهية وتتحرّر من قيود القيم والتعهدات الفردية والاجتماعية لذلك يقول القرآن الكريم: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» وهو فى الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّه إذا كانت فئة من الناس أقوى وأكثر عدداً من فئة اخرى فلا ينبغى ذلك أن يكون مسوّغاً لنقض العهد من قبلهم، لأنّ ذلك سوف يتسبب فيما بعد بالحاق الضرر لهم، فالآخرون عندما تسنح لهم الفرصة ويكونون أقوياء فى المستقبل سوف يعاملوهم بنفس المعاملة. وهذه الآية لا تقرّر ضرورة الوفاء بالعهد فى الإطار الفردى فحسب، بل تتسع لتشمل البنود والمواثيق الجماعية والعالمية أيضاً كما تشير إلى ذلك هذه العبارة من الآية الشريفة: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ». وفى «الآية السابعة» يشير القرآن الكريم إلى سيرة الأقوام السالفة وعاقبتهم المؤلمة ويذكر بعض نقاط ضعفهم وانحرافهم، ومن ذلك يشير إلى أمرين مهمين فى دائرة السلوكيات السلبية الذميمة، يقول: «وَمَا وَجَدْنَا لِاَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ». وهذا العهد هو العهد العام الذى أخذه اللّه على الامم السابقة ولكنّهم نقضوه ولم يفوا به، ولكن ما هو ذلك العهد العام؟ هناك اختلاف وكلام بين المفسّرين فى هذا المجال، فذهب البعض إلى أنّ المراد منه العهد والميثاق الفطرى الذى قرّره اللّه تعالى فى واقع الفطرة لجميع الناس أن يتحرّكوا فى خط التوحيد والتقوى والاستقامة، مضافاً إلى أنّ النعم والمواهب الإلهية المعطاة للإنسان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۹ من العقل والعين والاذن وغير ذلك، فإنّ مفهومها أنّ الإنسان يستخدمها فى طريق الخير والصلاح ويفتح أبواب عقله وفكره على الحقائق والامور الواقعية ويذعن لها من موقع الطاعة والإيمان ولا يستسلم أمام الأوهام والخرافات ولا يتحرّك بوحى الأهواء والشهوات. وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى العهد والميثاق الذى أخذه الأنبياء عليهم السلام على الناس فى بداية الدعوة ولكن الكثير من الناس الذين يقبلون بهذه الدعوة السماوية فى البداية، فإنّهم ينقضونها فيما بعد ويتحرّكون فى خط الانحراف والباطل. ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع العهود والمواثيق المذكورة آنفاً سواءً الفطرية والتشريعية. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة محل البحث شاهدة على هذه الحقيقة، وهى أنّ مسألة نقض العهد وعدم الالتزام بالمواثيق هى أحد العوامل المؤثّرة فى شقاء الامم وانحطاطهم وسلوكها فى خط الانحراف والضياع كما نجد هذا الحال فى الامم الدنيوية المعاصرة التى تلتزم بالعهود والمواثيق مادامت ضعيفة ولكن إذا وجدت فى نفسها قوّة وقدرة على الطرف الآخر فإنّها لا تعترف بأى عهد وميثاق، بل تكون الرابطة بينهما هى رابطة القوة، والقانون هو قانون الغاب. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث بعد أن تتحدّث عن بعض جرائم اليهود وأزلامهم تقول: «أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»، ونقض العهد هذا من جانبهم يدلّ على كفرهم وعدم إيمانهم. فمن جهة نرى أنّهم قد أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا بالنبى الموعود الذى وردت البشارة به فى التوراة، ولكنهم ليس لم يؤمنوا به فحسب بل أنهم نقضوا العهود مع هذا النبى بعد هجرته إلى المدينة وانضمّوا إلى صفوف أعدائه وخاصة فى حرب الأحزاب حيث إتحد اليهود مع المشركين ضد رسول اللّه والمسلمين فى المدينة وأجهروا بعداوتهم واستعدوا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۰ للمشاركة فى قتال المسلمين. وهذا هو خلق اليهود القديم حيث ينقضون العهود والمواثيق دائماً؛ وينسون جميع المقررات والعهود فيما لو تعرضت مصالحهم إلى الخطر فى أى زمان ومكان. وفى هذا العصر أيضاً نجد صدق قول القرآن الكريم فى هذا الوصف لليهود والصهاينة وأنهم كلما تعرضت منافعهم إلى الخطر فأنهم يسحقون جميع العهود والمواثيق التى أمضوها مع مخالفيهم وحتى إنّهم لا يلتزمون بالمعاهدات الدولية فى دائرة الروابط بين الشعوب والدول والتى اشتركت فى تدوينها وإمضائها جميع الدول، فنجدهم يتمسكون بذرائع واهية وتبريرات سخيفة ليتحرّكوا فى تعاملهم من موقع نقض العهود والمواثيق، وهذه المسألة واضحة فى عصرنا الحاضر إلى درجة أنّ بعض المفسرين ذكر فى تفسير الآية أعلاه أنّ هذه الآية معجزة قرآنية حيث

أخبرت عن المستقبل البعید وکأنّنا نری بأمّ أعیننا نقض العهود والمواثیق لبنی إسرائیل حاضراً، کما کانوا فی عصر رسول اللّه صلی الله علیه و آله. لقد کان لهؤلاء عهود ومواثیق کثیرة مع نبیّهم موسی والإنبیاء الذین جاءوا من بعده وکذلک مع النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، ولکنهم لم یفوا بواحدة من تلک العهود والمواثیق. والتعبیر بکلمة (فریق) فی بدایة الآیة، وکذلک التعبیر (أکثرهم) فی ذیل الآیة یشیر إلی أنّ المراد بالفریق هنا هو أکثر هذه الطائفة من الناس، وکذلک یشیر إلی أنّ العلاقة بین نقض العهد وعدم الإیمان هی علاقة وثیقة. إنّ سیاق الآیات الشریفة المذکورة آنفاً یدل بصراحة علی أنّ الوفاء بالعهد والمیثاق له منزلة رفیعة ومکانة سامیة من بین المفاهیم الإسلامیة والتعالیم القرآنیة، فهو أحد علائم الإیمان ویقع فی مرتبة التقوی والأمانة، وعلی درجة من الأهمیة بحیث أنّ المسلمین وغیر المسلمین سیان فی ذلک، أی أنّ المسلم أو جماعة المسلمین إذا إرتبطوا بعهدٍ وميثاق مع آخرین فیجب علیهم الألتزام بذلک العهد والمیثاق سواءاً کان الطرف الآخر مسلماً أو کافراً مادام ذلک الطرف ملتزماً بذلک العهد، وأیضاً تدل هذه الآیات علی أنّ أحد أهم العوامل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۲۱ والأسباب فی شقاء الإنسان وإنحطاطه هو نقض العهد وعدم الوفاء به.

الوفاء بالعهد فی الروایات الإسلامیة:

اشارة

وقد وردت فی النصوص الدینیة تعبیرات مهمّة ورائعة جدّاً فی هذا الباب یمکنها أن تکون درساً لنا فی تبیین معالم هذه الصفة الأخلاقیة الکریمة. وهنا نختار بعض النماذج من هذه الأحادیث لنضعها بین یدی القارىء الکریم: ۱- ما ورد عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قوله فی جملة مختصرة: «لا دِینَ لِمَنْ لاعَهدَ لَهُ» «۱». وهذا التعبیر یشیر إلی أنّ جمیع معالم الدین وأرکانه یتلخص بالوفاء بالعهد بالنسبة إلی الخالق والخلق وعلی الأقل أنّه أحد الأرکان المهمّة للدین، ولذلک ورد فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «أَصلُ الدِّینِ أَداءُ الأَمانَةِ وَالوَفَاءِ بِالعُهُودِ» «۲». ۲- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً: «ما أَیقَنَ بِاللّهِ مَنْ لَم یَرع عُهُودِهِ وَذِمَّتِهِ» «۳». لأنّ الناقض للعهد یری منافعه ومصالحه فی دائرة عصیان اللّه تعالی ومخالفته، وهذا إنّما یدلّ علی عدم توحیده واهتزاز عقیدته فی دائرة التوحید الأفعالی. ۳- ونقرأ فی عهد الإمام علی علیه السلام المعروف لمالک الأشتر رضی الله عنه حیث أَکّد الإمام علی علیه السلام علی مسألة الوفاء بالعهد فی مقابل أی إنسان وأی طائفة من البشر باعتباره من أهم المسائل علی مستوی الحکومة والتعامل مع الناس حیث قال: «وإنَّ عَقَدتَ بَینَکَ وَبَینَ عَدُوِّکَ أو أَلبَستَهُ مِنکَ ذِمَّةً فَحُطَّ عَهدَکَ بِالوَفاءِ وَارعَ ذِمَّتَکَ بِالأَمانَةِ، وَاجعَلْ نَفسَکَ جُنَّةً دُونَ ما أَعطَیتَ فَإِنَّهُ لَیسَ مِنْ فَرائِضِ اللّهِ شَیءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَیهِ إجتِماعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهوائِهِم وَتَشَتُّتِ آرائِهِم مِنْ تَعظِیمِ الوَفاءِ بِالعُهُودِ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِکَ المُشرِکُونَ فِیما بَینَهُم دُونَ المُسلِمِینَ لِمَا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۲۲ استَوبَلُوا مِنْ عَواقِبِ الغَدرِ» «۱». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر قول رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «أَقرَبُکُم غَداً مِنِّی فِی المَوقِفِ أَصدَقُکُم لِلحَدِیثِ وَأَدّاکُم لِلأَمانَةِ وَأَوفاکُم وَأَحسَنُکُم خُلقاً وَأَقرَبُکُم مِنَ النّاسِ» «۲». ۵- ونقرأ فی حدیث آخر حول أهمیّة الوفاء بالعهد والعواقب الوخیمة لنقض العهد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «أَیُّها النَّاسُ إنَّ الوَفاءِ تَوأَمُ الصِّدقُ، وَلا أَعلَمُ جُنَّةً أَوفی مِنهُ وَما یَغدِرُ مَنْ عَلِمَ کَیفَ المَرجِعُ، وَلَقَد أَصبحنا فِی زَمانٍ أَتَّخَذَ أَکثَرَ أَهلِهِ الغَدرَ کَیساً، وَنَسَبَتهُم أَهلُ الجَهلِ فِیهِ إلی حُسنِ الحِیلَةِ، ما لَهُم قاتَلَهُم اللّهُ قَد یَرَی الحُوَّلُ القُلَّبُ وَجهَ الحِیلَةِ وَدُونَها مانِعٌ مِنْ أَمرِ اللّهِ وَنَهیِهِ» «۳». فهنا نجد أنّ الإمام علیه السلام یشکو من تغیّر الحال فی عصره وزمانه وکیف أنّ الناس یرون فی المنکر والحیلة ونقض العهود من کمال العقل والتدبیر ویعتبرون التقوی والصدق والوفاء بالعهد نوع من الضعف وکما یقول الشاعر: غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغدرُ واتّسعتْ مسافَةُ الخُلفِ بَینَ القَولِ وَالعَملِ ونجد فی عصرنا الحاضر أنّ الوفاء بالعهد قلیل جدّاً، بل نادر حیث یسود نقض العهود فی ما یتعلق بالروابط بین الأفراد والمجتمعات البشریة وأنّ الفاصلة بین القول والعمل کبیرة جدّاً. ۶- ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السلام قوله: «ثَلاثٌ لَم یَجعَلِ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَحَدٍ فِیهِنَّ رَخصَةً أَداء

الأمانةِ إِلَی البَرِّ وَالفاجِرِ، وَالوَفاءِ بِالعَهدِ لِلبَرِّ وَالفاجِرِ، وَبِرُّ الوالِدینِ برِّینَ کانا أو فاجِرینِ» «۴». وجاء نفس هذا المضمون فی روایة اخری عن الإمام الصادق علیه السلام أیضاً «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۲۳ وهذا الحدیث یدلّ بوضوح علی أنّ قانون الوفاء بالعهد وأداء الأمانة والإحسان إلی الوالدین لا یقبل الاستثناء أبداً. ۷- وجاء فی حدیث آخر عن الإمام علیه السلام یُشبّه العهد بالطوق المحیط برقبة الإنسان ویقول: «إنَّ العُهُودَ قَلائِدُ فِی الأعناقِ إلی یَومِ القِیامَةِ فَمَنْ وَصَلَها وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ نَقَضَها خَذَلَهُ اللَّهُ» «۱». ۸- وجاء فی حدیث آخر أنّ شخصاً سأل الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السلام قال: «أَخبِرنِی بِجَمِیعِ شَرایِعِ الدِّینِ» قال الإمام فی جوابه: «قَولُ الحِقِّ وَالحُکمِ بِالعَدلِ وَالوَفاءِ بِالعَهدِ» «۲». ۹- وورد فی حدیث مختصر وعمیق المحتوی عن أمیر المؤمنین أنّه قال: «أَشرَفُ الخَلائِقِ الوَفاءِ» «۳». ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث مهم آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله (رغم وجود أحادیث کثیرة فی هذا الباب) حیث قال: «إذا نَقَضوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَیهِم عَدُوِّهِم» «۴». وهنا نری حقائق مهمّة فیما ورد من الروایات الشریفة أعلاه عن أهمیّة الوفاء بالعهد ومعطیاته الکثیرة وآثاره العمیقة فی حیاة الإنسان الفردیّة والاجتماعیة بحیث أنّ الوفاء بالعهد یعدّ (أساس الدین) و (علامة الیقین) و (سبب القرب من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یوم القیامة) و (الدرع الحصینة مقابل الحوادث الاجتماعیة)، مضافاً إلی الروایات الإسلامیة التی تصّرح بأنّ الوفاء بالعهد هو قانون إلهی شامل للمسلم والکافر، وأنّ الوفاء بالعهد (علّة الفلاح والنصر والعزّة) وأنّ نقض العهد سبب فی (الحرمان من الألطاف الإلهیة).

۱- المعطیات الفردیة والاجتماعیة للوفاء بالعهد

رأینا فیما تقدّم أنّ جمیع أشکال التطور العلمی والثقافی والاقتصادی الذی ناله الإنسان إنّما هو ولید الحیاة الاجتماعیة للبشر، حیث تلتقی تجارب الأفراد وتنظم أفکارهم بعضها إلی بعض وتتلاقح عقولهم وبذلک تتولّد المنتوجات الصناعیة المتنوعة وأشکال التمدن والحضارة البشریة فی حرکة الامم الحضاریة. فلو أنّ أفراد البشر عاشوا متفرّقین کل علی إنفراد فعلی فرض أن یکسبوا تجارب فی حرکة حیاتهم الفردیة، إلّاأنّهم سوف یذهبون بها معهم إلی القبر، فلا حرکة ولا علامة علی وجود تحوّل حضاری وتطور علمی فی البشریة، ولهذا السبب بالذات فإنّ الإسلام أعطی أهمیّة فائقة لتحکیم وتقویة دعائم الحیاة الاجتماعیة بین الأفراد وتعمیق أواصر العلاقات بینهم، ومن المعلوم أنّ کل شیء یؤدّی إلی تقویة هذه العلاقات الاجتماعیة، فإنّه مطلوب وممدوح فی نظر الإسلام، وکلّ شیء یتسبب فی أضعاف هذه العلاقات فإنّه منفور ومذموم. وبدیهی أنّ أول عنصر یتسبب فی تقویة هذه الروابط والعلاقات بین أفراد البشر وبالتالی یترتّب علیه زیادة التعاون والتکاتف فی المجتمع هو مسألة الوفاء بالعهود والمواثیق، فلو أنّ هذه المسألة قد ترکت لیوم واحد بین الأفراد وبین الشعوب العالمیّة فإنّ مفاصل الحضارة البشریة سوف تتعرّض للأهتزاز والارتباک وتتوقف بذلک مسیرة الحضارة الإنسانیة والتکامل البشری، ولهذا ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لا تَعتَمِد عَلی مَودَّة مَنْ لا یَفِی بِعَهدِهِ» «۱». وأساساً یمکن القول بأنّ میزان موفقیّة الأشخاص فی حیاتهم الدنیویة یرتبط بمدی التزامهم بعهودهم، فما کان منهم أکثر وفاءً بعهده فهو أعزّ وأشرف فی نظر الناس، وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حدیث آخر: «الوَفاءُ حِصْنُ السُّؤدَدِ» «۲». وفی النقطة المقابلة نجد أنّ نقض العهد إذا ساد فی أجواء المجتمع البشری، فإنّه یفضی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۲۵ إلی سلب الثقة بین أفراد المجتمع ویتلاشی عنصر الإتّحاد والتکاتف فیما بینهم وبالتالی فإنّهم لا یستطیعون التصدی للعدو، ولهذا نقرأ فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إذا نَقَضُوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَیهِم عَدُوَّهُم» «۱». إنّ الوفاء بالعهد یتسبب فی أن یعتمد الناس علی هذا الشخص وبذلک یضعوا عنده رؤوس أموالهم من موقع الثقة به للإتّجار بها فینتفع هو وکذلک الآخرون من نشاطه الاقتصادی، فینال بذلک الرفاه والسعة فی معیشته، ولهذا نجد أنّ جمیع الدول فی العالم تسعی إلی تحقیق هذا المعنی أی الالتزام بالعهود والمواثیق من أجل ترشید وضعهم الاقتصادی والاجتماعی وإلّا یکون نصیبهم الانزواء والعزلة والتلف عن الحرکة الصناعیة والتجاریة فی العالم، وحتی بالنسبة إلی الدول التی عاشت حالة الثورة علی النظام السابق، فإنّ قادة الثورة عندما

يستلمون زمام الامور يعلنون التزامهم بجميع العهود والمواثيق التى كانت من النظام السابق حتّى لو كانت تلك العهود على خلاف ذوقهم ومسيرتهم، لأنّه ليس لهم طريق سوى كسب الثقة العالمية من خلال هذا الالتزام الإنسانى والأخلاقى، وهذه المسألة تصدق أيضاً على الأفراد والأشخاص، ومضافاً إلى ذلك فانّ أصل العدالة الذى هو من بديهيات الأصول الأخلاقية والاجتماعية لا يتحقق بدون الوفاء بالعهد فى دائرة المجتمعات البشرية، وبذلك فانّ ناقضى العهد يعدون من زمرة الظالمين وكل إنسان يتعامل معهم من موقع الذم والتحقير واللوم وذلك بدافع من الفطرة الإلهية فى وجوده، وهذا يدل على أنّ لزوم الوفاء بالعهد هو أمر فطرى.

۲- دوافع الوفاء بالعهد ونقضه

بما أنّ معرفة دوافع الصفات الأخلاقية الإيجابية والسلبية له دورمهم فى تحصيل الفضائل الأخلاقية، وعلاج الرذائل، فمن الجدير بنا فى هذا البحث أنّ نتتبع الدوافع للوفاء بالعهد والدوافع على نقضه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۶ لا- شك أنّ الإيمان الحقيقى والإعتقاد بالتوحيد الأفعالى فى واقع الإنسان وقلبه يعد أحد الأسباب المهمة للوفاء بالعهد والألتزام به، لأنّ من ينقض العهد فأنه يرتكب هذه الخطيئة من موقع الجهل بقدرة اللَّه ورازقيته وبدافع من منفعته العاجلة فينسى ما وعد به اللَّه تعالى على الوفاء بالعهد. ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مِنْ دَلائِلِ الإِيمانِ الْوَفاءُ بِالْعَهْدِ» «۱». وفى حديث آخر عنه أيضاً يقول: «ما ايْقَنَ بِاللَّهِ مَنْ لَمْ يَرْعَ عُهُودَهُ وَذِمَّتَهُ» «۲». مضافاً إلى ذلك فانّ شخصية الإنسان الذاتية تستدعى الوفاء والالتزام بالعهد أيضاً، ولذلك فانّ الأشخاص الذين يتمتعون بقوة الشخصية لا يبيحون لأنفسهم نقض العهد مع أى شخص كان اطلاقاً ويرون أنّ نقض العهد علامة الضعف والحقارة وفقدان الشخصية، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام ما يشير إلى أنّ الوفاء بالعهد هو أحد علائم الصالحين والطاهرين من الناس حيث يقول: «بِحُسْنِ الْوَفاءِ يُعْرَفُ الْابْرارُ» «۳». ومن الدوافع النفسية على إرتكاب نقض العهد هى الجهل والغفلة وعدم الاطلاع على العواقب المشؤومة لنقض العهد فى حياة الناس الفردية والاجتماعية، كما هو حال الشخص الذى يتناول طعاماً لذيذاً فى الظاهر ولكنه مسموم فى الحقيقة، فيتناوله بشوق ورغبة بدون أن يعلم عاقبته المؤلمة. والأشخاص الذين يتمتعون بعقل أكبر وعلم أوفر ويرون المعطيات الحسنة للوفاء بالعهد والأضرار المترتبة على نقض العهد فأنّهم لا يتركون هذه الفضيلة الأخلاقية اطلاقاً ولا- يذلون أنفسهم بأرتكاب تلك الصفة الرذيلة وهى نقض العهد أبداً كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «الْوَفاءُ حِلْيَةُ الْعَقْلِ وَعُنْوانُ النُّبْلِ» «۴».

علاج نقض العهد:

رأينا فيما تقدم (من بحث الدوافع) أنّه بالإمكان معرفة الطرق لتحصيل فضيلة الوفاء بالعهد وكذلك يمكن معرفة طرق الوقاية من ضدها وعلاج مرض نقض العهد. إنّ الإنسان الناقض للعهد إذا أراد واقعاً إصلاح هذا الخلل فى نفسه وشخصيته فيجب عليه قبل أى شىء العمل على تقوية دعائم الإيمان فى قلبه، لأننا نعلم أنّ نقض العهد هو من إفرازات ضعف الإيمان أو فقدانه كما تقدم، فلو أنّ معرفة الإنسان باللَّه تعالى وإيمانه وصل إلى درجة بحيث يرى أنّ جميع الامور بيد اللَّه تعالى فانّه لا يتحرك اطلاقاً بصدد تحصيل المال والمقام والجاه من خلال التوسل بهذه الرذيلة الأخلاقية. وكذلك إذا فكرَّ فى النتائج المشؤومة على هذا الفعل القبيح فرغم أنّه يترتب عليه بعض الربح والمنفعة على المدى القصير، ولكنه وعلى المدى الطويل يتسبب فى سقوط شخصيته ومكانته بين الأصدقاء والأقرباء وأخيراً يتسبب فى فضيحته فى المجتمع ويخسر بذلك أهم رأس ماله أى إعتماد الناس وثقتهم به، وكذلك يفتضح أمام اللَّه تعالى وأمام خلق اللَّه، وقد رأينا نماذج عينية فى حياتنا المعاصرة وفى طول تاريخ الحياة البشرية لأمثال هذه الموارد، أجل كلما تفكر الإنسان وتدبر فى هذه الامور فأنّه سيزداد قوة وعزماً على ترك هذه الرذيلة حتماً، وهذا هو ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام على أنّه قال: «وَالْخُلْفُ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ» «۱». ولهذا السبب نجد أنّ الكثير من المجتمعات البشرية التى تعيش

الجهل بالدين والإبتعاد عن اللّه تعالى فإنّها تسعى للتعامل فيما بينها من موقع الإلتزام بالعهود والمقررات والمواثيق، وكذلك ما نراه فى الشركات الأقتصادية العالمية والمنظمات الدولية فإنّها ومن أجل جذب الزبائن وكسب حسن السمعة وبالتالى زيادة الأرباح والمكاسب يهتمون بمسألة الوفاء بالعهد، ويترتب على ذلك أيضاً النتائج الإيجابية المثمرة.

أقسام العهد:

هناك أنواع وأقسام للعهد حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: ۱- العهد مع اللّه. ۲- العهد مع الناس. ۳- العهد مع النفس. أما العهد مع اللّه تعالى فالكثير من الفقهاء ذكروا فى كتبهم الفقهية بحث العهد إلى جانب بحث النذر، وذكروا أنّه لو أراد الشخص أن يعاهد اللّه على أمر من الامور فعليه إجراء صيغة العهد وهى أن يقول مثلًا: «عاهَدْتُ اللَّهَ أَنَّهُ مَتى شَفانِى اللَّهُ أَصومُ ثَلاثَةَ أَيامٍ أَوْ أَتَصَدَّقُ بِكَذا وَكَذا». وحينئذ يجب عليه الوفاء بعهده هذا ولو إرتكب ما ينقض هذا العهد عليه دفع كفارة، وكفارته على المشهور هى كفارة إفطار يوم من شهر رمضان المبارك. وعلى هذا فانّ العهد مع اللّه تعالى ليس لازماً من الناحية الأخلاقية فقط بل من الناحية الفقهية أيضاً ونقضه يستوجب الكفارة، وحتى إذا لم يقرأ المكلف صيغة العهد هذه بل نوى فى قلبه ذلك فمن الأفضل له أن يوفى بعهده مع اللّه تعالى. القرآن الكريم يقول فى ذم طائفة من المؤمنين الضعيفى الإيمان أو من المنافقين الذين لم يشتركوا فى حرب الأحزاب: «وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤولًا» «۱». يقول فى مكان آخر: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ». وبعض المفسرين ذكروا فى تفسير هذه الآية أنّ العهد هنا يعنى البيعة مع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وذهب بعض آخر إلى أنّه يعنى الجهاد فى سبيل اللّه، وذهب آخرون إلى أنّ معناه هو القسم باللّه تعالى، وبعض آخر ذهب إلى أنّه يعنى كل عمل واجب بحكم العقل أو النقل «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۹ وأمّا العهد مع الناس فيشمل كل أشكال العقود والمواثيق بين أفراد البشر، وفيما لو تأطرت بقوالب شرعية وعقلائية فالوفاء بها واجب، ولكن بعض أشكال العهد الذى يقع من جانب واحد كأن يتعاهد الإنسان أن يبذل المعونة لشخص آخر فمثل هذه العهود تسمى (عهود إبتدائية) وكذلك أشكال الوعد الذى يقوم من جانب واحد، فالوفاء بهذا العهد أو الوعد غير واجب من الناحية الفقهية بل مستحب مؤكد، ولكن فى المنظور الأخلاقى فالالتزام بها واجب ولازم وإلّا فيحرم الإنسان من نيل الفضائل الإخلاقية والمقامات العالية الإنسانية. وقد ورد فى بعض الروايات أنّ الإنسان المؤمن إذا وعد غيره بشىء فإنّه بمنزلة النذر رغم عدم وجوب الكفارة عند عدم الوفاء به، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عِدَةُ الْمُؤْمِنِ أَخاهُ نَذْرٌ لاكَفارَةَ لَهُ فَمَنْ أَخْلَفَ فَبِخُلْفِ اللَّهِ يَبْدَءَ وَلَمِقْتِهِ تَعَرَّضَ وَقَوْلُهُ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لاتَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقولُوا ما لاتَفْعَلُونَ» «۱». وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَفِ إِذا وَعَدَ» «۲». أما عهد الإنسان مع نفسه فهو أن يتعاهد الإنسان بأن يلتزم خط تهذيب النفس وإصلاحها فى طريق التكامل الأخلاقى والمعنوى والتحلى بالصفات الحسنة والأعمال الصالحة، وهذا العهد له دور مؤثر وبناء فى سلوك خط التهذيب النفسى، وقد ذكره العرفاء الإسلاميون بأنّه أول مراتب السير والسلوك وذكروه تحت عنوان المشارطة، وهو أنّ الإنسان يتعاهد مع نفسه كل صباح بأن يسير فى خط الطاعة والإيمان وإجتناب الذنوب والإبتعاد عن الموبقات والآثام، ثم يتحرك فى سلوكه اليومى من موقع المراقبة الدقيقة لأعماله وسلوكياته ليطمئن على وفائه بذلك الشرط والعهد الذى أخذه على نفسه صباح اليوم، ثم تصل النوبة إلى المحاسبة فى آخر اليوم وقبل النوم وهل أنّه قد إرتكب ما يخالف الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۰ ذلك الشرط الذى إشترطه على نفسه أم لا؟ ولا شك أنّ الإنسان القوى الشخصية ومن يتمتع بوجدان يقظ يهتم كثيراً بمثل هذه العهود والشروط مع نفسه وغير مستعد لنقضها بسهولة. وعليه يمكن القول أنّ الالتزام بالعهود التى يقطعها الإنسان مع نفسه يعدّ أحد طرق تهذيب النفس ونيل الفضائل الأخلاقية فى حركة التكامل المعنوى للإنسان.

إلتزام المسلمين بالعهود والمواثيق:

إنّ التقدم المذهل للمسلمين فى العصور الأولية من تاريخ الإسلام كانت ولا زالت مثار تعجب المؤرخين فى الشرق والغرب، ولكنهم إذا تفكروا فى أسباب وعوامل هذا التقدم السريع لأدركوا بسرعة سرّه. ومن البديهى أنّ أحد علل التقدم السريع هو التزام جيش الإسلام بالمواثيق والعهود وهذا هو ما أكد عليه القرآن الكريم ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله مراراً، وهذه المسألة على درجة من الأهمية بحيث كان الجيش الإسلامى يضحى من أجلها بالكثير من الإنتصارات السريعة على الكفار. أنّ القانون المهم (الأمان) الذى يعد أحد التعاليم الإسلامية يؤكد هذا المعنى أيضاً وأنّ كل جندى من جنود الإسلام وفى أى رتبة كان يمكنه أن يعطى الأمان لبعض رجال العدو بشكل مؤقت ويجب على جميع المسلمين فى الجيش الإسلامى إحترام هذا الأمان وكأنّه عهد مقطوع ولازم الوفاء. وهناك نماذج كثيرة ذكرها المؤرخون فى تاريخ الإسلام تحكى هذا المعنى ومنها: ۱- ما ذكره ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) عن فتح مدينة (سهرياج) «۱» من القصة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۱ العجيبة حيث بعث الخليفة فى ذلك الزمان الجيش إلى هذه المدينة لفتحها. يقول فضل بن زيد الرقاشى: حاصرنا سهرياج فى أيام عبداللّه بن عامر وقد سار إلى فارس افتتحها، وكنّا ضمنا أن نفتحها فى يومنا وقاتلنا أهلها ذات يوم فرجعنا إلى معسكرنا وتخلف عبد مملوك منّا فراطنوه، فكتب لهم أماناً ورمى به فى سهم فرحنا إلى القتال وقد خرجوا من حصنهم وقالوا: هذا أمانكم فكتبنا بذلك إلى عمر، فكتب إلينا: إنّ العبد المسلم من المسلمين ذمته كذمتكم، فلينفذ أمانه، فأنفذناه» .ومصدر هذه القصة هو ما ورد من الحديث النبوى المعروف فى حجة الوداع حيث قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله للمسلمين كافة: «المُؤمِنُونَ إِخْوَةٌ تَتَكافَأُ دِمائُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ يَسْعى بِذِمَّتِهِمْ أَدْناهُمْ» «۲». ۲- وورد فى التواريخ الإسلامية أنّ المسلمين فى عصر الخليفة الثانى هزموا الساسانيين وقبضوا على (هرمزان) قائد الجيوش الفارسية وجاءوا به إلى عمر بن الخطاب، فقال له الخليفة: لقد نقضت العهود معنا دائماً فلماذا إرتكبت هذا العمل؟ فقال الهرمزان: أخاف أن تقتلنى قبل أنّ أقول لك سبب ذلك، فقال له الخليفة: لا تخف. وفى هذه الأثناء طلب الهرمزان الماء فجيىء له بإناء فيه ماء فقال الهرمزان: لو أعلم بأننى أموت من العطش فأننى لا أشرب من هذا الأناء أبداً. فقال لهم عمر: إذهبوا وأتوه بماء فى إناءٍ يقبل أن يشرب منه، فجاؤوا له بقدح فيه ماء وناولوه بيده، فنظر إلى ما حوله ولم يشرب وقال: أننى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء. فقال له عمر: لا تخف فأنا أعطيك الإمان من القتل إلى أن تنتهى من شرب الماء. فما كان من الهرمزان إلّاأن ألقى بالقدح من يده فانسكب الماء على الأرض، فقال عمر وهو يتصور أنّ القدح سقط من يده بدون اختيار: ناولوه قدحاً آخر ليشرب. فقال الهرمزان: أنا لا أريد الماء بل كان مقصودى أن أحصل منك على الإمان، فقال له الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۲ الخليفة: ولكنى سأقتلك لا محالة. فقال الهرمزان فى جوابه: إنك قد أعطينى الإمان من القتل. فقال الخليفة: أنت تكذب فأنا لم أعطك الإمان. وكان (أنس) حاضراً فقال: صدق الهرمزان لقد أعطيته الإمان إلى أن ينتهى من شرب الماء. فتفكر الخليفة فى ذلك وقال للهرمزان: لقد خدعتنى ولكنى سوف أقبل خدعتك هذه لكى تعتنق الإسلام، فلما رأى الهرمزان هذه الحالة (وهى إلتزام المسلمين بعهودهم ومواثيقهم) شع نور الإيمان فى قلبه وأسلم «۱». والملفت للنظر أنّه يستفاد من الروايات الإسلامية أنّه حتى شبهة العهود والأمان يجب الوفاء بها، ففى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ أَنَّ قَوْماً حاصَرُوا مَدينَةً فَسَأَلُوهُمُ الأَمانَ فَقالُوا: لافَظَنُّوا أَنَّهُمْ قالُوا: نَعَمْ فَنَزِلُوا إِلَيْهِمْ كانُوا آمِنِينَ» «۲». وبهذا ترى أنّه ليس فقط العهد والأمان يجب الوفاء به بل إحتمال وجود العهد الوفاء به أحياناً. ۱۰

البحث المنطقى والجدال والمراء

تنويه:

إنّ أفضل طريق لتبيين الحقائق والوصول إلى الأفكار الصحيحة والنتائج السليمة هو البحث المنطقى الخالى من كل أشكال التعصب والعناد، لأنّ الأفكار عندما تتلاقح وتضم بعضها إلى البعض الآخر وتتصل القابليات والعقول فسيسطع نور المعرفة ليضىء كل شىء.

ولكن إذا كانت أجواء البحث يسودها التعصّب واللجاجة والأنانيّة والخشونة، وبكلمة واحدة المراء، فإنّ ذلك من شأنه أن يغطى على الحقائق الواضحة ويسدل ستار الظلمة على الواقعيات، فمهما استمر البحث والجدال فإنّ الحجب تزداد على وجه الواقع. ولهذا السبب فإنّ الإسلام وقف من الجدال والمراء، أو بتعبير آخر: التعصّب بالبحث وإثبات تفوّق الأنا على الطرف المقابل وليس ذلك لغرض تبين الحق وكشف الحقيقة، موقفاً سلبياً وعدّ ذلك من الذنوب الكبيرة، لأنّ المراء بإمكانه أن يجعل سدّاً كبيراً فى طريق فهم الحقيقة والوصول إلى الواقعيات. وبالطبع سوف نشير لاحقاً إلى الفرق بين الجدال والمراء باذن اللّه تعالى، ولكنّ الهدف هنا الإشارة السريعة إلى موقف الإسلام السلبى من هذا الخلق الذميم أى الجدل والمراء، وموقفه الإيجابى وثنائه على الأشخاص الذين يتحرّكون فى بحثهم العلمى ومناقشاتهم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۴ الفكرية من موقع البحث المنطقى لغرض الكشف عن الحقيقة وتوخّى العدالة. وبهذه الإشارة السريعة نعود إلى القرآن الكريم لنرى موقفه من هاتين الخصلتين: ۱- «يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ» «۱». ۲- «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» «۲». ۳- «وَمِن النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» «۳». ۴- «وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ» «۴». ۵- «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» «۵». ۶- «وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» «۶». ۷- «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» «۷». ۸- «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» «۸». ۹- «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» «۹». ۱۰- «وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ» «۱۰».

تفسير واستنتاج:

«الآية الإولى»: من الآيات محل البحث تتعرض لطائفة من المؤمنين الضعيفى الإيمان من موقع الذم والتوبيخ بسبب ترددهم وجبنهم فى ميدان القتال وتثاقلهم عن الجهاد فى سبيل اللّه فتقول: «يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمُوتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». القرائن تشير إلى أنّ جماعة من المسلمين الجدد الذين لم تكن لهم تجربة كافية فى الحرب قد تملكهم الخوف وسيطر عليهم الجبن عندما سمعوا الأمر بالجهاد فى سبيل اللّه، ومع أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال لهم بصراحة: أنا مأمور بأمر من اللّه تعالى فى هذا الطريق، ورغم ذلك فإنّهم يجادلون النبى صلى الله عليه و آله ليثنوه عن عزمه ويعيدوه إلى المدينة وكأنّما يرون الموت على بعد خطوات منهم، وفى الواقع فإنّ ضعف الإيمان والخوف من الموت والشهادة فى سبيل اللّه دفعهم إلى التذرع بالحجج الواهية والتبريرات المختلفة لإضعاف عزم النبى صلى الله عليه و آله، القرآن الكريم يذم هذه الحالة ويصرح فى الآيات اللاحقة أنّ مشيئة اللّه قد قررت تقوية الحق وقطع جذور الكافرين (رغم سيطرة الأوهام والتخيلات على هذه الفئة من ضعفاء الإيمان). ويستفاد جيداً من هذه الآية أنّ أحد أسباب الجدل والمراء والمناقشات غير المنطقية هو ضعف النفس والخوف من تحديات الواقع والحالة الإنهزامية لدى الشخص فى مواجهة الظروف الصعبة. وقد ورد فى التواريخ الإسلامية المعروفة أنّه عندما سمع المسلمون بخبر تحرك جيش قريش من مكة لأنقاذ القافلة التجارية المتحركة فى الطريق إلى مكة حيث تعرضت لتهديد المسلمين فانّ جماعة من ضعفاء المسلمين أصروا على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يعود إلى مكة لأنّ المسلمين فى نظرهم ليست لديهم القدرة الكافية على مواجهة جيش المشركين، وأساساً أنّهم لم يخرجوا طلباً للحرب والقتال. ويذكر أنّ أبا بكر قام فقال: يا رسول اللّه، إنّها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، وما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۶ ذلّت منذ عزّت، ولم تخرج على هيئة حرب .. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: اجلس، فجلس، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: اشيروا علىّ. فقام عمر فقال: مثل مقالة أبى بكر. فأمره النبى صلى الله عليه و آله بالجلوس فجلس. ثم قام المقداد فقال: يا رسول اللّه، إنّها قريش وخيلاؤها، وقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند اللّه، واللّه لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا (نوع من الشجر الصلب) وشوك الهراس لخضناه معك، ولا نقول لك ما

قالت بنو اسرائيل لموسى: إذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول: إذهب أنت وربّك فقاتلا، وإنّا معكم مقاتلون ... الخ. فأشرق وجه النبى صلى الله عليه و آله ودعا له وسرّ لذلك «۱» والعجيب أنّ إبن هشام فى سيرته والطبرى أوردا قصة الشورى التى شكلها النبى صلى الله عليه و آله قبيل غزوة بدر ولكن عندما وصلا إلى كلام الخليفة الأول والثانى قالا بكثير من التلخيص: «قالَ أَبُوبَكْر وَاحْسَنَ، ثُمَّ قامَ عُمَرُ بْنَ الْخَطابِ وَقالَ وَأَحْسَنَ». واكتفيا بذلك دون أن يذكرا كلام الأول والثانى فى حين أنّه لو كان الأول والثانى قد أحسنا فى كلامهما لكان المفروض من هذين المؤرخين أن يذكرا مقولتهما، والحال أنّهما ذكرا كلام المقداد بتمامه، ومن هنا يتبين أنّ نقل هذين المؤرخين لا يخلو من تعصب مذهبى بإمكانه تزييف الحقائق التاريخية. «الآية الثانية»: تتحدث عن جميع الأشخاص الذين يتحركون فى حياتهم من موقع العناد والتعصب وعدم النضج الفكرى والنفسى وتقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِى هذا الْقُرآنِ لِلناسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْانْسانُ اكْثَرَ شَىءٍ جَدَلًا». فلأجل هداية الناس فقد صرفنا وذكرنا فى القرآن الكريم قصص الأوائل وحوادث الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۷ التاريخ البشرى وحياة الأقوام التى عاشت الظلم والجور، ولكن الإنسان يعيش حالة الجدل أمام الحق وبذلك يقطع على نفسه طريق الوصول إلى الحقيقة ويوصد أبواب نور المعرفة أمامه ويستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ الأشخاص الذين يعيشون الطفولة الفكرية وعدم النضج فى شخصيتهم هم أكثر الموجودات جدلًا ومراءاً، وعلى أية حال فانّ هذا التعبير يشير إلى أنّ الإنسان إذا إنحرف عن فطرته السليمة فأنّه يتّجه صوب الجدل ويتحرك فى خط المراء والباطل ويقف أمام الحق بدافع من التعصبات والأهواء الذاتية ويوصد طريق الهداية أمامه، وهذا يمثل أكبر بلاء على الإنسان فى طول التاريخ البشرى. وتستعرض «الآية الثالثة»: تعريفاً واضحاً للمجادلة بالباطل وتبيّن مصير أهل الجدل والمراء وتقول: «وَمِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ». ورغم أنّ شأن نزول هذه الآية كما ذكره جماعة من المفسرين أنها نزلت فى (النظر بن الحارث) الذى كان من المشركين المعاندين والمتعصبين جداً وكان يتحدث عن القرآن بكلمات واهية ويتصور أنّ الملائكة هم بنات اللّه، ولكن من الواضح أنّ مفهوم هذه الآية عام وشامل لجميع الأشخاص الذين يناقشون ويجادلون بدافع من التعصب والعنادومن دون علم ومعرفة. واللطيف أنّ الآية تذكر فى آخرها أنّ هؤلاء المجادلين يتحركون فى خط الشيطان المتمرد ويتبعونه، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الجدال بالباطل هو طريق الشيطان، بل إنّ الشيطان الرجيم ينفذ فى كل شخص يسعى لإثبات وجهة نظره من موقع التعصب والعناد فيسيره إلى حيث يريد. أما وصف الشيطان بأنّه (مريد) أى المتمرد، فهو يبين هذه الحقيقة، وهى أنّ الذين يتحركون من موقع الجدل والمراء هم فى صف واحد مع المتمردين على اللّه والحق ويمثلون جبهة واحدة مقابل جبهة الحق. والمراد من جملة (يجادل فى اللّه) هو الجدال فى صفة من صفات اللّه أو فى أصل وجود الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۸ اللّه أو فى قدرته وعلمه أو فى أفعاله، وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة تنطلق من موقع الذم الشديد للجدال بالباطل. قد ورد وهذا المعنى نفسه مع بعض الإضافات كذلك فى (الآية الثامنة) من سورة الحج حيث تقول الآية: «وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ» وهذه إشارة إلى أنّ البحث والنقاش إذا كان مقترناً مع العلم والمعرفة، أو مع هداية أولياء الدين والإنبياء الإلهيين، أو يكون مستنداً إلى كتاب من الكتب السماوية فليس لا ضرر فيه فحسب بل يمكنه أن يكون مفتاحاً لحل الكثير من المشاكل والأزمات الفكرية والعقائدية. ولكن عندما لا تكون هذه العناصر الثلاثة الإيجابية على طاولة البحث والنقاش (أى العلم الشخصى، وهداية الأولياء، والإستناد إلى الكتب السماوية) فانّ الجدال سوف ينزلق فى طريق الأهواء والتعصبات ويتحرك الإنسان معه فى خط الباطل والإنحراف وبالتالى لا تكون نتيجته سوى الضلال والشقاء. ويستفاد من الآية التاسعة من هذه السورة التى وردت بعد هذه الآية محل البحث أنّ أحد دوافع الجدال بالباطل هو التكبر والغرور والعجب والذى يتسبب فى إضلال الآخرين أيضاً، فمثل هؤلاء الأشخاص يكون مصيرهم إلى الفضيحة فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة كما تقول الآية: «ثانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ». «الآية الخامسة»: من الآيات محل البحث وضمن وصفها وتعريفها لمفهوم المجادلة بالباطل تشير إلى أحد الدوافع والجذور الأصلية لهذه الرذيلة الأخلاقية فى واقع الإنسان وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» هؤلاء لا يوجد فى قلوبهم سوى التكبر والغرور حيث

يريدون تحقيق نظراتهم من وحى الأهواء والتعصّب ولكنّهم لا يصلون إلى مرادهم ومقصودهم: «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ». كلمة (سلطان) تستعمل فى مثل هذه الموارد بمعنى الدليل والحجّة والبرهان والتى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۹ وردت فى الآية السابقة وتشمل العلم الشخصى، وهداية الأولياء، وإرشاد الكتب السماويّة، ومن الملفت للنظر أنّ الآية تقول: أنّ المصدر الأصلى للمجادلة والعناد هو حالة التكبر التى يعيشها هؤلاء الأشخاص حيث يريدون التوصّل إلى غاياتهم وطموحاتهم الدنيوّية من خلال المجادلة بالباطل ولكنّهم بدلًا أن يحققوّا ذلك لأنفسهم فى حياتهم فأنّهم سوف يعيشون الذّلة والمهانة. وبما أنّ هذه الرذيلة الأخلاقيّة هى أحد المصائد الخطرة للشيطان الرجيم فانّ الآية الكريمة تقول فى ختامها: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وتنطلق «الآية السادسة»: لتتحدّث عن المشركين الذّين يتحرّكون فى شركهم وكفرهم من موقع الأصرار والعناد ويجادلون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى عمليّة تبرير أعمالهم وسلوكياتهم الخاطئة وعندما يقول لهم القرآن الكريم: إنّكم وما تعبدون من دون اللَّه حصب جهنّم فأنّهم يجادلون فى ذلك ويقولون: «وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». ثمّ إنّ القرآن الكريم يضيف إلى ذلك أنّ هؤلاء يدركون الحقيقة جيّداً ولكنّهم يتكلّمون معك من موقع الجدل والخصام والعناد: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ». ثمّ يبيّن القرآن الكريم الفرق بين المسيح والأصنام فيقول بالنسبة إلى المسيح: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» «۱». وهو إشارة إلى أنّ المسيح هو عبدٌ من عبيد اللَّه لا يقبل أن يعبده النصارى أبداً، ولو أنّ بعض الناس إنحرف عن جادّة الصواب وتصوّر أنّ المسيح أحد الأقانيم الثلاثة فى مقام الالوهيّة فلا ذنب على المسيح نفسه ولا ينبغى أن يكون من أهل النار، وعليه فانّ هذا المثل لا يقبل المقارنة مع الأصنام أو الأشخاص من أمثال فرعون وجملة: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» تشير إلى أنّ أحد مصادر ودوافع الجدال بالباطل هو حالة الخصومة والعداوة التى يعيشها الإنسان الجاهل وغير المنطقى، والغالب أنّه يعلم أنّه يسير فى خط الباطل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۰ ولكنّ الحقد والعداوة لا يسمحان له بالتسليم فى مقابل الحق والإذعان للحقيقة. «الآية السابعة»: وبعد الإشارة إلى حرمة الميتة والأنعام التى ذبحت للاصنام أو ما ذبح بدون أن يذكر إسم اللَّه عليه فتقول «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» «۱». ثمّ تشير إلى أنّ الشياطين يوحون إلى أتباعهم بمفاهيم خاطئة لتبرير أفعالهم وتقول: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ». المجادلة بالباطل هنا كما يذكر جماعة من المفسّرين الكبار أمثال الطبرسى وأبو الفتوح الرازى وسيد قطب هو أنّهم كانوا يقولون أننا إذا أكلنا من لحوم الميتة، فإنّ ذلك بسبب أنّ اللَّه تعالى قد قتلها وبالتالى فهى أفضل من لحوم الحيوانات التى نقتلها بأيدينا، وفى الحقيقة فانّهم أهملوا تحريم الميتة الوارد فى الشريعة الإلهية من هذا الموقع الزائف. وهذا التبرير السخيف والباطل لأكل الميتة هو ما أوحى به شياطين الإنس والجن لأوليائهم وأتباعهم ليعينوهم على مجادلة كلام الحق بمثل هذه التبريرات الزائفة ويقارنوا بين اللّحوم الملّوثة والميتة مع اللّحوم الطاهرة التى ذبحت على اسم اللَّه تعالى ويفضّلون الاولى على الثانية. ويستفاد من هذه العبارة أنّ مثل هذه المجادلة بالباطل تنطلق من دوافع شيطانية. ويستفاد من بعض الروايات أنّ هذه التبريرات الواهية قد كتبها بعض المجوس فى كتاب وأرسلها إلى المشركين من قريش. «الآية الثامنة»: تتحدّث عن الجدال فى حالة الاحرام للحج وتقول: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ». ونعلم أنّ حالة الاحرام هى حالة معنويّة وروحانية سامية تصعد بالإنسان إلى حيث القرب الإلهى وأن يعيش أجواء الملكوت، ولهذا السبب فإنّ الكثير من الأعمال المباحة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۱ تصبح ممنوعة فى حالة الاحرام هذه، بل إنّ بعض الامور المحرّمة تتضاعف حرمتها فى هذه الحالة المقدّسة. والمعروف حرمة ۲۵ عمل أثناء الإحرام وأحدها هو الجدال، ورغم أنّ المشهور بين الفقهاء هو أنّ المراد من الجدال هنا هو قول (بلى واللَّه) أو قول (لا واللَّه) فالأول لإثبات المطلب والثانى لنفى المطلب، والمراد من الفسوق الكذب والتهمة والسب والشتم وإظهار التفوق على الآخرين فى حال الإحرام، ولكن لا يبعد أن تكون كلمة (جدال) شاملة لكل أنواع المجادلة والمخاصمة الكلامية، وعلى أية حال فإنّ المنع من الجدال فى حال الإحرام يشير إلى أنّ هذا العمل يتقاطع بشدّة مع هذه العبادة الروحانية المهمّة وتبعد الإنسان عن اللَّه تعالى. وتتابع الآية بالقول فى جملة خبريّة بأنّه (لا جدال فى الحج) ممّا يبيّن تأكيداً أكثر على هذا الموضوع وكأنّها تقول: (إنّ هذا العمل يتنافى مع روح الحج).

«الآیة التاسعة»: تتحدّث عن (المراء) وهو کلام یشبه الجدال وتقول: «أَلَا إِنَّ الَّذِینَ یُمَارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَلَالٍ بَعِیدٍ». وبدیهی إنّ الهدایة تتفرع فی واقعها علی أن یکون الإنسان طالباً للحق بحیث یقبله من أی مکان ویتقبّله برحابة صدر دون أن یجد فی نفسه تعصّباً وتکبراً علیه، وکلّما عاش الإنسان حالة الکبر والغرور والتعصّب فإنّ ذلک من شأنه أن یکون مانعاً جدیاً من التسلیم أمام الحق وأن ینزلق الإنسان فی وادی الضلالة والانحراف الشدید. أمّا الفرق بین الجدال والمراء وکذلک النقاط المشترکة بینهما فسیأتی لاحقاً. «الآیة العاشرة»: والأخیرة من الآیات مورد البحث تتحدّث عن عناد قوم لوط وأنّ نبیّهم الکریم حذّرهم من عذاب اللّه وأنّ هذا العذاب ینتظرهم بالتأکید إذا استمروا علی غیّهم وعصیانهم، فلم یقبلوا کلامه وقاموا بوجهه من موقع المجادلة والمراء، تقول الآیة: «وَلَقَدْ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۲ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ». وکان هذا هو السبب فی أن یبقی قوم النبی لوط علیه السلام فی حجاب الغفلة والجهل إلی أن صدر أمر اللّه تعالی بعذابهم فأصاب الزلزال الشدید مدنهم وأمطرت علیهم السماء حجارة فلم یبق من بیوتهم وأجسامهم إلّاالدمار والخراب، أجل فإنّ هذه هی نتیجة الجدال والمراء فی مقابل الحق. هذه الآیات الشریفة توضح جیداً أخطار هاتین الرذیلتین الأخلاقیتین وتبیّن کیف أنّ الإنسان وبسبب الجدال والمراء یتأخر عن قافلة الهدایة والرشاد ویکون من أتباع الشیطان ویلبس ثیاب ولایته ویتحرّک فی الضلال البعید ویقع بالتالی فی دوامة العذاب الإلهی الخالد.

الفرق ین الجدال والمراء والخصومة:

إنّ کلمة (جدل) و (جدال) کما یقول الراغب فی مفرداته (جدلت الحبل) أی شددته والجدل شدّة الفتل، وکأنّ المجادل یرید من خلال کلامه الجاد مع الخصم أن یبعده بالقوة من أفکاره وعقائده. وذکر البعض أنّ (الجدال) فی الأصل بمعنی المصارعة والسعی للتغلب علی الآخر وطرحه علی الأرض، وبما أنّ الشجار اللفظی والکلامی یشبه هذا المعنی إلی حدٍ کبیر استخدمت هذه الکلمة فی هذا المعنی. وبالطبع فإنّ الجدال علی قسمین: الجدال بالحق والجدال بالباطل، والأول ممدوح والثانی مذموم، ومن ذلک نجد أنّ القرآن الکریم یقول فی مورد: «وَجادِلهُم بِالّتِی هِی أَحسَن» «۱». وهنا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله مأمور بجدالهم بالحق وورد ذلک إلی جانب الحکمة والموعظة الحسنة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۳ أمّا الجدال بالباطل فهو ما ورد فی الآیات المذکورة آنفاً من أنّ بعض الأشخاص یتحرّکون فی کلامهم ونقاشهم من موقع التعصب والعناد، وبذلک ینکرون أوضح دلائل الحق من خلال هذا الجدال، وأمّا (المراء) علی وزن حجاب، فهو بمعنی المحادثة والمکالمة فی شیء یکون فیه مریة أی شک وترديد، ویقول الراغب فی مفرداته: إنّها فی الأصل من (مریت الناقة) أی حلبتها، ثم قیلت لکل کلام یکون فی موضوعه الشک والترديد (ولعل ذلک یتناسب مع کون الإنسان متردداً فی وجود اللّبن فی ضرع الناقة أو لا) وذهب بعض إلی تعبیر أدق من ذلک حیث یری أنّ الجذر الأصلی لهذه الکلمة فی قولهم (مریت الناقة) هو فیما لو حلبت الناقة قبل ذلک ثم جاء أحدهم بأمل أن یکون من اللبن بقیة فی الضرع فیحلبها مع هذا الشک والترديد، وهکذا أطلقت علی المناقشة الکلامیة فی البحوث المقترنة مع الشک. ولکن هذه المفردة استخدمت بعد ذلک فی کل نوع من البحث الکلامی وعن أی موضوع کان محل شک وترديد سواءاً کان بحثاً إیجابیاً وطلباً للحق، أو کان بدافع من العناد والخصومة واللجاجة. ومن الموارد التی استخدم فیها المراء بالمعنی الإیجابی ما ورد فی الآیة الشریفة ۲۲ من سورة الکهف حیث تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله حول مجادلته عن أصحاب الکهف مع مخالفیة وتقول: «فَلا تُمارِ فِیهِمْ الَّا مِراءً ظاهِراً» «۱». أمّا الموارد المستعملة فی المعنی السلبی فکثیرة ومنها ما تقدم من الآیات أعلاه. والجدیر بالذکر أنّ مفردة (مریة) علی وزن جزیة وقریة، بمعنی الترديد فی العزم والتصمیم، وبعض ذهب إلی أنّها بمعنی الشک المقترن بقرائن التهمة مثل (الریبة).

الجدال والمراء فی الروایات الإسلامیة:

نظراً إلی أنّ الجدال بالباطل یتسبب فی إخفاء الحق وزیادة عناصر التعصب والخشونة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۴ وما یترتب

علی ذلک من المفاسد والاضرار الکثیرة، نری أنّ الروایات الإسلامیة قد نهت عن الجدال والمراء بشدّة خاصّة إذا کان بالنسبة إلی الامور الدینیّة ومن ذلک: ۱- ما ورد عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ما ضَلَّ قَومٌ بَعدَ أنْ هَداهُمُ اللَّهُ إلّااوتُوا الجَدَلَ» «۱». ۲- وهذا المضمون ورد أیضاً فی حدیث آخر مع تفاوتٍ یسیر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً حیث قال: «ما ضَلَّ قَومٌ إلّاأُوتُوا بالجَدَلَ» «۲». ۳- وقد ورد فی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی دِینِهِ اولئِکَ مَلعُونُونَ عَلی لِسانِ نَبِیِّهِ» «۳». ۴- وفی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أیضاً أنّه قال: «الجَدَلُ فِی الدِّینِ یُفسِدُ الیَقِینَ» «۴». ۵- فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «إیّاکُم وَالخُصُومَةَ فِی الدِّینِ فَإنَّها تُشغِلُ القَلبَ عَنْ ذِکرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَتُورثُ النِّفاقِ، وَتَکسِبُ الضَّغائِنَ، وَتَستَجِیرُ بالکِذبَ» «۵». والتعبیر بالخصومة فی الدین رغم أنّها لا تنطوی تحت عنوان الجدال ولکنّها من الموارد الشبیهة بهذا المعنی. ۶- ونظیر هذا المعنی ما ورد عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام أنّه قال: «إیَّاکَ وَالخُصُومَةَ فَإنَّها تُورثُ الشَّکَّ وَتَحبِطُ العَمَلَ وَتُردِی بِصاحِبِها» «۶». ۷- ومن نصائح لقمان الحکیم لابنه فی ترک الجدال: «یا بُنَیَّ لاتُجادِلِ العُلَماءَ فَیَمقُتُوکَ» «۷». ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «مَنْ طَلَبَ الدِّینَ بِالجَدَلِ تَزَندَقَ» «۸». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۵ ۹- قال الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام لأحد أصحابه: «أَبلِغْ عَنِّی أَولِیائِی السَّلامَ وَقُلْ لَهُم أنْ لایَجعَلُوا لِلشَّیطانِ عَلی أَنفُسِهِم سَبِیلًا وَمُرهُم بِالصِّدقِ فِی الحَدِیثِ وَأَداءِ الأَمانَةِ وَمُرهُم بِالسُّکُوتِ وَتَرکِ‌الجِدالِ فِیما لایَعنِیهِم» «۱». ۱۰- نختم هذا البحث بحدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن نسبة الإیمان والمراء والجدال، حیث یقول: «لا یَستَکمِلُ عَبدٌ حَقِیقَةَ الإیمانِ حتَّی یَدَعَ المِراءَ وَالجَدَلَ وإن کانَ مُحِقّاً» «۲». أمّا المراء الذی سبق وأن قلنا بالفرق بینه وبین الجدال فحاصل الکلام هو أنّ الجدال یعنی کل شکل من أشکال الشجار اللفظی والنزاع الکلامی، فی حین أنّ المراء یأتی بمعنی المباحثة فی شیء یکون فیه شک وترديد، فتارة تکون هذه المباحثة بدافع من طلب الحق وتوضیح المطلب، واخری تکون بدافع من التعصّب‌واللّجاجة وإظهار التفوّق والفضل علی الطرف الآخر، وهذه الحالة مذمومة جداً، وفی الروایات الإسلامیة ینصب الذم علی هذا النوع من المباحثة اللفظیة، رغم عدم وجود تفاوت کبیر بینه وبین الجدال. ۱- ورد فی الحدیث الشریف معنی المراء بما تقدم أعلاه، فعن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قال: «لا یَستَکمِلُ عَبدٌ حَقِیقَةَ الإیمانِ حتَّی یَدَعَ المِراءَ وَالجَدَلَ وإن کانَ مُحِقّاً» «۳». وهذا إشارة إلی أنّ المناقشة والمنازعة اللفظیة من موقع اللجاجة وبدافع من إظهار التفوّق والفخر علی الآخر حتّی فی المسائل الحقّة تکون سبباً فی سقوط الإنسان علی المستوی الأخلاقی والعقائدی. ۲- وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أیضاً بواسطة عدّة أشخاص من الصحابة الذین قالوا: دخل رسول اللَّه یوماً علینا ونحن نتماری فی شیء من أمر الدین فغضب غضباً شدیداً لم یغضب مثله ثم قال: «إنّما هَلَکَ مَنْ کانَ قَبلَکُم بِهذا، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ المُؤمِنَ لا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۶ یُماری، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ المِماری قَدْ تَمَّتْ خَسارَتُهُ، ذَرُوا المِراءَ فَانا المِماری لاأَشفَعُ لَهُ یَومَ القِیامَةِ، ذَرُوا المِراءَ فَانا زَعِیمٌ بِثَلاثَةِ أَبیاتٍ فِی الجَنَّةِ فِی رِیاضِها وَأَوسَطِها وَأَعلاها لِمَنْ تَرَکَ المِراءَ وَهُوَ صادِقٌ، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ أَوَّلَ ما نَهانِی عَنهُ رَبِّی بَعدَ عِبادَةِ الأَوثانِ المِراءُ» «۱». ۳- وفی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ذَرُوا المِراءَ فَإنّه لاتَفهَمُ حِکمَتُهُ وَلا تُؤمَنُ فِتنَتُهُ» «۲». وهو إشارة إلی أنّ الشخص الممارى یری أنّه لم یعرف نفسه ولا الآخرین، ومثل هذا الشخص یعیش أجواء الحرمان من إدراک الحقائق الدینیة قطعاً. ۵- وجاء فی حدیث آخر أنّ رجلًا قال للإمام الحسین علیه السلام اجلس اناظرک فی الدین، فأجابه الإمام: «یا هذا أَنَا بَصِیرٌ بِدِینِی مَکشُوفٌ عَلَیَّ هُدای فَإن کُنتَ جاهِلًابِدِینِکَ فَاذهَبْ وَاطلُبهُ، مالِی وَللمُماراتِ وإنَّ الشَّیطانَ لَیُوسوِسُ لِلرَّجُلِ وَیُناجِیهِ وَیَقُولُ ناظِرِ النَّاسَ فِی الدِّینِ کَی لایَظُنُّوا بِکَ العَجزَ وَالجَهلَ»». ۶- وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَربَعٌ یُمِتْنَ القُلُوبَ الذَّنبُ عَلی الذَّنبِ وَکَثرَةُ مُناقَشَةِ النِّساءِ یَعنِی مُحادَثَتَهُنَّ وَمُماراتُ الأَحمَقِ تَقُولُ وَیَقُولُ وَلا یَرجِعُ إلی خَیرٍ وَمُجالَسَةُ المَوتی فَقِیلَ: یا رَسُولَ اللَّهِ وَما المَوتی قالَ: کُلُّ غَنِیٍ مُترَفٌ» «۴». ۷- جاء عن أمیرالمؤمنین قوله: «إیّاکُم وَالمِراءِ وَالخُصُومَةَ فَإنَّهُما یَمرُضانِ القُلُوبَ عَلَی الإخوانِ وَینبِتُ عَلَیهِما النِّفاقِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۷ ۸- ولهذا فقد ورد فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال فی خطاب له أمام حشدٍ من المسلمین:

«أورَعُ النّاسِ مَنْ تَرَكَ المِراءَ وَإِنْ كانَ مُحِقاً» «۱». ۹- وفی روایة عن الإمام أمیرالمؤمنین صلی الله علیه و آله أنّه قال: «جِماعُ الشَّرِّ اللِّجاجُ وَكَثرَةُ المِمارَاةِ» «۲». ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث آخر عن سلمان الفارسی عن النبی الأكرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «لا یُؤمِنُ رَجُلٌ حَتّی یُحِبُّ أَهلِ بَیتِی وَحَتّی یَدَعَ المِراءَ وَهُوَ مُحِقٌّ فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطابِ: ما عَلامَةُ حُبِّ أَهلِ بَیتِكَ؟ قالَ: هذا، فَضَرَبَ بِیَدِهِ عَلی عَلیِّ بنِ أَبِی طالِبٍ علیه السلام» «۳». ولا شك أنّ هذین الموضوعین یرتبطان ببعضهما برابطة وثیقة حیث ذكرهما النبی الأكرم صلی الله علیه و آله فی كلامه مقترنین، ولعل هذه الرابطة من جهة أنّ دلائل فضل الإمام علی وأهل بیته علیهم السلام إلی درجة من الوضوح والبداهة بحیث یقبلها كل إنسان یتحرّك من موقع الإنصاف ویبتعد عن الجدال والمراء والخصومة ویهدف إلی طلب الحقیقة. *** إنّ الروایات الشریفة فی ذمّ المراء كثیرة جدّاً، وما ذكر من الروایات العشر أعلاه إنّما هی نماذج وعیّنات من هذا الباب والنظر الدقیق فی هذه الأحادیث والروایات یكفی لكی یحیط الإنسان بأخطار هذا الخلق الذمیم وعواقبه الوخیمة وآثاره المخرّبة علی المستوی الفردی والاجتماعی.

الآثار السلبیة للجدال والمراء:

إنّ التأكیدات الكثیرة الواردة فی الآیات القرآنیة والروایات المتواترة الإسلامیة فی ذم الجدال والمراء والخصومة فی المباحثات الكلامیة إنّما هی من أجل أنّ أول نتائج هذا العمل المضرّة وهذا الخلق السیء هو التستّر والتغطیة علی الحقائق بحیث یجعل بین الإنسان وبین الحقیقة حجاباً سمیكاً وسحابة سوداء علی بصیرة الإنسان بحیث لا یدرك معها أوضح البدیهیّات ویتحرّك فی مناقشاته من موقع إنكار الامور الضروریة أو یدافع عن الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۸ بعض المواضیع التی تدعو للسخریّة، ولیس هذا إلّابسبب أنّ الإنسان عندما تتصاعد عنده روح الجدال وتشتد حرارة الكلام فیه فأنّه یقوم بإنكار كل ما لا یراه مصیباً فی نفسه ولا یتوافق مع كلامه. وبما مرّ علینا من الروایات الشریفة تقرّر أنّ الخصومة والجدال والمراء تمرض القلب فإنّه من الممكن أن تكون إشارة إلی هذا المعنی، لأنّ القلب یأتی بمعنی العقل، ومرض القلب بمعنی عدم درك الحقائق والواقعیات، ولذا رأینا فی الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّ الأشخاص الذین یعیشون الجدال والمراء تكون عاقبتهم ومصیرهم إلی الكفر، أو أنّ الجدال یسبب الشك فی دین اللّه وفساد الیقین، كل هذا إشارات لطیفة إلی ما تقدّم آنفاً من أضرار الجدال والمراء. والآخر من الآثار السلبیة لهذه الصفة الأخلاقیة الذمیمة هوإیجاد العداوة والبغضاء بین الأصدقاء ونسیان ذكر اللّه تعالی وجرّ الإنسان إلی الكثیر من أنواع الكذب فی الكلام حیث مرّت الإشارة إلی ذلك فی الأحادیث الشریفة السابقة، والسبب فی ذلك واضح، لأنّ الشخص الذی یرید إثبات تفوّقه علی أقرانه من خلال الجدال والمراء فإنّه یعمل علی تحریك الطرف الآخر ضدّه لیحمی وطیس النقاش وغالباً ما نجد فی كلامه عناصر التحقیر والسخریة بالطرف الآخر، وهذه من أسوأ أسباب النفاق وإیجاد العداوة بین الأشخاص وحتّی أنّه أحیاناً ومن أجل تبریر كلامه یتوسّل بأنواع الكذب، وهذا بحد ذاته بلاء كبیر آخر، ومجموع هذه الامور تؤدّی بالإنسان إلی الابتعاد عن اللّه تعالی ویسقط فی فخاخ الشیطان وشراكه وبالتالی یكون مصیره إلی الهلاك المعنوی والسقوط الإنسانی. ولهذا قرأنا فی الأحادیث السابقة أنّ الإنسان لا یصل إلی حقیقة الإیمان إلّاإذا ترك المراء والجدال حتی لو كان محقّاً، لأنّ النزاع اللفظی حتی فی مسائل الحق والدین یتسبب فی إیجاد أنواع الخصومات والعدوان وأحیاناً یجر الإنسان إلی ارتكابه الكثیر من الذنوب من قبیل: تحقیر المؤمن وإهانته بالكلام أو بالإشارة بالید والعین والكذب والتكبر وحبّ التفوّق وأمثال ذلك. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۴۹ مضافاً إلی هذا أنّ الجدال والمراء یذهب وقار الإنسان ویكسر من شخصیته ومروءته بحیث ینفتح علیه لسان الجهلاء إذا اشترك فی مجادلة معهم ویتسبب فی هتك حرمته والإهانة له، وإذا جادل العلماء فإنّه یذوق مرارة الهزیمة ویفتضح أمره ویكشف عن جهله وحقارته. ومن مجموع ما مرّ وكما قرأنا فی الروایات السابقة أنّ الجدال والمراء یعدّ أحد الامور الأربعة التی تؤدّی إلی مرض قلب الإنسان وروحه. فما أحسن بالإنسان أن یتباحث مع الآخرین من موقع المحبّة والصداقة والتواضع وبدافع من طلب الحق والحقیقة حیث یؤدّی ذلك

إلى زيـادة علمه ومعرفته والاسـتفادة من علوم الآـخرين لإيضـاح الحقيقـة أكثر وحل المشاكل العلميّـة العويصـة والقيود المعرفيّـة التى بأمكانها أن توصل الإنسان إلى أجواء المعرفة والإطّلاع على المجهول، وهذا هو الجدال بالحق.

دوافع الجدال والمراء:

ونظراً إلى وجود علاقـة وثيقة بين الصـفات الرذيلة فى واقع الإنسان حيث ترتبط غالباً فيما بينها بعلاقة العلّة والمعلول، يتّضح من ذلك أنّ هـذه الصـفة الذميمـة، أى الجـدال والمراء والخصومـة من موقع الجهالة، تنشأ من صـفات قبيحة اخرى: ١- إنّ من العوامـل المهمّة للجـدال والمراء هو حالـة الكبر والغرور فى النفس والتى لاـ تسـمح للإنسان أن يـذعن أمام الحق، بل تـدفعه لغرض حفظ التفوّق على الطرف الآخر إلى سـلوك طريق الجـدال والمراء وإنكار ما يتّضـح له أنّه الحق، ولذلك ورد فى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السـلام عن آبـائه الكرام عليهم السـلام: «إنّ مِنَ التَّواضُعِ أنْ يَرضـى الرَّجُلُ بِالمَجلِسِ دُونَ المَجلِسِ وَأنْ يُسَـلِّمَ عِلى مَنْ يَلقى وَأنْ يَترُكَ المِراءَ وَإنْ كـانَ مُحِقّاً وَلاـ يُحِبَّ أنْ يُحمَـدَ عَلَى التَّقـوى «١». الاخلاـق فى القرآن، ج٣، ص: ٢٥٠ ٢- وأحـد الدوافع الاخرى للجـدال والمراء والنزاعـات اللّفظيـة هو الظهور بمظهر العـالم المتفوّق وإظهـار الفضـل على الآـخرين، وهـذه الحالـة متداولـة كثيراً فى أجواءنا الاجتماعية وخاصّة فى المجلس الذى يحضره جماعة من العوام ويريد هذا الشخص أن يظهر نفسه وفضيلته أمامهم أو يريد أن يفتـح له مكاناً بين أرباب العلم والمعرفـة، وجاء فى الحـديث الشـريف الـذى ذكرناه سابقاً عن الإمام الحسـين عليه السـلام قوله: «وإنَّ الشَّيطـانَ لِيُوسوِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنـاجِيهِ وَيَقُولُ نـاظِرِ النَّاسَ فِى الـدِّينِ كَى لاـيَظُنُّوا بِـكَ العَجزَ وَالجَهلَ» «١». وفى حـديث آخر عن الإمـام الصـادق عليه السـلام حيث يقسّم طلّاب العلم إلى ثلاثـة أقسـام، وطائفـة منهم طلبـوا العلم للجـدال والمراء، وطائفـة اخرى للفخر على النـاس، وثالثـة لغرض فهـم الحقيقـة والتعلّم والعمل بـذلك، ثمّ يصف الإمام حال الطائفـة الاولى ويقول: «فَصاحِبُ الجَهلِ والمِراءِ مُوذٍ مُمـارٍ مُتَعَرِّضٍ لِلمَقالِ فِى أندِيـةِ الرِّجالِ». وفى ذيل هـذا الحـديث الشـريف يلعن الإمام مثل هـذا الشـخص ويقول: «فَـدَقَّ اللَّهُ مِنْ هـذا خَيشُومَهُ» «٢». ٣- ومن الدوافع الاخرى للجدال والمراء والتعصّب الكلامى هو الجهل بمقام الذات ومقام الآخرين، لأنّه يرى نفسه أكبر وأعلم من واقعه ويرى الآخرين يعيشون الجهل وعدم العلم، ولذلك ورد فى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السـلام والذى ذكرناه فيما سـبق بعـد أن يعـدّ الإمام المراء بأنّه أحد الأمراض الخطرة لقلب الإنسان وأنّه من الأخلاق الشـيطانية يقول: «فَلا يُمارِى فِى أَىِّ حالٍ إلّامَنْ كانَ جاهِلًا بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ» «٣». ۴ و ۵- حبّ الانتقام والحسد يعتبران من العوامل المهمّة الاخرى التى تدفع بالإنسان إلى الجـدال والمراء، فلغرض تسـقيط شخصـية الطرف المقابل والانتقام منه وإشـباع حالة الحسد فى نفسه أو تضـعيف مكانة الطرف الآخر أمام الانظار فإنّه يسـتخدم أداة الجـدل الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٢٥١ والبحث العلمى المقترن مع الأهانة والتحقير ليسـتطيع بهذه الوسـيلة أن يروى ظمأه إلى الانتقام من الطرف الآخر ويصب الماء على نار الحقـد والحسد المسـتعرة فى قلبه. ۶- ومن العوامل المهمّة الاخرى التعصّب واللّجاجة، لأنّ الشخص المتعصّب واللّجوج غير مستعد أن يقبل التنازل عن عقائده الفاسدة بسهولة، ولذلك يجد فى نفسه تعصّبا للتوقف عليها وحفظها والـدفاع عنها بالمجادلة والبحث الكلامى ويتشـبّث بكل وسـيلة لإثبات صـحّة كلامه وبطلان كلام الطرف الآـخر، وهـذا هو ما نجـده فى سـلوك الكثير من الكفّار والمشـركين أمام رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء الكرام عليهم السـلام حيث تقـدّم مثال واضـح لـذلك من مباحثـة عبـدة الأوثان ونمرود مع النبى ابراهيم عليه السـلام، وذلك عنـدما وجـدوا أنفسـهم أمام الكلام المنطقى والرصـين لأبراهيم عليه السلام فوقعوا فى حيرة من الأمر وانتبهوا مؤقتاً من نوم الغفلة ولكن حالة التعصّب واللّجاجة أسـدلت على عقولهم وقلوبهم سـحابة ظلمانيـة منعتهم من قبول الحقيقـة والإذعان وانطلقوا مرّة اخرى فى تأكيـد معتقداتهم السـخيفة من موقع الدفاع عنها بالأدلة الواهية والجدال الأجوف. ٧- ومن العوامل المهمّـة للجدال والمراء أيضاً (حبّ الدنيا) الذى يعدّ عاملًا أساسياً لجميع الـذنوب أو أكثرها، فالأشـخاص الذين يعيشون هذه الصـفة الرذيلة يريدون كسب المقام والوجاهة الاجتماعية من خلاـل سـلوك هـذا الطريق لإثبات أعلميّتهم وذكائهم وبـذلك يتمكّنوا من نيل أهـدافهم الدنيويـة وتحصـيل بعض المقامات الوهميّة

والعناوين الزائفة. وخلاصة الكلام هى أنّ العوامل السلبية الكثيرة تتفق مع بعضها لدفع الإنسان إلى الخوض فى الجدال والمراء بعيداً عن الأدب والخلق الإنسانى والإنصاف وتجرّه إلى الدخول فى دائرة اللّجاجة والعناد أمام الحق والدفاع عن الباطل.

أقسام المراء والجدال:

يمكن تقسيم الجدال والمراء إلى قسمين: الجدال والمراء على المستوى الإيجابى، أى أن يتباحث مع الآخرين على مستوى البحوث المنطقية لغرض تبيّن الحقائق وتوضيح ما أشكل من المسائل الغامضة والاطّلاع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۲ على نظرات الآخرين والوصول إلى الواقعيات من هذا الطريق. أمّا المراء والجدال على المستوى السلبى فيعنى المباحثات والنزاعات الكلامية التى تنطلق بوحى من عقدة الخصومة والتى لا- تهدف إلى غرض معيّن وصحيح ولا- تسير فى خط تبيين الحقائق، بل الهدف منها هو تكريس الخصومة والتعصّب واللّجاجة وإثبات التفوّق وإظهار الفضل على الآخرين. وهذا التقسيم نجده منعكساً فى آيات القرآن الكريم حيث يقول فى الآية ۴۸ من سورة العنكبوت: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول فى مكان آخر فى الآية ۱۲۵ من سورة النحل: «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول فى مكان آخر فى مقام الذم لجماعة من الكافرين: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ». وأمّا فى مورد المراء الإيجابى فنقرأ فى (قصة أصحاب الكهف) وعددهم قوله تعالى: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً» «۱». أى بالنسبة إلى عدد أصحاب الكهف فلا ينبغى أن تتباحث حولهم إلّابالكلام المنطقى المقترن بالدليل. وأمّا فى مورد المراء السلبى فيقول تعالى: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» «۲». وهناك تقسيمات اخرى أيضاً على حسب الأشخاص فى طرفى المباحثة وكذلك بالنسبة إلى المواضيع والمسائل التى تدور فى أجواء البحث والجدال. ومن ذلك أن يكون طرف المناظرة إنساناً عاقلًا وفاهماً لكى تكون المباحثة معه مثمرة من خلال الاستدلال المنطقى والعلمى كما ورد فى وصيّة أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «دَعْ الْمُمارَاةَ وَمُجارَاتَ مَنْ لاعَقلَ لَهُ وَلا عِلمَ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۳ ويجب أن يكون المناظر إنساناً مطّلعاً على الامور، لأنّ الأشخاص الذين يعيشون الجهل بالامور إذا أرادوا الدفاع عن الحق والورود فى ميدان المجادلة، فإنّهم وبسبب ضعف معلوماتهم وقلّة إطّلاعهم سوف يذوقون الهزيمة ويغلبوا فى هذه المبارزة، وبالتالى ينعكس ذلك سلبياً على الحق والحقيقة. ولذلك نقرأ فى الحديث الشريف أنّ محمد بن عبداللّه المعروف بالطيّار جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «بَلَغَنِي أَنَّكَ كَرِهتَ مُناظَرَةَ النّاسِ»، قال الإمام عليه السلام: «أَمّا كَلامُ مِثلِكَ فَلا يَكرَهُ، مَنْ إِذا طارَ يَحسُنُ أَنْ يَقَعَ وإِنْ وَقَعَ يَحسُنُ أَنْ يَطِيرَ، فَمَنْ كانَ هكَذا لانَكرَهُهُ» «۱». أمّا لقب الطيّار الذى يطلق على هذا الصحابى المعروف للإمام الصادق عليه السلام، فهو إشارة إلى هذا المعنى أيضاً، لأنّه كان قوياً جدّاً فى مجال المباحثة والجدل وكان يتحرّك فى دفاعه عن الحق بكل قدرة ومهارة. وهنا ينبغى على جميع الأشخاص الذين ليس لديهم إطّلاع كافٍ حول مسائل الدين ومعارفه العميقة ولا يجدون فى أنفسهم القدرة على الدفاع عنه أن لا يدخلوا فى مناظرة ومباحثة مع المخالفين، لأنّهم سوف ينهزمون فى هذه المباحثة، وهزيمتهم توجب وهن مبانى المذهب الحق فى نظر الآخرين. ومن هنا فإنّ الافراط والتفريط غالباً موجود فى سلوكيات هؤلاء الأفراد الجهلاء، فهناك الأشخاص الذين يسلكون طريق الافراط عن جهل ويقولون: بما أنّ الجدال والمراء مذموم فى الإسلام ومحرّم بشدّة، فنحن لا ندخل فى أى بحث علمى وكلامى مع أى شخص من الأشخاص حتّى لو كان البحث مستدلًا ويقوم على قواعد منطقية من الأدلة والبراهين فى طريق إثبات الحق والدفاع عنه، ويختارون السكوت بدل البحث أو الاستدلال، ويسمّون ذلك من باب القيل والقال. وهذا أيضاً انحراف كبير عن جادّة الصواب، لأنّ تبيّن الحقائق لا يتسنى إلّافى ظلّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۴ البراهين المنطقية والدلائل المتينة، وإيصاد هذا الطريق على الناس يعنى حرمانهم أو حرمان طائفة كبيرة منهم من الوصول إلى الحقائق وتحصيل الواقعيّات. ونختم هذا الكلام بحديث جميل عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام عن جدّه الإمام الصادق عليه السلام حيث وقعت فى محضره مجادلة كلامية فى أمر الدين وأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا قد نهوا عن ذلك، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمْ يَنهَهُ عَنْهُ مُطلَقاً

لَكِنَّهُ نَهى عَنْ الجِدالِ بِغَيرِ الَّتِى هِى أَحسنِ، أما تَسمَعُونَ اللَّهَ تَعالى يَقُولُ: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» «۱»، وَقَوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِوَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» «۲»، فَالجِدالُ بِالَّتِى هِى أَحسَنُ قَد قَرَنَهُ العُلَماء بِالدِّينِ وَالجِدالِ بِغَيرِ الَّتِى هِى أَحسنُ مَحرمٌ وَحَرَّمَهُ اللَّهُ تَعالى عَلى شِيعَتِنا، وَكَيفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ الجِدالَ جملَةً وَهُوَ يَقُولُ: «وَقَالُوا لَن يَدخُلِ الجَنَّةَ إِلّامَنْ كانَ هُوداً أو نصارى ، قالَ اللَّهُ تعالى «تِلكَ أَمانِيهِم قُل هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» «۳». فَجَعلَ عَلمَ الصِّدقِ والإيمانِ بِالبُرهانِ وَهَل يُؤتى بِالبُرهانِ إلّافِى الجِدالِ بِالَّتِى هِى أحسَنُ؟ قِيل: يا ابنَ رَسُولِ اللَّهِ فَما الجِدالِ بِالَّتِى هِى أَحسَن وَالَّتِى لَيسَتْ بِأَحسَنَ؟ قالَ: أَمّا الجِدالَ بِغَيرِ الَّتِى هِى أَحسنُ أَن يُجادِلَ مُبطلًا فَيُورِدُ دَلِيلًا باطِلًا فَلا تَردَّهُ بِحُجَّةٍ قَد نَصَبَها اللَّهُ تعالى وَلكن تَجحَد قَولَهُ ... وَأَمَّا الجِدالُ بِالَّتِى هِى أَحسَنُ فَهُوَ ما أَمَرَ اللَّهُ تعالى بِهِ نَبِيَّهُ أَن يُجادِلَ بِهِ مَنْ جَحَدَ البَعثَ بَعدَ المَوتِ وَإِحياءُهُ لَهُ فَقالَ اللَّهُ حاكِياً عَنهُ: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْىِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيم* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» «۴» «۵».

طرق علاج هذه الرذيلة الأخلاقية:

كلّما وجد الإنسان نفسه يعيش حالة الخصومة فى مباحثة مع الآخرين ويكثر من الجدل والبحث العقيم وبتعبير الروايات: الجدال غير الحسن بحيث أصبح هذا السلوك بمثابة العادة والخلق له، فإنّ إيمانه وتقواه ودينه يتعرّض لخطر الذوبان والمحق، وينبغى عليه الاسراع فى انقاذ نفسه من هذه الرذيلة والتخلّص من هذا الخلق الذميم والتحرّك بصدد العلاج قبل أن تتجذّر هذه الصفة فى أعماق نفسه. والطريق الأول للعلاج ولعلّه يعدّ من مقدمات العلاج لتسكين هذه الحالة المؤذية كيما يتسنى للإنسان علاجها فيما بعد هو اختيار السكوت فى كل مورد يحتمل فيه أن يكون الجدال بالباطل، وكلّما استمر هذا السكوت مدّة أطول وتحمّل الضغط النفسى وتحدّيات الحالة المزاجية، فإنّ ذلك سيوفّر الأرضية المساعدة للتخلّص من شرّ هذه الحالة السلبية ومعالجة هذه الصفة فى النفس. وطبعاً فإنّ السكوت يعدّ علاجاً للكثير من الرذائل (من قبيل الحسد والحقد والنميمة والرياء وكفران النعمة والتهمة والكذب وحبّ التفوّق وغيرها من الرذائل الأخلاقية التى تتجلّى فى سلوك الإنسان من خلال الكلام والنطق) فالسكوت يمكنه أن يكون عنصر الوقاية من جميع هذه الموارد، ولهذا السبب فإنّ الروايات الإسلامية قد مدحت السكوت كثيراً وقد تقدّم تفصيل هذا الموضوع فى الجزء الأول من هذا الكتاب. الطريق الآخر لعلاج هذه الفضيلة الأخلاقية هو التفكّر الدقيق فى النتائج السلبية والعواقب الوخيمة المترتبة على هذه الصفة من قبيل أن يكون الإنسان محجوباً عن درك الحقائق ويعيش فى زحمة الأوهام والتعصّبات والعداوات بين الأصدقاء ويبتعد بذلك عن حقيقة الإيمان وبالتالى سيكون مورداً للغضب الإلهى وزهوق شخصيته وسقوط حيثيته بين الخاص والعام. ومن اليقين أنّ التفكّر فى مثل هذه العواقب السيئة سيكون له تأثير عميق فى وقاية الإنسان عن الوقوع فى متاهة الجدال بالباطل، فكيف يمكن أن يعلم الإنسان بأنّ هذا الغذاء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۶ مسموم ويتناوله فى نفس الوقت؟ فالشخص الذى يتناول غذاء مسموماً هو الذى لا يدرك آثاره وعواقبه ولا يعلم بحاله. إنّ إصلاح جذور الخلل فى واقع النفس وتطهير الذات من الدوافع والنوازع التى تجرّ الإنسان للخوض فى الجدل يعدّ أحد طرق العلاج لهذا الخلق الذميم، وعندما نقول الدافع للجدال والمراء فهذا يعنى التكبر وحب التفوّق والتظاهر والحسد وحبّ الانتقام وحبّ الدنيا والتعصّب واللجاجة، ومن المعلوم أننا إذا استطعنا أن نبعد هذه الحالات السلبية والصفات الذميمة عن أنفسنا ونطهّر قلوبنا من أدرانها فإنّ ذلك من شأنه أن يقلع جذور حالة الجدال والمراء من النفس، ولكن مع وجود هذه الصفات فى أعماق النفس، فإنّ إزالة هذه الصفة الأخلاقية سيكون عسيراً جداً. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو إبتعاد الشخص عن الأفراد المتعصّبين والذين يحبّون الخوض بالباطل وكذلك الامتناع عن مناقشة مثل هؤلاء الأشخاص حيث سيجرّ الإنسان إلى الجدال والمراء وإن كان غير قاصد لذلك. وقد ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ جالَسَ الجاهِلَ فَلْيَستَعِدَّ لِقِيلٍ وَقالٍ» «۱». ومن البديهى أنّ الإنسان قبل كل ذلك يجب عليه أن يوقظ فى نفسه الإرادة والعزم القاطع على ترك المراء والجدال واجتناب هذه الرذيلة الأخلاقية، فاذا وجد الإنسان فى نفسه ذلك وعزم بجدية على ترك المراء فانّه سيفلح فى النهاية.

الإنصاف فى الكلام:

النقطة المقابلة للمراء والجدال هى الانصاف فى البحث والكلام، أى أنّ الإنسان ينظر إلى كلام الآخرين كما ينظر إلى كلامه ويدافع عنه كما يدافع عن كلامه، وبتعبير آخر أن يكون طالباً للحق فيبحث عنه ويطلبه من أى شخص كان ومن كل مكان حتّى لو كان الناطق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۷ به شخصاً من العوام وكان هو عالماً كبيراً ومعروفاً، بل حتى لو سمع كلام الحق من طفل أو كافر أو ظالم فعليه قبوله من موقع الإذعان للحق والحقيقة. وأمّا الانصاف فى الروايات الإسلامية الذى ورد الثناء البالغ عليه فالمراد منه أن يرى الشخص مصالح الآخرين كمصالحه، ولكن أحد أغصان شجرة الانصاف هو الانصاف فى الكلام، حيث ورد فى الحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «سَيِّدُ الأَعمالِ ثَلاثَةٌ: إِنصافُ النّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتّى لاترضى بِشَيءٍ إلّارَضِيتَ لَهُم مِثلَهُ وَمُواساتِكَ الأَخَ فِي المَالِ وَذِكْرُ اللَّهِ عَلى كُلِّ حالٍ» «۱». والملفت للنظر أنّ بعض الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام تتحدّث عن أنّ الإمام عندما ضمن أربعة قصور فى الجنّة لمن يعمل أربعة أعمال، فإنّه عدّ ترك المراء ثالث عمل وانصاف الناس من النفس العمل الرابع، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الانصاف فى الكلام.

النميمة وإصلاح ذات البين

تنويه:

إنّ الحياة الاجتماعية تتزامن دائماً مع أشكال التضاد والنزاع بين أفراد المجتمع، وأحد فروع التضاد والتزاحم بين الأفراد هو النزاع الكلامى الذى قديمتد ويتعمّق إلى أن يصل إلى شجار وصراع بين الأطراف وقد يصل أحياناً إلى سفك الدماء أيضاً. فالواجب على أفراد المجتمع أن يتحرّكوا من موقع إصلاح ذات البين ورفع سوء التفاهم وتهيئة الأرضية لايجاد جو حسن الظن بين الأطراف المتنازعة وكما فى الاصطلاح: يصبوا الماء على نار الصراع ويعملوا على تهدئة التوتر الناشىء من حالات الشجار والتضاد. ولكن مع الأسف فإنّ بعض الناس وبدوافع مختلفة يتحرّكون على العكس من هذا الاتّجاه وكأنّهم يريدون صبّ الزيت على النار ويرغبون فى إتساع دائرة الحريق، ومن المعلوم أنّهم سيشتركون فى جميع المفاسد المترتبة على هذا النزاع والصراع بين أفراد المجتمع، هؤلاء يتحرّكون فى هذا الاطار على مستوى إيصال كلام هذا الطرف إلى الطرف الآخر وبالعكس وقد يضيفون بعض الكلام من أنفسهم ويوصلونه إلى الطرف المتخاصم، وهذا هو معنى (النميمة) التى هى من أسوأ الأخلاق الذميمة فى النفس البشرية فى حين أنّ الفئة الاولى هم المصلحون الاجتماعيون الذين يعدّ عملهم فى مرتبة الجهاد فى سبيل اللّه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۰ وقد ورد فى الروايات الشريفة أنّه: «أنَّ أَجرَ المُصلِحِ بَينَ النّاسِ كَأجرِ المُجاهِدِ بَينَ أَهلِ الحِربِ» «۱». إنّ النميمة كلّما تكرّرت فى سلوك الفرد فإنّ من شأنها أن تكون خلقاً وملكة وسجيّة فى هذا الإنسان، ومن رذائله الأخلاقية القبيحة، وقد وردت فى الآيات الكريمة والروايات الإسلامية إشارات كثيرة إلى هذه الرذيلة الأخلاقية على مستوى ذمّها وتقبيح المرتكب لها، وعلى العكس من ذلك فقد ورد المدح الكثير لعملية إصلاح ذات البين. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من اياته ما يتعلق بهاتين الصفتين الأخلاقيتين ثمّ نستعرض كل واحدة منهما من موقع الدوافع والنتائج والآثار الإيجابية والسلبية وطرق علاج صفة النميمة وكذلك تقوية ضدّها وهى إصلاح ذات البين: ۱- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «۲». ۲- «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» «۳». ۳- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» «۴». ۴- «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً» «۵». ۵- «يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۶». ۶- «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۷». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۱ ۷- «لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ

نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً». «۱» ۸- «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۲».

تفسير واستنتاج:

«الآيـة الاولى»: تحـذّر الأشـخاص الـذين يتحرّكون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع السـخرية والإسـتهزاء: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ». أمّا تفسير (همزة) و (لمزة) والفرق بينهما هناك كلام كثير بين المفسّرين وقد تحدثنا عنه فى التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، والمهم هو أنّه على أحد التفاسير فإنّ المراد من الآية أعلاه هو الإشارة إلى الأشخاص الذين يتحرّكون على مستوى النميمة بين الأفراد، وقد سئل ابن عباس عن المقصود من هـذه الآيـة، ومن هم هؤلاء الـذين يهـدّدهم اللَّه تعـالى بالويـل، فقال: ابن عباس: «هُم المَشاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المَفَرِّقُونَ بَينَ الأَحِبَّةِ النَّاعِتُونَ لِلنّاسِ بِالعَيبِ». ويذكر المرحوم الطبرسى فى (مجمع البيان) هذا المعنى بعنوان أول تفسير له لهذه الآية، والفخر الرازى يذكره بعنوان التفسير التاسع والأخير لهذه الآية، ونظراً للمفهوم الواسع الذى يدخل فى مضـمون (همزة ولمزة) فإنّ كل أشكال الغيبة والنميمة والسخرية تندرج تحت مفهوم هذه الآية، وهنا نرى أنّ اللَّه تعالى قد وعد هؤلاء الأشخاص بالعقاب الشديد وهو (الحطمة) وهى النار التى سعّرها اللَّه تعالى فى قلوب هؤلاء بحيث تندلع من قلوبهم لتستوعب كل وجودهم. ويستفاد من هذه الآية أنّ نار الآخرة بخلاف نار الدنيا، فإنّها تنبع من داخل النفس وأعماق القلب ثم تسرى إلى الظاهر، ولعلّ ذلك بسبب أنّ الرذائل الأخلاقية والأعمال الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۲ القبيحة تنبع من ذات الإنسان وأعماقه ثم تظهر على السطح على شكل ممارسة عملية فى الواقع الخارجى. «الآيـة الثانيـة»: تخاطب النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وتنهاه عن إطاعة هؤلاء النمّامين بعد عدّة أقسام وتقول: «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» وتبعاً لهذه الصـفات الأخلاقية القبيحة تضـيف الآيات التالية صـفات اخرى من قبيل المنع من عمـل الخير، العـدوان، الحقـد، الخشونـة، الكفر بآيـات اللَّه تعالى، ثم تقول: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» وهكـذا سـيفتضح أمره فى الـدنيا والآخرة. أمّا ذكر النميمـة فى تسـلسل الرذائل المهمّة الاخرى وكذلك الكفر بآيات اللَّه تعالى يدل على قبح هذه الخصـلة الشـنيعة فى سلوك الإنسـان. وعبـارة «مشّـاءٍ بنميم» جـاءت بصـيغة المبالغـة، وهى إشارة إلى الأشـخاص الـذين يتحرّكون دائماً بين الناس بالنميمة ويثيرون العـداوة والبغضاء فيما بينهم، وهـذا بحدّ ذاته يعدّ من أهم الذنوب الكبيرة. (حلّاف) يطلق على الشـخص الذى يحلف ويقسـم باللَّه كثيراً، وعادة فمثل هؤلاء الأشـخاص لا يعتمـد الناس عليهم ولا هم يعتمـدون على أنفسـهم، ووصـفهم بكلمة (مهين) أيضاً شاهد آخر على هـذا المعنى، ولهذا فإنّهم وبدافع من شـعورهم بالحقارة والذلة يعيبون على الآخرين ويمشون بينهم بالنميمة والفساد وكأنّهم يتـألمون ممّـا يرون من المحبّـة والالفـة والتكاتف بين الناس ويريـدون ايقاع العـداوة والحقـد بين الأشـخاص كما هو حالهم فى أنظار الناس حيث ينظر الناس إليهم نظرة الحقارة والازدراء. «الآيـة الثالثة»: وطبقاً لسـبب نزولها المعروف تتحدّث عن (الوليد بن عقبة) الذى أرسـله رسـول اللَّه صـلى الله عليـه و آلـه لجمع الزكـاة مـن قبيلـة (بنى المصـطلق): إنّ رسـول اللَّه صـلى الله عليه و آله بعث إليهم بعد إسـلامهم الوليد بن عقبة بن أبى معيط، فلما سـمعوا به ركبوا إليه، فلما سـمع بهم هابهم فرجع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۳ إلى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فأخبره أنّ القوم قـد همّوا بقتله ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم فأكثر المسـلمون فى ذكر غزوهم حتّى همّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بأن يغزوهم، فبينما هم على ذلك قدِم وفدهم على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: «يا رسول اللَّه سمعنـا برسولـك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ما قبلنا من الصدقـة فانشـمر راجعاً فبلغنا أنّه زعم لرسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أنـا خرجنـا إليه لنقتله وواللَّه مـا جئنـا لـذلك، فأنزل اللَّه تعالى فيه وفيهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ»» «۱». فبعـث رسـول اللَّه صـلى الله عليـه و آله خالـد بن الوليـد وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق خالد حتّى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنّهم متمسـكون بالإسـلام، وسـمعوا أذانهم وصـلاتهم، فلما أصـبحوا أتاهم خالد ورأى صـحة ما ذكروه، فعاد إلى نبى اللَّه صلى الله عليه و آله فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبى اللَّه صلى

الله عليه و آله: «التَّأَنِي مِنَ اللَّهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطانِ» «۲». وطبقاً لحديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام فإنّ الآية محل البحث تشير إلى النمّام» .ومن هنا يتّضح أنّ النميمة تشمل الكذب أيضاً. «الآية الرابعة»: من الآيات محل البحث أوردها بعض العلماء كالعلّامة المجلسى فى بحث النميمة وقال: إنّ من يشفع شفاعة سيئة الوارد فى هذه الآية «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» له مفهوم واسع ويشمل النميمة أيضاً لأنّها شفاعة سوء بالحقيقة، بل هى أسوأ حيث يشعل النّمام نار العداوة بين الرجلين من المسلمين فيتحرّكوا فيما بينهما من موقع سوء الظن والحقد والكراهية، ولذلك ورد فى الحديث النبوى الشريف قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ أَمَرَ بِسُوءٍ أو دَلَّ عَلَيهِ أو أَشارَ فَهوَ شَرِيكٌ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۴ «الآية الخامسة»: تتحدّث عن إصلاح ذات البين والذى يقع فى النقطة المقابلة للنميمة وإفساد ذات البين، وتقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ». وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أنّها نزلت بعد غزوة بدر حيث حدثت بين رجلين من الأنصار مشاجرة لفظية على الغنائم الحربية، وصرّحت الآية بأنّ الغنائم الحربية أمرها بيد النبى صلى الله عليه و آله وعليكم أن تسعوا لإصلاح ذات البين وإزالة الفرقة والاختلاف بين المسلمين. «الآية السادسة»: تشير إلى الذين يجعلون اللَّه عرضة لأيمانهم فى تقواهم واصلاح ذات البين: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِايْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». وقد ورد فى تفسير هذه الآية رأيان: الأول: أنّ هذه الآية ناظرة إلى الأشخاص الذين تتملكهم الحدّة أحياناً فيقولون: سوف لا نفعل الخير أبداً لفلان وفلان، أو لا نتحرّك لغرض الإصلاح فيما بينهم، فنزلت الآية الشريفة وقالت إنّ هذه الإيمان باطلة فلا شىء يمكنه أن يمنع عمل الخير والإصلاح بين الناس (وقد ذكر لهذه الآية سبب لنزولها يؤيّد هذه الرؤية حيث ذكر أنّه حصل اختلاف بين زوجين أحدهما بنت أحد الصحابة ويدعى (عبداللَّه بن رواحة) وقد حلف هذا الصحابى أن لا يقدم على إصلاح ما بينهما من الخلاف والنزاع، ونزلت الآية وأكّدت على بطلان مثل هذا القسم). الثانى: هو أنّ هذه الآية تنهى عن القسم لغرض أعمال الخير والتقوى والإصلاح بين الناس، لأنّ رجحان مثل هذه الأعمال وفضلها إلى درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى القسم. وعلى أيّة حال فانّ أهميّة إصلاح ذات البين يتّضح من هذه الآية جيداً وخاصة أنّها ذكرت هذه الفضيلة إلى جانب أعمال الخير والتقوى والبر. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۵ تتحرك «الآية السابعة»: من موقع الحديث عن النجوى بين الأشخاص والذى قد يتسبب أحياناً فى أذى الآخرين وسوء ظنّهم، وأحياناً يوفّر الأرضية المساعدة لتنفيذ خدع الشيطان ولذلك تقول الآية: «لَاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ». ولكنّها تضيف مباشرة هذا الاستثناء: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً». إنّ استثناء مسألة إصلاح ذات البين من الذم للنجوى من جهة، وجعل الإصلاح إلى جانب الصدقة والمعروف من جهة اخرى، وكذلك بالوعد بالثواب العظيم عليه من جهة ثالثة كلّها شاهد على أهمية هذا الفعل والسلوك الإنسانى. أمّا ما الفرق بين الصدقة والمعروف؟ فقد ذهب البعض إلى أنّ الصدقة تعنى المعونة المالية بلا عوض، والمعروف هو القرض الحسن، وذهب بعض آخر إلى أنّ المعروف له مفهوم عام يشمل جميع أفعال الخير (وعليه تكون النسبة بين الصدقة والمعروف نسبة العموم والخصوص المطلق). وجاء فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ أحد أفضل الصدقات التى يحبّها اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله هو (إصلاح ذات البين) ويقول: «ألا أَدُلُّكَ عِلى صَدقَةٍ يُحبُّها اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصلِحْ بَينَ النّاسِ إذا تَفاسَدُوا وَتَقَرِّبْ بَينَهُم إذا تَباعَدُوا» «۱». وعليه فإنّ إصلاح ذات البين ذكر بشكل مستقل تارةً، واخرى بعنوانه أحد المصاديق البارزة للصدقة والمعروف، وبتعبير آخر أنّ إصلاح ذات البين هو المصداق الكامل للمعروف والصدقة فى هذا المورد. وجاءت «الآية الثامنة»: والأخيرة من الآيات محلّ البحث لتتحدّث عن منهج أحد الأنبياء العظام باسم (شعيب عليه السلام) حيث يبيّن للناس هدفه «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ»، وهذا الهدف يشترك فيه جميع الأنبياء الإلهيين على مستوى إصلاح العقيدة، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۶ إصلاح الأخلاق، إصلاح العمل، وإصلاح الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع. وذهب بعض المفسّرين فى تفسير كلمة الإصلاح أنّ مفهومها هو أنّنى اريد إصلاح دنياكم بالعدالة وآخرتكم بالعبادة، ولكن من الواضح أنّ الإصلاح له مفهوم واسع يستوعب العدالة وغيرها أيضاً. ثمّ إنّ الآية الشريفة تذكر أنّ النبى شعيب عليه السلام ولغرض التوفيق فى هذا الأمر المهم، أى إصلاح دين ودنيا الناس فى جميع الموارد

یطلب من اللّه تعالی التوفیق لذلک یقول: «وَمَا تَوْفِیقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ أُنِیبُ». واللطیف أنّ النبی شعیب علیه السلام قال هذا الکلام فی حین أنّ قومه کانوا قد غرقوا فی دوامة الفساد المالی والأخلاقی، بحیث کانوا یعدّون نهی شعیب إیّاهم عن عبادة الأصنام والتطفیف فی المیزان والفساد المالی مخالف لحریتهم ویقولون: نحن نتعجّب منک ومن عقلک أنّک ترید أن تقف أمام حرّیتنا علی مستوی الفکر والعمل، وکأنّهم مثلما نجده من بعض الناس فی هذا الزمان الذین لا یدرکون جیداً المفهوم الصحیح للحرّیة ولا یعلمون أولا یریدون أن یعلموا أنّ الحریة التی یفتخر بها الإنسان لابدّ وأن تکون مؤطّرة باطار القیم الأخلاقیة والمثل الإنسانیة وإلّا فإنّ مصیر الناس إلی الضلال والانحراف والسقوط، وبذلک أجابهم النبی شعیب علیه السلام أنّ هدفی هو الإصلاح بالمعنی الواقعی للکلمة لا الاستسلام لأهوائکم وطموحاتکم الدنیویة. والملفت للنظر أنّ قوم شعیب وصفوا نبیّهم بأنّه إنسان عاقل ورشید «إِنَّکَ لَأَنْتَ الْحَلِیمُ الرَّشِیدُ»، ولکنّهم بمجرد أن رأوا هذا النبی یقف أمام مطامحهم ویتصدّی لإصلاح فسادهم المالی والعقائدی، فإنّهم برزوا له بالمخالفة والعناد. ومن مجموع الآیات أعلاه تتّضح نقطتین مهمّتین: الاولی: هی أنّ النمیمة والسعی لإیجاد الاختلاف بین الناس یعدّ من أکبر الذنوب وأقبح الصفات الأخلاقیة الرذیلة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۶۷ الثانیة: أنّ الإصلاح بین الناس یعدّ أحد الوظائف المهمّة الإلهیة والإنسانیة والتی لا یمکن إهمالها والتغاضی عنها بأی دلیل.

النمیمة فی الروایات الإسلامیة:

نظراً لأنّ النمیمة تعدّ أشنع الظواهر الاجتماعیة التی تنخر فی مفاصل المجتمع البشری وتکون مصدراً ومنبعاً لکثیر من المفاسد الاخری وحتی القتل وسفک الدماء، فلذلک نجد أنّ الأحادیث الإسلامیة قد نهت عن هذا السلوک الذمیم بشدّة وجاء فی مضامین هذه الروایات ما یثیر العجب من وخامة هذه الظاهرة وبشاعة هذا السلوک ومنها: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال یوماً لأصحابه: «أَلا انَبِّئُکُم بِشَرارِکُم، قَالُوا: بَلی یا رَسُولَ اللَّهِ، قالَ: المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِیمةِ وَالمُفَرِّقُونَ بَینَ الأَحِبَّةِ الباغُونَ لِلبُرآءِ المَعایبِ» «۱». النمیمة بمعنی الصوت الواطیء الهادیء والذی یصدر من حرکة شیء أو اصطدام قدم الإنسان فی الأرض حال المشی، وبما أنّ النّمام عادة یتحدّث من موقع النمیمة بهدوء وإخفات لکی یلقی فی نفس السامع أنّه یحمل إلیه خبراً مهمّاً، ولذلک أطلقت هذه الکلمة علی النّمام ومن یسعی بین الأشخاص من موقع التفرقة وإثارة الاختلاف «۲». وذهب البعض إلی أنّ النمیمة فی الأصل بمعنی تزیین الکلام الباطل والکاذب (لأنّ الشخص النّمام یسعی إلی أن یلبس لکلامه الکاذب لباساً جمیلًا) «۳». وشبیه هذا المعنی ورد أیضاً عن أمیرالمؤمنین علیه السلام «۴». ۲- وجاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «الجَنَّةُ مُحَرَّمَةٌ عِلی القَتاتِینَ المَشَّائِینَ بِالنَّمِیمَةِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۶۸ «قتّات» من مادة قت (علی وزن شط) وهی فی الأصل بمعنی الکذب وإستراق السمع، سواءاً کان یحمل فی طیّاته النمیمة أم لا، وعلیه فإنّ القتّات هو الشخص الذی یرید أن یطّلع علی أسرار الناس ویسعی بینهم لإفساد ذات البین والذی یقترن أحیاناً بالنمیمة أیضاً. وقد ورد فی بعض الروایات وکتب اللغة أنّ القتّات والنّمام بمعنی واحد. ۳- وجاء فی حدیث آخر عن أبی ذر رضی الله عنه عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یا أَبا ذَر صاحِبُ النَّمِیمةِ لایَستَرِیحُ مِنْ عَذابِ اللَّهِ فِی الآخِرَةِ» «۱». ۴- وورد فی حدیث آخر تعبیر أشدّ عن الأشخاص النّمامین حیث قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی أحد خطبه: «وَمَنْ مَشی فِی نَمِیمَةٍ بَینَ إِثنَینِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَیهِ فِی قَبرِهِ ناراً تُحرِقُهُ إِلی یَومِ القِیامَةِ» «۲». ۵- وفی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَصابَ بَنِی إِسرائِیلَ قَحطٌ فاستَسقی مُوسی مَرات فَما اجِیبَ فَأَوحی اللَّهُ تَعالی إِلَیهِ إِنی لاأَستَجِیبُ لَکَ وَلِمَنْ مَعَکَ وَفِیکُم نَمَّام قَدْ أَصَرَّ عَلی النَّمِیمَةِ، فَقالَ مُوسی یارَبِّ مَنْ هُوَ حَتّی نُخرِجُهُ مِنْ بَینِنا؟ فَقالَ: یا مُوسی أَنهاکُم عَنْ النَّمِیمَةِ وَأَکُونَ نَمّاماً فَتابُوا بِأَجمَعِهِم فَسُقُوا» «۳». ۶- وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق أنّه قال: «أَربَعَةٌ لایَدخُلُونَ الجَنَّةَ: الکَاهِنُ وَالمُنافِقُ وَمُدمِنُ الخَمرِ وَالقَتَّاتُ وَهُوَ النَمامُ» «۴». ۷- ورد عن أمیر المؤمنین صلی الله علیه و آله قوله: «النَّمامُ جِسرُ الشَّرِّ» «۵». ۸- وفی حدیث آخر عن الإمام صلی الله علیه و آله نفسه أنّه قال: «لا تَجتَمِعُ أَمانَةٌ وَنَمِیمَةٌ» «۶» ، أی الشخص النمّام هو خائن أیضاً. الاخلاق فی

القرآن، ج۳، ص: ۲۶۹ ۹- ونختم البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب، قال: «إنَّ أَحَبَّكُم إلى اللّهِ الّذِينَ يُؤلَفُونَ وَيَأْلِفُونَ وإنَّ أَبْغَضَكُم إلى اللّهِ المَشاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَينَ الإخوانِ» «۱». ومن مجموع هذه الأحاديث يستفاد جيداً أنّ النميمة تعتبر من الذنوب الكبيرة والخطرة جدّاً وتسبب خسران الدنيا والآخرة، والأشخاص الذين يرتكبون هذا الفعل الشنيع ويفرّقون بين الأحبّة والأقرباء لا يرون سيماء الجنّه أبداً إلّاأن يتوبوا من ذنوبهم ويتحرّكون على مستوى جبران أعمالهم وإصلاح ما أفسدوه، ومن خلال هذه الروايات نرى إشارات عميقة إلى حكمة تحريم هذا العمل السيء وآثاره السلبية على الفرد والمجتمع حيث سيأتى تفصيل ذلك فى الأبحاث اللاحقة أيضا.

النتائج السلبية للنميمة:

سبق وأن قلنا أنّ الأساس والقاعدة الأصلية التى يقوم عليها المجتمع البشرى هو الاعتماد المتقابل بين الأفراد، وهذا الاعتماد المتقابل هو سبب إتّحاد الصفوف والتعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع وبالتالى يتسبب فى تقدّم المجتمع وتكامله على جميع الصُعد. وقد أولى الإسلام أهميّة كبيرة لحفظ هذا العنصر الأساس وهو اعتماد الناس ووحدة صفوفهم وحرّم أى فعل من شأنه أن يلحق الضرر بوحدة المجتمع وقوّته، وأوجب كذلك كل فعل يسبب فى تقوية شرائح المجتمع وشد أركانه (تارة من خلال الحكم الوجوبى واخرى من خلال الحكم الاستحبابى. ولا شك أنّ النميمة هى من العوامل المهمّة للتفرقة وإيجاد سوء الظن بين أفراد المجتمع وتفضى إلى العداوة وتعميق حالة الحقد والكراهية بين الأفراد، وتارة تؤدّى إلى تلاشى الأسر وتمزّق العوائل، ولهذا السبب فإنّ الروايات المذكورة آنفاً تعدّ الشخص النّمام أشر أفراد المجتمع وأسوأهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۰ ونقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «إيّاكُم وَالنِّمائِمَ فَإنَّها الضَّغائِنِ» «۱». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أيضاً قوله: «إيّاكَ وَالنَّميمةَ فَإنَّها تزرَعُ الضَّغِينَةَ وَتُبَعِّدُ عَنِ اللّهِ وَالنّاسِ» «۲». وجاء فى أحاديث اخرى التعبير بكلمة (شحناء) والتى تأتى بمعنى العداوة والضغينة أيضاً، ويتّضح من الأحاديث الشريفة السابقة أنّ النمّام هو أسوأ خلق اللّه تعالى بسبب سعيه للتفرقة بين الأحبّة والأصدقاء وتحرّكه من موقع إتّهام الأشخاص الطاهرين. ومضافاً إلى ذلك فإنّ الشخص النّمام يعيش فى المجتمع منفوراً ومطروداً، لأنّ طرفى النزاع اللذين استمعا لكلامه وصدقا به فإنّهما غالباً يندمان بعد ذلك ويجدان فى أنفسهما الكراهية الشديدة للشخص الذى سبب الفرقة بينهما ويلعنانه ويحذّران الناس من الاتّصال مع هذا الشخص والتصديق بأقواله، وقد مرّ علينا فى أحد الأحاديث الشريفة أنّ النمام بعيد عن اللّه وبعيد عن خلق اللّه. والإمام الصادق عليه السلام يشبّه النّمام بالساحر الذى يفرّق بين الأحبّة بسحره ويقول فى حديث مختصر وعميق المغزى: «إنّ مِنْ أكبَرِ السِّحرِ النَّمِيمَةِ يُفَرِّقُ بِها بَينَ المُتَحابِينَ وَيَجلِبُ العَداوَةَ عَلى المُتَصافِّينَ وَيَسفِكُ بِها الدِّماءَ وَيَهدِمُ الدُّورَ وَيَكشِفُ بِها السُّتُورَ، وَالنَّمام أَشَرُّ مَنْ وَطأ عَلَى الأرضِ بِقَدَمٍ» «۳». وطبعاً النميمة ليست بسحر، ولكنّها تحمل فى نتائجها آثار السحر، ولذلك فإنّ الإمام قال عنها أنّها من أكبر أنواع السحر. والجدير بالذكر أنّ النميمة لها أثر تخريبى كبير وعادة تكون العناصر المخرّبة أقوى أثراً وأسرع نتيجة من العناصر الخيّرة والمصلحة، لأنّ الأرضية لسوء الظن موجودة فى القلوب، وعندما يتحرّك النّمام فى إثارتها وتفعيلها فإنّها تتحرّك بسرعة وتستيقظ بذلك عناصر الشر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۱ فى واقع الإنسان ونفسه، ومن الممكن أن تقوم كلمات قليلة بعملية التفرقة بين صديقين حميمين مضى على صداقتهما أربعون سنة، كما أنّ بناء سد مفيد لخزن المياه يمكن أن يستغرق عشرات السنين ولكنّ تخريبه وإنهدامه بواسطة الديناميت والمواد المتفجرة قد لا يستغرق سوى بضع ساعات، ونختم هذا الكلام بالحديث الشريف عن الإمام الصادق حيث قال: «السَّاعِى قاتِلُ ثَلاثَةٍ، قاتِلُ نَفسِهِ وَقاتِلُ مَنْ يُسعى بِهِ وَقاتِلُ مَن يُسعى لَهُ» «۱». الكثير من الموارد المشهودة فى حالات الامراء والملوك تبيّن أنّ من سعى إليهم بالنميمة ضدّ شخص آخر فإنّه يلاقى حتفه على يدهم، وبهذه الصورة يكون الساعى أى النّمام قاتل نفسه أمام اللّه تعالى، وكذلك الشخص الذى سعى إليه بالوشاية لأجل عدم التحقيق الكافى فَكأنّه قتل بيد ذلك الساعى لأنّه قتل بريئاً. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بعض العلماء وأرباب اللغة

ذهبوا إلى إشراك السعاية والنميمة فى المعنى فى حين أنّه من الممكن وجود فرق بينهما (رغم أنّهما متشابهان جدّاً) فالنميمة هى التفرقة بين صديقين أو بين قريبين أو شريكين، ولكنّ السعاية هى أن يتحدّث الشخص بعيوب شخص آخر عند كبير من الكبراء، وبهذا يعرض ذلك الشخص إلى الخطر، ولذلك وردت السعاية فى كثير من الروايات بعنوان السعاية عند السلطان وأمثال ذلك، ولكن تشابههما فى المعنى تسبب فى أن يذكران تحت عنوان واحد.

دوافع النميمة:

وهذا الصفة الرذيلة كسائر الصفات الاخرى ترتبط مع الكثير من الرذائل الأخلاقية برابطة وثيقة، ومنها الحسد، لأنّ الشخص الحسود لا يتمكن أن يتحمل سعادة الآخرين وراحتهم والمودّة التى تحكم بين الأفراد المتحابين والتعاون والتكاتف الذى يرى فى تعاملهما وحياتهما المشتركة، ويتألم ممّا يرى من روابط المودّة ووشائج المحبّة بين الزوجين والعوائل فيما بينهم، ولذلك يسعى من خلال النميمة أن يزرع بذور الفرقة وسوء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۲ الظن بين هؤلاء الناس ويغرس العداوة والنزاع بين الأفراد. ومن الدوافع الاخرى للنميمة هو حبّ الدنيا، لأنّ المحبّ للدنيا والعاشق لها يرغب فى زرع نبتة الاختلاف والفرقة بين الناس ويرى أنّ كسبه وعمله الاقتصادى والاجتماعى فى تقوية عناصر الشر والكراهية بين الأفراد. النفاق يعدّ عاملًا مهمّاً آخر من عوامل النميمة ودوافعها، يقول القرآن الكريم عن المنافقين: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَايَشْعُرُونَ» «۱». أجل فعملهم هو إيجاد الفساد والفتنة بأى وسيلة كانت، ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق قوله: «عَلامَةُ النِّفاقِ الحَثُّ عَلَى النَّمِيمَةِ» «۲». فمثل هذا الشخص يذهب إلى تلك الجهة، ويبدأ ببيان معايب الجهة الاخرى ويذمّها ويتظاهر بأنّه إنّما يريد الخير لهذا الطرف دون ذاك، فيلقى بكلامه المسموم لدى هؤلاء، ثمّ يتوجّه إلى الطرف المقابل ويكرّر نفس هذا العمل أيضاً، فهذا الشخص هو مصداق للإنسان ذى الوجهين وذى اللّسانين والذى يهدف إلى إيجاد التفرقة والاختلاف وزيادة حدّة الصراع الاجتماعى والتضاد الفئوى كيما يجد له فرصة من العيش وفسحة من الوقت. العامل الآخر من العوامل الموروثة للنميمة هو ما يسمّى فى هذا العصر بالمرض الأخلاقى (السادية)، فبعض الأفراد وبسبب عقدة الحقارة أو حبّ الانتقام أو الانحرافات والأمراض النفسية الاخرى يجدون لذّة وراحة من أذى الآخرين والإضرار بهم، ويتألمون ويحزنون عندما يرون الناس يعيشون براحة ونعمة، فهؤلاء الأشخاص يتحرّكون لهدم وحدة المجتمع وتدمير سعادة الناس من خلال السعاية بالآخرين والنميمة ثم يجلسون جانباً ويشاهدون بلّذة الصراع والنزاع الدائر بين الأطراف والفئات الاجتماعية. ويستفاد من بعض الروايات أنّ أحد الأسباب فى تفعيل حالة النميمة وإيجاد هذه الصفة فى النفس هو عدم طهارة المولد وعدم نقاء النطفة (وطبعاً هذا العامل لا يعدّ عامل اجبار، بل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۳ يهيء الأرضية لذلك أى من العوامل المساعدة لظهور المرض) كما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «السَّاعِي إِلَى النَّاسِ لِغَيرِ رُشدِهِ» «۱». أى يسير فى مسير الباطل، ذكر البعض أنّ (لغير رشده) يعنى أنّه ليس بولد حلال. ومن الأسباب الاخرى الاعتياد على الكذب، فالإنسان الذى يعتاد على الكذب ويتعامل فى حياته مع الآخرين من موقع الإصرار على الكذب يجد فى نفسه دافعاً، لأنّ ينقل لهذا الشخص خبراً كاذباً عن ذلك الشخص ويوقع بينهما بحيث يؤدّى إلى ارباك العلاقة بينهما وافسادها. وفى الحديث المطوّل عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حول علائم الصفات الإيجابية والسلبية نقرأ: «أَمّا عَلامَةُ الكَذّابِ فَأَربَعَةٌ ... إِنْ قالَ لَم يَصدُق وإِنْ قِيلَ لَهُ لَم يُصَدِّق وَالنَّمِيمَةُ وَالبُهتُ» «۲». يعنى عندما تتجذّر صفة الكذب فى أعماق الإنسان يظهر على سلوكه هذه الأفعال الأربعة.

طرق العلاج:

ولابدّ لغرض علاج هذه الظاهرة المشؤمة فى سلوك الفرد الأخلاقى وقطع جذورها من واقع الإنسان ونفسه من الذهاب والتوجّه إلى العلل والدوافع، ومن المعلوم أنّه مادام عنصر الحسد، وحبّ الدنيا، والنفاق، وحبّ العدوان، والانتقام، التى تمثّل الدوافع الأصلية لهذه

الظاهرة الذميمة، باقية فى وجود الإنسان فإنّ هذه الرذيلة الأخلاقية باقية كذلك ولا يمكن إزالتها بسهولة من باطن الإنسان، ومن الممكن للإنسان أن يحدّد أو يزيل هذه الخصلة بعزم شديد وتصميم قوى لمدّة محدودة ولكنها تظهر فى مواطن معينة لاحقاً. ولا ننسى أنّ الكثير من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية بينها تأثير متقابل وكل واحد منها الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۴ يعدّ سبباً وعلّة للآخر وأحياناً مسبباً ومعلولًا، وذلك فى حالات ومواطن مختلفة. ومن جهة اخرى فإنّ التأمل فى الآثار السلبية الكثيرة المترتبة على النميمة والسعاية والتى تورث المجتمع الدمار والخراب وتفضى إلى عواقب وخيمة على مستوى العوائل والاسر كما تقدّم تفصيل ذلك فى الأبحاث السابقة، وكذلك ما يترتّب على النميمة من العذاب الإلهى فى الدنيا والآخرة فإنّ ذلك يشكل عاملًا مهمّاً من عوامل التصدى لاستفحال هذه الظاهرة والحالة الذميمة وبالتالى إزالتها من موقع النفس. إنّ الشخص النّمام وخاصة إذا كان قد إعتاد على النميمة يجب عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار الآثار الوخيمة الاجتماعية والعقوبات الإلهية المترتبة على هذا العمل ويعيد إلى ذهنه هذا المعنى كل يوم ويلقّن نفسه أنّ عاقبة النميمة والسعاية هى هذه وهذه، وإلّا فإنّ الوساوس الشيطانية والأهواء النفسية لا تدعه لحاله. معاشرة الأفراد المؤمنين يمكنها أن تكون عاملًا آخر من عوامل التصدّى للنميمة، لأنّ الشخص المبتلى بهذا المرض عندما يتحدّث فى مجالس المؤمنين ويرى أنّهم لا يعتنون بكلامه ولا يهتمّون لأقواله وقد يطرودنه من مجالسهم بسبب ذلك، فإنّه سينته بسرعة إلى عدم وجود المشترى لكلامه، بل إنّ كلامه تسبب فى نفرة الناس من حوله وسوء ظنّهم به، ونفس هذا الأمر يقوى فيه الإرادة على ترك هذا العمل القبيح وقد ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَكذِبِ السِّعايَةَ وَالنَّمِيمَةَ باطِلَةً كانَتْ أو صَحِيحَةً» «۱». ونقرأ فى حديث آخر أنّ رجلًا جاء بكتاب له إلى أميرالمؤمنين عليه السلام كتب فيه النميمة عن شخص آخر فقال له الإمام عليه السلام: «إِنْ كُنتَ صادِقاً مَقَتناكَ وإِنْ كُنتَ كاذِباً عاقَبناكَ وإِن أَحببتَ القَيلَ أَقَلناكَ، قالَ: بَل تُقِيلُنى يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ» «۲». ومن الجدير بالذكر أنّ الأشخاص الذين يتحرّكون نحوك بالنميمة والتحدّث بالسوء عن شخص آخر فإنّهم سوف يتحدّثون عنك بسوء لدى ذلك الشخص أيضاً كما ورد فى روضة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۵ بحار الانوار عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وَمَنْ نَمَّ إِلَيكَ سَيَنُمُّ عَلَيكَ» «۱». وآخر كلام فى هذا الباب هو أنّ أغلب المفاسد الأخلاقية الكامنة فى الصفات الرذيلة ناشئة من ضعف الإيمان، فكلما سعى الشخص لتقوية دعائم إيمانه باللّه تعالى واليوم الآخر، فإنّ هذه الرذائل سوف تتلاشى وتزول من باطنه تدريجياً.

موارد الاستثناء:

إنّ حرمة النميمة بعنوان أنّها من الذنوب الكبيرة والقبيحة فى نظر علماء الأخلاق يعدّ أصلًا أساسياً يجب الإهتمام به دائماً، ولكن فى بعض الأحيان يمكن أن يكون لهذا الحكم استثناءات كما هو الحال فى سائر الأحكام الشرعية حيث يكون نقل الكلام من هذا إلى ذاك ليس جائزاً فحسب، بل يكون واجباً، ومن تلك الموارد ما إذا شعر الإنسان أنّ الشخص الفلانى أو الفئة الفلانية تريد قتل زيد من الناس وكانت المسألة جدّية، فهنا يكون نقل كلامهم إلى زيد ليتّخذ جانب الحذر والاحتياط ويبتعد عن الخطر من الواجبات لإنقاذ نفس بريئة، كما حدث ذلك لموسى عليه السلام بعدما قتل القبطى المعتدى فجاء أحد الأشخاص وقال له: «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ» «۲». وأحياناً تؤدّى النميمة نتائج إيجابية للمؤمنين تعمل على إيجاد الفرقة والاختلاف فى صفوف الأعداء، فهذا المورد من موارد الجواز أو الوجوب كما ورد فى قصّة (نعيم بن مسعود) فى حرب الأحزاب حيث أوقع الفرقة والاختلاف بين طائفتين من أعداء المسلمين وهم المشركون واليهود بما نقل من كلمات هؤلاء لهؤلاء وبالعكس فكانت النتيجة إساءة الظنّ بينهم وتخاذلهم عن قتال المسلمين. ولكنّ مثل هذه الاستثناءات نادرة جدّاً فلا ينبغى أن تكون ذريعة للتلّوث بهذه الخطيئة وقبول كلام من يسعى بالنميمة بين الناس، ففى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۶ قال: «لا تَعجَلَنَّ إِلى تَصدِيقِ وَاشٍ وإِنْ تَشبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ» «۱». النقطة المقابلة للنميمة والسعاية هى إصلاح ذات البين بأن يسعى

الإنسان بكلامه الجميل إلى إقرار الصلح والصفاء بين شخصين متخاصمين ومتعاديين، وهذه الصفة تعدّ أحد الفضائل المهمّة الأخلاقية والتى وردت الإشارة إليها فى آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية. وقد تمّ استعراض الآيات القرآنية التى تتحدّث عن هذا المعنى فى ذيل الآيات المتعلقة بذم النميمة والسعاية على المستوى السلبى، وهنا نشير إلى طائفة من الروايات الشريفة فى هذا المجال: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ مَشى فِى صُلحٍ بَينَ اثنَينِ صَلَّى عَلَيهِ مَلائِكَةُ اللَّهِ حَتّى يَرجَعَ وَاعطِى ثَوابَ لَيلَةِ القَدرِ» «۲». ۲- وفى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى آخر وصاياه لولديه الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام أنّه قال ضمن وصيّته لهما بعدم ترك إصلاح ذات البين: «فَإِنِّى سَمِعتُ جَدَّكُما صلى الله عليه و آله يَقُولُ صَلاحُ ذاتِ البَينِ أَفضَلُ مِنْ عامَةِ الصَّلاةِ والصِّيام» «۳». ۳- وجاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَلا أَخبِرُكُم بِأفضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيام والصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ إِصلاحُ ذاتِ البَينِ، فَإِنَّ فَسادِ ذاتِ البينِ هِى الحالِقَةُ» «۴». ۴- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «صَدَقَةٌ يُحِبُّها اللَّهُ إِصلاحُ بَينَ الناسِ إذا تَفاسَدُوا وَتَقارِبُ بَينَهُم إذا تَباعَدُوا» «۵». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال للمفضّل بن عمر: «إذا رَأَيتَ بَينَ اثنَينِ مِن شِيعَتِنا مُنازَعَةً فَأفتَدِهِ مِنْ مالِى» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۷ وعلى هذا الأساس فإنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى أبُو حَنِيفَة سابُقُ الحَجِّ قالَ: «مَرَّ بِنا المُفضَّل وَأَنا وَختِنِى نَتَشاجَرُ فِى مِيراثٍ، فَوَقَفَ عَلَينا ساعَةً ثُمَّ قالَ لَنا: تَعالُوا إِلَى المَنزَلِ فَأَتَيناهُ فَأَصلَحَ بَيننا بِأَربَعَمائَةَ دِرهمٍ فَدَفَعها إِلَينا مِنْ عِندِهِ حَتى إذا استَوثَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنّا مِنْ صاحِبِهِ، قالَ: أَمّا إِنَّها لَيستْ مِنْ مالى ولَكن أَبُوعَبدِاللَّهِ عليه السلام أَمَرَنِى ا ذا تَنازَعَ رَجُلانِ مِنْ أَصحابِنا أن أَصلِحَ بَينَهُما وَأَفتَدِيهما مِنْ مالِهِ، فَهذا مِنْ مالِ أَبِى عَبدِاللَّهِ عليه السلام»». ۶- وورد فى تفسير الآية الشريفة: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِايْمَانِكُمْ» أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا دُعِيتَ لِصُلحِ بَينَ اثنَينِ فَلا تَقُل عَلَيَّ يَمِينِى أنْ لاأَفعَلَ» «۲». وهذا الحديث يشير إلى أنّه لو واجه الإنسان حين إقدامه لإصلاح ذات البين بعض المشاكل ثمّ حلف أن يترك هذا السلوك الإصلاحى فإنّ الإمام يقول بأنّ مثل هذا القسم والحلف لا إعتبار له وإنّ المشاكل المحيطة بمثل هذا العمل لا يمكنها أن تمنع الإنسان من سلوك هذا الطريق والعمل على إصلاح ذات البين. ۷- وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ استَصلَحَ الأضدَادَ بَلَغَ المُرادَ» «۳». والمراد من الأضداد فى الحديث الشريف ليست الأضداد الفلسفية التى لا تقبل الجمع، بل الأضداد العرفية، وطبعاً هناك تفسير آخر لهذا الحديث أيضاً وهو أن يكون المراد أنّ الإنسان إذا استطاع التنسيق بين الأشخاص والفئات التى تعيش أفكار مختلفة ومتنوعة، فإنّه يبلغ مراده ويكون ذلك نعم العون له على إدارة امور المجتمع لكل هذه الأفكار المُتضادة. ۸- إنّ أهميّة إصلاح ذات البين هى إلى درجة أنّ الكذب قد يكون مباحاً فى هذا السبيل كما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الكَلامُ ثَلاثَةٌ صِدقٌ وَكِذبٌ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۸ وَإِصلاحٌ بَينَ النّاسِ قِيلَ جُعِلتُ فِداكَ ما الإِصلاحُ بَينَ النّاسِ؟ قالَ: تَسمَعُ مِنَ الرَّجُلِ كَلاماً يَبلُغُهُ فَتَخبُثُ نَفسُهُ فَتَلقاهُ فَتَقُولُ سَمِعتُ مِنْ فُلانٍ قَالَ فِيكَ مِنَ الخَيرِ كَذا وَكَذا خِلافَ ما سَمِعتَ مِنهُ» «۱». ويقول المرحوم العلّامة المجلسى فى شرح هذا الحديث: «وهذا القول وإن كان كذباً لغة وعرفاً جائز لقصد الإصلاح بين الناس، وكأنّه لا خلاف فيه عند أهل الإسلام، والظاهر أنّه لا تورية ولا تعريض فيه وإن أمكن أن يقصد تورية بعيدة كأن ينوى أنّه كان حقّه أن يقول كذا، ولو صافيته لقال فيك كذا، ولكنه بعيد» «۲». ولا شك أنّ الكلام يحتمل وجهين، فامّا مطابق للواقع ومخالف له، فالأول يدعى صدقاً والثانى كذباً، ولكن بما أنّ الكلام المخالف للواقع بدوره على قسمين: فإمّا أن يكون موجباً للفساد أو موجباً للصلاح، فإنّ الإمام قد فصّل بين هذين القسمين وقرّر بأنّ القسم الموجب للصلاح هو قسم ثالث من أقسام الكلام. ومن مجموع ما تقدّم من الأحاديث الشريفة يتّضح جيداً أنّ من بين أعمال الخير يندر وجود عمل مهم وفضيلة أخلاقية تكون فى مرتبة إصلاح ذات البين، فهى إلى درجة أنّ الملائكة تصلّى على هذا الشخص المصلح ويكون عمله أسمى وأفضل من الصلاة والصوم بل يكون فى مرتبة الجهاد فى سبيل اللّه. ومن البديهى أنّ إصلاح ذات البين لا يتسبب فى الخير والصلاح على المستوى الفردى فحسب، بل يتسبب فى إنسجام طوائف المجتمع وتقوية دعائمه وتوطيد أركان المحبّة والمودّة بين أفراده، وهذا الاتّحاد والانسجام يتسبب فى انتصار وعزّة المجتمع الإسلامى فى حركة التقدّم الحضارى

والإنسانی.

طرق إصلاح ذات البین:

إنّ عملیة الإصلاح بین الناس علی شکل أفراد أو جماعات وطوائف هو عمل معّقد الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۹ ودقیق ولا سیما إذا کانت العداوة والکراهیة قد توغّلت فی الأعماق، ولهذا فقد یستغرق تحقیق هذا المعنی وقتاً طویلًا، ولابدّ من مراعاة بعض الدقائق والنکات الظریفة فی هذا السبیل، وکذلک یحتاج إلی التعرّف علی بعض مبادیء علم النفس وتوصیات علماء النفس فی هذا المجال، ومن المعلوم أنّ الوصول إلی هذا الهدف المؤثر لابدّ له من رعایة بعض الاصول والنقاط المهمّة، ومنها: ۱- العثور علی جذور الاختلاف والنفاق، لأنّ الإنسان ما لم یعرف الأسباب ویبحث فی جذور المشکلة، فإنّ علاجها یکون عسیراً للغایة، فلو أنّ الإنسان تحرّک علی مستوی البحث علی جذور الخلاف والنزاع وسعی إلی إزالة هذه الأسباب والجذور من واقع النفس لدی المتخاصمین فإنّه یحصل علی النتیجة أسرع. ۲- إنّ التسّرع فی عملیة إصلاح ذات البین فی کثیر من الموارد تعطی نتائج معکوسة، وخاصة إذا کانت الاختلافات عمیقة ومتجذرة، ففی هذه الموارد یجب دراسة أوجه الاختلاف بدقّة وأحیاناً یتطلب ذلک کتابتها فی دفتر وبالأرقام ثمّ تحلیلها ودراستها وحلّها واحدة بعد الاخری، ویعطی لکلّ طرف من المتخاصمین إمتیازات معقولة وبهذا یوجد التعادل والانسجام بینهما ویترتب علی ذلک النجاح فی عملیة الإصلاح. ۳- یجب الاستفادة من المسائل العاطفیة والدینیة أفضل استفادة من خلال تلاوة بعض الآیات القرآنیة والروایات الشریفة التی من شأنها تحریک عناصر الخیر وعواطف المحبّة فی نفوس المتخاصمین، والسعی لدعم شخصیة کل طرف لکی یتحرّک باتّجاه الطرف الآخر علی مستوی العفو والصفح من موقع الاحساس لشخصیته وکرامته لا من موقع الاجبار والإذعان للأمر الواقع. ۴- وأحیاناً یجب علی المصلح أن یضحی بشیء من الأشیاء وعلی سبیل المثال یدفع للطرفین المتخاصمین مبلغاً من المال أو یهدی لهما هدیة کما قرأنا فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام الذی خاطب فیه المفضّل، ومن المعلوم أنّ المال الذی ینفق فی هذا السبیل یعدّ من أفضل أنواع الانفاق فی سبیل اللّه. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۸۰ ۵- إنّ المصلح یجب أن یتوقّی التحیز إلی أحد الطرفین ویتجنّب ذلک مهما أمکن وبعبارة اخری أن یکون محایداً وفی نفس الوقت محبّاً ونصوحاً إلی کل واحد من الطرفین، لأنّ أی تحیز إلی أحدهما سوف یمنعه من الوصول إلی النتیجة المطلوبة، وطبعاً یستثنی من ذلک الأشخاص الذین لم یتعلّموا المنطق الإنسانی ولا یتعاملون إلّامن موقع الجهل والتعصّب والعناد أمام الحق وعملیة الإصلاح فإنّه ینبغی سلوک طریق آخر معهم کما تقدّم فی تفسیر الآیات أعلاه. ۶- وفی کثیر من المواقع یحتاج الإصلاح إلی سلوک طریق طویل محفوف بالمکاره ویحتاج إلی الصبر والتأنّی والتعامل مع القضیة ببرود الأعصاب، فالشخص المصلح لا ینبغی أن ییأس بسرعة ویوصد الأبواب أمامه، بل یجب أن یعلم أنّ أشدّ التعقیدات الاجتماعیة وأعمق المشکلات یمکن حلّها بالصبر والتأنّی والتفکیر والتدبیر، وعلیه فإذا لم یفلح فی مرحلة من المراحل فلا ینبغی أن یعلن فشله ویتراجع عن مسیرته الإصلاحیة. وبتعبیر آخر: إنّ الافساد بین الناس عمل تخریبی یسیر ولکن الإصلاح له بعد بناء ومعقّد، فالبناء العظیم یمکن تدمیره بعدّة قنابل فیغدوا تراباً فی لحظات، ولکنّ تشیید مثل هذا البناء یحتاج إلی سنوات مدیدة، وهکذا الحال فی بناء الثقة والمحبّة والاعتماد المتقابل بین أفراد المجتمع البشری، فتخریب مثل هذا البناء الاجتماعی سهل یسیر، ولکنّ بناءه وتشییده هو عملیة معّقدة تحتاج إلی مدّة طویلة وصبر کبیر، وعلیه فإنّ عملیة الإصلاح لا تنسجم مع التسّرع والعجلة. ونختم هذا الکلام بحکایة ذات مغزی أوردها المجلسی فی کتاب بحار الانوار، نقلًا عن بعض العلماء وهو أنّه: باع بعضهم عبداً وقال للمشتری ما فیه عیب إلّاالنمیمة، قال رضیت به، فاشتراه فمکث الغلام أیّاماً ثم قال لزوجة مولاه: إنّ زوجک لا یحبّک وهو یرید أن یتسری علیک فخذی الموسی واحلقی من قفاه شعرات حتی أسحر علیها فیحبّک، ثم قال للزوج: إنّ امرأتک اتخذت خلیلًا وتریدأن تقتلک فتناوم لها حتی تعرف، فتناوم فجاءته الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۸۱ المرأة بالموسی فظنّ أنّها تقتله فقام الزوج وقتلها، فجاء أهل المرأة وقتلوا الزوج، فوقع القتال بین القبیلتین وطال الأمر» «۱».

أجل فإنّه بهذه السهولة ممكن ايقاع الحرب والنزاع الدموى بين قبيلتين ولكنّ الإصلاح بينهما ليس بهذه السهولة قطعاً. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۲

سوء الظنّ وحسن الظن

تنويه:

إنّ سوء الظن عندما يتحوّل إلى حالة باطنية وخصلة أخلاقية فإنّه يعدّ من أشنع الرذائل الأخلاقية التى تؤدّى إلى الفرقة بين العوائل وتمزّق المجاميع البشرية والإنسانية. وأوّل ثمرة سلبية لسوء الظن هى عدم الاعتماد وزوال الثقة بين الناس، وعندما تزول الثقة فإنّ عملية التعاون والتكاتف فى حركة التفاعل الاجتماعى ستكون عسيرة للغاية، ومع زوال التعاون والتكاتف فى المجتمع البشرى فسوف يتبدّل هذا المجتمع إلى جحيم ومحرقة يعيش فيه الأفراد حالة الغربة والوحدة من الأفراد الآخرين ويتحرّكون فى تعاملهم من موقع الريبة والتشكيك والتآمر ضدّ الآخر. ولهذا السبب فإنّ الإسلام ولأجل توكيد ظاهرة الاعتماد المتقابل بين الأفراد والامم إهتمّ بهذه المسألة اهتماماً بالغاً، فنهى بشدة عن سوء الظن ومنع الأسباب التى تورث سوء الظن لدى الأفراد، وعلى العكس من ذلك فإنّه مدح وأيّد بشدّة حسن الظن الذى يفضى إلى زيادة المحبّة والاعتماد المتقابل والثقة بالطرف الآخر، وبالتالى تحرّك المجتمع نحو التقدّم والتعالى والتكامل فى مسيرته الحضارية، واعتبر أنّ حسن الظن من الصفات والأعمال الإيجابية جدّاً ودعى الناس إلى ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۴ ولا شك أنّ حسن الظن قد يؤدّى إلى بعض الخسارة أحياناً، ولكن هذه الخسارة لا تقبل القياس مع الاضرار الوخيمة والآثار السلبية الكثيرة المترتبة على سوء الظن. وطبعاً، فإنّ لسوء الظن فروعاً وأقساماً، وأحد أسوأ هذه الفروع هو سوء الظن باللّه والذى يأتى بحثه لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة دروساً فى دائرة سوء الظن وحسن الظن: ۱- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» «۱». ۲- «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» «۲». ۳- «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» «۳». ۴- «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ» «۴». ۵- «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» «۵». ۶- «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ» «۶».

تفسير واستنتاج:

«الآية الإولى»: تستعرض الحديث عن سوء الظن وتنهى المؤمنين بصراحة وبشدة عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۵ سوء الظن فى تعاملهم الإجتماعى فيما بينهم وتشير إلى أنّه قد يكون بمثابة المقدمة إلى التجسس والغيبة وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً». ولكن لماذا ورد التعبير (كثيراً من الظن)؟ لأن أكثر أشكال الظن بين الناس بالنسبة إلى الطرف الآخر تقع فى دائرة السوء والشر، لذلك ورد التعبير بقوله (كثيراً). ويحتمل أيضاً أن يكون المراد من كلمة (كثير) أنّ أغلب الظنون هى من جنس الظنون السيئة بل إنّ الظنون السيئة كثيرة بالنسبة لها رغم أنّها بالمقايسة إلى ظنون الخير لا تكون كثيرة، ولكن ظاهر الآية ينسجم مع المعنى الأوّل أكثر. والملفت للنظر هو أنّ هذه الآية بعد النهى عن كثير من الظن ذكرت العلّة فى ذلك وقالت بأنّ بعض الظنون هى فى الحقيقة إثم وذنب، وهو إشارة إلى أنّ الظنون السيئة على قسمين: فمنها ما يطابق الواقع ومنها ما يخالف الواقع، فما كان على خلاف الواقع يكون إثماً وذنباً، وبما أنّ الإنسان لا يعلم أيّهما المطابق للواقع وأيّهما

المخالف، وعليه فيجب تجنّب الظن السيء اطلاقاً حتى لا يتورط الإنسان فى سوء الظن المخالف للواقع وبالتالى يقع فى الإثم وممارسة الخطيئة. وبما أنّ سوء الظن بالنسبة إلى الإعمال الخاصّة للناس يعد أحد أسباب التجسس، وأحد الدوافع التى تقود الإنسان إلى أن يتجسس على أخيه، والتجسس بدوره يتسبب أحياناً فى الكشف عن العيوب المستورة للآخرين وبالتالى سيكون سبباً ودافعاً للغيبة أيضاً، ولذلك فانّ الآية الشريفة تتحدّث عن سوء الظن أوّلًا، وفى المرحلة الثانية ذكرت عنصر التجسس، وفى الثالثة نهت عن الغيبة. وهناك بحث سنأتى عليه فى ختام البحث عن الآيات والروايات الشريفة وهو أنّه هل أنّ سوء الظن أمر اختيارى أو غير اختيارى؟ وإذا كان غير اختيارى فكيف يمكن النهى عنه؟ وإذا كان اختيارياً فهل يحرم مطلقاً حتى إذا لم يرتكب الإنسان عملًا بدافع من سوء الظن هذا، أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۶ وتأتى «الآية الثانية»: لتتحدّث عن المنافقين من موقع الذم والتوبيخ، وهم الذين إمتنعوا من السير فى ركب النبى صلى الله عليه و آله والخروج معه فى واقعة الحديبية وتوهّموا أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذين إنطلقوا إلى مكة سوف لا يعودون إلى أهليهم أبداً بل سيقتلون عن آخرهم بأيدى المشركين من قريش فى حين أنّ القضية إنعكست تماماً وعاد المسلمون بذلك النصر الباهر فى صلح الحديبية وهو سالمون لم يصب أحد منهم بأذى فتقول الآية: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً». ومفردة (بور) فى الأصل بمعنى شدّة الكساد، وبما أنّ شدّة الكساد باعثة على فساد الشيء كما فى المثل المعروف لدى العرب (كسد حتى فسد) فانّ هذه الكلمة تأتى بمعنى الفساد، ثم أطلقت على معنى يتضمّن الهلكة والإندثار، وأطلقت على الأرض الخالية من الشجر والنبات فيقال (بائر) لأنّها فى الحقيقة فاسدة وميتة. وهكذا نجد أنّ فئة المنافقين الذين عاشوا هذا الظن السيء فى واقعة صلح الحديبية لم يكونوا قلّة، ومن المعلوم أنّه لم يصيبهم الهلاك بمعنى الموت، وعليه فإنّ (بور) بمعنى الهلاك المعنوى والمحرومية من الثواب الإلهى وخلوّ أرض قلوبهم من أشجار الفضائل الأخلاقية والشجرة الطيّبة للإيمان، أو يكون المراد الهلاك الاخروى بسبب العذاب الإلهى، والهلاك الدنيوى بسبب الفضيحة، وعلى أيّة حال فالآية الشريفة تدل بوضوح على النهى عن سوء الظن وخاصة بالنسبة إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. وفى «الآية الثالثة»: من الآيات محل البحث نجد بحثاً آخر عن سوء الظن بالنسبة إلى ساحة الربوبية والحقيقة المقدّسة الإلهية فى حين أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن سوء الظن بالنسبة لأفراد البشر، فتقول الآية بعد أن قرّرت أنّ الهدف الآخر من الفتح المبين وهو فتح الحديبية أنّ اللَّه تعالى يريد أن يعذّب المنافقين والمشركين فتقول: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۷ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً». إنّ سوء الظن باللَّه تعالى من جانب هؤلاء هو لانهم كانوا يتصوّرون أنّ الوعود الإلهية للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله سوف لا تتحقّق أبداً وأنّ المسلمين مضافاً إلى عدم انتصارهم على العدو فإنّهم سوف لا يعودون إلى المدينة اطلاقاً، كما كان فى ظن المشركين أيضاً حيث توهّموا أنّهم سوف يهزمون رسول اللَّه وأصحابه لقلّة عددهم وعدم توفّر الأسلحة الكافية فى أيديهم وأنّ نجم الإسلام منذر بالزوال والافول، فى حين أنّ اللَّه تعالى وعد المسلمين النصر الأكيد وتحقّق لهم ذلك، بحيث أنّ المشركين لم يتجرّأوا أبداً على الهجوم على المسلمين (رغم أنّ المسلمين فى الحديبية وعلى مقربة من مكّة كانوا تحت يدهم ولم يكونوا يحملون أى سلاح لأنّهم كانوا قاصدين لزيارة بيت اللَّه الحرام) وهكذا ألقى اللَّه تعالى الرعب والخوف فى قلوب المشركين إلى درجة أنّهم خضعوا ووجدوا أنفسهم ملزمين بكتابة الصلح المعروف بصلح الحديبية، ذلك الصلح الذى مهّد الطريق للإنتصارات الباهرة التى نالها المسلمون فيما بعد. وعلى أيّة حال فإنّ القرآن الكريم يذم سوء الظن هذا ذمّاً شديداً ويعد عليه العذاب الأليم والعقاب الشديد فى الدنيا والآخرة. والملفت للنظر فى هذه الآية أنّ مسألة سوء الظن باللَّه تعالى كانت بمثابة القدر المشترك بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وبيّنت هذه الآية أنّ جميع هذه الفئات والطوائف شركاء فى هذا الأمر، بخلاف المؤمنين الذين يحسنون الظن باللَّه تعالى وبوعده وبرسوله الكريم ويعلمون أنّ هذه الوعود سوف تتحقّق قطعاً، ولعلّ تحقّقها قد يتأخر فترة من الوقت لمصالح معيّنة ولكنها أمر حتمى فى حركة عالم الوجود، لأنّ اللَّه تعالى العالم بكل شيء والقادر على كل

شيء لا يمكن مع هذا العلم المطلق والقدرة اللّامتناهية أن يتخلّف فى وعده، ولهذا السبب فإنّ الآية التالية لهذه الآية من سورة الفتح تقول: «وللَّهِ جُنُودُ السماواتِ والأَرضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً». أمّا السبب الذى دفع المنافقين والمشركين أن يقعوا فى حبالة سوء الظن فى حين أنّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۸ قلوب المؤمنين مملوءة بحسن الظن باللّه تعالى فإنّما هو لأجل أنّ المشركين والمنافقين لا يرون من الامور إلّاظاهرها ولا يتحرّكون إلّامن موقع الأخذ بظاهر الحوادث والوقائع دون الحقائق الكامنة فى باطنها، فى حين أنّ المؤمنين الحقيقيين يتوجّهون إلى باطن الامور ويأخذون بالمحتوى والمضمون للواقعة. وتستعرض «الآية الرابعة» أيضاً سوء الظن بالنسبة إلى الوعد الإلهى الذى تزامن مع حرب الأحزاب، وهى الحرب التى اعتبرت أخطر الحروب التى واجهها النبى صلى الله عليه و آله والمسلمون، لأنّ المشركين كانوا قد اتحدوا مع جميع المخالفين للإسلام وشكّلوا أعظم جيش فى ذلك الزمان بهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، وكان هذا الجيش من القوة والعظمة أنّ ضعيفى الإيمان تزلزلوا لذلك وشككوا بالوعود الإلهية فى نصرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين، فتقول الآية حاكية عن هذه الحالة الشديدة التى كان يعيشها المسلمون فى ذلك الوقت العصيب: «إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً». ولا شك أنّ سوء الظن باللّه تعالى يختلف كثيراً عن سوء الظن بالناس، لأنّ سوء الظن بالناس غالباً ما ينتهى بارتكاب الإثم أو سلوك طريق خاطىء فى التعامل مع الطرف الآخر، فى حين أنّ سوء الظن باللّه تعالى يتسبب فى تزلزل دعائم الإيمان وأركان التوحيد فى قلب المؤمن، أو أنّه يكون دافعاً وعاملًا من العوامل لذلك، لأنّ الاعتقاد بأنّ اللّه تعالى قد يخلف وعده يقع فى دائرة الكفر، لأنّ خلف الوعد إمّا ناشىء من الجهل أو العجز أو الكذب، ومعلوم أنّ كل واحد من هذه الامور محال على اللّه تعالى وأنّ الذات المقدّسة منزّهة عن هذه الامور السلبية، ولهذا السبب فإنّ الآيات محل البحث التى تستعرض سوء الظن باللّه تذم هذه الحالة بشدّة وعنف. «الآية الخامسة» تتحدّث أيضاً عن سوء الظن باللّه تعالى، وهذه الآية ناظرة إلى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۹ غزوة أحد والتى ابتلى بعض المسلمين فيها بعد هزيمتهم فى ميدان الحرب أمام المشركين بسوء الظن بالنسبة إلى الوعد الإلهى بالنصر، فنزلت الآية المذكورة موبّخة لهم بشدّة على سوء الظن هذا، فى حين أنّ الآيات التى وردت قبلها هى فى الحقيقة إشارة إلى أنّ وعد اللّه بالنصر على الأعداء قد تحقق فى بداية الأمر فى معركة أحد، ولكنّ طلّاب الدنيا والطامعين فى زخارفها غفلوا عن هجوم العدو وانشغلوا بجمع الغنائم الحربية، وبالتالى تسببوا فى الهزيمة المرّة لجيش الإسلام، فهنا نجد أنّ اللّه تعالى قد وفى بعهده ووعده ولكنهم كما تقول الآية لم يتحرّكوا فى خط الإيمان والاستقامة، ثم تأتى الآية محل البحث لتقول للمسلمين: «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً». وفى ذيل هذه الآية إشارة أيضاً إلى أنّ هذا إمتحان إلهى لكم ليتّضح ميزان وفاءكم واستقامتكم ومقدار إيمانكم باللّه تعالى وبالإسلام. ويتّضح من سياق هذه الآية والآيات التى قبلها هذه الحقيقة، وهى أنّ مسألة سوء الظن باللّه غالباً تصيب الأشخاص الضعيفى الإيمان فى مواقع الشدّة والأزمة، سواءاً كانوا فى معركة الأحزاب، أو فى أحد أو فى الحديبية، وفى الحقيقة أنّ مثل هذه المواقع تعدّ بمثابة المختبر للكشف عن جوهر إيمان الشخص وإخلاصه. وتأتى «الآية السادسة» والأخيرة لتستعرض أيضاً سوء الظن بشكل عام من موقع الذم وتدعو كذلك إلى حسن الظن، وهذ الآية ناظرة إلى قصّة الإفك المعروفة فى عصر النزول، ونعلم أنّ جماعة من المنافقين إتّهموا أحدى زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بخروجها عن جادّة العفاف وشاعوا ذلك بين الناس إلى درجة أنّ هذه الشائعة وبلحظات قليلة استوعبت جميع من فى المدينة، وبالرغم من أنّ هدف المنافقين حسب الظاهر هو اتهام احدى زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ولكنّهم فى الواقع كانوا يستهدفون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والإسلام والقرآن بالذات، وفى هذه الفترة الحرجة نزلت الآيات أعلاه لتفضح نفاق المنافقين وتزيل الحجاب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۰ عن سلوكياتهم الدنيئة وتبطل مؤامراتهم الخبيثة، ونرى أنّ عبارات هذه الآيات من القوة والدقّة فى المضامين والبلاغة بحيث أنّها تثير الاعجاب لدى كل إنسان، والآية مورد البحث هى أحد الآيات الخمسة عشر النازلة فى واقعة الإفك حيث تقول الآية: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ». والتعبير بـالمؤمنين والمؤمنـات يـدل على أنّ من علامـات الإيمان هو حسن الظن بالنسبة إلى المسلمين، وتدلّ على أنّ سوء الظن يتقاطع مع جوهر الإيمان. وفى الواقع فانّ هذه الآية تقسّم الناس إلى ثلاث طوائف طائفة المنافقين الذين يشيعون الإفك بين المسلمين، وطائفة منهم هم القادة والكبار من المنافقين الذين تعبّر عنهم الآية: «وَالَّذِى تَوَلَّى كِبرَهُ». وطائفة ثالثة هم المؤمنون الـذين تورّطوا فى تصـديق هذا الإفک المبين من موقع طيبة أنفسـهم وطهارة قلوبهم وسذاجة عقولهم. فهنا نجد أنّ القرآن الكريم يتحـدّث فى هذه الآية مخاطباً الطائفة الثالثة من موقع الذم الشديد والتوبيخ وأنّهم لماذا أصبحوا آلة وأداة بيد المنافقين الـذين يشيعون الإفك والفاحشـة بين الناس؟ وفى هذه الآيات السـتة التى بحثت فى بعضـها سوء الظن بالنسـبة إلى الناس وفى بعضـها الآخر سوء الظن بالنسبة إلى اللَّه تعالى نرى أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية قد وقعت موقع الذم الشديد، وبعض الآيات أشارت إلى بعض ما يترتب عليها من الآثار السلبية على حياة الإنسان، ولو لم يكن فى بيان قبح هذه الرذيلة الأخلاقية سوى ما ورد فى بعض الآيات القرآنية الشريفة لكفى ذلك، فكيف بما ورد فى الكثير من الآيات والروايات الدينية الاخرى والتى سنتحدث عنها لاحقاً؟

سوء الظن فى الروايات الإسلامية:

أمّا بالنسبة إلى الروايات الإسلامية فالمتتبع يرى أنّ تقبيح هذه الرذيلة الأخلاقية وذمّها الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۱ على أساس أنّها من أشنع الخصال الأخلاقية السلبية ولهذه الرذيلة صدى واسع فى النصوص الدينية الروائية، ونستعرض هنا بعض النماذج فى هذا الباب: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِيّاكُم وَالظّنُّ فَانَّ الظَّنَّ أَكـذَبُ الكِذبِ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر أيضاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ المُسلِمِ دَمَهُ وَمالَهُ وَعِرضَهُ وَأَنَّ يَظُنَّ بِهِ السُّوءَ» «۲». ۳- وفى حديث مثير عن الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «لا إِيمانَ مَعَ سُوءِ ظَنٍّ» «۳». وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى سوء الظن بكلا قسميه، سوء الظن بالنسبة إلى الناس، أو سوء الظن بالنسبة ا لى اللَّه تعالى. ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السـلام أيضـاً قـوله: «إِيّاكَ أَنْ تُسِيَءَ الظَّنَّ فَـانَّ سُوءَ الظَّنِّ يُفسِـدُ العِبـادَةَ وَيُعَظِّمُ الوِزرَ» «۴». ۵- ونقرأ فى حـديث آخر عـن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ بِالمُحسِنِ شَرُّ الإِثم وَأَقبَحُ الظُّلم» «۵». ۶- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام نفسه قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفسِـدُ الامُورَ وَيَبعَثُ عَلَى الشُّرُورِ» «۶». ۷- وورد أيضاً عنه عليه السـلام أنّه قال: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لا يَثِقُ بِأَحَـدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعلِهِ» «۷». ۸- ونقرأ فى نهج البلاغة قول الإمام على عليه السلام: «لا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۲ وَأَنتَ تَجِدُ لَها فِى الخَيرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا) «۱». ۹- ونقرأ فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «وَاللَّهِ ما يُعَذِّبُ اللَّهُ سُبحانَهُ مُؤمِناً بَعدَ الإِيمانِ إِلّا بِسُوءِ ظَنِّهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام الهمام عليه السـلام نفسه: «مَنْ غَلَبَ عَلَيهِ سُوءُ الظَّنِّ لَم يَترُكْ بَيَنَهُ وَبَينَ خَلِيلٍ صُـلحَاً» «۳». وكـذلک وردت روايات كثيرة فى باب سوء الظن باللَّه وعدم الإيمان والتصديق بوعده حيث تحكى عن آثار سلبية خطيرة فى حياة الإنسان المادية والمعنوية، ومن ذلک: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عـن الإمـام البـاقر عليـه السـلام عـن رسـول اللَّه صـلى الله عليه و آله أنّه قـال: «واللَّهِ الَّذِى لا إِلَهَ إِلّا هُوَ لايُعَـذِّبُ اللَّهُ مُؤمِناً بَعْـدَ التَّوبَةِ وَالإِستِغفَارِ إِلّابِسُوءِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَتَقصِـيرٍ مِنْ رَجائِهِ بِاللَّهِ وَسُوءُ خَلُقِهِ وَإِغتَيابِهِ لِلمُؤمِنينَ» «۴». ۲- ونقرأ فى حـديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ النبى داود عليه السلام قال: «يا رَبِّ ما آمَنَ بِکَ مَنْ عَرَفَکَ فَلَم يُحسِنِ الظَّنَّ بِکَ» «۵». ۳- وقال الإمام على عليه السلام أيضـاً: «الجُبنُ وَالحِرْصُ وَالبُخلُ غَرائِزُ سُوءٌ يَجمَعُها سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبحانَهُ» «۶» ومن المعلوم أنّ الشـخص الذى يعيش الإيمان بالعناية الإلهيـة ونصـرته لعباده المؤمنين فلا يجـد الخوف سبيلًا إلى قلبه من الأعـداء، والشـخص الذى يثق بوعد اللَّه فى مسألة الرزق، فلا يجد الحرص سبيلًا إلى نفسه ولا يعيش البخل فى حياته، وعليه فإنّ هذه الصـفات الثلاثة المذكورة فى هذا الحديث الشـريف هى فى الواقع تنبع من سوء الظن بـاللَّه تعـالى. إن مـا ورد فى الروايـات أعلاه يعـدّ غيض من فيض الروايـات الكثيرة فى باب سوء الظن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۳ الواردة فى المصادر المعتبرة والتى تتضـمن دقائق لطيفة عن علل ودوافع هذه الرذيلة الأخلاقية وآثارها السـلبية

الكثيرة، وقد أوردنا فى هذا المقتطف عشر روايات فى سوء الظن بالنسبة إلى الناس وثلاث روايات فى مورد سوء الظن باللّه وتحتوى على مفاهيم دقيقة ونكات جميلة فى تحليل هذا المفهوم الأخلاقى ودراسة أبعاده المتنوعة.

حسن الظن فى الروايات الإسلامية:

كما رأينا أنّ سوء الظن يفضى إلى إيجاد الخلل والإرتباك فى المجتمع البشرى ويؤدّى إلى سقوط الإنسان الأخلاقى والثقافى ويورثه التعب والألم والشقاء والمرض الجسمى والروحى، ففى الجهة المقابلة نجد أنّ حسن الظن يتسبب فى أن يعيش الإنسان الراحة والوحدة والإطمئنان النفسى، ولهذا السبب نجد أنّ الروايات الإسلامية الكثيرة تؤكّد على حسن الظن بالنسبة إلى الناس، وكذلك بالنسبة إلى اللّه تعالى، أمّا فى مورد حسن الظن بالنسبة إلى الناس، فنختار من الأحاديث الشريفة ما يلى: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حُسنُ الظَّنِّ مِنْ أَفضَلِ السَّجايا وَأَجزَلِ العَطايا» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أنّه قال: «حُسنُ الظَّنِّ مِنْ أَحسَنِ الشِّيَمِ وَأَفضَلِ القِسَمِ» «۲». ۳- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «حُسنُ الظَّنِّ يُخَفِّفُ ألَهَمَّ وَيُنجِى مِنْ تَقَلُّدِ الإِثمَ» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أيضاً أنّه قال: «حُسنُ الظَّنِّ مِنْ رَاحَةُ اللَبِ وَسَلامَةُ الدِّينِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۴ ۵- وأيضاً ورد فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِالنّاسِ حازَ مِنهُمُ المَحَبَّةَ» «۱». أمّا بالنسبة إلى حسن الظنّ باللّه تعالى، فنقرأ أحاديث كثيرة فى هذا الباب مذكورة فى المصادر المعتبرة منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن بعض المعصومين عليهم السلام أنّه قال: «وَالَّذِى لااِله إِلّا هُوَ ما أُعطِىَ مُؤمِنٌ قَطُّ خَيرَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ إِلّا بِحُسنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجائِهِ لَهُ وَحُسنِ خُلقِهِ وَالكَفِّ عَنْ إِغتِيابِ المُؤمِنِينَ» «۲». ۲- وكذلك ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «وَأَحسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنا عِندَ ظَنِّ عَبدِى المُؤمِنِ بِى إِنْ خَيراً فَخَيراً وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً» «۳». ۳- ويشبه هذا المعنى أيضاً وبشكل جامع ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «وَالَّذِى لا إِله إِلّا هُوَ لايَحسُنُ ظَنَّ عَبدٍ مُؤمِنٍ بِاللَّهِ إِلّا كانَ اللَّهُ عِندَ ظَنِّ عَبدِهِ المُؤمِنِ لأَنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ بِيَدِهِ الخَيراتُ يَستَحِيى أَنْ يَكُونَ عَبدُهُ المُؤمِنُ قَدْ أَحسَنَ بِهِ الظَّنَّ ثُمَّ يُخلِفُ ظَنَّهُ وَرَجاءَهُ فَأَحسِنُوا بِاللَّهِ الظَّنَّ وَارغَبُوا إِلَيهِ»». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم قوله: «رَأَيتُ رَجُلًا مِنْ امَتِى عَلَى الصِّراطِ يَرتَعِدُ كَما تَرتَعِدُ السَّعفَةُ فِى يَومِ رِيحٍ عاصِفٍ وَجاءَهُ حُسنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ فَسَكَّنَ رَعدَتَهُ» «۵». ۵- وفى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير حسن الظن باللّه تعالى قال: «حُسنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لا تَرجُو إِلّا اللَّهَ وَلا تَخافَ إِلّا ذَنبَكَ» «۶».

تعريف سوء الظن وحسن الظن:

عندما ترد هاتان المفردتان ويراد بهما سوء الظن أو حسنه بالنسبة إلى الناس فَإنّ لهما مفهوماً واضحاً، فالمفهوم من سوء الظن هو أنّه كلّما صدر من شخص فعلٍ معيّن يحتمل الوجهين الصحيح والسقيم، فنحمله على المحمل السقيم ونفسّره بالتفسير السىء، مثلًا عندما يرى الشخص رجلًا مع امرأة غريبة فيتصوّر أنّ هذه المرأة أجنبية وأنّ هذا الرجل ينوى فى قلبه نيّة سوء تجاهها ويريد ارتكاب المنكر معها، فى حين أنّ حسن الظن يقود الإنسان إلى القول بأنّ هذه المرأة هى زوجته أو أحد محارمه حتماً، أو عندما يقدم إنسان على بناء مسجد أو أى عمل من أعمال الخير الاخرى، فإنّ مقتضى سوء الظن أن يوحى للإنسان بأنّ هدف هذا الشخص هو الرياء أو خداع الناس وأمثال ذلك، فى حين أنّ حسن الظن يدفعه إلى القول بأنّ عمله هذا كان بدافع إلهى ونيّته خير وصلاح. ومن هنا يتّضح أنّ دائرة حسن الظن وسوء الظن واسعة جدّاً ولا تنحصر فى ممارسة العبادات فقط، بل تستوعب فى مصاديقها وموارداها المسائل الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية أيضاً. وعندما تستعمل هاتان المفردتان بالنسبة إلى اللّه تعالى فالمراد من حسن الظن باللّه هو أن يثق الإنسان بالوعد الإلهى فى مورد الرزق أو العناية بالعبد أو نصرة المؤمنين والمجاهدين، أو الوعد بالمغفرة والتوبة على

المـذنبين وأمثـال ذلـك، ومعنى سوء الظن باللّه تعالى هو أنّ الإنسان عنـدما يجـد نفسه فى زحمـة المشـكلات والمصاعب فإنّه يعيش الاهتزاز وعـدم الثقـة بالوعـد الإلهى، وعنـدما يقع فى بعض الابتلاءات العسـيرة وفى المسائل الماليـة وغيرها فإنّه ينسـى وعد اللّه تعالى للصابرين والذين يتحرّكون فى خط الاستقامة والانضباط والمسؤولية، ويتحرّك عندها فى خط المعصية والإثم. وقد رأينا فى الروايات السابقـة تعبيرات مثيرة وحيّـة توضّـح مـا ذكرنـاه آنفاً عن المفهوم من هاتين المفردتين. وهنا لابـدّ من اسـتعراض بعض النكات المهمّة وتحليل بعض النقاط فى هذا الباب:

الآثار السلبيّة لسوء الظّن

إنّ إتّساع دائرة سوء الظن فى المجتمعات البشـرية يترتب عليها آثار سـلبية وخيمـة ومضـرّات كثيرة قد لا تكون مسـتورة على أحد من النـاس، ولكـن لغرض توضـيح هـذا المطلب ينبغى الالتفـات إلى مـا يلى: أ) إنّ من أسـوأ الآثـار السـلبيّة لهـذه الرذيلـة الأخلاقيـة على المسـتوى الاجتماعى هو (زوال الثقـة والاعتماد المتقابل) بين أفراد المجتمع والذى يعدّ محور المجتمعات البشـرية والعنصـر المهم فى عمليـة شـد مفاصل المجتمع وتقويـة الوشائـج والعلاقات التى تربط بين أفراده، وقـد تقدّمت الإشارة إليها إجمالًا فى الروايات الشـريفة المتقدّمة، ومن ذلك قوله عليه السـلام: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لا يَثِقُ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعلِهِ» «۱». فنجد أنّ المجتمع البشرى الـذى يسوده عـدم الثقـة وعـدم الاعتمـاد بين أفراده فمثل هـذا المجتمع تتبخّر فيه أجواء التعاون والتكاتف وتزول منه البركات الكثيرة للحياة المشتركـة فى حياة الإنسان، ونقرأ فى الحـديث الشـريف عن الإمام على عليه السـلام قوله: «مَنْ سا ئَتْ ظُنُونُهُ إِعتَقَدَ الخِيانَةَ بِمَنْ لايَخُونُهُ» «۲». ب) إنّ سـوء الظن يـؤدّى إلى تـدمير وتخريب الهـدوء النفسـى والروحى، لـذلك المجتمع كمـا يميت الهـدوء النفسـى لأصـحاب هـذه الرذيلـة الأخلاقيـة، فمن يعيش سوء الظن فـإنّه لاـ يجـد الراحـة والاطمئنـان فى علاقته مع الآخرين ويخاف من الجميع وأحياناً يتصوّر أنّ جميع الأفراد يتحرّكون للوقيعة به ويسعون ضدّه، فيعيش فى حالة دفاعية دائماً وبذلك يستنزف طاقاته وقابلياته بهذه الصورة الموهومـة. ج) ومضافاً إلى ذلـك فإنّ فى الكثير من الموارد نجـد الإنسان يتحرّك وراء سوء ظنه ويترجم سوء الظن هـذا إلى عمل وممارسـة وبالتالى يوقعه فى مشاكل كثيرة، وأحياناً يؤدّى به إلى إرتكاب جريمـة وسـفك الـدماء البريئـة، وخاصـة إذا كان سوء الظن يتعلق بـالعرض الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۷ والنـاموس أو يتصوّر أنّ الآخرين يتآمرون عليه ويهـدفون إلى الوقيعـة به فى ماله أو عرضه، بحيث يمكن القول أنّ العامل الأصـلى للكثير من الحالات الجنائية هو سوء الظن الذى لا يقف على أساس متين والذى يدفع الإنسان إلى إرتكاب حالات العدوان والجريمة بحق الأبرياء. ولهذا السبب ورد فى الروايات السابقة عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفْسِدُ الاـمُورَ وَيَبْعَثُ عَلَى الشُّرُورِ». والأـهم من ذلـك أنّ فى الكثير من موارد سوء الظن الّتى يترتّب عليهـا إرتكـاب جريمة بحق الطرف الآخر فانّ هذا الإنسان الذى قاده سوء ظّنة لإرتكاب هذه الجريمة سوف يثوب إلى رشده ووعيه بعد ذلك ويشـعر فى قرارة نفسه بتأنيب الضـمير ويتسلّط عليه الاحساس بالإثم الذى قد يؤدى به إلى الجنون أحياناً. وعلى سبيل المثال نشـير إلى حادثة واحدة منها، فعند ما دخل الطبيب النفسانى يوماً ليعود مرضاه فى مستشفى المجانين والمتخلفين عقلياً رأى رجلًا قد جىء به حديثاً إلى هـذا المكان وهو يرّدد كلمـة (منـديل) مرّات عديـدة، وعنـد ما بحث هذا الطبيب النفسانى عن حاله واستقصـى مرضه العقلى رأى أنّ السـبب فى جنون هذا الشـخص هو أنّه رأى يوماً فى حقيبة زوجته منديلًا يحتوى على قنينة عطر وبعض الهدايا المناسـبة للرجال، فأساء الظن بزوجته فوراً وتصور أنّها على إرتباط برجل أجنبى، فكان أن قتلها بدافع من الغضب الشديد وبدون تحقيق وفحص، وبعد أن فتح المنـديل رأى فى طيّاته ورقـة كتب عليها، هـذه هديـة منّى إلى زوجى العزيز بـذكرى يوم ولادته. وفجأة أصابته وخزة شديـدة وشـعر بضـربة عنيفـة فى أعمـاق روحه أدّت إلى جنونه فكان يتـذكّر هـذا المنـديل ويكرّره على لسانه. د) إنّ سوء الظن هو فى الحقيقـة ظلم فاضـح للغير، لأـنّه يجعـل الطرف الآـخر فى قفص الأتّهـام فى فكر هـذا الشـخص وذهنه فيكيـل له أنـواع السـهام ويطعنه فى شخصـيّته وحيثيته، فلو أضـفنا إلى ذلك بعض الممارسات العملية المستوحاة من سوء الظن لكان الظلم أكثر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۸

وأوضح، ومن هذه الجهة قرأنا فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ مَنْ أقبَحَ الظُّلم». ه) إنّ سوء الظن یتسبّب فی أن یفقد الإنسان أصدقاءه ورفاقه بسرعة، وبالتالی یعیش الوحدة والإنفراد والعزلة وهذه الحالة هی أصعب الحالات النفسیة الّتی یواجهها الفرد فی حرکة الحیاة الاجتماعیة، لأن کل إنسان متشخص ویحترم مکانته وشخصیته نجده غیر مستعد لئن یعیش ویعاشر الشخص الذی یسیء الظن بأعماله الخیرة وسلوکیاته الصالحة ویتّهمه بأنواع التهم الباطلة، وقد قرأنا فی الأحادیث السابقة عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً أنّه قال: «مَنْ غَلَبَ عَلَیهِ سُوءُ الظَّنِّ لَم یَترُکْ بَینَهُ وَبَینَ خَلِیلٍ صُلحَاً». و) وقد رأینا فی الروایات السابقة أنّ سوء الظن یفسد عبادة الإنسان ویحبط أعماله ویثقل من کاهله یوم القیامة، فإذا کان المراد بسوء الظن فی هذه الروایة هو سوء الظن باللّه تعالی قد یتّضح حینئذٍ السبب فی فساد العبادة وحبط الأعمال، وإذا کان المراد هو سوء الظن بالناس (کما نستوحی ذلک من ذیل هذه الروایة) فإنّ ذلک بسبب أنّ الإنسان الذی یعیش سوء الظن بالناس یرتکب فی الکثیر من الموارد التجسّس علی الناس، وبالتالی یترتب علی ذلک أن ینطلق فی ممارساته الاجتماعیة من موقع الغیبة للطرف الآخر والتهمة أحیاناً، ومن المعلوم أنّ الغیبة والتهمة هی أحد الأسباب فی عدم قبول الطاعات والعبادات. ز) إنّ سوء الظن باعتباره انحرافاً فکریّاً، فإنّه سیؤثر بالتدریج علی أفکار الإنسان الاخری وسیقود تصوراته وأفکاره فی طریق الانحراف أیضاً، فتکون تحلیلاته بعیدة عن الواقع ومجانبة للصواب، فیمنعه ذلک من التقدّم ونیل الموفقیة فی حرکة الحیاة، وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ ساءَ ظَنُّهُ ساءَ وَهمُهُ».

الآثار السلبیة لسوء الظن باللّه:

إنّ سوء الظن باللّه تعالی وعدم الثقة بالوعود الإلهیة الواردة فی القرآن الکریم والأحادیث المعتبرة له آثار سلبیة مخرّبة فی دائرة الإیمان والعقائد الدینیة حیث یمثّل سوء الظن هذا عنصراً هدّاماً لإیمان الشخص یبعده عن اللّه تعالی کما قرأنا فی الروایات السابقة عن نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی مناجاة النبی داود علیه السلام قوله: «یا رَبِّ ما آمَنَ بِکَ مَنْ عَرَفَکَ فَلَم یُحسِنِ الظَّنَّ بِکَ» «۱». ومضافاً إلی ذلک فإنّ سوء الظن بالوعود الإلهیة یتسبب فی فساد العبادة وحبط العمل، لأنّه یقتل فی الإنسان روح الاخلاص وصفاء القلب، وقد قرأنا فی الأحادیث السابقة أنّه: «إیّاکَ أنْ تُسِیءَ الظّنَّ فَانَّ سُوءَ الظّنِّ یُفسِدُ العِبادَةَ وَیُعَظِّمُ الوِزرَ» «۲». والملاحظة الاخری هی أنّ سوء الظن باللّه تعالی وعدم الثقة بوعده یورث الإنسان الضعف والاهتزاز أمام الحوادث الصعبة والظروف العسیرة، کما ورد فی تفسیر الآیات الشریفة فی باب سوء الظن أنّ بعض المسلمین الجدد ابتلوا بسوء الظن بالوعد الإلهی بنصر المجاهدین فی میادین القتال، وبالتالی عاشوا الهزیمة الروحیة أمام الأعداء فی حین أنّ المؤمنین الحقیقیین الذین کانوا یعیشون حسن الظن باللّه کانوا یتصدّون للأعداء وقوی الانحراف والزیغ بمنتهی الشجاعة والشهامة والجرأة. ومضافاً إلی ذلک فإنّ سوء الظن باللّه تعالی بأمکانه أن یحرم الإنسان من العنایات الإلهیة واللطف الربانی، لأنّ اللّه تعالی یتعامل مع عبده بما یتطابق مع حسن ظنه أو سوء ظنّه بربّه کما قرأنا فی الأحادیث السابقة فی وصیّة لقمان الحکیم لابنه حیث یقول: «یا بُنَیَّ أحسِنَ الظّنَّ بِاللّهِ ثُمَّ سَل فِی النّاسِ مِنْ ذا الَّذِی أحسَنَ الظَّنَّ بِاللّهِ، فَلَم یَکُن عِندَ ظَنِّهِ بِهِ» «۳». وخلاصة الکلام أنّ الإنسان إذا أراد أن یعیش الهدوء النفسی والاستقامة فی خط الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۰ الصلاح والإیمان والتصدّی للنوازع الدنیویة وعناصر الشر وبالتالی ینال الإیمان الخالص وعنایة اللّه تعالی ورعایته ینبغی له أن یعیش حسن الظن باللّه تعالی ویثق بوعده.

أسباب ودوافع سوء الظن:

اشارة

إنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة حالها حال سائر الرذائل الاخری تنشأ من عدّة عوامل وأسباب:

۱- التلّوث الظاهرى والباطنى:

فالأشخاص الذين يعيشون حالة التلوث النفسى فى واقعهم يتصوّرون الآخرين مثلهم من خلال (المقارنة مع الذات) والتى هى حالة تكاد تكون سائدة عند أغلب الناس حيث يتصوّرون أنّ الآخرين مثلهم، فما لم يتطهر الإنسان فى ذاته ونفسه فمن العسير أن يتخلّى من سوء الظن بالنسبة إلى الآخرين، وفى ذلك ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لا يَظُنُّ بِأَحَدٍ خَيراً لأنّهُ لايَراهُ إلّابِطَبعِ نَفسِهِ» «۱».

۲- المعاشرة مع رفاق السوء:

فالشخص الذى يجالس رفاق السوء والفاسدين والأشرار من الناس فمن الطبيعى أن يسىء الظن بجميع الناس لأنّه يتصوّر أنّ الناس مثل هؤلاء الرفاق كما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مُجالَسَةُ الأَشرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالأخيارِ» «۲».

۳- المحيط الفاسد:

عندما يعيش الإنسان فى اسرة ملّوثة أو فى مدينة أو مجتمع متخلّف وسىء على المستوى الثقافى والأخلاقى، فإنّ ذلك من شأنه أن يورثه سوء الظن بجميع الأفراد حتى الأخيار منهم، وحتى لو كان يعاشر ويجالس الصلحاء ولكنّ غلبة الفساد والانحطاط فى المجتمع بإمكانه أن يخلق فيه سوء الظن.

۴- الحسد والحقد والتكبّر والغرور:

وتعتبر عاملًا آخر من عوامل سوء الظن، لأنّ الإنسان الحسود والحقود يريد من خلال سوء الظن تسقيط شخصية الطرف الآخر والتقليل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۱ من اعتباره، وكذلك الشخص المتكبر يتحرّك من موقع تحقير الآخرين والسخرية بشخصيتهم من خلال إساءة الظن بهم وبذلك يخلق فى ذهنه عن شخصية الطرف الآخر صورة مهزوزة وحقيرة. ۵- عقد الحقارة: وهى أحد العوامل لسوء الظن بالناس، فالشخص الذى يعيش الحقارة فى شخصيته ويشعر بالتفاهة لذاته أو يجد من الآخرين تحقيراً لشخصيته فانّه يسعى كذلك فى التنقيص من شخصية الآخرين واحتقارهم ويتصوّرهم شخصيات ملّوثة وحقيرة ليشبع هذه العقدة فى نفسه ويرضى حالته النفسية المهزوزة، وحينئذٍ يشعر بالراحة الكاذبة من جرّاء ذلك. أمّا سوء الظن باللَّه تعالى فيعتمد فى الأصل على ضعف الإيمان واليقين فى الإنسان واهتزاز صورة الالوهية فى دائرة صفات الذات وصفات الأفعال، فضعف اليقين واهتزاز الإيمان من شأنه أن يخلق فى فكر الإنسان سوء الظن وعدم الثقة بالوعود الإلهية لعباده، وكذلك بالنسبة إلى علم اللَّه تعالى وقدرته ورحمانيّته ورازقيّته وسائر صفاته الحسنى وبالتالى يوصد أمامه أبواب السعادة والنجاة.

مراتب سوء الظن:

وأحد الأسئلة المهمّة التى تثار على بساط البحث فى هذا المورد هو أنّه أساساً هل أنّ سوء الظن أمراً اختيارياً أو غير اختيارى؟ فلو رأى الإنسان ظاهرة معيّنة وأساء الظن بشخص أو أشخاص بدون اختيار، فهل هذا المعنى يوجب له الذم والتوبيخ؟ وهل تقع هذه الحالة مورداً للتكليف مع أنّ مقدّماتها غير اختيارية؟ وكيف يمكن تعلّق الذم والعقاب بأمر غير اختيارى؟ ويمكن الإجابة عن هذه التساؤلات وعلامات الاستفهام من طريقين: الطريق الأول: أنّ سوء الظن هذا الذى يقفز إلى ذهن الإنسان بدون اختيار منه لا يكون

مورد الذم والعقاب لوحده، فلو أنّه لم يتجسّد فی مرحلة العمل ولم يرتب الإنسان عليه أثراً الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۲ على مستوى الممارسة والكلام، ولا يصدر منه سلوك يشير إلى سوء الظن هذا فإنّه لا يقع مورد الذم ولا العقاب، ولذلك ذكر بعض علماء الأخلاق فی هذا المجال: «وَأَمّا الخَواطِرُ وَحَدِيثُ النَّفسِ فَهُو مَعفُوٌ عَنهُ ... وَلَكِنَّ المَنهِيَّ عَنهُ أَنْ تَظُنَّ، والظَّنُّ عِبارَةٌ عَمّا تِركَنُ إِلَيهِ النَّفسُ وَيَميلُ إِلَيهِ القَلبُ» «۱». وخلاصة الكلام أنّ سوء الظن له ثلاثة مراحل: أحدها: سوء الظن القلبی. الثانية: سوء الظن اللّسانی. الثالثة: سوء الظن العملی. فأمّا ما كان فی القلب فلا يقع مشمولًا للتكليف لأنّه خارج عن دائرة الاختيار، ولكنّ ما يصدر من الإنسان بلسانه أو بعمله فهو الممنوع والحرام. ولهذا ورد فی بعض الروايات قوله عليه السلام: «وإِذا ظَننتَ فلا تَحَقِّقْ» «۲». الطريق الثانی: إنّ الكثير من أشكال سوء الظن غير الاختيارية تتضمّن مقدّمات اختيارية فی البداية أو فی إدامتها واستمرارها، فالأشخاص الذين يجالسون رفاق السوء فيحصل لهم سوء الظن بالأخيار ينبغی عليهم اجتناب مثل هذه المعاشرة ولمثل هؤلاء الرفاق من الفسّاق والأشرار حتى لا تحصل لديهم حالة سوء الظن تجاه الآخرين، وهذا أمر اختيارى، ولكن لو حصل له سوء الظن بدون مقدّمات اختيارية، فيجب على الإنسان أن يتفكّر فی حالته هذه ويضع فی تصوّره احتمالات صحيحة إلى جانب الاحتمالات السيئة التی أورثته سوء الظن، مثلًا يقول: إنّ هذه المرأة الأجنبية التی رآها مع الشخص الفلانی، إمّا أن تكون أخته أو ابنة أخيه أو ابنة اخته أو زوجته وأمثال ذلك من أقرباء الشخص الذين لا يعرفهم هو، فلا شك أنّ مثل هذا التفكير السليم واحتمال هذه الاحتمالات الصحيحة يتسبب فی إضعاف سوء الظن عنده أو يزيله تماماً من ذهنه، ولهذا ورد فی الحديث الشريف الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۳ عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اطلُبْ لأخِيكَ عُذراً فَانْ لَم تَجِدْ لَهُ عُذراً فَالتَمِسْ لَهُ عُذراً» «۱». وقد مرّ علينا الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام هو أنّه قال: «لا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءً وَأَنتَ تَجِدُ لَها فِی الخَيرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا)» «۲». وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم سوء الظن إلى ثلاثة أقسام: ۱- سوء الظن الذى يتجسّد فی أفعال الشخص وكلماته وأقواله، وهذا القسم من سوء الظن الحرام. ۲- سوء الظن الذى لا يظهر أثره خارجاً، ولكنّه يمكن للشخص إزالته من خلال التفكير السليم وبواسطة إزالة مقدّماته الخارجية، فهذا النوع من سوء الظن يحتمل أن يكون مشمولًا لأدلّة الحرمة. ۳- سوء الظن الذى لا يترتب عليه أثر خارجی، وهو خارج تماماً عن دائرة اختيار الإنسان وإرادته ولا يمكن إزالته بشتى الوسائل، فمثل هذا الظن السيء لا يكون مشمولًا للتكاليف الشرعية مادام الإنسان لم يرتّب عليه أثراً معيّناً. والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فی الآية ۳۶ من سورة الأسراء: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». وفی هذه المرحلة يجب التوجّه إلى الاصول والمبادىء الحاكمة فی دائرة علاج الأمراض الأخلاقية والرذائل النفسية، وأهمّها التفكّر فی الآثار السلبية والعواقب الوخيمة لسوء الظن، لأنّه عندما يتفكّر الإنسان فی عواقب سوء الظن وكيف أنّه يتلف رأس المال الاجتماعی بين أفراد البشر ويسلب منهم الثقة والاعتماد المتقابل ويربك الهدوء والاستقرار فی مفاصل المجتمع، ويتسبب فی خسارة الإنسان لأصدقائه وفقده لأحبائه ويورثه الغفلة عن واقعيّات الامور والحقائق الاجتماعية، ويقوده إلى إرتكاب الظلم والعدوان فی حق الآخرين (كما تقدّم تفصيله سابقاً) فحينئذٍ سوف يبتعد عن هذه الرذيلة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۴ الأخلاقية بدون صعوبة، كما أنّ إطّلاع الإنسان على كون الغذاء مسموماً سيخلق فی نفسه مناعة شديدة عن تناوله، هذا من جهة. ومن جهة اخرى فإنّه كلّما تحرّك الإنسان لقطع جذور هذه الرذيلة وقلع أسبابها من مواقع النفس، أى مجالسة رفاق السوء والتی تسبب سوء الظن بالأخيار أو يبتعد مهما أمكنه عن الأجواء الملّوثة والمحيط السيء والفاسد، ويطهّر قلبه من أدران الحسد والحقد والتكبّر والغرور التی هی من العوامل المهمّة لسوء الظن وأمثال ذلك من الأسباب والعوامل الاخرى فسوف تنتهی وتزول منه هذه الرذيلة الأخلاقية. ومضافاً إلى ذلك فإنّ بعض الامور يمكنها أن تساعد الإنسان على إنقاذه من شر هذه الحالة السلبية، وهی: الف: البحث عن الاحتمالات السليمة فی تبرير سلوكيات الآخرين المبهمة التی قد تورثه سوء الظن، كما قرأنا فی الروايات السابقة عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءً وَأَنتَ تَجِدُ لَها فِی الخَيرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا)» «۱». ومن الواضح أنّ الكثير من الأعمال والسلوكيات الصادرة من الأشخاص تقبل التبرير السليم والحمل على الصحّة. ب: أن يبتعد الإنسان عن التجسّس فی أعمال

الآخرين والذى قد يكون معلولًا لسوء الظن أولًا، ويتسبب كذلك فى سوء الظن أيضاً، فلو أنّ الإنسان تجنّب التجسّس فى حياة الآخرين الخصوصية فانّه يكون قد تخلّص من أحد الأسباب المهمّة لسوء الظن. ج: أن لا يرتب أثراً عملياً على سوء ظنّه وبذلك يحقّق له أحد طرق العلاج لهذه الرذيلة، لأنّ الإنسان إذا أساء الظن بشخص من الأشخاص وأفعاله ثم جسّد سوء الظن هذا على سلوكياته وأفعاله كأن يبتعد عنه ويظهر عدم الثقة به أو يستشمّ من أفعاله وعلاقته بذلك الشخص أنّه يسىء الظن به، فهذه الحالة تسبب فى تقوية سوء الظن وزيادته واشتداده، ولكن إذا لم يهتمّ لذلك ولم يرتّب عليه أثراً، فإنّه سيضعف تدريجياً وبالتالى سينتهى ولذلك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۵ ورد فى الروايات الإسلامية: «إِذا ظَنَنْتُم فَلا تَحَقَّقُوا» «۱». ولا شك أنّ الالتفات إلى العقوبات الإلهية الاخروية والآثار المعنوية السلبية لهذه الرذيلة الأخلاقية والتى سبقت الإشارة إليها فى الروايات الشريفة لها أثر قوى أيضاً فى الوقاية من الابتلاء بهذا المرض المعنوى، وتمنح الإنسان القدرة على التحرّك بعيداً عن ممارسة تداعيات هذه الصفة الأخلاقية الذميمة.

موارد الاستثناء:

لاشك أنّ قبح سوء الظن رغم أنّه يعتبر قاعدة كليّة وأصل من الاصول الاخلاقّية فى دائرة علم الإخلاق، إلّاأنّه هناك إستثناءات لهذا الأصل العام وردت الإشارة إليها فى الروايات الإسلامية، ومن ذلك: ألف) إذا ساد الفساد والإنحطاط الأخلاقى فى مجتمع ما وكان التلّوث بالرذائل الإخلاقيّة هو السائد لهذا المجتمع البشرى فانّ حسن الظن فى مثل هذه الحالات ليس فقط لا يعدّ من الفضائل الإخلاقية، بل يمكن أن يورّط الإنسان بعواقب سلبيّة ومشاكل حقيقية أيضاً، وورد التحذير من هذا النوع من حسن الظن فى الروايات الإسلاميّة. فنقرأ فى الحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «اذا اسْتَوْلَى الصَّلاحُ عَلَى الزَّمانِ وَاهْلِهِ ثُمَّ أساءَ رَجُلٌ الظَنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ فَقَدْ ظَلَم، وَإِذا اسْتَوْلَى الْفَسادُ عَلَى الزَّمانِ وَاهْلِهِ فَاحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ» «۲». وهذا المضمون ورد أيضاً بتعبيرات مختلفة عن الإمام الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام والهادى عليه السلام «۳» .وقد ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «احْتَرِسُوا مِنَ الناسِ بِسُوءِ الظَّنِّ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۶ وهذا أيضاً يمكن أن يكون إشارة لمثل هذه الأزمان والحالات التى يسود فيها الإنحطاط الأخلاقى فى مفاصل المجتمع البشرى، وإلّا فانّ سوء الظن بعنوانه أصل عام لا يمكن أن يكون مورد المدح والثناء والقبول. ويستفاد من مجموع ما تقدم من الروايات أنّ الأصل فى الأجواء الاجتماعية السالمة نسبياً هو حسن الظن، وعلى العكس من ذلك فإذا عاش الإنسان فى أجواء فاسدة ومتخلّفة فانّ الأصل يجب أن يبتنى على سوء الظن، وطبعاً هذا لا يعنى أن ينسب الإنسان بعض التهم ويلفّق بعض العيوب والنقائص لشخص من الأشخاص، بل ينبغى الاحتياط فى مثل هذه الظروف لئلّا يتورّط الإنسان فى مشاكل ومصاعب يفرضها عليه هذا المحيط الفاسد. وطبعاً لا ينبغى أن يكون هذا الاستثناء وهذه الروايات ذريعة بيد الأشخاص لكى يتحرّكوا من موقع سوء الظن بأىّ إنسان ويقول بأنّ هذا الزمان كثر فيه الفساد وشاع فيه الانحطاط فمن الخطأ حسن الظن بالناس، فحتى فى الأزمنة الفاسدة والأجواء المنحطة يجب على الإنسان أن يصنّف الناس إلى عدّة أصناف، فيجعل من الأشخاص الذين يتجّلى فى محياهم الصلاح والخير فى دائرة الصالحين، فلا ينبغى أن يكونوا مورد سوء الظن مادام لم يشاهد منهم أمراً منكراً من موقع الوضوح. ولكنه عليه أن يضع الفئات التى شاهد منها سلوكيات مخالفة وأفعال منكرة بصورة متكررة فى صف الأشرار والمفسدين، ولا ينبغى عليه أن يحسن الظن بنيّاتهم وأفعالهم اطلاقاً. ب) بالنسبة إلى الامور الأمنيّة فى المجتمع الإسلامى والتى يتعلّق بها سلامة المجتمع وأمنه واستقراره لا يجوز حسن الظن بأيّة حركة مشكوكة فى هذا المجتمع، بل يجب عليه أن يبتعد عن حسن الظن ما أمكنه ذلك، أو بتعبير آخر يجب عليه أن يتّخذ جلباب الاحتياط فى تعامله مع هذه السلوكيات والحركات الصادرة من بعض الأفراد المشكوكين. ومفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّه يجوز هتك حرمة الأفراد أو التعامل معهم بسلبية نتيجة سوء الظن، بل المراد أنّ جميع الحركات والسلوكيات المشكوكة يجب أن توضع تحت النظر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۷ ويتمّ دراستها بدقّة، فلو

اتّضح بعد التحقیق ومن خلال القرائن والبیّنات الواضحة أنّ مثل هذه الحرکات کانت بدافع من سوء النیّة ومقترنة بتصرفات خاطئة ومحرّمة هناک ینبغی إتّخاذ التدابیر العملیة اللازمة. ج) ومن الموارد الاخری التی یجوز فیها سوء الظن، بل قد یکون واجباً أیضاً هو فی الحالات التی یکون الإنسان فی مقابل العدو، ویمکن أن یطلب العدو الصلح وینادی بالمحبّة والصداقة ویعلن عن رغبته فی التعاون وأمثال ذلک، فمثل هذه الموارد لا ینبغی التعامل معه بسذاجة وتصدیق کلّما یقوله من موقع حسن الظن واسدال الستار عن الماضی نهائیّاً والتقدّم إلی العدو بابتسامة عریضة والشد علی یده ومعانقته، بل ینبغی أن یضع فی زاویة الاحتمال أن یکون هذا السلوک من العدو من موقع المکر والحیلة والخدعة لإستغفال الطرف المقابل. ولهذا ورد فی عهد مالک الأشتر المعروف قول أمیر المؤمنین علیه السلام: «الحَذَرُ کُلُّ الحَذَرِ مِنْ عَدُوِّکَ بَعدَ صُلحِهِ فَإنَّ العَدُوَّ رُبَّما قارَبَ لِیَتَغَفَّلَ فَخُذْ بِالحَزمِ وَاتَّهِم فِی ذَلِکَ حُسنَ الظَّنِّ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۸

التجسّس فی الحالات الخاصة للناس

تنویه:

(التجسّس) بمعنی البحث والفحص فی أعمال الآخرین والامور المتعلّقة بهم، وغالباً ما یکون هذا البحث فی الامور السلبیة ونقاط الضعف والسلوکیات الذمیمة، ولکنّ التجسّس فی لغة العرب یأتی بمعنی البحث والفحص فی المسائل الإیجابیة أیضاً. وفی الحقیقة أنّ سوء الظن هو السبب فی أن یتحرّک الإنسان للکشف عن أسرار الناس وامورهم الخفیّة، وأحیاناً تدخل عوامل اخری من قبیل: البخل والحسد وضیق الافق وأمثال ذلک فی خلق هذه الحالة الذمیمة لدی الإنسان. التجسّس بالشکل المذکور آنفاً یعتبر حالة ذمیمة جدّاً فی دائرة المفاهیم الإسلامیة ومن الأعمال المحرّمة حیث یتسبب فی سلب الأمن الاجتماعی وخلق أنواع الخصومات والنزاعات بین الأفراد، فلو ابیح لکلّ شخص أن یتدخّل فی الکشف عن أسرار الآخرین والتدخل فی امورهم الخاصّة فی حیاتهم الفردیة والاسریة، فلا یبعد أن یترتب علی ذلک هتک حرمة الکثیر من الأفراد وتدمیر شخصیتهم الاجتماعیة وبالتالی إندلاع نیران الحقد والعداوة والبغضاء فی المجتمع بحیث یتحوّل مثل هذا المجتمع إلی جحیم لا یطاق. وبالطبع فإنّ هذا الحکم الأخلاقی والإسلامی لا یتقاطع أبداً مع ضرورة وجود أجهزة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۰ أمنیّة وتجسّسیة فی جهاز الحکومة الإسلامیة، لأنّ ما تقدّم من التجسّس المذموم یتعلّق بالحیاة الخاصة للأفراد، وأمّا هذا المعنی الثانی فیتعلّق بمصیر المجتمع وأمنه ویهدف إلی التصدّی لمؤامرات الأعداء وکشف مخططاتهم والوقایة من تسرّب عناصر الشر والانحراف فی مفاصل المجتمع الإسلامی. وبهذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی منه الدروس الأخلاقیة فی هذا الباب. نقرأ فی القرآن الکریم آیة واحدة تنهی عن التجسّس، وهی الآیة ۱۲ من سورة الحجرات حیث یقول تعالی: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً». وکما تقدّمت الإشارة إلیه فی بحث الغیبة وسوء الظن فإنّ الآیة الشریفة المذکورة أعلاه تنهی عن ثلاثة أشیاء، وهی فی الواقع بمثابة العلّة والمعلول، فالأول تنهی عن سوء الظن الذی یعدّ العلّة والمصدر للتجسّس، ثم تنهی عن التجسّس الذی یتسبب فی الکشف عن عیوب الآخرین المستورة وبالتالی التحرّک من موقع غیبتهم وفضح معایبهم. وکما تقدّمت الإشارة إلیه آنفاً فإنّ (التجسّس) له مفهوم سلبی ویراد به عادة سلوک غیر أخلاقی تجاه الآخرین، ولکنّ (التجسّس) قد یرد فی مورد یکون البحث والفحص عن الشیء مطلوباً ومحموداً کما نقرأ فی قصّة یوسف علیه السلام أنّ یعقوب علیه السلام أمر أولاده وقال: «یَا بَنِیَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ یُوسُفَ وَأَخِیهِ وَلَا تَیْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» «۱» .وذهب البعض إلی أنّ التحسّس بمعنی إستراق السمع بالنسبة لکلمات وأحادیث الآخرین، فی حین أنّ التجسّس هو البحث والفحص العملی عن أسرار وعیوب الآخرین. وممّا یلفت النظر أنّ النهی عن التجسّس فی آیة سورة الحجرات لم یتقیّد بقید أو شرط، وهذا یدلّ علی أنّ الأصل هو حرمة التجسّس بعنوان قاعدة عامّة، ولو رأینا أحیاناً فی الأحکام الإسلامیة جواز

التجسّس لأغراض خاصّة فإنّ ذلک من قبیل الاستثناء. وقد کان الحکم بحرمة التجسّس وبالنظر لهذه الآیة الشریفة إلی درجة من الوضوح فی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۱ الذهنیة المسلمة حتی أنّ المسلمین کانوا یستدلون بهذه الآیة کدلیل علی حرمة التجسّس، فقد ورد فی مصادر أهل السنة من قبیل کنز العمال نقلًا عن (ثور الکندی) حیث یقول: کان عمر بن الخطاب یعسّ فی اللیل فی أزقة المدینة فسمع یوماً صوت رجل یغنی فی داخل بیته فما کان من عمر إلّاأن تسلق الجدار فصاح به: یا عدو اللّه أحسبت أنّک ترتکب الذنب فی خفاء وأنّ اللّه تعالی لا یراک؟ فقال له ذلک الرجل: لا تعجل یا أمیرالمؤمنین، فلو ارتکبت ذنباً واحداً فقد ارتکبت أنت ثلاثة، فانّ اللّه تعالی یقول «وَلا تَجَسَّسُوا» وأنت قد تجسّست علینا، ویقول أیضاً: «وَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۱»، وأنت تسلقت الجدار، واللّه تعالی یقول: «لَاتَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَی أَهْلِهَا» «۲»، وأنت دخلت البیت بلا اذن ولا سلام. فما کان من عمرإلّا أن أطرق أمام هذا الاستدلال المتین ثم قال له: إذا عفوت عنک فهل تترک ما أنت علیه؟ فقال: نعم، فترکه عمر وذهب «۳».

التجسّس فی الروایات الإسلامیة:

إنّ مسألة التجسّس ذکرت فی الروایات الإسلامیة من موقع الذم والتقبیح بحیث أنّ القارىء لهذه الروایات یستنتج أهمیة وشناعة هذا العمل والسلوک الأخلاقی الذمیم، ومن ذلک: ۱- ما ورد عن رسول اللّه أنّه قال: «إیّاکُم وَالظَّنَّ فَإنَّ الظَّنَّ أَکذَبُ الحَدِیثِ وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا» «۴». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم أیضاً قوله: «لا تَحاسَدُوا وَلا تَباغَضُوا وَلا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۲ تَجَسَّسُوا وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَنا جَشُوا وَکُونُوا عِبادَ اللّهِ إخواناً» «۱». ویتّضح من هذا الحدیث جیداً أنّ حال التجسّس کحال الحسد والحقد والکراهیة فإنّه یتسبب فی تباعد الناس وتمزّق أوصال المجتمع الإسلامی والتدهور والإرتباک فی العلاقات الاجتماعیة بین الناس. وقد أورد الکلینی فی کتابه الکافی حدیثاً عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یا مَعْشَرَ مَنْ أَسلَمَ بِلِسانِهِ وَلَم یُسلِمْ بِقَلبِهِ لاتَتَّبِعُوا عَثَراتِ المُسلِمِینَ فَإنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَثَراتِ المُسلِمِینَ تَتَبَّعُ اللّهُ عَثَرَتَهُ وَمَن تَتَبَّعُ اللّهُ عَثَرَتَهُ یَفْضَحْهُ» «۲». ۳- وفی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «تَتَبُّعُ العَیُوبِ مِنْ أَقبَحِ العُیُوبِ وَشَرِّ السَّیِّئاتِ» «۳». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أنّه قال: «مَنْ بَحَثَ عَنْ أَسرارِ غَیرِهِ أَظهَرَ اللّهُ أَسرارَهُ» «۴». ۵- وجاء فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً قوله: «مَن تَتَبَّعَ خَفِیَّاتِ العُیُوبِ حَرَّمَهُ اللّهُ مَوَدّاتِ القُلُوبِ» «۵». ۶- وورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «لا تُفَتِّشِ النّاسَ عَنْ أَدیانِهِم فَتَبقی بِلا صَدِیقٍ» «۶». وهذا یدلّ علی أنّ أغلب الناس لهم عیوب ونقائص فی دائرة العقیدة أو العمل، فعندما تبقی مستورة وخفیّة، فإنّ ذلک من شأنه أن یوطّد العلاقات بین الأفراد ویتعامل الأفراد فیما بینهم من موقع المحبّة والود ویلتزمون بأصالة الصحّة والعدالة فی الطرف الآخر، ولکن فی غیر هذه الصورة فانّ الإنسان یبقی بلا صدیق.

الآثار والعواقب السلبیة للتجسّس:

إنّ البحث والتفحّص عن حال الآخرین لغرض الکشف عمّا خفی من معایبهم ونواقصهم له آثار سلبیة کثیرة فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة. لأنّه من جهة یؤدّی إلی نفور الناس وکراهیتهم لمن یتدخل فی شؤونهم الخاصة ویتعدّی علی أسرارهم ویهدف إلی الکشف عن امورهم الخاصة، فیرون مثل هذا الشخص معتدیاً علی حریمهم الخاص ولا یقیمون له احتراماً ولا یرون له شخصیة وحیثیة فی نظرهم ویکرهون من یعیش هذه الحالة الذمیمة بشدّة. وقد قرأنا فی الحدیث السابق قول الإمام الصادق علیه السلام أنّ الشخص الذی یفتّش عن عیوب الناس یبقی بلا صدیق، فیمکن أن یکون إشارة إلی هذا المعنی. ومن جهة اخری فإنّ أغلب الناس لدیهم نقاط ضعف وعیوب فی شخصیتهم وسلوکیاتهم وأخلاقهم فهی لو أنّها بقیت مستورة وفی حیّز الکتمان، فإنّ ذلک من شأنه أن یدفع بعجلة التفاعل الاجتماعی بین الأفراد کما یرام، ولکن عند انتشار هذه العیوب ونقاط الضعف فإنّ ذلک من شأنه أن یتسبب فی سوء الظن

لدى الأفراد وانفصام علقة الاخوة والصداقة والمحبّة بينهم. ومن جهة ثالثة فانّ التجسّس والتفتيش عن عقائد الآخرين وأسرارهم وعيوبهم يتسبب فى تعميق حالة الكراهية والحقد والعداوة بين أفراد المجتمع وأحياناً يؤدّى إلى النزاع الدموى الشديد بينهم. فإذا أردنا أن يعيش المجتمع السلامة والاطمئنان والاستقرار فينبغى الحذر والابتعاد عن هذا السلوك السلبى. ومن جهة رابعة فإنّ أكثر الناس يتحرّكون فى مقابل هذا العمل من موقع المقابلة بالمثل، أى يسعون إلى التجسّس والفحص عن عيوب الشخص الفضولى والمتجسّس على أحوالهم ويكشفونها إلى الملأ، ولعل هذا الحديث الشريف ناظر إلى هذا المعنى وهو قوله: «مَنْ بَحَثَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۴ عَنْ أَسرارِ غَيرِهِ أَظهَرَ اللَّهُ أَسرارَهُ» «۱». ونقرأ فى حديث آخر قوله عليه السلام: «مَنْ كَشَفَ حَجابَ أَخِيهِ إِنكَشَفَتْ عَورَاتُ بَيتِه»» ، وهو قد يكون إشارة إلى هذا المعنى بالذات، أو إشارة للأثر الوضعى ونتائج هذا العمل فى الدنيا. ونقرأ كذلك فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَنْ تَطَّلَعَ عَلى أَسرارِ جارِهِ إِنتُهِكَتْ أَستارُهُ» «۳». أمّا الدوافع على هذه الرذيلة الأخلاقية وهى التجسّس والتفتيش فى أسرار الناس وأحوالهم الخاصة فكثيرة، ومن ذلك: ۱- سوء الظن بالآخرين الذى يقود الإنسان غالباً إلى التجسّس عن أحوالهم، فلو أنّه استبدله بحسن الظن فإنّه لا يفكّر عند ذاك بالتفتيش عن عيوب الآخرين، ولهذا السبب كما أشرنا سابقاً أنّ الآية ۱۲ من سورة الحجرات تنهى عن التجسّس بعد النهى عن سوء الظن. ۲- التلوّث بالذنوب والعيوب المختلفة والذى يعدّ عاملًا آخر يدفع صاحبه نحو التجسّس على الا خرين، لأنّ الشخص الملّوث بالذنوب والغارق فى العيوب يريد أن يرى جميع الناس مثله، وبذلك سوف ينطلق من موقع جبران عيوبه وخلق أجواء كاذبة له من الهدوء النفسى وتسكين حالة التوتر التى تفرضها عليه عيوبه الكثيرة فيقول فى نفسه بأننى إذا كنت ملّوثاً فسائر الناس كذلك. ونقرأ فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «شَرُّ النّاسِ الظّانّون وشَرُّ الظّانّين المُتَجَسِّسُونَ» «۴». وأحد العوامل الاخرى للتجسّس هى حالات الحسد والحقد والعداوة والتكبر والعجب فى واقع الإنسان الناقص حيث تدفعه هذه العناصر الشريرة إلى التفتيش عن عيوب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۵ الآخرين واستخدامها كأداة لتسقيطهم وهتك حيثيتهم لغرض إرضاء الميل إلى التفوّق ورؤية الأنا متعالية على الآخرين. ۴- ومن العوامل الاخرى لهذه الرذيلة هو ضعف الإيمان أيضاً، لأنّ الإنسان الذى يعيش ضعف الإيمان باللَّه تعالى لا يلتزم باحترام إيمان الآخرين وشخصيتهم الاجتماعية، ولذلك يتدخّل بأدنى حجّة فى امورهم الخاصة وحريم حياتهم الخصوصية ولا يرى بأساً فى الكشف عن مثالبهم وهتك حرمتهم وإراقة ماء وجوههم، كما قرأنا فى الأحاديث السابقة عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأنّ مثل هؤلاء الأشخاص هو من قبيل: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَن بِلِسانِهِ وَلَم يَدخُلِ الإيمانَ فِى قَلبِهِ».

استثناءات:

اشارة

هنا يطرح سؤال وهو: هل أنّ التجسّس يعدّ عاملًا منافياً للأخلاق والشرع فى جميع الموارد، أو هناك بعض الاستثناءات التى تخرجه عن دائرة الحرمة الشرعية؟ فإنّ جميع الدول والحكومات فى العالم سواءً الإسلامية وغير الإسلامية لديها أجهزة أمنيّة خاصة تعمل فى دائرة التجسّس والفحص عن أسرار الناس وحالاتهم وتتدخل فى امورهم وتسعى إلى الكشف عن أسرارهم، وهناك موارد اخرى لا يكون التجسس فى امور الناس ممنوعاً فى نظر عقلاء العالم، بل قد يكون لازماً وضرورياً. وفى مقام الجواب عن هذا السؤال يجب القول إنّ هذا الأصل العام فى مسألة حرمة التجسّس وقبحه فى دائرة القيم الأخلاقية له بعض الموارد الاستثنائية كما هو الحال فى الاصول العامة الاخرى، ومن ذلك:

۱- الأجهزة الأمنيّة

إنّ كل حكومة ودولة تجد نفسها موظفة بحماية شعبها من شر مؤامرات الأعداء فى الداخل والخارج وتستخدم الحذر من جواسيس الأعداء، ولاـ شك أنّ المسؤولين فى هذه الحكومات إذا أرادوا أن يواجهوا الأحداث والوقائع من موقع حسن الظن والحمل على الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۶ الصحة، فإنّ ذلك من شأنه أن يورطّهم فى العواقب الوخيمة لمؤامرات الاعداء من المنافقين فى الداخل ومن تربّص بهم الدوائر فى الخارج، لأنّ مؤامراتهم سريّة جدّاً ويتحرّكون بمنتهى الحذر والتستر بظواهر طبيعية وأقنعة جميلة ولاـ يتسنى للمسؤولين التعرّف على حالهم إلّامن خلال التفتيش الدقيق والتجسّس المستمر لكشف مؤامرات هؤلاء الأعداء وابطال مفعولها. ففى مثل هذه الموارد يجب اجتناب حسن الظن والابتعاد عن الحمل على الظاهر الحسن، بل ينبغى النظر إلى كل ظاهرة اجتماعية وسياسية من موقع سوء الظن لحفظ الأهداف الكبيرة والأغراض المتعالية للمصالح العامة للُامّة الإسلامية وبذلك تتّضح الحكمة من تشكيل الأجهزة الأمنيّة والتجسسية فى الداخل والخارج، وبعبارة اخرى: إنّ هذا الاستثناء ينبع من قانون الأهم والمهم، فما أكثر الأفراد الذين يقعون مورد سوء الظن وبالتالى تتحرّك الأجهزة الأمنيّة للتفتيش عن أحوالهم الخاصة فيثبت برائتهم وسلامتهم من أى عمل شائن، ولكن من البديهى أنّه ولغرض العثور على المجرم الواقعى وعملاء الأعداء فى الداخل فلاـ مفرّ من مزاولة البحث والفحص الواسع فى جميع الموارد المحتملة للوصول إلى نتيجة حاسمة. وقد يلزم أحياناً أن تبعث الحكومة ببعض الجواسيس وبظواهر مختلفة وسط الأعداء أو إدخال بعض عناصر الأمن كموظفين فى المؤسسات المهمّة التى تعمل فى الداخل على شكل عامل أو موظف وأمثال ذلك كيما يتسنى لها الكشف عن بذور الفتنة واحباط أيّة مؤامرة قبل تشكلها واشتدادها، وبالتالى تعرّض الامّة مصالحها للخطر. وبالطبع فإنّ هذا لا يعنى أنّه يمكن إتّخاذ هذا الاسلوب ذريعة للتدخل فى الحياة الخصوصية لجميع أفراد المجتمع وإذاعة أسرارهم وكشف مساوئهم التى لا ترتبط اطلاقاً بمصالح الامّة وأهدافها البعيدة رغم أننا نرى مع الأسف الكثير من التخلفات التى تجرى فى إطار هذا الأصل العقلائى فيساء استخدامه فى كثير من الأحيان، ونظراً إلى أنّ الجواز فى عملية التجسّس يعتبر حكماً استثنائياً من الأصل العام فلابدّ من مراعاة هذه الموارد بدقّة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۷ والنظر إلى فلسفة هذا الحكم بالذات كيما نتجنّب الافراط فى بعض الممارسات التى تدخل تحت هذا العنوان. ونقرأ فى آيات القرآن الكريم وسيرة النبى الأكرم والروايات الإسلامية إشارات واضحة إلى هذه المسألة المهمّة. فيقول القرآن الكريم فى الآية ۴۷ من سورة التوبة بصراحة أنّ من بين المسلمين أشخاصاً يمثّلون عملاء العدو وجواسيسه، وعلى المسلمين أن يحذروا منهم حيث تقول الآية: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ». ومن هذا القبيل ما ورد فى قصّة المرأة التى أرسلها بعض المنافقين لتوصل أخبار المدينة إلى المشركين فى مكّة قبيل الفتح وأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد جهّز جيوشاً كبيرة للهجوم على مكّة حيث أرسل رسول اللّه صلى الله عليه و آله الإمام على عليه السلام ورائها فوجدها فى الطريق وهددها لتسلّم الرسالة، فاضطرت أخيراً إلى الاعتراف وتسليم هذه الرسالة إلى أمير المؤمنين عليه السلام «۱»، وكذلك قصّة تجسّس حذيفة فى معركة الأحزاب لصالح المسلمين ونفوذه إلى قلب جيش الأعداء لتفحّص الأخبار ونقلها إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله «۲». ويستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هذه المسألة كانت موجودة أيضاً فى عصر الانبياء السابقين، وأحياناً تتخذ صبغة إعجازية كما فى قصّة النبى سليمان عليه السلام عندما استخدم الهدهد ليوصل إليه أخبار المناطق البعيدة. ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ إذا بَعَثَ جَيشَاً فَاتَّهم أَمِيراً بَعَثَ مَعَهُم مِنْ ثِقاتِهِ مَنْ يَتَجَسَّسُ لَهُ خَبَرَهُ» «۳». ونقرأ فى نهج البلاغة فى الكتاب ۳۳ قول الإمام على أميرالمؤمنين عليه السلام لقُثم بن عباس أمير مكّة: «أَمّا بَعدُ فَإنَّ عَينِى بِالمَغرِبِ كَتَبَ إلَيَّ يُعلِمُنِى إنَّهُ وُجِّهَ إلَى المَوسِمِ مِنْ أَهلِ الشَّامِ العَمى القُلُوبِ ... الَّذِينَ يَلبِسُونَ الحَقَّ بِالباطِلِ وَيُطِيعُونَ المَخلُوقَ فِى مَعصِيةِ الخالِقِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۸ فَأَقِمْ عَلى ما فِى يَدَيكَ قِيامَ الحَازِمِ الصَّلبِ». وفى حديث آخر عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه أرسل شخصاً يدعى (بسبسه) «۱» من أصحابه للتجسّس على أحوال قافلة أبى سفيان وإخبار النبى بأخبارها «۲». ونقرأ إشارة واضحة إلى هذا المطلب فى عهد مالك الأشتر حيث يأمره أميرالمؤمنين عليه السلام أن يجعل العيون والجواسيس على موظفيه وعمّاله كيما يراقب أعمالهم عن كثب من حيث لا يشعرون فيقول: «ثُمَّ تَفَقَّد أَعمالَهُم وابعَثْ

العُيُونَ مِنْ أَهلِ الصِّدقِ وَالوَفاءِ عَليهِم، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لُامُورِهِم حَدوَةٌ لَهُمُ عَلى إِستِعمالِ الأمانَةِ والرِّفقِ بِالرَّعِيَّةِ» «۳». وجاء فى الحديث المعروف عن الإمام الحسين عليه السلام فى مسألة بقاء محمد بن الحنفية فى المدينة أنّه عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على التحرّك من المدينة باتجاه مكّة ومنها إلى كربلاء أراد أخوه محمد بن الحنفية أن يصطحبه فى هذا السفر فقال له الإمام عليه السلام: «أَمَّا أَنتَ فَلا، عَلَيكَ أَنْ تُقِيمُ بِالمَدِينَةِ وَتَكُونَ لِي عَيناً لاتَخفِ عَنِّي شيئاً مِنْ امورِهِم» «۴».

۲- منظمات التفتيش والتحقيق

هناك الكثير من المنظمات فى جميع الأدارات والمؤسسات المهمّة فى هذا العصر باسم منظمات الفحص والتحقيق والتى تعمل لغرض إعمال النظر على عمل الموظّفين والعمّال والتصدّى لعمليات الاسراف والخلاف وضبط الامور واستطلاع الأحوال فى مفاصل هذه الدوائر والمؤسّسات. وبديهى أنّ عملهم ليس هو التجسّس على الامور الخاصة والأحوال الشخصية للعمّال والموظّفين فى هذه المؤسّسات والدوائر، بل عملهم يهدف إلى النظارة على الامور المتعلّقة بأداء العمل والوظيفة الاجتماعية ورعاية مصالح الامّة، فلو أنّه تمّ الاستغناء عن هذه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۹ المنظمات الاستخباراتية وتعطيل أعمالها فيمكن أن يستشرى الفساد والخلل فى مؤسّسات المجتمع الكبيرة وإداراته المهمّة. ومن الواضح أنّ هذه المسألة لا تختص بزمان ومكان معيّن بل كانت موجودة منذ قديم الأيام وفى مناطق مختلفة من العالم. وأمّا الفرق بين الأجهزة الأمنيّة وهذه المنظّمات التحقيقية فهو أنّ الأجهزة الأمنيّة تعمل فى الخفاء لرصد أعمال المتآمرين على أمن الوطن والشعب ولكنّ المنظمات التحقيقية تعمل بوضح النهار وتدرس الحالات المشكوكة وتتفحّص عن ما يثير الريبة والخلاف كيما تكشف عن السلوكيات الخاطئة لدى الموظّفين والمدراء والعمّال وتسلّمهم إلى العدالة.

۳- التجسّس فى المسائل المصيرية

يحق لمن يريد أن يختار له زوجة فى حياته أو يسعى للعثور على شريك فى أعماله التجارية أو موظّف يشتغل فى منصب حسّاس فى مؤسّسة معيّنة ولا يتمكن من تحقيق ذلك بدون سلوك التجسّس والتحقيق فى هذه المسألة والكشف عن زواياها الخفيّة، فالعقل والشرع يبيحان له أن يتفحّص فى أحوال هؤلاء الأشخاص من أصدقائهم وأقربائهم وأرحامهم أو يتحرّك بنفسه لمراقبة حالاتهم وأوضاعهم من بعيد لكى يحصل له الاطمئنان بصلاح هذا الشخص وأنّه مناسب لهذا الغرض الذى يسعى إليه. ومن المعلوم أنّ مثل هذا التحقيق والتفحّص خارج عن دائرة التجسّس الحرام، ولكن لا ينبغى اطلاقاً أن يجعل ذلك ذريعة للتدخل إلى حريم الحياة الخاصة للأفراد، فلو أنّه لم يصمم فعلًا على الزواج من تلك المرأة أو يستخدم الشريك الفلانى فلا يجوز له بهذه الذريعة أن يتجسّس على أحوالهم ولكنّه يبرّر عمله هذا بالقول بأنّه يمكن أن تحصل لديه حاجة يوماً من الأيّام لمثل هذه المعلومات التى اكتسبها عن طريق التجسّس، فمثل هذه التبريرات الشيطانية لا يمكن أن تعتبر مجوّزاً للتعدّى على حدود الشرع وارتكاب الحرام. والخلاصة أنّ كلّ شكل من أشكال الافراط والتفريط فى هذه المسألة يتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۰ الانحراف عن تعاليم الإسلام الأصلية، وبعبارة اخرى: أنّه لا يمكن الابتعاد عن التجسّس والفحص والتحقيق فى امهات المسائل الاجتماعية والضرورات الحياتية للمجتمع بسبب حرمة التجسّس وبالتالى تتعرّض مصالح الامّة للخطر ومؤامرات الأعداء، ولا يمكن كذلك تعريض مصالح الامّة للخطر من جهة التدخل فى خصوصيات الحياة الفرديّة للأشخاص التى لا ترتبط من قريب أو بعيد بالمصالح العامة وبذريعة جواز التجسّس فى دائرة الاستثناء، فكلا هذين الأمرين خارج عن حدود الحق والعدالة وبعيد عن مفاهيم الإسلام.

طرق العلاج:

وما لم يتحرّك الإنسان فى طريق إزالة جذور هذه الحالة الذميمة من واقع النفس والقضاء على أسبابها ودوافعها فإنّ تركها والابتعاد عنها سيكون عسيراً للغاية، وعليه فمن أراد التحرّك على مستوى تهذيب النفس وتطهيرها من هذه الصفة الذميمة يجب عليه أولًا الابتعاد عن سوء الظن (وفق ما ذكرنا فى الأبحاث السابقة) لأنّ سوء الظن يدفع الإنسان دائماً إلى الفحص والبحث عن أحوال الطرف الآخر الذاتية، وكذلك الحسد والحقد والعداوة والتكبّر كل واحدة منها يمكنها أن تكون عاملًا من عوامل التجسّس على الامور الخاصة بالآخرين بحيث أنّ الإنسان لو سعى لقلع عناصر الشر هذه من وجوده وقلبه فإنّ التجسّس سيزول بالتبع. والعامل الآخر (عقدة الحقارة) والتلّوث بالذنب الذى يدعو الإنسان إلى أن يتصوّر الآخرين مثله ليكون مصداقاً للمثل الشائع «البلية إذا عَمَّتْ طابَتْ» وليحصل من ذلك على راحة نفسية كاذبة تدغدغ عواطفه وتسكّن من وخز ضميره، فلو سعى الإنسان لتطهير نفسه من هذا التلّوث وهذه العقدة، فإنّه لا يجد فى نفسه حاجة للتفتيش والفحص عن حالات الآخرين الخصوصية. ومضافاً إلى ذلك فإنّ كل شخص يجب أن يفكّر فى هذه الحقيقة، وهى هل أنّه يرضى للآخرين أن يتدخّلوا فى حياته واموره الخاصة ويكشف عن أسراره؟ فلو أنّه لم يرض عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۱ ذلك فلماذا يجد فى نفسه الرغبة للتدخل فى حياة الآخرين الخصوصية والتجسّس عليهم والكشف عن أسرارهم؟ هذه المقارنة وعملية استنطاق الذات للحكم فى هذه المسألة يمكنها أن تمثّل رادعاً قوياً للإنسان، وكذلك الإلتفات إلى الآثار السلبية والنتائج السيئة للتجسّس على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وشدّة العقاب الإلهى فى الدنيا والآخرة، وأنّ كلّ شخص يسعى لإذاعة أسرار الآخرين والكشف عن خباياهم فإنّ اللّه تعالى سيكشف عيوبه وأسراره على الملأ ويزيل ستره عن هذا الإنسان فى الدنيا والآخرة، فمثل هذه الامور يمكنها أن تخلق أثراً نفسياً قوياً يمنع الإنسان من التورّط فى هذه الخطيئة. ولكن المهم والضرورى ليس فى علاج هذه الخصلة الأخلاقية فحسب بل فى الصفات والخصال السلبية الاخرى، وهو ضرورة تكرار العمل المانع عن ارتكاب هذه الرذيلة، فيطالع ما ذكرناه آنفاً من الآثار السلبية والعقوبات الإلهية والدوافع الشريرة لهذه الحالة الذميمة ويكرّرها مرّات عديدة لتحصل له بذلك حالة زاجرة ورادعة بإمكانها أن تقلع جذور هذا المرض من قلبه وتحلّى الروح والنفس بأنوار الفضيلة والهدوء والاستقرار.

حفظ السّر وإفشائه:

هذه المسألة فى الحقيقة تعدّ تكملة للأبحاث السابقة، أو بعبارة اخرى، يمكن أن نضع حفظ السر وإفشاءه بعنوان فضيلة أخلاقية للأول ورذيلة بالنسبة إلى الثانى ودراستهما بشكل مستقل، ويمكن أن نضعهما ضمن بحث التجسّس ولكونه مسألة من مسائل موضع التجسّس وداخل فى إطار هذا الموضوع. وعلى أيّة حال فإنّ تعريف حفظ السر أنّ الكثير من الناس لديهم أسرار خفيّة على الناس سواء كانت حسنة أو سيئة، فلو اذيعت على الملأ فإنّهم يتعرّضون للخسارة والضرر، مثلًا إذا كان الشخص ذا مكانة اجتماعية كبيرة ومنزلة قويّة فى المجتمع ولكن بسبب غلبة الوساوس الشيطانية ارتكب بعض الذنوب الكبيرة، وقد علم بذلك شخص أو عدّة أشخاص الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۲ من الناس، فلو أنّ هذا السر اذيع على الناس وعلم به الآخرون فانّ ذلك من شأنه أن يهدد شخصيته الاجتماعية ومكانته المرموقة بالسقوط، ولذلك فإنّه يطلب من ذلك الشخص أو الأشخاص الذين علموا بهذا السر أن يتحرّوا إخفاءه ويجتنبوا إذاعته للناس. أو أنّه يقوم بعمل صالح ونافع للناس ولكن إذا علم الناس بذلك وفهموا ما لهذا الإنسان من مقامات عالية وأخلاق سامية فمن الممكن أن تزداد فيهم حالة التمجيد والثناء تجاه هذا الشخص وبالتالى تتعرّض نيّته الخالصة إلى التزلزل والتلّوث أو يبتلى بالعجب والغرور، ولذلك فانّه يطلب من هذا الفرد أو الأفراد الذين علموا بصدور هذا الفعل الحسن منه أن يكتموا عليه هذا السر ولا يذيعوه للناس. أو أنّه يقوم بعمل مهم على المستوى الاقتصادى ولكن لو علم بذلك منافسوه فى السوق فإنّ منافعه ومصالحه المادية تتعرض للخطر، ولذلك يطلب من الشخص الذى علم بذلك أن يكتم عليه هذا العمل ولا يفشى سرّه على الناس، وعليه فإنّ مسألة حفظ السر لا تختص فى الذنوب والرذائل الأخلاقية بل قد تتعدّى إلى الفضائل المعنوية أو المنافع والمصالح المادية

المهمّة، وبكلمة واحدة فإنّ حفظ السر يتعلّق بالأسرار التى إذا اذيعت فسوف تسبب الضرر والخسارة على صاحبها، سواء كان هذا السر يتعلّق بشخص خاص أو بالمجتمع الإسلامى. وقد لا نجد فى الآيات القرآنية الكريمة ما يدلّ بصراحة على ضرورة حفظ السر أو قبح إفشاء السر، وبالطبع فإنّ كلمة (السر) وردت فى القرآن الكريم مرّات عديدة ولكن ليس واحد منها يرتبط ببحثنا الحاضر، بل فى الغالب تتضمّن علم اللَّه تعالى بجميع الأسرار وخفايا الامور، وبعبارة اخرى: إنّها تحكى عن سعة علم اللَّه تعالى، ومع الأسف فاننا نرى بعض الكتّاب الإسلاميين بدون الإلتفات إلى مضمون هذه الآيات تصوّروا أنّها تتحدّث عن مسألة حفظ السر. هذا ولكن وردت فى القرآن الكريم تعبيرات اخرى تدل على موضوعنا بالأدلة الالتزامية وتتضمّن مدح فضيلة حفظ السر أو اقبح إفشاء السر، ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الآية ۱۶ من سورة التوبة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۳ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهذه الآية تخاطب المسلمين بأنّ يحفظوا أسرارهم عن الأشخاص الذين لا يثقون بهم ولا يطمئنون إليهم، بل يكشفوا أسرارهم إلى من يطمئنوا إليهم ويثقوا بهم، ومفهوم هذه الآية الشريفة هو أنّ حفظ السر يعتبر فضيلة من الفضائل الأخلاقية بخلاف إفشاء السر الذى يعدّ رذيلة فى المقابل. ۲- ونقرأ فى الآية ۱۱۸ من سورة آل عمران قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَايَأْلُونَكُمْ خَبَالًا». (بطانة) لها مفهوم يماثل مفهوم كلمة (وليجة) فكليهما معنيان محرم الأسرار وأنّ اللَّه تعالى يخاطب جميع المؤمنين ويقول مؤكّداً عليهم أن لا يجعلوا غير المسلمين محرم أسرارهم، فهو فى الواقع إشارة إلى لزوم حفظ الأسرار والذم لمن يعمل على إفشاء السر، غاية الأمر أنّ هذه الآية والآية التى قبلها ليست ناظرة للأسرار الخاصة والشخصية، بل ناظرة إلى أسرار المجتمع الإسلامى التى يمثل إفشاؤها للأعداء ضربة كبيرة للمسلمين. وقد يتصوّر أنّ الآية ۸۳ من سورة النساء التى تقول: «وإذا جاءَهُم أَمرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ». أنّ اللَّه تعالى فى هذه الآية الشريفة يتحدّث عن المنافقين أو بعض الأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان واهتزاز العقيدة ويذمّهم على أنّه إذا وصل إليهم خبر انتصار المسلمين أو هزيمتهم فى ميدان القتال أذاعوا هذا الخبر ونشروه بين الناس. ولكن ذيل الآية يدلّ على أنّها ناظرة إلى إشاعة الشائعات الواهية أو المشكوكة لأنّها تقول بعد ذلك: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۱». والتعبير بالأمن أو الخوف الوارد فى هذه الآية هو إشارة إلى أنّ الأعداء أحياناً يشيعون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۴ أخباراً تتعلق بانتصار المسلمين لكى تضعف فيهم الرغبة فى القتال والجهاد، وأحياناً يبثّون الشائعات التى تتحدّث عن هزيمة المسلمين ليدّب اليأس فى قلوبهم، القرآن الكريم يحذّر المسلمين هنا عن تصديق هذه الشائعات لكى لا تؤثر خطط الأعداء ومؤامراتهم فى نفوسهم فلا يصلوا إلى مقاصدهم من تضعيف معنويات المسلمين. وبالطبع فإنّ القرآن الكريم فى مورد زوجات النبى ولزوم حفظ السر تحدّث بالتفصيل فى سورة التحريم التى تعرّضت إلى بعض أزواج النبى من موقع الذم والتوبيخ الشديد لأنّهن قصّرن فى حفظ أسرار بيت النبى صلى الله عليه و آله قالت: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ* إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» «۱». أمّا ما هو السر الذى أذاعته بعض زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فهناك بحوث مفصّلة بين المفسّرين يطول إيرادها وذكرها فى هذا المقام ويمكن للقارىء الكريم أن يرجع إلى التفسير الأمثل ذيل هذه الآية ۳ و ۴ من سورة التحريم. المورد الآخر الذى تحدّث القرآن الكريم فيه عن حفظ السر (وطبعاً بالإشارة لا بالتصريح) هو فى مورد قصّة أبولبابة الذى إستشاره بنو قريضة (وهم قبيلة من اليهود الذين كانوا يكيدون للمسلمين ويتآمرون عليهم بشدّة) وهل أنّهم سيتسلمون لحكم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله؟ فأشار إليهم أبو لبابة على رقبته بالذبح، أى أنّكم لو استسلمتم للنبى فإنّه يأمر بقتلكم جميعاً، ثمّ أنّه ندم على ذلك أشدّ الندم وأدرك أنّه ارتكب خيانة كبيرة للمسلمين، فما كان منه إلّاأن ربط نفسه بأحد اسطوانات المسجد وتاب من فعلته هذه فتاب اللَّه عليه، ونزلت الآية ۷۲ من سورة التوبة تعلن قبول توبته حيث تقول الآية: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ». وكلمة (آخرون) إشارة إلى أنّ محتوى هذه الآية لا يتعلّق بشخص خاص أو فرد معيّن، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۵ بل يستوعب جميع الذين ارتكبوا بعض الذنوب وانطلقوا من موقع الندم وجبران هذا النقص وتابوا توبة صالحة وصادقة. هذا ما يتعلّق بمجموع الإشارات الواردة فى آيات القرآن الكريم بالنسبة إلى مسألة حفظ السّر وإفشائه.

حفظ السّر فى الروايات الإسلاميّة:

ونجد فى الروايات الإسلامية تعبيرات مختلفة وكثيرة فيما يتعلّق بحفظ السر وضرورة الالتزام بعدم إفشائه وإذاعته ممّا يدلّ على إهتمام الإسلام بهذا الموضوع حتى أنّه قرّر أنّ أسرار الآخرين بمنزلة الأمانة لدى الشخص وإفشائها يعنى الخيانة للأمانة: ۱- ما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِذا حدَّثَ الرَّجُلُ الحَدِيثَ ثُمَّ إلتَفَتَ فِهى أَمانَةٌ» «۱». هذه الالتفاتة تعنى أنّه لا يريد أن يسمعه آخر، فحينئذٍ يكون إفشاء هذا السرّ بمثابة الخيانة بالأمانة. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَفشى سرَّاً إِستَودَعَهُ فَقَدْ خانَ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «مَنْ كَشَفَ حَجابَ أَخِيهِ إِنكَشَفَ حَجابَ بَيتِه» «۳». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «جُمِعَ خَيرَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ فِى كُتمانِ السِّرِّ وَمُصادَقَةُ الأَخيارِ وَجُمِعَ الشَّرِّ فِى الاذاعَةِ وَمُواخاةُ الأَشرارِ» «۴». وطبعاً فإنّ كتمان السر يمكن أن يكون إشارة إلى كتمان سر الإنسان نفسه، ولكنّ اطلاق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۶ العبارة يدلّ على شمول الحديث لكتمان الأسرار الذاتية التى تتعلّق بالآخرين.

أقسام حفظ السّر:

لحفظ السّر أقسام متعددة منها: ۱- حفظ أسرار الآخرين. ۲- حفظ أسرار النفس. ۳- حفظ أسرار أولياء الدين. ۴- حفظ أسرار النظام والحكومة الإسلامية. أمّا ما ورد فى الروايات المذكورة آنفاً فإنّه يتعلّق بحفظ أسرار الآخرين، ولكن هناك روايات واردة فى حفظ أسرار النفس أيضاً حيث توصى المسلمين بحفظ أسرارهم الخاصة فى حياتهم الفردية، لأنّه قد تكون إذاعتها وإفشائها سبباً لإثارة عناصر الحسد والحقد والمنافسة غير المنصفة، وبالتالى يقع الإنسان مورد عدوان الأشخاص الذين يعيشون الحقد وضيق الافق وتتعرّض مصالحه إلى خطر كما نقرأ فيما يلى نماذج لهذه الروايات: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «سِرُّكَ سُرُورُكَ إِنْ كَتَمتَهُ وإِنْ أَذَعتَهُ كانَ ثُبورَكَ» «۱». ۲- ويقول عليه السلام فى حديث آخر: «سِرُّكَ أَسِيرُكَ فَإِنْ أَفشَيتَهُ صِرتَ أَسِيرَهُ» «۲». ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «صَدرُ العاقِلِ صُندُوقِ سِرِّهِ» «۳». ۴- ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ فَلا يَجرِينَ فِى غَيرِ أَوداجِكَ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۷ ۵- وجاء فى حديث عميق المعنى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّ المؤمن لا يكون مؤمناً إلّاإذا توفّرت فيه ثلاث خصال: «فَسُنَّةٌ مِنْ رَبِّهِ كِتمانُ سِرِّهِ قالَ اللَّهُ تَعالى عالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ عَلى غَيبِهِ أَحَداً إلّامَنِ ارتَضى مِنْ رَسُولٍ» «۱». ونقرأ فى بعض الروايات أيضاً أنّها توصى بحفظ الأسرار وعدم إذاعتها حتى لأقرب المقرّبين من الأصدقاء، لأنّه يمكن أن تتغيّر الظروف والأيّام وينقلب الصديق إلى عدو وبالتالى سوف يتحرّك على مستوى إذاعة هذه الأسرار وإفشائها. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تَطَّلِع صَدِيقَكَ مِنْ سِرِّكَ إِلّا عَلى ما لَو اطَّلَعتَ عَلَيهِ عَدُوَّكَ لَمْ يَضُرُّكَ فَإِنَّ الصَّدِيقَ قَد يَكُونَ عَدُوّاً يَوماً ما» «۲». أمّا فى مورد إفشاء أسرار أولياء اللَّه تعالى والأئمّة المعصومين عليهم السلام فقد وردت روايات مهمّة جدّاً تؤكّد بشدّة على كتمان هذه الأسرار. وهذه الأسرار يمكن أن تكون إشارة إلى المقامات المعنوية المهمّة للمعصومين بحيث أنّ الأعداء إذا اطّلعوا عليها حملوا ذلك على محمل الغلو وكان ذلك ذريعة بيدهم لتكفير الشيعة أو تضعيفهم أو القضاء عليهم فى حين أنّها ليست من الغلو بل هى مقامات موافقة للقرآن الكريم وللسنة النبوية. أو هى إشارة إلى أسرارهم بالنسبة إلى العمل فى نشر مذهب أهل البيت فى المناطق المختلفة من البلاد الإسلامية حيث يثير هذا الموضوع حساسية المخالفين فيزدادوا تعصّباً ويعملوا على منع هذه الأعمال والنشاطات الدينية. أو أنّها إشارة

إلی زمن الظهور للإمام القائم علیه السلام من أهل البیت علیهم السلام کما وردت الإشارة إلی ذلک فی بعض الروایات الشریفة وأنّ بعض الأئمّة المعصومین علیهم السلام عزم علی القیام بوجه الحکومات الظالمة فی ذلک الزمان، ولکن بما أنّ بعض الشیعة أذاعوا أسرار هذه النهضة فإنّ ذلک أدّی إلی فشلها وإجهاضها، وقد وردت الإشارة إلی ذلک فی بعض الروایات التی تحثّ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲۸ الشیعة علی کتمان أسرار المعصومین علیهم السلام ومن ذلک: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «إذا تَقارَبَ هذا الأَمرُ کانَ أَشَدُّ لِلتَّقِیَّةِ» «۱». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام قوله: «مَنْ أَفشی سِرَّنا أَهلَ البَیتِ أَذاقَهُ اللَّهُ حَرَّ الحَدِیدِ» «۲». ۳- ونقرأ أیضاً فی حدیث آخر عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «آمُرُکَ أَنْ تَصُونَ دِینَکَ وَعِلمَنا الَّذِی أَودَعناکَ وَأَسرارنا الَّذِی حَمَلناکَ فَلا تُبدِ عُلُومَنا لِمَنْ یُقابِلُها بِالعَنادِ ... ولا تُفشِ سِرَّنا إِلی مَنْ یَشِیعُ عَلَینا عِندَ الجاهِلِینَ بِأَحوالِنا» «۳». ویستفاد من هذا الحدیث الشریف أنّ إذاعة أسرار الأئمّة المعصومین علیهم السلام أمام أهل الحق ومن یتحرّک فی سبیل طلب الهدایة والحق فإنّه لا بأس به ولا مندوحة منه، ولکنّ المنع الوارد فی الروایات یختصّ باذاعتها للأشخاص الذین یعیشون العناد والحقد وأنّهم لو سمعوا بمقامات أهل البیت وفضائلهم وعلومهم فإنّهم سیجدون فی أنفسهم الحسد وتتحرّک فیهم البغضاء فیتکلّمون بکلمات غیر مسؤولة ویثیرون المصاعب والمشکلات أمام أتباع أهل البیت علیهم السلام. ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «إِمتَحِنوا شِیعَتَنا عِندَ ثَلاثٍ: عِندَ مَواقِیتِ الصَّلاةِ کَیفَ مُحافَظَتُهُم عَلَیها، وعِندَ أَسرارِهِم کَیفَ حِفظُهُم لَها عَنْ عَدُوِّنا وَإِلی أَموالِهِم کَیفَ مُواساتِهِم لِإِخوانِهِم عَلَیها» «۴». ۵- وورد فی حدیث شریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «ما قَتَلَنا مَنْ أَذاعَ حَدِیثَنا قَتلَ خَطاءٍ وَلَکِن قَتَلَنا قَتلَ عَمدٍ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲۹ ۶- وفی الحقیقة أنّ الکثیر من المشکلات والمصاعب التی واجهها الأئمّة المعصومین علیهم السلام وتعرّضوا بالتالی إلی الوقوع فی أسر الظالمین والأعداء بسبب أنّ بعض أفراد الشیعة لم یکونوا ملتزمین بالانضباط فی کلماتهم وأحادیثهم فکانوا یتحدّثون عن فضائل أهل البیت علیهم السلام ومناقبهم أو عن رذائل أعدائهم ونقاط ضعفهم ویذیعونها إلی القریب والبعید، فتصل إلی أسماع الحکّام والامراء فتؤدّی إلی مضاعفة عملیات التضییق والارهاب فی حق أهل البیت علیهم السلام وقد تفضی إلی قتلهم علی ید حکومات الجور، وکذلک فی إذاعة الأخبار التی تتحدّث عن قائم أهل البیت علیه السلام وانتقامه من الأعداء والتی تورث هؤلاء الاعداء الخوف والوحشة، فیتحرّکون فی المقابل بالانتقام من أهل البیت علیهم السلام. ۷- وجاء فی حدیث آخر بهذا المضمون ولکن بصیاغة جدیدة عن هذا الإمام أیضاً فی تفسیر الآیة الشریفة: «وَیَقْتُلُونَ الْأَنبِیَاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ» «۱»، قال: «أَما وَاللَّهِ ما قَتَلُوهُم بِأَسیافِهِم وَلَکن أَذاعُوا سِرَّهُم وَأَفشَوا عَلَیهِم فَقُتِلُوا» «۲». ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن المفضّل بن عمر قال: دخلت علی أبی عبداللَّه علیه السلام یوم صلب فیه المعلی فقلت له: یا ابن رسول اللَّه ألا تری هذا الخطب الجلیل الذی نزل بالشیعة فی هذا الیوم؟ قال: وما هُو؟ قال: قلت: قَتلُ المُعلی بن خُنیس، قال: «رَحِمَ اللَّهُ المُعلَّی قَد کُنتُ أَتَوقَّعُ ذِلِکَ أَنَّهُ قَد أَذاعَ سِرَّنا، وَلَیسَ النَّاصِبُ لَنا حَرباً بِأَعظَمَ مَؤونَةً عَلَینا مِنَ المُذِیعُ عَلَینا سِرَّنا» «۳». وعلی أی حال فإنّ حفظ أسرار أئمّة أهل البیت علیهم السلام، وبشکل عام حفظ أسرار المذهب من المسائل المسلّمة التی لا ینبغی الترديد فیها، لأنّ هذه الأسرار إذا اذیعت ووصلت إلی أیدی الأعداء فسوف یتحرّک فیهم عنصر الحسد بالنسبة إلی فضائل أهل البیت علیهم السلام ومناقبهم، فیسعون إلی التصدّی لنشاطات الأئمّة فی الدائرة الاجتماعیة والتربویة والثقافیة ویجهضوا أی عمل نافع للأمّة، ولهذا السبب ورد التأکید فی الروایات الشریفة علی حفظ هذه الأسرار. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۰ والقسم الأخیر من حفظ السر هو المحافظة علی الأسرار العسکریة والسیاسیة للدولة الإسلامیة، ووجوبه من البدیهیات، ولهذا نجد أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إهتمّ بهذا الأمر غایة الاهتمام، وأوصی کذلک أصحابه بالمحافظة علی هذه الأسرار أیضاً، والکثیر من الأنتصارات التی حققّها المسلمون علی أعدائهم من المشرکین والیهود وقوی الانحراف الاخری کان بسبب الالتزام والانضباط فی هذه المسألة الدقیقة، فمثلًا نقرأ فی قصّة فتح مکّة أنّه لو أنّ تلک المرأة (سارة) کانت قد وصلت إلی مکة وأخبرت المشرکین بما یعدّه النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والمسلمون من الجیوش والقوی العسکریة لفتح مکّة، فمن الطبیعی أنّ فتح مکة لا یتیسّر

للمسلمين بتلك السهولة، وقد تراق فى سبيل ذلك الكثير من الدماء من الطرفين، ولكن تأكيد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على حفظ الطرق وارساله من يعيد هذه المرأة النمامة تسبب فى أن يصل جيش الإسلام إلى أسوار مكة بدون أيّة صعوبة وبسرعة فائقة حتى أنّ المشركين انبهروا وتخاذلوا لما تفاجئوا من قوة الإسلام وسرعة المبادرة وعملية المباغتة لهم واستسلموا جميعاً. ونقرأ فى الروايات الإسلامية إشارات إلى هذه المسألة أيضاً بتعبيرات عميقة المغزى، ومن ذلك: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الظَّفَرُ بِالحَزمِ بِإجالَةِ الرَّأى، وَالرَّأى بِتَحصِينِ الأَسرارِ» «۱». ۲- وورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَيَّرَ قَوماً بِالإذاعَةِ فَقالَ: إذا جاءَهُم أَمرٌ مِنَ الأَمنُ أو الخَوفِ أَذاعُوا بِهِ، فَإيَّاكُم وَالإذاعَةِ» «۲». ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إظهارُ الشَّيءِ قَبلَ أنْ يَستَحكُمَ مَفسَدَةٌ لَهُ»، لأنّ المخالفين عندما يطلعون عليه فربّما تحركوا فى سبيل المنع من تحقيقه ونجاحه.

معطيات حفظ السّر وإفشائه:

إنّ جميع الناس فى حياتهم الخصوصية لديهم بعض الأسرار المتعلّقة بنقاط ضعفهم وعيوبهم، وأحياناً يتعلق بموفقيّاتهم وأعمالهم الإيجابية، ومن المعلوم أنّ إفشاء ما يتعلّق بنقاط الضعف والعيب يؤدّى إلى سقوط إعتبار وحيثيّة هؤلاء فى نظر الناس، وقد يفضى إلى سلب الثقة منهم وسقوطهم الاجتماعى وإراقة ماء وجههم، ولهذا السبب نراهم يحرصون على التكتم على تلك الأسرار لتتسنّى لهم الفرصة لإصلاح تلك المعايب وجبران نقاط الضعف فى واقعهم. أَمّا إفشاء ما يتعلّق بنقاط القوّة والصفات الإيجابية فإنّه من شأنه أن يسعر نار الحسد فى قلب الحسّاد ويعمل على تحريك عناصر الشر فى قلوب البخلاء وأصحاب الشخصيّات الهزيلة والمعقدة، وعلى أيّة حال فإنّه سيكون مصدر الشر والفساد والشقاء على المستوى البعيد، ولهذا قد يحرص بعض الناس على التحفّظ من الكشف عن هذه الموفقيّات والإيجابيات فى واقعهم. ولذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إن كانَ فِى يَدِكَ هذِهِ شَىء فإنْ استَطَعتَ أنْ لاتَعلَم بِهذِه فافعَل؛ قالَ: وَكانَ عِندَهُ إنسان فَتَذاكَرُوا الإذاعَةَ، فَقالَ: اِحفَظ لِسانَكَ تُعِزَّ، ولا تُمَكِّن النَّاسَ مِنْ قِيادِ رَقَبَتِكَ فَتَذِلَّ» «۱». والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام قال فى بداية هذا الحديث: «إنْ كانَ فِى يَدِكَ هذِهِ شَىءٌ فإنْ إستَطعتَ ألّا تُعلَمَ هذِهِ فَافعَل» «۲». ومن هنا يتّضح أنّه إذا علم الإنسان بخبر مكتوم للآخر وانكشف له سر من أسراره فإنّ ذلك يعدّ أمانة لديه، فلو أذاعه فإنّه قد خان الأمانة وتسبب فى أن يقع الطرف الآخر فى دوامة من المشكلات والأضرار الكبيرة أو يؤدّى إلى أن يتعرّض إلى الخطر فى شخصيته الاجتماعية ومكانته فى الناس أو يؤدّى إلى تفعيل عناصر الشر لدى الحسّاد والبخلاء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳۲ وأصحاب النفوس الضيقة، أو يطمع الاراذل والأوباش فى ماله وعرضه. ولذا ورد فى الأحاديث السابقة أنّ الإمام قال: «سِتْرُكَ سُرُورُكَ إنْ كَتَمتَهُ وإنْ أَذَعتَهُ كانَ ثُبورَكَ» «۱». وعليه فلابدّ للإنسان أن يحفظ أسراره مهما أمكن ولايذيعها إلى الآخرين، وبعبارة اخرى: أن يجعل صدره صندوق أسراره، فلو اضطر فى مورد معيّن أو إتفق له أن اطلع على سرّ من أسرار أخيه المؤمن فإنّه يجب عليه أن يسعى لحفظه ولا يرتكب الخيانة فى حق أخيه المؤمن. أمّا بالنسبة إلى إفشاء أسرار المذهب أمام المتعصّبين والحاقدين الذين لا يتحمّلون سماع الرأى الآخر ولا يرون أى فكر حقّاً غير فكرهم القاصر فكذلك، وخاصة بالنسبة إلى فضائل الأئمّة المعصومين عليهم السلام التى لا يطيق سماعها الأعداء المعاندين والحاسدين، وهكذا الحال بالنسبة إلى حفظ الأسرار السياسية والعسكرية للبلد الإسلامى حيث يؤدّى إذاعتها إلى تعرّض مصالح الامّة ومصير النظام الإسلامى إلى الخطر أو يتسبب فى إراقة الكثير من الدماء البريئة وتلف الثروات الطائلة أو هتك الشخصيّات المرموقة فى المجتمع الإسلامى، ولذلك فإنّ حفظ هذه الأسرار يعدّ من أهمّ الوظائف الدينية، وفى المقابل فإنّ إفشاء هذه الأسرار يعدّ من أقبح الرذائل الأخلاقية ويترتّب عليه عقوبة شديدة، ولهذا السبب قرأنا فى الأحاديث السابقة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ما قَتَلَنا مَنْ أذاعَ حَدِيثَنا قَتلَ خَطاءٍ وَلَكِن قَتَلَنا قَتلَ عَمدٍ» «۲». وقد أورد العلّامة المجلسى فى بحار الانوار حديثاً جذّاباً حيث يقول ما خلاصته: «دخل على أميرالمؤمنين عليه السلام رجلان من أصحابه فوطىء

أحدهما على حيّة فلدغته ووقع على الآخر فی طریقه من حائط عقرب فلسعته وسقطا جمیعاً فکأنّهما لما بهما یتضرّعان ویبکیان، فقال لهما أمیرالمؤمنین علیه السلام: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۳ «ما اصِیبَ وَاحِدٌ مِنکُما إلّا بِذَنبِهِ. أَمّا أَنتَ یا فُلان- وَأقبل علی أحدهما- أَتَذکُر یَومَ غَمَزَ علی سَلمانِ الفارسی فُلان وَطَعَنَ عَلَیهِ لِموالاتِهِ لَنا فَلم یَمنَعُک مِنَ الرَّدِّ وَالإستخفَافِ بِهِ خَوفاً عَلی نَفسِکَ وَلا- عَلی أَهلِکَ وَلا عَلَی وُلدِکَ وَمالِکَ أَکثَرَ مِن أنْ استَحییتَهُ، فَلِذلِکَ أَصابَکَ. فإنْ أَرَدتَ أنْ یُزیلَ اللّهُ ما بِکَ فاعتَقِد أنْ لاتَری مرزئاً عَلَی وَلِیٍّ لَنا تَقدَرُ عَلَی نُصرتِهِ بِظَهرِ الغَیبِ إلّاأَنْ تَخافَ عَلَی نَفسِکَ وَأَهلِکَ وَوُلدِکَ وَمالِکَ. وَقالَ للآخَر: فَأَنتَ أَتَدرِی لِما أَصابَکَ ما أَصابَکَ؟ قال: لا. قَالَ علیه السلام: أَما تَذکُر حِینَ أَقبَلَ قَنبَرَ خادِمِی وَأَنتَ بِحضرَةِ فُلانَ العاتِی فَقُمتَ إجلالًا لَهُ لإجلالِکَ لِی؟ فَقالَ لَکَ: أَوَ تَقُومُ لِهذا بِحضرَتِی؟ فَقُلتَ لَهُ: وَما بالِی لاأَقُومُ وَمَلائِکَةُ اللّهِ تَضَعُ لَهُ أَجنِحَتَها فِی طَرِیقِهِ، فَعَلَیها یَمشِی، فَلَمّا قُلتَ هذا لَهُ، قَامَ إلی قَنبَرَ وَضَرَبَهُ وَشَتَمَهُ وآذاهُ وَتَهَدَّدنِی وَأَلزَمَنِی الإغضاءَ عَلیَ قَذی فَلِهذا سَقَطتْ عَلَیکَ هذِهِ الحَیَّةُ. فَإنْ أَردتَ أَنْ یُعافِیکَ اللّهُ تَعالی مِنْ هذا فاعتَقِد أنْ لاتَفعَلَ بِنا وَلا بِأَحدٍ مِنْ مَوالینا بِحضَرةِ أَعدائِنا ما یُخافُ عَلینا وَعَلیهِم مِنهِ» «۱». وکذلک نقرأ ما ورد فی التواریخ الإسلامیة أنّ بعض قادة الإسلام اعدموا الجواسیس بسبب أنّ عملهم یؤدّی إلی سفک الدماء البریئة ولذلک حکموا بقتلهم وإعدامهم.

الضرورات:

أحیاناً تدفع الحاجة أو الضرورة الإنسان إلی إخبار الآخر بسرّه، ففی هذه الموارد یجب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۴ علی هذا الإنسان أن یختار لذلک الشخص الأمین العاقل لیضع عنده سرّه کما قال الإمام علی علیه السلام: «مَنْ أَسَرَّ إلی غَیرِ ثِقَةٍ فَقَد ضَیَّعَ أَمرَهُ» «۱». وحتی أنّ الإمام أوصی فی حالة الضرورة وعندما یرید الإنسان أن یودّع سرّه عند أخیه المؤمن أن یتلقی فی المقابل سرّاً من ذلک الشخص لکی یکون بمثابة الضمانة لحفظ سرّه حیث یقول: «لا تَضع سِرَّکَ عِندَ مَنْ لاسِرَّ لَهُ عِندَکَ» «۲». ویجب الانتباه إلی أنّ الأشخاص الذین لا یعیشون الانضباط فی حفظ أسرارهم فإنّهم لا یلیقون بالثقة والاعتماد لحفظ أسرار الآخرین، فینبغی الاجتناب عن وضع السرّ عندهم. یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال: «مَنْ ضَعُفَ عَنْ حِفظِ سِرِّهِ لَم یُطِق سِرَّ غَیرِهِ» «۳».

دوافع إفشاء السّر وعلاجها:

إنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة تنشأ من دوافع ونقاط ضعف مختلفة منها: ۱- إنّ الشخص الحسود یسعی لإفشاء أسرار الطرف الآخر لتوجیه ضربة إلی نقاط قوّته وشخصیته بین الناس، ویسعی لذلک لإراقة ماء وجهه أو تهدید مصالحه الدنیویة والمادیة. ۲- إنّ الأشخاص الذین یعیشون الحقد والعقدة تجاه الآخرین فإنّهم یسعون أیضاً ولغرض الانتقام من الطرف الآخر وارضاء دافع الحقد فی نفوسهم إلی إفشاء أسرار الآخرین. ۳- ومن الدوافع الاخری لهذه الرذیلة هو عنصر الجهل وضیق الافق، فالأشخاص الذین یعیشون هذه الحالات الوضیعة لیست لدیهم اللیاقة لحفظ أسرار الآخرین. ونقرأ فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «ثَلاثٌ لا یُستَودَعْنَ سِرّاً: المَرأَةُ وَالنَّمامُ وَالأَحْمَقُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۵ وفی حدیث آخر عن الإمام علیه السلام نفسه أنّه قال: «لا تُسِرَّ إلَی الجاهِلِ شَیئاً لا یُطِیقُ کِتْمانَهُ» «۱». ۴- وأساساً فإنّ إفشاء السِّر وبشکل عام نشر الأخبار الخفیّة والجدیدة وأحیاناً العجیبة والغریبة تجد فی قلوب الناس جاذبیة خاصة تقودهم إلی الرغبة الشدیدة فی الإستماع والإصغاء لهذه الأخبار. هذا المعنی قد یتسبب إلی أن یرغب بعض الناس لإفشاء أسرار الآخرین لیلفتوا إلیهم نظر المستمعین. ۵- ومن العوامل المهمّة الاخری لإفشاء الأسرار هو الأخطاء والاشتباهات وعدم الالتفات إلی کون هذا الأمر من الأسرار، ولهذا السبب فقد یصدر من بعض الناس المنضبطین فی مسألة حفظ السر بعض الاشتباهات والزلل فی هذا الأمر حتی قیل: «کُلُّ سِرٍّ جاوزَ الإثنِینَ شاعَ». ونقرأ فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه ویدعی عمّار حیث سأله الإمام الصادق علیه السلام: «هَل أَخبَرتَ بِما أَخبِرتُکَ بِهِ أَحَداً؟

قَلتُ: لاإلّاسُلَیمانِ بنِ خالِدَ، قالَ: أَحسَنتَ أَما سَمِعتَ قَولَ الشَّاعِر: فَلا یَعدُوَنْ سِرِّی وَسِرِّکَ ثالثاً أَلا کُلَّ سِرٍّ جاوَزَ الإِثنینِ شایعُ والسبب فی ذلک واضح لأنّه إذا کان البناء علی أن یقوم کل شخص بأخبار أحد أصدقائه الموثوقین بأسرارهم، ویقوم الشخص الثانی بمثل العمل، وهکذا الثالث والرابع فلا تطول المدّة حتّی ینتشر السِّر فی المجتمع کلّه.

أمّا العلاج:

فقد رأینا فی الأبحاث السابقة أنّه إذا کان موضوع إفشاء الأسرار یتعلّق بخصوصیات الأشخاص الآخرین فیترتب علی ذلک الآثار السلبیة الکثیرة من قبیل سقوط شخصیته ومنزلته الاجتماعیة، وزوال ثقة الناس وإعتمادهم علیه قد یصل الأمر إلی سقوط شخصیته الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۶ نهائیاً فی أنظار الناس وتلف جمیع إیجابیّاته ونقاط قوّته فی المجتمع. وإذا کان إفشاء السّر متعلّقاً بالمجتمع أو المذهب والدین فقد یؤدّی أحیاناً إلی تعرّض ذلک المجتمع للخطر أو یتعرّض أتباع ذلک المذهب إلی مشاکل کثیرة وقد تسفک فی ذلک دماء بریئة وتهتک حرمات المؤمنین وتصادر أموالهم من قبل الأشخاص الذین یعیشون التعصّب الأعمی والجهالة والانحراف. إنّ الالتفات إلی هذه العواقب والآثار السلبیة الألیمة فی إفشاء الأسرار یعدّ أحد العوامل المؤثّرة فی الوقایة من هذه الرذیلة الأخلاقیة، کما أنّ التدبّر فی الآثار السلبیة فی کل صفة رذیلة من الصفات الأخلاقیة الذمیمة یعدّ عاملًا للتوقّی من الوقوع والابتلاء فی هذه الرذیلة. ومن الطرق الاخری للعلاج هو القضاء علی أسباب ودوافع هذه الرذیلة وإقتلاع جذورها من واقع النفس، أی عنصر الجهل والحسد والحقد أمثال ذلک. ومن الطرق الاخری هو سعة ظرفیة الإنسان وأفقه وشرح صدره وروحه وقوّة شخصیته، فهذا من شأنه أن یساعده علی المحافظة والانضباط فی دائرة الأسرار. وکذلک التفکّر فی العقوبات الإلهیة الشدیدة المترتبة علی إفشاء أسرار الناس والمجتمع والتی تقدّم الحدیث عنها سابقاً یمکن أن یعدّ من الامور النافعة للوقایة من هذه الرذیلة أو علاجها. ومن العوامل المهمّة الاخری هو الالتفات إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ إفشاء أسرار الآخرین إذا تسبب فی لحوق الضرر والخسارة بهم فإنّ المذیع لسّرهم یعدّ مسبباً لهذه الأضرار وفی الکثیر من الموارد یعتبر ضامناً شرعاً وقانوناً لها. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۷

الحلم والغضب

تنویه:

(الغضب) من أخطر الحالات والانفعالات فی الإنسان التی إذا لم یتصدّ الإنسان لضبطها والسیطرة علیها فإنّها قد تظهر بشکل جنونی علی سلوکیات الفرد وتفقده أیّة سیطرة علی أعصابه، وحتی أنّ الکثیر من السلوکیات الخطرة والجرائم الکثیرة فی حرکة الإنسان فی حیاته الاجتماعیة تکون بدافع الغضب ویترتب علیه دفع کفّارة وضریبة، وبعکسه، نری صفة الحلم وهی من الصفات الاخلاقیة الحمیدة، ونری القرآن الکریم قد إهتم بهذه الصفة أیما اهتمام، وقد وردت فی الآیة ۱۳۴ من سورة آل عمران یصف فیها المتقین حیث ذکرت بعد صفة الانفاق، لما لهذه الصفة من آثار ایجابیة علی وضع الفرد والمجتمع. إنّ حالة الغضب کالنار المحرقة التی قد تأتی علی الأخضر والیابس من حیاة الإنسان وتکفی شرارة صغیرة منها إلی إحراق بیوت ومدن کاملة وتحویلها إلی رماد. وإذا تصفّحنا التاریخ البشری فإننا نجد أنّ المشکلات الکثیرة التی ابتلت بها المجتمعات البشریة کانت بدافع من قوّة الغضب هذه حیث تسببت فی الکثیر من الحوادث المؤلمة والأزمات الخطیرة والخسارة الهائلة علی المستوی الفردی والاجتماعی. وبهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها دورساً وعبراً فی خطر هذه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۸ الرذیلة الأخلاقیة وکذلک برکات الحلم وآثاره الإیجابیة فی النقطه المقابلة لها: ۱- «وَالَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ» «۱». ۲- «الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْکَاظِمِینَ الْغَیْظَ وَالْعَافِینَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ» «۲». ۳- «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ

أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ» «۳». ۴- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» «۴». ۵- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» «۵». ۶- «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» «۶». ۷- «وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۷». ۸- «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ» «۸».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» من الآيات محل البحث التى تتحدّث عن أوصاف طائفة من المؤمنين الصادقين الذين شملهم اللَّه تعالى برحمته وعنايته الخاصة، فتقول بعد أن تذكر إيمانهم وتوكّلهم على اللَّه تعالى: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ». وبعبارة اخرى: أنّ هؤلاء عندما تشتعل فى نفوسهم نار الغضب يتحرّكون على مستوى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳۹ ضبطها والسيطرة عليها ولا يسمحون لأنفسهم بالتلّوث بأنواع الخطايا والذنوب لأجل ذلك. إنّ ذكر هذه الصفة بعد مسألة التوقّى من الذنوب والآثام الكبيرة لعله بسبب أنّ حالة الغضب تقود النفس إلى التحرر من قيود العقل وتفكّ عن قوى الشر جميع الضوابط الأخلاقية والشرعية لتتحرّر وتنطلق فى كل إتجاه. ومن الملفت للنظر أنّ هذه الآية لا تقول: إنّ هؤلاء لا يغضبون، لأنّ الغضب فى مواجهة المصاعب اللاملائمات والتحدّيات هو حالة طبيعية لدى الإنسان، بل تقرر أنّ هؤلاء فى حال الغضب يتحركون من موقع السيطرة على حالة الغضب هذه وأن لا يخضع الإنسان لايحاءات هذه القوة فى نفسه وخاصة أنّ قوّة الغضب لا تقع دائماً فى جانب الشرّ فى الإنسان ولا تمثّل عنصراً سلبياً فى دائرة السلوك المخرّب، فأحياناً تكون قوّة مثمرة وبنّاءة كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد باذن اللَّه تعالى. وتأتى «الآية الثانية» وبعد أن تستعرض وعد اللَّه تعالى للمتّقين بالجنّة التى وسع عرضها السموات والأرض لتتحدّث عن أوصاف هؤلاء، وأوّل صفة تذكرها لهؤلاء هى صفة الانفاق وتقول: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» ثمّ تضيف الآية «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ» وفى النتيجة: «وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ» فمن يعيش هذه الحالات الايجابية والقيم الأخلاقية فهو من المحسنين الذين تقول عنهم الآية فى ذيلها: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». والملفت للنظر أنّ الآية التى تليها وعدت هؤلاء بعفو اللَّه ومغفرته فى حال صدور الخطأ منهم، وأنّهم عندما يتحرّكون صوب الانحراف وارتكاب الخطأ يتذكّرون اللَّه تعالى ويستغفرونه فيشملهم اللَّه بعفوه ومغفرته. وهذا إشارة إلى أنّ هؤلاء كما أنّهم يتحرّكون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع العفو والصفح عن أخطاء الغير فإنّ اللَّه تعالى كذلك يعفو عنهم ويصفح عن أخطائهم. وعلى أيّة حال فإنّ (كظم الغيظ) فى هذه الآية ورد بعنوان أحد الصفات الإيجابية المرموقة لهؤلاء المتّقين. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۰ «الآية الثالثة» تتحدّث عن حالة الغضب التى عاشها أحد الأنبياء الإلهيين، وهو النبى يونس عليه السلام تجاه امّته وقومه، وهو الغضب المقدس فى ظاهره، ولكنّه فى الواقع صادر من التسرع والاستعجال وعدم إدراك بواطن الامور، ولهذا فإنّ اللَّه تعالى قد جعله يواجه ظروفاً صعبة بسبب تركه للاولى وأخيراً فإنّ هذا النبى الكريم قد تاب من ترك الاولى، وتقول الآية: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ». وهكذا وبعد تحمّل صعوبات هائلة وقاسية قبل اللَّه توبته ولم تستطع الحوت أن تهضمه فى بطنها، بل قذفته إلى الساحل بجسم نحيف وضعيف وهزيل، أمّا ما هى المدّة التى مكث فيها يونس عليه السلام فى بطن الحوت؟ فهناك اختلاف بين المفسّرين بين من يقول أربعين يوماً، ومن يقول اسبوعاً واحداً وثلاثة أيّام، وطبقاً لرواية عن الامام على عليه السلام أنّ المدّة تسع ساعات، وعلى أيّة حال فإنّ هذه المدّة مهما طالت أو قصرت فإنّها ممّا لا تطاق حتى للحظة واحدة. ولكن ماذا هو ترك الأولى الذى ارتكبه النبى يونس عليه السلام حتى استحق هذه العقوبة الشديدة، رغم أننا نعلم أنّ الأنبياء معصومون عن الزلل والذنب؟ إنّ ما يتبادر إلى الذهن فى البداية أنّ يونس عليه السلام غضب على قومه الضالّين الذين لم يقبلوا دعوته الإلهية وتحرّكوا فى مقابله من موقع العناد واللجاجة، فمن الطبيعى أن يغضب يونس عليه السلام لذلك، ولكن هذا الغضب بالنسبة لنبى كبير مثل يونس عليه السلام كان يعدّ من الترك للأولى، أى كان الأولى له بعد إطّلاعه على وقت نزول العذاب الإلهى على قومه أن يبقى معهم إلى آخر لحظة ولا ييأس من هدايتهم، فلو أنّ يونس عليه السلام لم

يغضب هناك فلعل قومه يسمعون لكلامه ويلبّون دعوته فى آخر اللحظات، والتجربة تؤيد هذا المعنى حيث إنتبه قومه فى اللحظات الأخيرة وتابوا إلى اللَّه تعالى فقبل اللَّه توبتهم وأزال عنهم العذاب. فمثل هذا الغضب ليونس عليه السلام (والذى لم يكون بدون دليل أيضاً) فإنّ اللَّه تعالى لم يغفر لنبيّه ذلك وعاقبه بتلك العقوبة، فكيف الحال فيما لو كان الغضب الذاتى للإنسان بدافع الحقد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۱ والانتقام والحسد والدوافع الرذيلة الاخرى؟ ومن البديهى أنّ المراد من غضب يونس عليه السلام هنا هو غضبه على قومه الظالمين والفاسقين، والمراد من العبارة «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» هو أنّ يونس عليه السلام تصوّر أنّ تركه لقومه لم يكن عملًا سيئاً بحيث يستلزم كل تلك العقوبة والتوبيخ، والمقصود من إعتراف يونس عليه السلام بظلمه هو ظلمه لنفسه الذى قاده إلى هذه النتيجة الصعبة. وأمّا الآيات التى تستعرض الحلم من موقع الثناء والتمجيد والمدح فهى كالتالى: «الآية الرابعة والخامسة» من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم حالات النبى إبراهيم عليه السلام من موقع وصفه بعنوان: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» و «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ»، فالعبارة الاولى وردت فى واقعة رفض آزر (عم إبراهيم) لدعوة إبراهيم للتوحيد ورفض الأصنام واستغفار إبراهيم عليه السلام له، والثانية وردت فى قصّة إخبار الملائكة لإبراهيم عن العذاب الإلهى النازل على قوم لوط وطلب إبراهيم الخليل عليه السلام من اللَّه تعالى أن يخفّف عذابهم أو يمهلهم أكثر من ذلك. «أوّاه» تأتى بمعنى الرحيم والحنون، والذى يتحرّك قلبه لهداية قومه وامّته. وعلى أيّة حال فإنّ ما ورد فى القرآن الكريم من وصف النبى إبراهيم عليه السلام ب «أوّاه حليم) و (أوّاه منيب) يبيّن الرابطة الوثيقة بين هاتين الصفتين، ويدلّ على أنّ كظم الغيظ والسيطرة على الغضب والتحرّك من موقع الحلم والمحبّة تجاه الآخرين حتّى لو كانوا مجرمين والسعى لإنقاذهم من الخطيئة والعقوبة كل ذلك يعدّ من الصفات الإيجابية البارزة للأنبياء الإلهيين. إنّ النبى إبراهيم عليه السلام لم يكن حليماً تجاه عمّه آزر فحسب، بل حتى بالنسبة إلى قوم لوط عليه السلام الذين كانوا قد غرقوا فى ذلك الوحل العفن من الخطيئة حيث نرى إبراهيم عليه السلام ينطلق من قلب متحرّك ليرفع عنهم العذاب أو يؤجله إلى إشعار آخر كيما يتسنى لهم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۲ الخلاص من ادران هذه الخطيئة وترك ذلك السلوك الشائن ويسيروا فى خط الإيمان والتقوى والانفتاح على اللَّه. ولكنّ الأمر الإلهى كان قد صدر بحقهم رغم أنّ إبراهيم عليه السلام قد أظهر هذه الرحمة والشفقة تجاه عمّه أو قوم لوط لأنّهم لم يكونوا قابلين للهداية وخاصة ما كان عليه قوم لوط من الخطيئة المزمنة حيث أصابهم العذاب الإلهى أخيراً. «الآية السادسة» تستعرض إحدى المواهب الإلهية الكبيرة على إبراهيم وتقول: إنّ اللَّه تعالى قد استجاب لإبراهيم عليه السلام دعائه: «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ». واللطيف أنّ من بين جميع الصفات الإيجابية الكبيرة للإنسان، فإنّ هذه تشير فقط إلى صفة الحلم لدى هذا الغلام العزيز لإبراهيم عليه السلام. ويقول الراغب فى مفرداته بأنّ: الحلم بمعنى ضبط النفس عند هيجان الغضب، وبما أنّ هذه الحالة ناشئة من العقل فإنّه كلمّا وردت كلمة الحلم فإنّها قد يراد بها العقل أيضاً. وهذه البشارة تحقّقت بالنسبة إلى إسماعيل عليه السلام عندما بلغ سن الرشد ووهبه اللَّه العقل والحلم والنضج الكبير، وذلك عندما صدر الأمر الإلهى لإبراهيم بذبح إبنه اسماعيل كما تتحدّث الآيات التى بعد هذه الآية وتقول على لسان إسماعيل عليه السلام: «يا أَبَتِ إفعَل ما تُؤمَر» فنرى حالة التسليم المطلق أمام الأمر الإلهى، وفى مقابل الذبح الذى صدر لإبراهيم. وتأتى «الآية السابعة» لتبيّن صفات (عباد الرحمن) البارزة، وتستعرض ضمن الحديث عن إثنى عشر صفة من الصفات الكبيرة الأخلاقية وهذه الصفة خاصة وتقول: «وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً». أى إذا واجههم الأشخاص الذين يعيشون الحمق والجهل والحقد بكلام غير مسؤول وألفاظ ركيكة فإنّ جوابهم لا ينطلق من موقع الانفعال والرد بالمثل، بل يمرّون على كلامهم ذلك من موقع الحلم وسعة الصدر ورغم أنّ كلمة (حلم) لم ترد فى هذه الآية، ولكن المفهوم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۳ من مجموع الآية هو أنّ عباد الرحمن لا ينطلقون من موقع الانفعال والغضب للجاهلين الحوادث غير الملائمة وخاصة الكلمات غير المسؤولة للجاهلين والحاقدين ويجنبوا أنفسهم شرّ النزاع والصراع مع هؤلاء الأشخاص بأداة الحلم وسعة الصدر. وقد ورد فى الحديث الشريف فى تفسير هذه الآية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال يوماً لأصحابه (مضمون الحديث): «هؤلاء جماعة من امّتى احبُّهُم وَيُحبُّوننى سيأتون بعدكُم (ثم أخذ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذكر أوصافهم) ومن

ذلك صفة الصبر والحلم وأنّهم يسلكون طريق الرفق والمداراة. فقيل له: يا رسول اللّه هل يرفقون بغلمانهم؟ فقال صلى الله عليه و آله: ليس لهم غلمان، وإنّما يرفقون مع الجهّال والسفهاء: «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»» «۱». والمراد من كلمة (سلام) هنا هو أنّهم يتعاملون مع الآخرين من موقع المسالمة لا من موقع الخشونة والتحدّى والرد بالمثل ولا يواجهون كلمات غير مسؤولة لُاولئك الجاهلين إلّا من موقع عدم الاعتناء واللّامبالاة وكأنّما لم يسمعوها أصلًا. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث من سورة الأعراف تتحدّث عن ثلاثة أوامر مهمّة فى خطابها للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله (باعتباره اسوة لجميع المؤمنين) وتقول: «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ». ومن الطبيعى أنّ الأعراض عن الجاهلين يأتى بمعنى الحلم والصفح وترك أى شكل من أشكال الخصومة والشجار، بل يمكن القول أنّ الجملتين السابقتين فى هذه الآية من الأمر بالعفو وقبول العذر والدعوة إلى الأخلاق الحسنة هى نوع من أنواع الحلم كذلك، وبالتالى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۴ تدلّ وتشير إلى هذا المعنى أيضاً وأنّ سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت كذلك فى مقابل الجاهلين والمعاندين حيث كان يظهر أمامهم منتهى الصبر وسعة الصدر والتحمّل والحلم، ولا يتملكه الغضب اطلاقاً مقابل ما يسمعه منهم من كلمات غير مؤدّبة وعبارات غير مسؤولة. والآية التى تلى هذه الآية تقول: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۱». يمكن أن تكون إشارة اخرى إلى هذا المعنى أيضاً وهو أنّ نار الغضب ما هى إلّانزغ من نزغات الشيطان وعلى كل مؤمن أن يستعيذ باللّه من هذه الحالة الشائنة. والشاهد على ذلك ما ورد فى الرواية الشريفة فى تفسير روح البيان فى ذيل هذه الآية وأنّه عندما نزلت الآية السابقة وأمرت بالعفو والحلم أمام الجاهلين قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «كَيفَ يا رَبِّ والغَضبُ» «۲». فنزلت الآية التى بعدها وأمرت النبى أن يستعيذ باللّه من شرّ الشيطان الرجيم. وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ أجمع آية من آيات القرآن لمكارم الأخلاق هى هذه الآية. وهو كذلك واقعاً، لأنّ هذه الآية تتضمّن العفو والصفح أمام جهل الآخرين وتدعو الناس جميعاً لفعل المعروف، وكذلك مواجهة الجاهلين بالإعراض عنهم وعدم مجادلتهم والتحدّث معهم من موقع الانفعال، فهذه التعاليم الثلاثة تعد ثلاث برامج مهمّة فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعية للإنسان فى حركة الحياة بحيث لو تسنى لأفراد المجتمع أن يترجموا هذه الدساتير الثلاثة على أرض الواقع ويجسّدوها فى سلوكياتهم وأعمالهم فإنّ أكثر المشكلات الاجتماعية وما يترتب عليها من سلبيات اخرى ستجد طريقها إلى الحل. ومن مجموع الآيات المذكورة آنفاً يتجلّى لنا أهميّة الحلم كفضيلة أخلاقية سامية، وكذلك العواقب الوخيمة المترتبة على حالة الغضب الانفعالى والشيطانى.

الغضب فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى الروايات الإسلامية تعبيرات عجيبة ومثيرة بالنسبة إلى الآثار السلبية للغضب وأضرار هذه الرذيلة الأخلاقية على حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد اخترنا من بين الأحاديث الكثيرة إثنى عشر حديثاً: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الغَضَبُ جَمرَةٌ مِنَ الشّيطانِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «الغَضَبُ يُفسِدُ الإيمانَ كَما يُفسِدُ الصَّبرُ العَسَلَ» «۲». ۳- ونقرأ فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «أَعدَى عَدُوٍّ لِلمَرءِ غَضَبُهُ وَشَهوَتُهُ، فَمَنْ مَلَكَهُما عَلَتْ دَرَجَتُهُ وَبَلَغَ غايَتَهُ» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن الإمام عليه السلام نفسه قال: «الغَضَبُ نارٌ مُوقَدَةٌ مَنْ كَظَمَهُ أَطفَأَها وَمَنْ أَطلَقَهُ كانَ أَوَّلُ مُحتَرِقٍ بِها» «۴». ۵- وفى عبارة ناطقة وردت فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «لَيسَ لإِبلِيسَ جُندٌ أَشَدُّ مِنَ النِّساءِ والغَضَبِ» «۵». ۶- وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فى عبارة عميقة المعنى قوله: «الغَضَبُ مِفتاحُ كُلِّ شَرٍّ» «۶». ۷- ونقرأ فى أحد الأدعية المعروفة للصحيفة السجادية فى بيان الإمام زين العابدين عليه السلام لأخطار وأضرار الغضب وأنّها إلى درجة من الشدّة بحيث أنّ الإمام نفسه يستجير باللّه منها ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُبِكَ مِنْ هَيجانِ الحِرصِ وَسُورَةِ الغَضَبِ وَغَلَبَةِ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۶ الحَسَدِ وَضَعْفِ الصَّبرِ وَقِلَّةِ القَناعَةِ» «۱». ۸- ونقرأ فى حديث آخر

عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إِيَّاكَ وَالغَضَبَ فَأَوَّلُهُ جُنُونٌ وَآخِرُهُ نَدَمٌ» «۲». ۹- وورد عن هذا الإمام عليه السلام فى عبارة عميقة اخرى تتعلّق بالتقاطع بين الغضب والعقل ويقول: «عِندَ غَلَبَةِ الغَيظِ وَالغَضَبِ تُختَبَرُ حِلمُ الحُلَماءِ» «۳». ۱۰- وأيضاً ورد فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام عن عواقب الغضب الأليمة قوله: «عُقُوبَةُ الغَضُوبِ وَالحَقُودِ وَالحَسُودِ تَبدَءُ بِأَنفُسِهِم» «۴». ۱۱- وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَورَتَهُ». ۱۲- ونختم هذا البحث بحديث شريف آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، رغم وجود أحاديث كثيرة عن المعصومين فى هذا الباب: «أَى شَيءٍ أَشَدُّ مِنَ الغَضَبِ إِنَّ الرَّجُلَ إِذا غَضِبَ يَقتُلُ النَّفسَ وَيَقذِفُ المُحصَنَ» «۶».

الآثار السلبية والمخرّبة للغضب:

إننا قلّما نجد صفة من الصفات الرذيلة تتضمّن عناصر الشر والتخريب مثلما لرذيلة الغضب، ولو أننا كتبنا تفصيلًا عن الآثار السلبية للغضب لاتّضح لدينا أنّها أكثر من الرذائل الأخلاقية الاخرى ومن ذلك: ۱- ينبغى الإلتفات قبل كل شيء إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ حالة الغضب تقع ضمن أعداء الإنسان حيث أنّه يفقد عقله تماماً فى ثورة الغضب ويتحوّل إلى كائن غير منسجم التصرفات والحركات بحيث يتعجّب منه من حوله من الناس، بل إنّ الإنسان نفسه وبعد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۷ هدوء هيجان الغضب يتعجّب من تصرفاته وسلوكياته الشائنة أثناء هذه الحالة، وفى تلك الحال قد يهجم الشخص على أقرب المقرّبين إليه من دون أن يتعقّل ماذا يفعل، وقد يتسبب فى تلوث يده بدماء الأبرياء أيضاً، فيقتل ويحطّم ويسرق ويخرّب وكأنّه مجنون تماماً. ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «الغَضَبُ يُفسِدُ الألبابَ وَيُبعِدُ مِنَ الصَّوابِ» «۱». ولهذا السبب ورد فى الروايات الإسلامية أنّه إذا أردتم أن تختبروا عقل الأشخاص وحنكتهم ورأيهم فعليكم بالنظر إليهم فى حالة الغضب ومدى سيطرتهم على أنفسهم من شرّ هذه القوّة الهائجة، وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا يَعرِفُ الرَّأىُ عِندَ الغَضَبِ» «۲». ۲- إنّ الغضب يؤدّى إلى إضمحلال إيمان الشخص وتلاشيه، لا نّ الشخص عندما تمتلكه الحدّة فلا يرتكب الذنوب الكبيرة فقط بل يخرج من الإيمان أيضاً لأن هذه الحالة تتقاطع تماماً مع الإيمان الصحيح والعميق، بل أحياناً يتجرّأ هذا الشخص على اللَّه تعالى أو يعترض على حكمه وتقديره للُامور، وهذه المرحلة من أخطر المراحل التى تمر بالإنسان فى حالة سورة الغضب. وقد قرأنا الأحاديث السابقة أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «الغَضَبُ يُفسِدُ الإيمانَ كَما يُفسِدُ الصَّبرُ العَسَلَ». ۳- إنّ الغضب يعمل على تخريب منطق الإنسان وكلامه الموزون، ويقوده إلى التلفظ بالباطل والكلمات اللّامسؤولة، وعندما يستند الغاضب مسند القضاء فإنّ حكمه سيكون غير سليم قطعاً، ولذلك نقرأ فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «شِدَّةُ الغَضَبِ تَغَيِّرُ المَنطِقَ وَتَقطَعُ مادَةَ الحُجَّةِ، وَتَفَرِّقُ الفَهمَ» «۳». وقد ورد التصريح فى آداب القضاء فى الكتب الفقهية هذا المعنى أيضاً وأنّ القاضى لا ينبغى أن يجلس على كرسى القضاء فى حالة الغضب. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۸ وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله: «مَنْ ابتَلى بِالقَضاءِ فلا يَقضِى وَهُوَ غَضبان». ۴- والآخر من الآثار السلبية لحالة الغضب هو إشهارها لعيوب الإنسان الخفيّة، لأنّ هذا الشخص فى حالاته العادية يتحرّك من موقع السيطرة على قواة النفسية، فلا تتجلّى عيوبه ونقاط ضعفه للآخرين، بل تبقى مستورة ويحفظ بذلك سمعته وماء وجهه فى أنظار الناس، ولكن عندما تستعر فى نفسه نار الغضب، فإنّها تزيل السواتر والأقنعة عن واقع الإنسان وتكسر قيود العقل وتظهر عيوب صاحبها الخفيّة وتؤدّى إلى سقوط شخصيته ومكانته بين الناس. ولذلك ورد فى درر الحكم عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «بئسَ القَرِينُ الغَضَبُ يُبدِى المَعايبَ وَيُدنِى الشَّرَّ وَيُباعِدُ الخَيرَ» «۱». ۵- إنّ الغضب بإمكانه أن يفتح طريق الشيطان للإنسان ويوقعه فى شراكه ومصائده، لأنّ الإيمان والعقل يعتبران مانعين مهمّين يصدّان هجمات الشيطان، ولكنّهما فى حالات الغضب سينكمشان ويدركهما الضعف وعدم الحيلة وبذلك ترتفع الموانع أمام الشيطان لينفذ بسهولة ويصل إلى قلب الإنسان ويحكم سيطرته على قواه، ويفعّل عناصر الشر فى نفسه وباطنه. ونقرأ فى الحديث المعروف: «أنّ نوح عليه السلام لمّا دعى ربّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى قَومِهِ أَتاهُ

إبليسُ لَعنَهُ اللَّهُ فَقالَ: يا نُوحُ إنَّ لَکَ عِندِی يَداً اريدُ أن اكافِيكَ عَلَيه، فَقالَ لَهُ نُوحٌ عليه السلام: إنَّهُ لَيبَغض إلَيَّ أن يَكونَ لَکَ عِندِی يـد فَما هِی؟ قالَ: بلی دَعوتَ اللَّهَ عَلی قَومِکَ فَأَغرَقتَهُم فَلم يَبقَ أَحدٌ أغويهِ فأَنا مُستَريحٌ حتّی يَنسِقَ قرنٌ آخر وَاغويهِم، فَقال نُوحٌ عليه السلام: ما الّذِی تُريدُ أن تُكافِيَنی بهِ؟ قالَ: اذكرنِی فِی ثَلاثِ مَواطِن فَإنّی أَقرَبُ ما أَكُونُ إلی العَبدِ إذا كان فی أحدهن: اذكُرنِی إذا غَضِبتَ، اذكُرنِی إذا حَكَمتَ بَينَ اثنَينِ، اذكُرنِی إذا كُنتَ مَعَ امرأَةٍ خالياً لَيسَ مَعَكُما أَحداً» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۴۹ ونقرأ فی حديث آخر: «عَن ذی القَرنَين أَنّه لَقی مَلَكاً مِنَ المَلائِكَةِ فَقالَ عَلِمنِی عِلماً أزدادُ بِهِ إيماناً وَيَقِيناً، قالَ: لاتَغضَبْ فإنَّ الشَّيطانَ أَقدَرُ ما يَكُونُ عَلی ابنِ آدمَ حِينَ الغَضَبِ» «۱». ولا شک أنّ الغضب مضافاً إلی هذه الآثار السيئة علی المستوی المادی والاجتماعی والأخلاقی فإنّه تترتب عليه آثار معنوية سيئة كثيرة أيضاً بحيث يستفاد من الروايات المختلفة أنّ الشخص الذی يسيطر علی غضبه ويكظم غيظه له ثواب الشهداء «۲» ويحشر يوم القيامة مع الأنبياء «۳» ويملاء قلبه من نور الإيمان «۴».

أسباب ودوافع الغضب:

اشارة

إنّ الغضب باعتباره ظاهرة روحية معقّدة له عوامل وأسباب مختلفة، ومعرفة هذه العوامل والدوافع ضرورية فی عملية الوقاية من أخطار هذه الحالة السلبية، ومن جملة العوامل والأسباب لتفعيل هذه الحالة فی نفس الإنسان وظهور آثارها السلبية الخطيرة هی:

۱- التسرع فی الحكم:

إنّ كل إنسان فی حياته الفرديّة والاجتماعية يسمع يومياً بعض الأخبار غير المسّرة وقد يحكم عليها مباشرة من موقع حالة الغضب المستعرة فی قلبه، وقد يتصرف تصّرفاً أحمقاً ويرتكب بعض الأعمال الخطيرة وما أكثر ما يتبيّن عدم صحة الخبر أو علی الأقل عدم مطابقته للواقعيات تماماً لدی التحقيق والتأنّی، وبالتالی فلا مبرر له علی الغضب والحدّة. أجل فإنّ التسرّع فی الحكم فی مثل هذه المسائل يعدّ عاملًا مهمّاً لبروز حالة الحدّة والغضب علی طول التاريخ وترتّب العواقب الوخيمة عليه. وقد ورد فی الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ طبائِعِ الجُهالِ التَّسَرُّعُ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۰ إلی الغَضَبِ فِی كُلِّ حالٍ» «۱».

۲- ضيق الافق:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون سعة الصدر وكبر الروح وقوّةالشخصية وسعة الفكر فإنّهم يتحمّلون الحوادث الصعبة ويواجهون تحدّيات الواقع المرّة بكامل الوقار وحفظ النفس، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون ضيق الافق فإنّهم ينفعلون بأقل حادثة غير ملائمة وأحياناً يخرج زمام امورهم من أيديهم ويتصرّفون تصّرفاً طائشاً. والحديث الذی قرأناه آنفاً من أنّ سرعة الغضب والحدّة من أخلاق الجهّال هو إشارة إلی هذه الحقيقة أيضاً.

۳- التكبّر والغرور:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون روح التكبّر والغرور، ويرغبون دائماً فی أن يحفظ لهم الآخرون احترامهم ولا يتجاوزوا حدودهم ويقومون لهم حين دخولهم المجلس إكراماً لهم واحتراماً يرون لأنفسهم إمتيازات خاصة علی سائر الناس، ولكن إذا لم يحصلوا علی هذه التوقّعات ولم يجدوا فی الناس ذلک الاحترام والإكرام فسوف تتحرّک فيهم حالة الغضب والحدّة، فی حين أنّ عنصر الشر

موجود فی باطنهم والعامل الأساس لشقائهم موجود فی ذواتهم ولا ذنب للآخرین. ونقل فی الروایة عن السید المسیح علیه السلام ضمن بیانه لأسباب الغضب أنّه عدّ التکبّر والعجب والغرور من العوامل لذلک «۲». ونقرأ فی حدیث آخر عن السید المسیح علیه السلام أیضاً أنّ الحواریین قالوا له: «یا مُعَلِمَ الخَیرِ، عَلِّمنا أیّ الأَشیاءِ أَشَدُّ؟ فَقَالَ علیه السلام: أَشَدُّ الأشیاء غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالُوا: فَبِمَ یُتَّقی غَضَبُ اللَّه؟ قَالَ: بِأَنْ لا تَغضَبُوا. قَالُوا: وَما بِدؤ الغَضَبِ؟ قال علیه السلام: «الکِبرُ والتَّجبُّرُ وَمَحقَرَةُ النّاسِ» «۳».

۴- الحسد والحقد:

إنّ الأشخاص الذین یعیشون الحسد والحقد تجاه الآخرین فإنّ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۱ المواد الأولیة لهذه الحالات الذمیمة موجودة فی باطنهم کما یخزن البارود والدینامیت فی مخازن ولا یحتاج إلّاإلی شرارة خفیفة من الخارج حتی ینفجر برکان الغضب ویستولی علی جمیع کیانهم، وفی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام یقول: «الحِقدُ مَثارُ الغَضَبِ» «۱».

۵- الحرص وحبّ الدنیا:

إنّ الأشخاص الذین یهیمون بحبّ الدنیا ویملأ وجودهم الحرص علی تحصیل زخارفها وزبارجها، فإنّهم لا یتحمّلون أن یجدوا أیّة مزاحمة وخسارة محتملة لمنافعهم الدنیویة، ولذلک نجدهم یثورون لأتفه الأسباب فیما لو تعرّضوا لبعض الخسائر الطفیفة، وبما أنّ الحیاة الاجتماعیة لا تخلو من أمثال هذه المزاحمات والمضایقات، بل یمکن القول أنّ هذه المزاحمات والمضایقات جزء من کل یوم من أیّام الدنیا، ولذلک نجد مثل هؤلاء الأشخاص یعیشون الغضب والحدّة باستمرار وفیما لو لم یستطیعوا إبراز غضبهم فی بعض الحالات فإنّ نار الغضب تستقر فی ذواتهم وتحرق طاقاتهم الخیّرة وإمکاناتهم الإیجابیة فی عالم النفس. وکما ورد فی ذیل الحدیث المذکور آنفاً عن السید المسیح علیه السلام أنّه أشار إلی هذا العامل: «وَشِدَّةُ الحِرصِ عَلی فُضُولِ المَالِ وَالجاهِ».

علاج الغضب:

ونظراً إلی أنّ الآثار السلبیة والعواقب الوخیمة لحالات الغضب والحدّة کثیرة وخطرة جدّاً وأحیاناً تؤدّی إلی تدمیر حیاة الإنسان علی کل المستویات والصعد، لذلک کان من الضروری بذل الجهد لعلاج هذه الرذیلة الأخلاقیة، وإلّا فإنّ الندم ینتظر هؤلاء الأشخاص، وقد ذکر کبار علماء الأخلاق فی هذا الباب أبحاثاً مهمّة وکثیرة، والأهم من ذلک ما ورد من التعلیمات الدینیة فی النصوص الإسلامیة التی ذکرت إرشادات مؤثّرة لإطفاء نار الغضب فی واقع الإنسان، ونختار منها ما یلی: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۲ ۱- أن یقوم الشخص الحاد المزاج بالتفکّر بآثار الغضب السلبیّة وعواقبه السیئة قبل أن تستعر نیران الغضب فی قلبه وتلتهم کیانه، فیتحرک علی مستوی التلقین والإیحاء لها بأنّ الغضب هو فی الحقیقة نار یمکنها أن تأتی علی الأخضر والیابس وتحرق إیمانه وسعادته ووجوده، وتسعّر غضب اللَّه علیه فی الدنیا والآخرة، وأنّ هذه الحالة الذمیمة تبعد الناس من حوله وتفرّق عنه أصدقاءه وتکون ذریعة بید أعدائه، وللغضب آثار وخیمة علی أعصاب الإنسان ویؤدی إلی قصر العمر ویهدد سلامة الشخص البدنیة أیضاً، ویمنعه من الصعود فی مدارج الکمال الدنیوی والاخروی. بخلاف حالة الحلم وسعة الصدر التی هی رمز موفقیة الإنسان وتقدّمه وتفوّقه وصحّته الروحیة والبدنیة والتی تمنحه الإحترام والمودّة فی قلوب الناس وتوجب له رضا اللَّه تعالی والإبتعاد عن الشیطان، وکذلک یتفکر فی الثواب الإلهی لمن یعیش الحلم وسعة الصدر، والعقاب الإلهی المترتب علی من یعیش الحدة وسرعة الغضب. وهذه الامور لا یتفّکر فیها الإنسان فی حال الغضب فحسب بل علیه أن یتفّکر فیها قبل ذلک ویلقّن نفسه باستمرار لکی لا یتورّط فی هذه الحالة الذمیمة. ۲- أن یفکّر فی عواقب الغضب والحدّة، وهذه المسألة مجربة تماماً، وإذا لم یجرّبها الإنسان نفسه فقد جرّبها الآخرون وهی أنّ کل تصمیم علی عمل

معیّن یتّخذه الإنسان فی حال الغضب فأنّه یکون زائفاً وسخیفاً وغالباً ما یوجب له الندم، فما أحسن أن یتذّکر هذه العبارة المعروفة عن أحد العلماء، وهی أنّه فی حالة الغضب لا ینبغی علیه التصمیم ولا التوبیخ ولا العقوبة. ۳- ومن الطرق المهمّة لعلاج حالة الغضب والتی ورد التأکید علیها فی الروایات الشریفة هو (ذکر اللّه) وقد ورد فی بعض الروایات أنّ من ثارت فیه الحدّة علیه بقول: «أعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّیطانِ الرَّجِیم» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۳ وورد فی روایة اخری أن یقول فی هذه الحالة: «لا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلّابِاللَّهِ العَلِّی العَظِیم» «۱» ، لتهدأ سورة الغضب فی أعماقه. وجاء فی بعض الروایات أیضاً أنّه ینبغی أن یضع خدّه علی الأرض أو یسجد للّه‌تعالی. ویقول أبو سعید الخدری نقلًا عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «أَلا إنَّ الغضَبَ جَمرَةٌ فِی قَلبِ ابنِ آدمَ، أَلا تَرَونَ إلی حَمرَةِ وَانتفاخِ أَوداجِهِ فَمَن وَجَدَ مِنْ ذَلِکَ شَیئاً فَلیلصَق خَدَهُ بِالأرضِ» «۲». ومن المعلوم أنّ کل شخص یسلک فی حالة الغضب فی خط العمل لهذه التوصیات والتعلیمات الدینیة ویلتجأ إلی اللّه تعالی من شرّ الشیطان فإنّ غضبه سیهدأ قطعاً. ومعلوم أیضاً أنّ ذکر اللّه مؤثّر جدّاً فی مثل هذه الأحوال، ولکنّ ذکر اللّه بالکیفیة المذکورة آنفاً أکثر تأثیراً من علاج هذه الحالة. وقد أورد الشیخ الحرالعاملی فی کتاب وسائل الشیعة باباً تحت عنوان (باب وجوب ذکراللّه عند الغضب) فی أبواب جهاد النفس، حیث یدلّ علی أهمیّة هذا الموضوع بالذات «۳» . ۴- تغییر الحالة الفعلیة للشخص إلی حالة اخری حیث تکون مؤثرة فی علاج الغضب أیضاً کما ورد فی الروایات الإسلامیة أنّ الشخص إذا تملّکه الغضب وکان جالساً فعلیه أن یقوم، وإذا کان قائماً علیه أن یجلس، أو یعرض بوجهه عن مواجهة الحدث، أو یستلقی علی الأرض، أو إذا أمکنه أن یبتعد عن محل الحادثة، أو یشغل نفسه بأمر آخر. وهذا التغیّر فی الحالة الفعلیة یوثر کثیراً فی تهدئة الغضب والحدّة فنقرأ فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قوله: «کانِ النَّبِیّ إذا غَضِبَ وَهُوَ قائِمٌ جَلَسَ وَإذا غَضِبَ وَهُوَ جالِسٌ اضطَجَعَ فَیَذهَبُ غَیضُهُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۴ وقد ورد فی بحار الانوار عن الإمام الباقر علیه السلام قوله: «وَأَیُّما رَجُلٍ غَضِبَ وَهُوَ قائِمٌ فَلیَجلِس فَإنَّهُ سَیَذهَبُ عَنهُ رِجزُ الشَّیطانِ وَإنْ کانَ جالِساً فَلیَقُم» «۱». وجاء فی ذیل هذا الحدیث الشریف أنّه إذا غضب الإنسان علی أحد أرحامه فعلیه أن یلمس بدنه لیثیر فی نفسه عواطف الرحم ممّا یقوده إلی الهدوء وعودة حالته الطبیعیة. ۵- الوضوء، أو شرب الماءالبارد وغسل الرأس والوجه، وکلّها تؤثر حتماً فی تهدئة الإنسان وزوال حالة الغضب عنه، بل ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إذا غَضِبَ أَحَدُکُم فَلیَتَوضأ» «۲». ویستفاد من هذا التعبیر أنّ الوضوء مستحب فی حالات الغضب ومؤثر فی تسکینه وزواله. وقد ذکر العلّامة المجلسی قدس سره فی تحلیله المختصر لهذا الحدیث الشریف أنّ: «سَبَبُ الغَضَبِ الحَرارَةُ وَسَبَبُ الحَرارَةِ الحَرَکَةُ إذ قالَ صلی الله علیه و آله: إنَّ الغَضَبَ جَمرَةٌ تَتوقَدُ أَلم ترَ إلی انتِفاخ أَوداجِهِ وَحُمرَةُ عَینَیهِ؟ فإن وَجَدَ أَحِدُکُم مِنْ ذَلِکَ شَیئاً فَلیَتَوضأ بِالماءِ البارِدِ وَلیَغسِل فَإنَّ النّارَ لایُطفِئُها إلّا الماءُ، وَقَد قالَ صلی الله علیه و آله: إذا غَضِبَ أَحَدُکُم فَلیَتوضأ وَلیَغتسِلِ فَانَّ الغَضَبَ مِنَ النَّارِ» «۳». فإذا عمل الإنسان علی ضمّ هذه الامور العملیة إلی ما تقدّم من ضرورة التفکّر فی الآثار الخطرة للغضب فی الدنیا والآخرة وما یترتب علیه من العقوبات الإلهیة فإنّ ذلک من شأنه أن یطفأ نار الغضب بالتأکید، ولکنّ المشکلة تبدأ من أنّ الإنسان، لا یرغب فی تغییر حالته والعمل بالتوصیات المذکورة لإزالة حالة الغضب عن نفسه، وحینئذٍ فالنجاة والخلاص من الآثار السلبیة المترتبة علی هذه الحالة الذمیمة یکون عسیراً للغایة، بل غیر ممکن أحیاناً.

أقسام الغضب:

اشارة

إنّ حالة الغضب لیست سلبیة دائماً، بل قد تترتب علیها آثار إیجابیة علی المستوی المادی والمعنوی فی حیاة الإنسان وأحیاناً تکون ضروریة ولازمة، وعلیه یمکننا تقسیم الغضب إلی إیجابی وسلبی، أو ممدوح ومذموم، فإذا ضممنا إلیها الغضب فی دائرة الالوهیة

تحصّلت لدينا ثلاثة أقسام للغضب:

۱- غضب اللّه تعالى:

حيث ورد الحديث عنه فى الكثير من الآيات القرآنية الشريفة وخاصة بالنسبة إلى بنى اسرائيل حيث تشير الآيات إلى أنّ اللّه تعالى غضب عليهم، بل ورد (المغضوب عليهم) حيث ذكر جماعة من المفسّرين أنّ المقصود بهذه العبارة هم بنو اسرائيل الفاسقون فى كل زمان ومكان حيث سوّدوا صفحة التاريخ البشرى بذنوبهم وأعمالهم الأثيمة. ولا شك أنّ الغضب بمعنى الانفعال النفسى المقترن مع حبّ الانتقام والذى يتجلّى فى ظاهر الوجه على شكل إحمرار الوجه وإحتقان الدم وأمثال ذلك لا يرد قطعاً فى مفهوم الغضب فى دائرة الالوهية، لأنّ اللّه تعالى منزّه عن الجسم والجسمانية والتغير والتبدّل فى الحالات، فلا مفهوم لها بالنسبة إلى الذات المقدّسة، كما أنّ الانتقام بمعنى إرضاء حالة الغضب وتهدئة حرقة القلب الذى يصطلح عليه بالتشفّى المقترن مع تعذيب العدو وإلحاق الضرر به كذلك لا معنى ولا مفهوم بالنسبة إلى الذات الإلهية المقدّسة. ومن ذلك فإنّ المفسّرين ذهبوا إلى أنّ غضب اللّه تعالى بمعنى إنزال العقوبة العادلة بالمذنبين والمجرمين فى الدنيا والآخرة. يقول الراغب فى مفرداته بصراحة: أنّه عندما يراد بالغضب صفة من الصفات الإلهية فإنّ المقصود هو الانتقام والعقاب من المجرمين. فقد أشارت الأحاديث الإسلامية أيضاً إلى هذا المعنى، كما نقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام عليه السلام الباقر عليه السلام عن سؤال حول غضب اللّه تعالى ماذا يعنى؟ فقال: «غَضَبَ اللَّهُ تعالى عِقابَهُ يا عُمَرو «۱» مَنْ ظَنَّ يُغَيِّرُهُ شَیءٌ فَقَدْ كَفَرَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۶ وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ غضب اللّه تعالى هوعقابه كما أنّ رضا اللّه هو ثوابه (لا أنّ الغَضَبَ حالَةٌ نفسيّة فِی الذّاتِ المُقَدَّسةُ تِقتَضِی التَّغَيُّرَ وَالتَّبدُّلَ الَّذی نَراهُ فِی صِفاتِ المُمكِناتِ). وخلاصة الكلام أنّ الآيات والروايات الشريفة التى تتحدّث عن غضب اللّه وسخطه لا تتعلّق بحالة الغضب لدى المخلوقين ولا تشبهها بشكل من الأشكال، بل هى فى الواقع إنزال العقاب العادل فى حق المجرمين ولغرض تربية الإنسان وايصاله إلى كماله اللّائق.

۲- الغضب السلبى والمخرب،

الذى تقدّم البحث فيه بالتفصيل فى الاحاديث السابقة ورأينا الأضرار الكبيرة المترتبة على هذه الحالة النفسية وبحثنا أسبابها وطرق علاجها بما لا حاجة إلى توضيح أكثر.

۳- الغضب الإيجابى للإنسان:

ومعلوم أنّ هذه القوّة لدى الإنسان لم تخلق من دون غرض وحكمة، فلو تصوّر شخص أنّ هذه القوّة فد خلقها اللّه تعالى وجعلها فى الإنسان لغرض التخريب والشر فإنّه لم يدرك جيداً حكمة اللّه تعالى فى خلقه، وفى الحقيقة أنّ توحيده الأفعالى ناقص. فمن المحال أن يخلق اللّه تعالى عضواً من أعضاء بدن الإنسان أو قوّة فى نفسه وروحه ليس لها فائدة ومنفعة فى حياة الإنسان ومن ذلك قوّة الغضب. عندما يعيش الإنسان حالة الغضب وتسيطر عليه هذه القوّة فإنّها تعمل على تعبئة جميع طاقاته وقواه الفكريّة والجسدية تجاه الخطر وأحياناً تتضاعف قدرته أضعاف ما كانت عليه فى الحالات العاديّة، والحكمة الوجودية لهذه الحالة فى الواقع هى الدفاع عن الإنسان ومنافعه فى نفسه وماله وعرضه تجاه الخطر وتحدّيات الظروف الخارجية، وهذه نعمة وموهبة إلهية كبيرة جدّاً. إننا نرى الحيوانات أو الطيور أيضاً عندما يشعرن بالخطر يتحرّكن ويلذن بالفرار بعيداً عن منطقة الخطر، ولكنّ هذه الحيوانات عندما يتعرّض أطفالهن إلى الخطر فإنّها تتصدّى إلى هذا الخطر وتدافع بنفسها عن أولادها ممّا يثير تعجّب الكثيرين، وأحياناً قد يرى طائر الاخلاق

فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۷ جبان الخطر علی فراخه فیهجم باتّجاه الخطر ویتصدّی إلی المهاجمین ویبعدهم عن أطفاله ویلحق بهم الهزیمة وحتی بعض الحیوانات کالقط إذا رأی نفسه محبوساً فی غرفة وتعرّض للهجوم فإنّه یتصدّی أیضاً للدفاع عن نفسه ویتبدّل إلی حیوان متوحّش وخطر حیث یهجم أحیاناً علی الإنسان ویلحق به أضراراً کثیرة. وعلیه فإنّ قوّة الغضب هی فی الحقیقة قوّة مفیدة ومهمّة فی عملیة الدفاع عن النفس وما یتعلّق بالإنسان من الامور المادیة والمعنویة، ولذلک فهی ضروریة فی بقاء واستمرار الحیاة وتکامل الإنسان بشرط أن تستخدم فی مکانها وفی الغرض التی خلقت لأجله بدون افراط وتفریط. ونقرأ فی الآیات والروایات الإسلامیة موارد کثیرة تتحدّث عن الغضب المقدّس الإیجابی والغضب الإلهی کذلک، ومنها: ۱- نقرأ فی قصّة موسی علیه السلام أنّه عندما توجّه إلی جبل الطور لإستلام الوحی الإلهی والتوراة، فإنّ السامری قد استغل هذه الفرصة فی غیاب موسی علیه السلام وصنع العجل الذهبی لبنی اسرائیل ودعاهم إلی عبادته وقد أخبر اللّه تعالی موسی علیه السلام بهذا الحدث العظیم وهو فی جبل الطور ممّا جعل موسی علیه السلام یغضب لذلک ویحزن ویعود إلی قومه وهو غارق فی الهم ویعتصره الألم، فألقی الألواح التی کتبت فیها التوراة والأحکام الإلهیة وأخذ برأس أخیه وبلحیته موبّخاً إیّاه علی تساهله مقابل ما صنعه السامری من اضلال بنی اسرائیل وحتی أنّه وبّخه کما تقول الآیة: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَی إِلَی قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ وَأَلْقَی الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَکَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِی الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ» «۱». هذه الحالة المثیرة والغضب الشدید الذی استعر فی قلب موسی علیه السلام تجاه ما صنعه بنو اسرائیل من عبادة العجل قد أثر أثره الکبیر فی قلوب الیهود وهزّهم من أعماقهم فانتبهوا من غفلتهم وأدرکوا سوء تصرّفهم فی انحرافهم عن التوحید وسلوکهم فی خط الشرک وعبادة الوثن. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۸ ومعلوم أنّ مثل هذا الغضب الشدید فی مقابل ظاهرة انحراف الناس وضلالهم هو من الغضب الإیجابی والبنّاء وله بعد إلهی فی حرکة حیاة الإنسان المعنویة. وهکذا الحال فی جمیع أشکال الغضب لدی الأنبیاء الإلهیین فی مقابل أقوامهم المنحرفین والضالّین. ومن الیقین أنّ موسی علیه السلام إذا کان قدواجه هذه الظاهرة من موقع برودة الأعصاب وعدم تثویر حالة الغضب فی نفسه فإنّ بنی اسرائیل یستوحون من هذا السلوک إمضاءاً وأعترافاً من موسی علیه السلام بأفعالهم وسلوکیاتهم الخاصة، وبالتالی فإنّ مواجهة هذا الانحراف قد یکون مشکلًا فیما بعد، ولکنّ غضب موسی علیه السلام وهیجانه قد أثر أثره الإیجابی الکبیر فی رجوع بنی اسرائیل عن خط الانحراف. ۲- ونقرأ فی سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه أحیاناً یتملکه الغضب الشدید تجاه بعض الحوادث والوقائع بحیث تظهر آثار الغضب علی محیاه ووجه المبارک. من قبیل ما ورد فی قصّة صلح الحدیبیة أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قد غضب بشدّة لبعض مقترحات (سهیل بن عمر) (وکیل قریش لعقد معاهدة الصلح مع النبی الأکرم صلی الله علیه و آله) وکان غضبه حول بعض الموارد المقرّرة لمکتوب الصلح بین الطرفین بحیث ذکر المؤرّخون أنّ آثار الغضب ظهرت علی وجهه وسیمائه (وهذا الأمر تسبب فی سحب سهیل اقتراحه وعدم ذکره فی بنود الصلح) «۱». ۲- وورد فی سیرة أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه غضب بشدة علی أحد المسلمین الذی أضرّ بزوجته وهدّدها بالحرق، فما کان من الإمام علی علیه السلام إلّاأن تأثر بشدّة لذلک وسحب سیفه علی هذا الرجل وقال: «آمرُکَ بِالمَعرُوفِ وَأَنهاکَ عَنْ المُنکَرِ وَتَردُ المَعروفَ؟ تُب وَإِلّا قَتَلتُکَ. (ولما علِم الشابُ أَنّه أَمیرالمؤمنین علیه السلام) قالَ: یا أَمِیرَالمُؤمِنِینَ اعفُ عَنِّی عفا اللّهُ عَنکَ وَاللّهِ لَأَکُونَنَ أَرضاً تَطأنی، فَأَمرها بِالدُخُولِ إِلی مَنزِلِها وانکفأ وَهُو یَقُولُ: لاخَیرَ فِی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۵۹ کَثِیرٍ مِنْ نَجواهُم إِلّامَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَو مَعرُوفٍ أَو إِصلاحٍ بَینَ النَّاسِ» «۱». ومن الیقین أنّ مثل هذ الغضب مقدّس وإلهی حیث یوثّر کثیراً علی مستوی سوق الشخص المذنب بإتّجاه الحق والعدالة والسیر فی خط الإیمان. ۴- ونقرأ فی حالات أبی ذر رضی الله عنه عندما لم یتحمل عثمان أمره بالمعروف ونهیه عن المنکر أمر بتبعیده ونفیه إلی صحراء الربذة فی أسوأ الظروف والحالات، فما کان من الإمام علی علیه السلام إلّاأن حضر لتودیعه وقال له: «یا أَبا ذَر إِنَّکَ غَضِبتَ للّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فَارْجُ مَنْ غَضِبتَ لَهُ إِنَّ القَومَ خافُوکَ عَلی دُنیاهُم وَخِفتَهُم عَلی دِینِکَ، فَاترُکْ فِی أَیدِیهِم ما خافُوکَ عَلَیهِ وَاهرُب مِنهُم بِما خِفتَهُم عَلَیهِ» «۲». وبدیهی أنّ غضب أبی ذر رضی الله عنه کان بالنسبة

إلى مايراه من التلاعب بأموال المسلمين وبيت المال وما يشاهده من الظلم والجور بحق سائر المسلمين فإنّ مثل هذا الغضب يقع فى دائرة الغضب الإلهى المقدّس. وفى كلام آخر لأبى ذر رضى الله عنه أيضاً عندما أمر معاوية بنفيه عن الشام وابعاده عنه لشدّة انتقاداته اللاذعة وجرأته وشجاعته فى اللّه حيث خاف معاوية على مقامه وسمعته بين أهل الشام، فما كان من أبى ذر رضى الله عنه إلّاأنّ خاطب المسلمين من أهل الشام الذين جاءوا لتوديعه وقال: «أَيُّها النّاسُ إجتَمِعُوا مَعَ صَلاتِكُم وَصَومِكُم غَضَباً للّهعَزَّ وَجَلَّ إذا عُصِىَ فِى الأَرضِ» «۳». ۵- ونقرأ فى حديث شريف عن سيرة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام عندما جاء إلى والى المدينة الوليد بن عتبة: «فَقَد كانَتْ بَينَ الحُسينِ عليه السلام وَبَينَ الوليد بنِ عَقبةَ مَنازَعَةٌ فِى ضَيعَةٍ فَتَناوَلَ الحُسَينِ عليه السلام عَمامَةَ الوليدِ عَنْ رَأسِهِ وَشَدَّها فِى عُنقِهِ وَهُوَ يَومَئِذٍ والٍ عَلَى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۰ المَدينَةِ، فَقالَ مَروانُ: بِاللّهِ ما رَأَيتُ كَاليَومِ جُرأَةَ رَجُلٍ عَلى أَميرِهِ، فَقالَ الوَليدُ: وَاللّهِ ما قُلتَ هذا غَضَباً لِى وَلَكِنَّكَ حَسَدتَنِى عَلى حَلمِى عَنهُ وَإنّما كَانَتِ الضَّيعَةُ لَهُ، فَقالَ الحُسَينُ عليه السلام: الضَّيعَةُ لَكَ يا وَلِيدُ وَقامَ» «۱». وهذه إشارة إلى أنّ غضبه عليه السلام لم يكن للدنيا وحطامها بل لإثبات عجز الوليد عن فرض رأيه بالقوة. ۶- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عندما بعث بمالك الأشتر والياً على مصر فارسل معه كتاباً إلى أهل مصر يقول فيه: «مِنْ عَبدِاللّهِ عَلىٍّ أَميرِالمُؤمِنِينَ عليه السلام إلَى القَومِ الَّذِينَ غَضِبُوا للّهِ حِينَ عُصِىَ فِى أَرضِهِ وَذُهِبَ بِحَقِّهِ» «۲». ۷- وورد فى بعض الأحاديث الشريفة أنّ اللّه تعالى أوحى لأشعياء النبى عليه السلام: «إنِّى مُهلِكٌ مِنْ قَومِكَ مائَةَ أَلفٍ، أَربَعينَ أَلفاً مِنْ شِرارِهِم وَستِّينَ ألفاً مِنْ خيارِهِم، فقالَ عليه السلام: هَؤلاءِ الأَشرارِ فما بالُ الأَخيارِ؟ فَقالَ: داهَنُوا أَهلَ المَعاصِى فَلَم يَغضَبُوا لِغَضَبِى»». هذه وأمثالها من الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية غير قليلة وتتحدّث جميعها عن الغضب المقدّس الذى يكون للّه‌تعالى وللدفاع عن الحق مقابل الظالمين وقوى الانحراف وأصحاب البدع والضلالة. أمّا الفرق بين الغضب المقدّس والمذموم هو أولًا: إنّ الغضب المقدّس يقع تحت سيطرة العقل والشرع ولا يتجاوز هذه الدائرة ويكون بهدف تعبئة جميع قوى الإنسان لمواجهةالعمل المنكر الذى يراد ارتكابه لمنع وقوعه وارتكابه، وأمّا الغضب الشيطانى فإنّه ليس فقط لا يقع تحت دائرة العقل والشرع، بل يكون بوحى من الأهواء والشهوات والنوازع الذاتية التى تقود الإنسان فى خط الانحراف والباطل. ثانياً: إنّ الغضب المقدّس يتّجه لتحقيق أهداف مقدّسة ويتقارن مع المنهجية والنظم فى دائرة السلوك والعمل، فى حين أنّ الغضب المذموم والشيطانى لا يهدف إلى تحقيق شىء مفيد ومقدّس ويفتقد كذلك إلى البرمجة والنظم. ثالثاً: إنّ الغضب المقدّس له حدود معيّنة لا يتجاوز عنها، فى حين أنّ الغضب الشيطانى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۱ لا يعرف حدّاً معيّناً، وعلى سبيل المثال يمكننا بيان ما تقدّم من الفرق بين هذين النحوين من الغضب بالقول بأنّ الغضب المقدّس حاله حال السيل النازل من الجبال والمجتمع خلف السد حيث يتمّ الإستفادة منه بشكل منظّم ومحسوب، مياهه تجرى فى قنوات خاصة وتتسبب فى عمران المنطقة وزيادة البركة والخير العميم، فى حين أنّ الغضب الشيطانى حاله حال السيول المخرّبة التى تسيل من الجبال ولا تجد أمامها مانعاً من الموانع وبالتالى فإنّها تدّمر كل شىء تجده أمامها. ونختم هذا الحديث بكلام عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إنَّما المُؤمِنُ الَّذِى إذا غَضِبَ لَم يَخرُجهُ غَضَبُهُ مِنْ الحِقِّ وَإذا رَضِىَ لَم يَدخُلهُ رِضاهُ فِى باطِلٍ» «۱».

الحلم وسعة الصدر:

النقطة المقابلة لحالة الغضب والحدّة المذمومة هى الحلم وضبط النفس وسعة الصدر كما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام عندما سئل عن معنى الحلم فقال: «كَظمُ الغَيظِ وَمِلكُ النَّفسِ» «۲» ، ومن علاماته حسن التعامل مع الناس والمعاشره بالمعروف مع الآخرين كما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «لَيسَ بِحَليمٍ مَنْ لَمْ يُعاشِرِ بِالمَعرُوفِ مَنْ لابُدَّ لَهُ مِنْ مُعاشَرَتُهُ» «۳». أمّا الأشخاص الذين يتحلّمون بسبب عجزهم وعدم قدرتهم على إشهار الغضب وممارسته فهم يفتقدون فى الواقع لفضيلة الحلم وسعة الصدر، لأنّهم كلّما وجدوا القدرة على ممارسة غضبهم وإخراجه إلى دائرة العمل يتحرّكون فوراً للإنتقام من الطرف الآخر كما ورد هذا المعنى فى

الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال: «لَیسَ الَحلِیمُ مَنْ عَجَزَ فَهُجِمَ وإذا قَدَرَ إنتَقَمَ إنَّما الحَلِیمُ مَنْ إذا قَدَرَ عَفی «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۲ وعلی أیة حال فإنّ الحلم وضبط النفس یعدّ من أفضل وأکرم القیم الأخلاقیة وخاصة للرؤساء والمدراء والأولیاء علی العوائل حیث یتسبب فی تکاملهم المعنوی وقوّة مدیریّتهم وجذب القلوب إلیهم وبالتالی بإمکانه أن یحل لهم الکثیر من المشکلات ویهوّن علیهم المصاعب، أمّا بالنسبة إلی أهمیّة هذه الفضیلة الأخلاقیة فنختار فی هذا المضمون عدّة روایات واردة فی هذا الباب: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَلا اخبِرُکُم بِأشبَهَکُم بِی أَخلاقاً؟ قالُوا: بَلی یا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: أَحسِنَکُم أَخلاقاً وَأَعظَمَکُم حِلماً وَأَبَرَّکُم بِقَرابَتِهِ وَأَشَدَّکُم إنصافاً مِنْ نَفسِهِ فِی الغَضَبِ وَالرِّضا» «۱». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً قوله: «ما جُمِعَ شَیٌّ إلی شَیٍّ أَفضَلَ مِنْ حِلمٍ إلی عَلمٍ» «۲». ۳- وورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «أَشجَعُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ الجَهلَ بِالحِلمِ» «۳». ویشبه هذا المعنی ما ورد أیضاً عن الإمام علیه السلام أنّه قال: «أَقوَی النّاسِ مَنْ قَوی عَلی غَضَبِهِ بِحِلمِهِ» «۴». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أنّه قال: «إنَّ أَفضَلَ أَخلاقِ الرِّجالِ الحِلمُ» «۵». ۵- وفی حدیث شیّق عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إنَّ المُؤمِنَ لَیُدرِکَ بِالحِلمِ واللِّینِ دَرَجَةَ العابِدِ المُتَهَجِّدِ» «۶». وهذا تعبیر فی الحدیث الشریف یبیّن بوضوح أنّ الحلم وضبط النفس یعدّ من العبادات الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۳ المهمّة فی دائرة القرب الإلهی. ۶- وجاء فی حدیث آخر عمیق المعنی عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «مِنْ أَحَبِّ السَّبِیلِ إلی اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جُرعَتانِ جُرعَةَ غَیظٍ تَرُدُها بِحِلمٍ وَجُرعَةُ مُصِیبَةٍ تَرُدُّها بِصَبرٍ» «۱». ۷- وسمع الإمام علی علیه السلام یوماً رجلًا یشتم خادمه قنبر وکأنّ قنبر أراد أن یجیبه فقال له الإمام: «مَهلًا یا قَنبَر، دَع شاتِمَکَ، مُهاناً، تَرضی الرَّحمنَ، وَتُسخِطُ الشَّیطانَ، وَتُعاقِبُ عَدوَّکَ،، فَوَ الَّذِی خَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرءَ النَّسَمَةَ ما أَرضی المُؤمِنُ رَبَّهُ بِمِثلِ الحِلمِ، وَلا أَسخَطَ الشَّیطانَ بِمِثلِ الصَّمتِ، وَلا عُوقِبَ الأَحمَقُ بِمِثلِ السُّکُوتِ عَنهُ» «۲». ۸- وورد عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ کَظَمَ غَیظاً وَهُوَ قادِرٌ عَلی إنفاذِهِ وَحَلُمَ عَنهُ أَعطاهُ اللَّهُ أَجرَ شَهیدٍ» «۳». ۹- وورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام أنّ أباه علی بن الحسین علیه السلام قال: «إنَّهُ لَیُعجِبُنِی الرَّجُلُ أَنْ یُدرِکُهُ حِلمُهُ عِنَدَ غَضَبِهِ». ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام (رغم وجود روایات کثیرة فی هذا الباب) ورد فی هذا الحدیث عن حفص ابن أبی عائشة قال: بعث أبو عبداللّه علیه السلام (الصادق) غلاماً له فی حاجة فأبطأ، فخرج أبوعبداللّه علیه السلام علی أثره لمّا أبطأ، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه یروّحه حتّی انتبه، فلمّا تنبّه قال له أبو عبداللّه: «یا فلان واللَّهِ ما ذَلِکَ لَکَ، تَنامُ اللّیلَ وَالنَّهارِ، لَکَ اللّیلُ وَلَنا مِنکَ النّهارُ» «۴». هذا السلوکالممعن فی المحبّة والتواضع والحلم للإمام علیه السلام یمکنه أن یکون اسوة للأشخاص الذین یعیشون حالة الغضب والحدّة وأنّهم فی مثل هذه الموارد علیهم أن یسدلوا الستار علی غضبهم ویسلکوا طریق الحلم وضبط النفس. وهنا ینبغی استعراض بعض الامور المهمّة فی هذا الباب: ۱- إنّ الحلم وضبط النفس له آثار إیجابیة کثیرة فی حیاة الناس علی المستوی الفردی والاجتماعی، ومن ذلک: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۴ إنّه یحفظ الإنسان من أخطار الغضب التی قد تدمّر حیاته وتجعله یعیش الندم إلی آخر عمره. والآخر أنّ الحلم یورث الإنسان العزّة وقوّة الشخصیة والشرف، لأنّ جمیع الناس یرون أنّ الحلم وضبط النفس فی مقابل الأشخاص الجهلاء والحاقدین دلیل علی عظمة النفس وقوّة الشخصیة ورجحان العقل، ولذلک ورد فی بعض الروایات عن الإمام علی علیه السلام أنّه قال: «مَن حَلُمَ سادَ» «۱». مضافاً إلی ذلک أنّ الحلم فی مقابل الجهلاء یتسبب فی أنّ الناس یهرعون لنصرة الحلیم ضدّ الجاهل، ولهذا ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «إنَّ أَوّلُ عِوَضِ الحَلیمِ مِنْ خِصلَتِهِ أَنَّ النَّاسَ کُلُّهُم أَعوانُهُ عَلی خَصمِهِ» «۲». ومضافاً إلی أنّ الحلم یورث الإنسان العزّة وماء الوجه فی حین أنّ الغضب العجین بالجهل یتسبب فی إراقة ماء الوجه وهتک حرمة الإنسان، کما ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ما عَزَّ اللَّهُ بِجهلٍ قَطُّ وَلا أَذَلَّ بِحلمٍ قَطُّ» «۳» والخلاصة أنّ فضیلة الحلم وضبط النفس وسعة الصدر لها برکات وإیجابیات کثیرة فی حیاة الإنسان، وأفضل ما قیل فی هذا الباب ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «فَأَمّا الحِلمُ فَمِنهُ رُکُوبُ الجَمِیلِ، وَصُحبَةُ الأَبرارِ، وَرَفعٌ مِنَ الضِّعَةِ، وَرَفعٌ مِنَ الخَساسَةِ وَتَشَهّی

الخَيرِ، وَيُقَرِّبُ صاحِبَهُ مِنْ مَعالِي الدَّرَجاتِ، وَالعَفوَ وَالمَهلِ وَالمَعرُوفِ والصَّمتِ، فَهذا ما يَتَشَعَّبُ لِلعاقِلِ بِحِلمِهِ» «۴». ۲- إنّ الحلم وضبط النفس حاله حال سائر الصفات الأخلاقية للإنسان من حيث الدوافع والأسباب المتعددة التى تقود الإنسان باتّجاه هذه الفضيلة، ويمكننا استعراض بعض هذه الأسباب والدوافع: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۵ الف) إنّ التسلط على النفس وضبط القوى والنوازع النفسية يتسبب فى أن يصمد الإنسان أمام المصاعب والأزمات فلا ينهار أمامها، وبالتالى لا يخضع أمام قوّة الغضب والانفعال، كما ورد عن الإمام على عليه السلام فى تعريف الحلم الإشارة إلى هذا المعنى حيث قال: «كَظمُ الغيظِ ومِلكُ النَّفسِ» «۱». ونفس هذا المعنى ورد أيضاً عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام «۲». ب) ومن الامور التى تمنع الإنسان من الانهيار والخضوع أمام الغضب وتقوّى فى واقعه فضيلة الحلم هوعلو الطبع وعلو الهمّة وقوّة الشخصية فى الإنسان والتى لا تدعه يواجه الغضب والحدّة من موقع الانفعال ويسلك سلوك الجهلاء كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «الحِلمُ وَالأَناةُ تَوأَمانِ يَنتُجُهُما عُلوُ الهِمَّةِ» «۳». ج) ومن الأسباب الاخرى فى تقوية هذه الفضيلة الأخلاقية فى واقع الإنسان وقلبه هوالإيمان باللّه تعالى والتوجّه إلى الذات المقدّسة من موقع الذوبان فى صفاته وأسمائه الحسنى ومنها صفة الحلم الإلهى مقابل العصاة والمجرمين من عباده كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الحِلمُ سِراجُ اللَّهِ يَستَضىء بِهِ صاحِبُهُ إلى جَوارِهِ وَلا يَكُونُ حَليماً إلّا المَؤيَّدُ بِأَنوارِ اللَّهِ وَبِأَنوارِ المَعرِفَةِ وَالتَّوحِيدِ» «۴». د) ومن العوامل الاخرى لتفعيل هذه الفضيلة هو مطالعة آثارها الإيجابية ونتائجها الحميدة على حياة الإنسان وكذلك مطالعة الآثار السلبية للغضب والحدّة بإمكانه الحدّ من قوّة هذه الحالة النفسية والتقليل من أضرارها، كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «الحِلمُ نُورُ جُوهَرَةُ العَقلَ» «۵». وقال عليه السلام أيضاً فى حديث آخر: «بِوُفُورِ العَقلِ يَتَوَفَّرُ الحِلمُ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۶ ونقرأ أيضاً فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «عَلَيكَ بِالحِلمِ فَإِنَّهُ ثَمَرَةُ العِلمِ» «۱». ۳- موارد الاستثناء، رغم أنّ الحلم يعدّ من الفضائل الأخلاقية البارزة فى حياة الإنسان وسلوكه، ولكن هناك بعض الموارد فى حركة التفاعل الاجتماعى لا يكون فيها الحلم فضيلة أخلاقية، ومثل هذه الاستثناءات موجودة فى سائر الفضائل الأخلاقية أيضاً، مثلًا فى الموارد التى يتسبب فيها الحلم وضبط النفس زيادة الجرأة لدى الجهلاء والمتعصبين الذين يستغلون الخُلق السامى لدى الطرف الآخر فيتعاملون معه من موقع العقدة والخصومة وزيادة العدوان، فهنا يكون الحلم غير مؤثّر فى التأثير على الجاهل الجاهل بل ينبغى استعمال طرق اخرى لإسكاته وكبح جماحه وردعه عن غيّه. وكذلك فى الموارد التى يؤدّى فيها الحلم إلى الإضرار بالمجتمع أو بالمذهب والدين فهنا من الخطأ استخدام صفة الحلم وسعة الصدر والسكوت. وكذلك من الموارد الاخرى هو ما إذا كان سلوك طريق الحلم يحسب من علامات الضعف والذلّة فى صاحبه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۷

العفو والانتقام

تنويه:

إنّ من أكبر الفضائل الأخلاقية التى لا يصل الإنسان إلى مراتب الكمال بدونها هى صفة العفو والصفح عند القدرة على الردّ العملى على الطرف المقابل وترك الانتقام منه. إنّ الكثير من الناس يعيشون حالة الحقد الكامن فى قلوبهم وأعماقهم وينتظرون الفرصة السانحة للانتقام من عدوّهم والظفر به، فلا يتحرّكون فى خط الرد بالمثل وجواب السيئة بالسيئة فقط، بل يردون السيئة الواحدة بأضعافها من السيئات والأعمال الانتقامية، والأسوأ من الجميع أنّ هذه الصفة الرذيلة تتجلّى بمظهر الصفة الحسنة التى تبعث على الفخر والاعتزاز فيقول الإنسان إننى قد ظفرت بعدوّى وأذقته العذاب الشديد وفعلت معه كذا وكذا. إنّ التاريخ البشرى ملىء بحالات الانتقام والقسوة من قبل السلاطين والامراء ورؤساء القبائل لأقوامهم أو لأقوام اخرى من أعدائهم. والعجيب هو أنّ حالات الانتقام هذه تتشابك مع بعضها بصورة سلسلة وحلقات متوالية، فعلى سبيل المثال أنّ إحدى القبائل تقوم بقتل شخص من القبيلة الاخرى، فتقوم

قبیلة المقتول عند توفّر الفرصة بالثأر لنفسها وتقتل خمسین شخصاً من القبیلة الاخری وهکذا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۸ یستمر النزاع والصراع وسفک الدماء. إنّ أشکال النهب والسلب وهتک النوامیس والأعراض والقتل الفجیع فی التاریخ البشری معلول لهذه الصفة الخبیثة والذمیمة فی أعماق البشر وتمتد إلی ذواتهم الحیوانیة وعناصر الشر فیهم. وبعکس ذلک ما نجده فی سیرة الأنبیاء والأولیاء هو أنّهم عندما تسنح لهم الفرصة ویتغلّبون علی عدوهم فإنّهم یتحرّکون من موقع العفو والصفح عن جرائمه السابقة وبذلک یعملون علی تبدیل أشدّ الأعداء إلی أقرب الأصدقاء. إنّ مثل هذه الشخصیات الفذّة فی التاریخ البشری لا یعیشون حالة الرغبة فی الثأر لأنفسهم والانتقام من عدوّهم وغسل الدم بالدم (إلّا فی الموارد الاستثنائیة) والردّ بالسیئة بمثلها، بل علی العکس من ذلک کانوا یتحرّکون ما أمکنهم علی مستوی جواب السیئة بالحسنة، لأنّ هدفهم تربیة النفوس وتهذیبها والسیر بها فی خط الصلاح والإیمان والهدایة لا- فی خط الانتقام، ولذلک کانوا یهدفون إلی إطفاء الفتنة لا إشعال نار جدیدة. ولکن من الیقین أنّ مثل هذا السلوک الإنسانی لا- یتسنی من أیّ شخص کان، بل یختص به الأشخاص الذین یعیشون الإیمان والتقوی والتسلّط علی النفس فی أعلی مستویاته، إنّه عمل الأشخاص الذین یعیشون الفضیلة والأخلاق السامیة، وإلّا فانّ من یعیش التوحش والقساوة فی قلبه لا یعرف سوی الانتقام ولا یفتخر إلّابالثأر لنفسه. وأمّابالنسبة إلی الآیات القرآنیة والروایات الإسلامیة فنجدها ملیئة فی بیان فضیلة العفو والصفح وذم روح الانتقام والثأر، والشاهد علی ذلک ما نقرأه فی سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام فی هذا الباب، ونموذج لذلک ما ورد فی قصّة فتح مکّة والعفو العام الذی أصدره النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عن أعدائه الشرسین والحاقدین. ومع هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته دروساً فی العفو والصفح أو ما ورد فیه من ذم غریزة الانتقام والثأر (والجدیر بالذکر أنّ مفردة (الانتقام) لم ترد فی القرآن الکریم بالمعنی المذکور آنفاً، بل بمعنی العقاب الإلهی، ولذلک فکل مورد وردت فیه هذه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۹ الکلمة فإنّه یراد بها ما ینسب إلی اللّه تعالی من العقاب علی المجرمین ولا یرتبط ببحثنا الحاضر): ۱- «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ» «۱». ۲- «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۲». ۳- «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» «۳». ۴- «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» «۴». ۵- «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» «۵». ۶- «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۶». ۷- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .۸- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۸». ۹- «إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً» «۹». ۱۰- «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» «۱۰».

تفسیر واستنتاج:

تتعرض «الآیة الاولی» من الآیات محل البحث إلی الحدیث عن مسألة المقابلة بالمثل وجزاء السیئة بالسیئة وأنّ ذلک من حق المؤمنین (لکی لا یری المعتدی والمجرم نفسه فی أمن من العقاب) ثمّ أشارت الآیة إلی مسألة العفو والصفح وترک الانتقام وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ». ونظراً إلی أنّ سورة الشوری من السور التی نزلت بأجمعها فی مکّة المکرّمة، ونعلم أنّ المسلمین فی ذلک الزمان کانوا فی دائرة العدوان الواسع الموجّه إلیهم من قبل الأعداء المشرکین، ومع ذلک فالقرآن الکریم فی الآیة ۳۹ من هذه السورة یأمر المسلمین أن لا یستسلموا فی مقابل الظلم والعدوان، وعندما یواجهون حالة الظلم هذه فعلیهم أن یستمدّوا العون من إخوانهم ویتکاتفوا فیما بینهم لردع هذا العدوان، ثم یشیر فی الآیة ۴۰ إلی هذه الحقیقة، وهی أنّه لا- ینبغی أن یتحرّکوا من موقع

الانتقام والثأر بسبب ما يرونه من العدوان على بعض أصدقائهم ورفاقهم وبالتالى يتجاوزون الحدّ بالردّ بالمثل فيكونون فى صف الظالمين أيضاً، وعليهم كذلك أن يتخذوا العفو والصفح سلوكاً إنسانياً لهم فيما لو لم يترتب عليه آثار سيئة. أمّا المراد من كلمة (وأصلح) فى هذه الآية والتى وردت بعد كلمة العفو، فالمفسّرون ذهبوا إلى تفسيرات متعددة، فبعض ذهب إلى أنّ المراد من الإصلاح هوالإصلاح بين الإنسان وربّه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد به الإصلاح بين المظلوم والظالم حتّى لا تتكرّر هذه القضيّة بينهما مرّة اخرى، وذهب ثالث إلى أنّ المراد به هو إصلاح النفس وتطهيرها من أدران الانتقام وشوائب الغضب والتوتر الذى تفرضه حالات الصراع مع الطرف الآخر، وذهب بعض إلى أنّ معناه ترك القصاص. ولا يبعد أن يراد بهذه الكلمة جميع هذه المعانى التى ذكرت فى تفسيرها، وعلى أيّة حال فإنّ الآية تبيّن بوضوح هذه الحقيقة، وهى أنّ العفو والإصلاح الذى يأتى بعده بإمكانه أن يقلع جذور الحقد من قلوب الناس، وعبارة (فأجرُهُ عَلى اللَّهِ) بشكل مطلق وبدون تعيّين الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۱ حدود لهذا الأجر حتّى الجنّة أيضاً يدلّ على أنّ هذا الأجر والثواب إلى درجة من العظمة والسعة أنّه لا يعلم مقداره إلّااللّه تعالى. أمّا «الآية الثانية» فناظرة إلى حادثة الإفك التى وقعت فى صدر الإسلام، يعنى ما قام به بعض المنافقين من إتّهام إحدى زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بما ينافى العفة ولغرض الخدشة فى شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وموقعيّة الإسلام، فتشير الآية الشريفة إلى أنّ مسألة العفو والصفح مطلوبة فى كل الأحوال حتّى تجاه المذنبين والملوّثين، لأنّ هذه الآية نزلت عندما أقسم بعض الصحابة بعد قضية الإفك أنّهم لن يساعدوا أى شخص من الأشخاص الذين اشتركوا فى هذه الواقعة، فمنعتهم عن استخدام أدوات العقاب وأمرتهم بالعفو والصفح تجاه هؤلاء الخاطئين وقالت: «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ». ثمّ تضيف الآية: إنّ على المؤمنين أن يسلكوا طريق العفو والصفح وتقول: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، فى حين أنّكم تأملون من اللّه الرحمة والمغفرة، فكذلك عليكم أن تسلكوا هذا الطريق تجاه الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فيغفر لكم أيضاً ويرحمكم. والملاحظة الملفتة للنظر هنا أنّ قضية الإفك كانت بمثابة مؤامرة خطيرة استهدفت الإسلام وشخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث تبنّى هذه المؤامرة جماعة من المنافقين، ولكنّ بعض المسلمين الغافلين إنخدعوا بهذه الحيلة وتورّطوا فى هذا الإثم، ورغم ذلك فالقرآن الكريم يوصى المؤمنين بالعفو والصفح عن هؤلاء الغافلين الذين تورّطوا بهذه المؤامرة من موقع الجهل لا ـ من موقع الخبث والحقد والنفاق، وعليه فبالنسبة إلى المسائل الشخصية والامور الخاصة بالأفراد فالعفو يكون بطريق أولى. أمّا الفرق بين (العفو) و (الصفح) فيقول الراغب فى مفرداته، إنّ العفو بمعنى المغفرة والصفح ترك اللّوم والتوبيخ والذى هو مرحلة أعلى من العفو، لأنّه يمكن أن يعفو الإنسان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۲ عن الطرف المقابل إلّاأنّه لا يترك لومه وتوبيخه أو معاتبته، ولكن بما أنّ الصفح فى اللغة يعنى الإعراض بالوجه عن الإنسان المذنب فيمكن أن يكون إشارة إلى لزوم تناسى ذنب المذنب ووضعه فى زاوية الإهمال والغفلة ولا يكتفى بترك اللّوم فقط، أى أنّ لا يترتّب أى أثر سلبى على العلاقة بين الطرفين. وهنا ملاحظة مهمّة اخرى وهى أنّ هذه الطائفة من المؤمنين أقسموا على أن لا يمدّوا يد العون لجميع المتورّطين فى قضيّة الافك، أى أن قسمكم بالنسبة إلى مثل هذه الامور لا أثر له على مستوى العمل والممارسة لأنّه لا يقع فى دائرة التكليف بالنسبة إلى الامور الخيّرة. «الآية الثالثة» تأمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأوامر أخلاقية ثلاثة ويتّضح منها تكليف الآخرين أيضاً وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ». هذه التعليمات الثلاثة التى وردت فى الآية الشريفة بمثابة أوامر صادرة من اللّه تعالى إلى نبيّه الكريم باعتباره قائداً للُامّة واسوة حسنة لسائر المسلمين وبذلك توضّح فى مضمونها أهميّة العفو والصفح فى دائرة المسؤولية الملقاة على عاتق القادة الإلهيين، فالأمر الأوّل من هذه الأوامر الإلهية هو الأمر بالعفو والصفح، والأمر الثانى إشارة إلى أنّ على القائد أن لا ـ يحمّل الناس ما فوق طاقتهم وقدرتهم وأن لا ـ يطلب منهم سوى المعروف الممكن، وفى الأمر الثالث نجد التوصية بأهمال الكلمات اللامسؤولة الصادرة عن الجاهلين والمخالفين وعدم ترتيب الأثر على مزاحماتهم وما يرتكبونه تجاه أتباع الحق من ممارسات سلبية وكلمات شائنة. إنّ القادة الحقيقيين والسالكين طريق الحق يواجهون فى مسيرتهم الإلهية الكثير من الأفراد المتعصّبين والجاهلين

والمعاندین الذین لا یجدون فرصة فی الوقیعة بأصحاب الحق وإیجاد الأذی والضرر بهم إلّاواستغلّوها، فالآیة أعلاه وکذلک الکثیر من الآیات القرآنیة الاخری تؤکّد علی المؤمنین السالکین فی خط اللَّه والتقوی أن یجنّبوا أنفسهم الصراع مع هؤلاء وأنّ الأفضل لهم التعامل مع مثل هذه المسائل من موقع اللاّمبالاة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۷۳ والإهمال والإعراض، والتجربة العملیة تشیر إلی أنّ أفضل طریق لإیقاظ هؤلاء من غفلتهم وإطفاء نار غضبهم وصدهم وتعصّبهم هو هذه الطریقة فی التعامل معهم من موقع قوّة الشخصیة وکبر النفس. وقد ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه عندما نزلت هذه الآیة الشریفة سأل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله جبرائیل عن ذلک فقال: لا أدری حتّی أسأل العالم، ثمّ أتاه فقال: «یا مُحمَّد إنّ اللَّهَ یَأْمُرُکَ أنْ تَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَکَ وَتُعطِی مَنْ حَرَمَکَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَکَ» «۱». وینطلق الحدیث فی «الآیة الرابعة» لیخاطب جمیع المسلمین ویأمرهم بأنّهم إذا أرادوا التعامل بالمثل مع الأعتداء الموجّه من الآخرین ویعاقبوا علیه فعلیهم أن لا یتجاوزوا المقدار المشروع وهو مقدار المثل فقط لا أکثر، ولکنّهم إذا التزموا جانب البر والعفو والصفح فإنّ ذلک أفضل من الحل السابق وتقول الآیة: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصَّابِرِینَ». وقد ورد فی الروایات الشریفة أنّ هذه الآیة نزلت فی معرکة احد عندما نظر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله إلی جسد عمّه حمزة، وقد استشهد فی میدان المعرکة ومثّل به الأعداء القساة وشقّوا بطنه وأخرجوا کبده وقطعوا اذنه وأنفه، فلّما رأی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ذلک تأثّر کثیراً وبعد أن حمد اللَّه وأثنی علیه شکی له حاله وقال: «أَصبِرُ أَصبِرُ» «۲». والملفت للنظر أنّ الآیة التی تلیها تقول: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُکَ إِلَّا بِاللَّهِ» وهی إشارة إلی أنّ علی الإنسان الذی یعیش هذه اللّحظات الألیمة وتستولی علی وجوده سحابة من الحزن والهم بسبب ما یواجهه من عدوان القساة وجرائمهم فإنّ علیه أن یلتحف بالصبر والصفح رغم أنّها حالة صعبة وعسیرة لا یستطیعها الإنسان إلّابمدد من اللَّه تعالی ومعونته. وبالطبع فإنّ السماح بالردّ بالمثل الوارد فی أوّل الآیة الشریفة یعود إلی أصل قتل العمد، الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۷۴ ولکن بالنسبة إلی المثلة والتی هی عمل غیر إنسانی وصادر من روحیّة ملّوثة فإنّ المقابلة بالمثل لا تجوز فی هذه الحالة، وهذا المعنی وردبصراحة فی الروایات الإسلامیة التی تؤکّد عدم جواز المثلة حتّی بالکلب العقور، فحتّی لو استفید من الآیة الشریفة جواز المثلة «۱» فإنّه یکون المراد منها بمعونة الروایات الصریحة هو أصل القتل فقط لا المثلة، وذهب بعض المفسّرین إلی أنّ مسألة الانتقام بالأکثر من الحد الشرعی والتهدید بالمثلة لم یکن صادراً من النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، بل من المسلمین، وعمومیة الخطاب فی الآیة الشریفة تؤیّد هذا المعنی وأنّ هذا التصمیم صدر من المسلمین لا من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. وتأتی «الآیة الخامسة» لتتحدّث إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وتأمره بما فوق العفو والصفح وتقول: «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا یَصِفُونَ». أمّا «الآیة السادسة» فتؤکّد هذا المعنی أیضاً بعبارة اخری تقول: «وَلَا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَلَا السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ». ونقرأ فی الآیة ۲۲ من سورة الرعد عندما تستعرض صفات اولوا الألباب والعقول أنّ إحدی صفاتهم هی: «وَیَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ» وهذا التعبیر یمکن أن یکون إشارة إلی أنّ هؤلاء یتحرّکون علی مستوی جبران أخطائهم وذنوبهم بالحسنات وأعمال الخیر، وکذلک یمکن أن تکون إشارة إلی أنّ هؤلاء یجیبون الإساءة الموجّه من الغیر بالإحسان من جهتهم ولا یردّون بالمثل علی الطرف الآخر لکی یوقظوا عناصر الخیر فی وجدان الطرف الآخر ویجعلونه یعیش الندم علی ما صدر منه تجاههم. ویحتمل أیضاً فی تفسیر هذه الآیة أن یکون کلا المعنیین مراداً لها «۲». ویستفاد من هذه الآیات الثلاثة جیداً أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وکذلک المؤمنین مأمورون الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۷۵ بتجاوز حالة العفو والصفح والصعود إلی مرتبة أرقی منها ورد السیئة بالحسنة وهو العمل الذی لا یتیسّر من أی شخص کان، ولهذا فإنّ الآیة التی بعدها تقول: «وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ». وفی الحقیقة فإنّ مقابلة السیئة بالحسنة عمل ثقیل جدّاً لا یستطیع النهوض به إلّامن اوتی القدرة علی النهوض بالأعمال الخیّرة المهمّة، والذین یعیشون الإیمان والتقوی والقیم الإنسانیة بالمستوی الأعلی. والملفت للنظر أنّ سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام طافحة بمثل هذه النماذج من السلوکیات الأخلاقیة والإنسانیة حتّی أنّه أحیاناً یؤدّی سلوکهم الإنسانی هذا إلی انقلاب الطرف الآخر

من موقع الشر والعداوة إلى موقع الخير والمحبّة، والتجارب العملية الكثيرة تشير إلى التأثير الكبير لهذه الأعمال الأخلاقية فى دائرة السلوك الإنسانى والعلاقات الاجتماعية. وتتعرض «الآية السابعة» إلى الحديث عن مسألة القصاص والتى تعدّ أحد الأحكام الاجتماعية المهمّة للإسلام والتى تضمن حقوق الناس وتحفظ لهم أنفسهم ودمائهم من أشكال العدوان بحيث أنّ القرآن الكريم يعبّر عن القصاص بكلمة «الحياة» ولكنّه فى نفس الوقت يفضّل عليه العفو والصفح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى». وبعد أن تذكر الآية موارد القصاص بالمثل تقول: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ». فلو أنّ القصاص تبدّل إلى الدية فعلى الطرف الآخر أن يتّخذ سبيل المعروف فى عملية أداء الدية إلى ولى المقتول، وهذا المعنى بمثابة التخفيف والرحمة من اللّه تعالى للناس. وفى ختام الآية صرح القرآن الكريم أنّ بعد العفو والصفح أو تبديل القصاص إلى الدية لا حقّ فى الرجوع فى ذلك وممارسة سلوك العدوان والقساوة وقتل القاتل عند القدرة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۶ والاستطاعة، وتحذّر المسلمين من هذا الموقف الخطير وتقول: «فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأنّ بعد العفو عن القاتل أو تبديل القصاص بالدية فإنّ ذلك يعنى إغلاق الطريق تماماً عن العودة وبذلك يسقط حق القصاص تماماً، وعليه يكون الانتقام من القاتل بمثابة القتل العمد الذى يترتب عليه العقوبة فى الشريعة الإسلامية. وهذه الآية تضع القاتل بين الخوف والرجاء، فمن جهة تفتح عليه باب القصاص حتى لا يتجرأ أحد على تلويث يده بدماء الأبرياء خوفاً من القصاص، ومن جهة اخرى فإنّها قد فتحت باب العفو ثم حذّرت من الانتقام بعده ولتقف حائلًا فى طريق الخشونة والعدوان اللّامسؤول من بعض الجماعات المتطرفة والمنفعلة، وهذا هو منتهى التدبير والحكمة فى هذه المسألة الاجتماعية المهمّة. والتعبير بكلمة (أخيه) فى الآية المذكورة يشير إلى أنّه حتى لو وقعت حادثة قتل بين المسلمين فإنّ ذلك لا يعنى قطع رابطة الاخوّة بينهم، وفى صورة عدم وجود ضرورة للقصاص فلا ينبغى إتّخاذه سبيلًا لحلّ الأزمة، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الإسلام يرجّح العفو على القصاص ويتحرّك من موقع تفعيل الشعور بالمحبّة والاخوّة لدى الأولياء بدلًا من ورح الثأر والانتقام. وقد ورد هذا المضمون فى رواية عن ابن عباس أيضاً «۱». وكذلك عبارة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» تدلّ مرّة اخرى على المفهوم القرآنى فى ترجيح العفو والصفح على القصاص أو تبديله بالدية. وفى «الآية الثامنة» نقرأ خطاباً لجميع المؤمنين فى دائرة الاختلافات والنزاعات العائلية حيث تقول الآية محذّرة للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۷ وهذه العداوة يمكن أن تتجسد فى السلوك العملى للشخص بطرق مختلفة، فمثلًا تتجلّى العداوة فى البعد المعنوى كأن تمنع الزوجة أولادها المسلمين من الهجرة إلى المدينة فى عصر البعثة، أو استعمال أساليب الضغط النفسى لعدم الوصية ببعض التركة والميراث إلى أعمال الخير وما ينفع الإنسان فى آخرته أو تعرض الإنسان لبعض الأذى وتحميل الظروف الصعبة من قبل الزوجة المشاكسة أو الأبناء المنحرفين ولكن الآية الشريفة تصرّح فى ذيلها بأنّ العفو والصفح أفضل وتقول: «وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ولا شك أنّه لولا وجود العفو والصفح فى أجواء العائلة من قبل الأب والولى على امور الأهل والأطفال أو كان كل فرد من أفراد الاسرة يتحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الانتقام وأخذ الحق والمقابلة بالمثل، فإنّ هذه الأجواء الاسريّة ستتحوّل إلى جهنّم ومحرقة يعيش فيها الأفراد القلق والاضطراب الدائم وعدم الأمن والراحة وبالتالى يتسبب ذلك فى إنهدام العائلة وتلاشيها. والملفت للنظر أنّ اللّه تعالى يذكر فى هذه الآية الشريفة بصراحة أنّ العفو فى المرتبة الاولى ثم الصفح بعده، ويذكر فى ذيل الآية بشكل ضمنى الأمر مرّة اخرى بالمغفرة لأنّه يقول: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» أو إذا تحركتم أنتم من موقع العفو والصفح والمغفرة فستكونون مشمولين لعفو اللّه تعالى ومغفرته أيضاً. أمّا الفرق بين العفو والصفح والغفران «۱»، فالظاهر أنّ العفو هو المرتبة الاولى فى عملية التعامل بالحسن فى مقابل العمل السيء ويعنى ترك الانتقام وردّ الفعل المماثل، وأمّا الصفح فيعنى الإعراض عن السيئة وعدم الاعتناء بها وكأنها لم تكن، وأمّا الغفران فيعنى التغطية على آثار الخطيئة والذنب بحيث ينساها الناس، وهذه آخر مرحلة من مراحل مقابلة السيئة والتعامل معها بالطريقة الإيجابية، وهى أفضل مقامات الإنسان المؤمن فى مقابل خطأ الآخرين وسيرتهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۸ وفى «الآية التاسعة» نجد أنّ

العفو والصفح ذكرا إلى جانب أعمال الخير الاخرى وأنّ اللّه تعالى وعد بالعفو أيضاً فى مقابل ذلك العمل فتقول: «إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً». وعليه فلا ينبغى أن يتصوّر الإنسان أنّ الانتقام عند القدرة سيجلب له الفخر والعزّة، فالفخر هو أن يتحرّك الإنسان فى هذه الموارد من موقع ضبط النفس وتحريك عناصر الخير فى أعماقه والمقابلة بالعفو والصفح فيما إذا كان العفو فى موقعه ولم يثر فى نفس الطرف الآخر عناصر الشر أو سو الظن. وتتعرض «الآية العاشرة» والأخيرة من الآيات محل البحث إلى موقف النبى من المشركين وتوصيته بأن يتخذ الصبر جلباباً فى مقابل أذى المشركين وعدوان المعاندين والمخالفين وتقول: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا». ومعلوم أنّ أحد الوسائل فى عملية التصدّى للرسالة والدعوة الإلهية وما كان يمارسه المشركون والأعداء تجاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو أنواع الهتك والإهانة والشتم والأذى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بحيث كان يشتد على قلب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك أحياناً، ولكن مع ذلك فإنّ اللّه تعالى يوصيه بالتزام الصبر والمداراة وغض الطرف عن ذلك الواقع المؤلم وأن يهجرهم هجراً جميلًا. والمراد ب (الهجر الجميل) هو الهجران المقترن بالمحبّة وحسن الخلق والتأسف على حال هؤلاء الناس المشاكسين ودعوتهم إلى الحق والخير، وهذه هى إحدى الطرق التربوية فى مقابل الأفراد الذين يعيشون حالة الجهل والعناد فى مقابل الحق بحيث إذا تعامل معهم الإنسان بالمثل فإنّ ذلك من شأنه أن يزيدهم طغياناً وعناداً، ولذا أمرت الآية الشريفة أن يتّخذ الإنسان موقف اللامبالاة أمام أذاهم وكلماتهم اللامسؤولة، ولكن البعض تصوّر أنّ الأمر فى هذه الآية كان قبل نزول آية الجهاد التى نسخت هذه الآية واستبدلت العفو بالجهاد، وفى حين أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الجهاد له محل معيّن، والهجر الجميل له محل آخر. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۹ وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآية توصى بإتّخاذ سلوك العفو والصفح وخاصة فى مقابل الأشخاص الذين ينطلق لسانهم دائماً بالكلمات الوقحة واللّامسؤولة ولا يمتنعون عن أى كلام وقح وذميم، لأنّ الهجر الجميل لا يتحقّق بدون عملية العفو والصفح. وكما يقول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان أنّ هذه الآية بمثابة الخطاب لجميع الدعاة والمبلّغين فى كل زمان ومكان أن يلتزموا جانب ضبط النفس فى مقابل أذى المخالفين والأعداء ولا يستسلموا أمام حالات الانفعال لموقف الجهلاء وكلماتهم اللّامسؤولة ويقابلوهم بحسن الأخلاق والمداراة والإغماض «۱». وهكذا توضّح الآيات أعلاه والتى تخاطب أحياناً جميع المسلمين وأحياناً اخرى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعنوان قائد الامّة الإسلامية، المقام السامى للعفو والصفح من بين الفضائل الأخلاقية والمثل الإنسانية العليا فى مقابل الحوادث الصعبة وتحدّيات الواقع الاجتماعى غير الملائم، وتجعل من هذه الفضيلة الأخلاقية أساساً للتعامل الإسلامى بين أفراد المجتمع وحتى فى مقابل الأعداء والمخالفين فيما لو لم يترتب على العفو والصفح أثراً سلبياً.

العفو والانتقام فى الروايات الإسلامية:

أمّا فى دائرة الروايات الإسلامية فنجد لمسألة العفو وكونه من الفضائل الأخلاقية السامية وكذلك ذم الانتقام إنعكاساً كبيراً، فقد وردت عبارات مثيرة فى هذا الباب ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِذا كانَ يَومَ القِيامَةِ نادى مُنادٍ مَنْ كانَ أَجرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدخُلِ الجَنَّةَ فَيُقالُ مَنْ ذا الَّذِى أَجرُهِ عَلَى اللَّهِ فَيُقالُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۰ العافُونَ عَنِ النَّاسِ فَيَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسابٍ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال فى أحد خطبه: «ألا اخبِرُكُم بِخَيرِ خَلائِقِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ العَفوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَالإِحسانُ إِلى مَنْ أَساءَ إِلَيكَ، وَإِعطاءُ مَنْ حَرَمَكَ» «۲». فنرى فى هذا الحديث الشريف المرتبة السامية للعفو والصفح، وهو جواب السيئة بالحسنة وأنّ هذا المقام هومقام الأنبياء والأولياء والصلحاء من الناس. ۳- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «العَفوُ تاجُ المَكارِمِ» «۳». ونعلم أنّ التاج هو علامة العظمة والقدرة والعزّة وكذلك يستخدم كزينة ويوضع على أشرف موضع من بدن الإنسان وهوالرأس، وهذا التعبير الوارد فى الحديث الشريف يشير إلى أنّ العفو والصفح له مقام ممتاز من بين الفضائل الأخلاقية الاخرى. ۴- وورد فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال:

«شَیئانِ لایُوزَنُ ثَوابُهُما العَفوُ وَالعَدلُ» «۴». إنّ جعل العفو إلی جانب العدل فی الحدیث الشریف یوضّح من جهة أهمیّة العفو فی عملیة التفاعل الاجتماعی والمرتبة المعنویّة العالیة له، ومن جهة اخری یدلّ علی أنّه قرین العدل، لأنّ العدل مضافاً إلی أنّه سلوک الفرد فی خط الحق فإنّه یتسبب فی تقویة مفاصل النظام فی المجتمع، ولکن العفو بما هو فضیلة أخلاقیة یتسبب فی رفع الحقد والکراهیة واستبدالهما بالعواطف الإنسانیة والمحبّة فی العلاقات الاجتماعیة، وإقتران هذین العنصرین فی الدائرة الاجتماعیة یرفع کل أشکال الظلم والتعدّی علی حقوق الآخرین. ۵- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام فی وصفه لأشقی الناس: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۱ یَعفُ عَنِ الزَّلَّةِ وَلا یَستُرُ العَورَةَ» «۱». ۶- ونقرأ فی حدیث آخر أنّه جاء شخص من الأشقیاء إلی المأمون وکان المأمون قد عزم علی قتله، وکان الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام حاضراً فی ذلک المجلس فقال المأمون: «ما تَقُولُ یا أَبا الحَسَنِ، فَقالَ: أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لایَزیدُکَ بِحُسنُ العَفوِ إلّاعِزّاً فَعفی عَنهُ» «۲». وهکذا نجد أنّ المأمون قد عفی عن هذا الشخص الذی تجرّأ علی ارتکاب ما هو ممنوع (وباحتمال قوی أنّه ارتکب جرماً سیاسیاً). ۷- وجاء فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «قِلَّةُ العَفوِ أَقبَحُ العُیُوبِ وَالتَّسَرُّعُ إِلی الإنتِقامِ أَعظَمُ الذُّنُوبِ» «۳» ۸- وجاء فی نهج البلاغة فی الکلمات القصار عن أمیر المؤمنین علیه السلام قوله: «إذا قَدَرتَ عَلَی عَدُوکَ فَاجعَلِ العَفوَ عَنهُ شُکراً لِلقُدرَةِ عَلَیهِ» «۴». ونفس هذا المعنی ورد بصورة اخری ومن ذلک قوله: «العَفوُ زَکاةُ الظَّفَرِ» «۵». ۹- وورد فی حدیث الإمام أبو الحسن الرضا علیه السلام (أو الإمام الهادی علیه السلام) أنّه قال: «ما التَقَتَ فِئَتانِ قَطُّ إلّانَصَرَ اللَّهُ أَعظَمُهُما عَفواً» «۶» ۱۰- ونختم هذا البحث بحدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «دَعِ الإنتِقامَ فَإِنَّهُ مِنْ أَسوءِ أَفعالِ المُقتَدِرِ» «۷». ویستفاد من مجموع هذه الأحادیث الشریفة الأهمیّة الکبری التی یولیها الإسلام للعفو الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۲ والصفح وکذلک یتّضح قبح الحقد والانتقام والثأر، والأحادیث الشریفة فی هذا الباب کثیرة لا یمکننا استعراضها فی هذا المختصر.

أقسام العفو:

إنّ فضیلة العفو والصفح وترک الانتقام والثأر تعتبر أصلًا من الاصول الشرعیة والعقلیة الواردة فی الکتاب والسنة، ولکنّه لا یعنی عدم وجود الاستثناء فی بعض الموارد، بل هناک موارد یکون العفو والصفح فیها سبباً لجرّأة المجرمین والمنحرفین، ولا شک أنّه لا أحد یری فی العفو فی مثل هذه الموارد فضیلة أخلاقیة، بل إنّ حفظ نظام المجتمع والنهی عن المنکر والتصدّی لمنع وقوع الجریمة تقتضی عدم التساهل مع المجرم، وترک العفو فی مثل هذه الموارد، والعمل بمقتضی العدل وما یفرضه من العقاب علی المجرم. ولذلک ورد فی القرآن الکریم بالنسبة إلی المقابلة بالمثل فی الآیة ۱۹۴ من سورة البقرة إشارة إلی هذا المعنی حیث تقول: «فَمَنْ اعْتَدَی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَی عَلَیْکُمْ». وطبعاً هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة، وهو أنّ هذه الآیة فی مقام جواز القصاص العادل فقط ولا تدلّ علی الوجوب أو الاستحباب (وفی الاصطلاح أنّ الأمر هنا هو فی مقام توهّم الخطر والمنع). وعلی أیة حال فإنّ العفو والعقوبة لکل واحدة منهما محلّاً خاصاً لا ینبغی استخدام أحدهما مکان الآخر، فالعفو إنّما یکون فضیلة فیما لو کان الإنسان قادراً علی الإنتقام والمقابلة بالمثل وأنّه لو سلک طریق العفو لم یکن ذلک من موقع الضعف والتخاذل ولا یری الطرف الآخر أنّ هذا الموقف الإنسانی نقطة ضعف فی هذا الشخص، فمثل هذه الحالة للعفو تکون مفیدة وبنّاءة للطرفین، فإنّها بالنسبة إلی الطرف المظلوم والذی مکنته الظروف من الظالم یسبب فی صفاء قلبه وضبط جماح نفسه وسیطرته علی نوازعه وأهوائه النفسانیة، وکذلک یعتبر مفیداً للظالم المغلوب حیث یدفعه إلی إصلاح نفسه وتهذیبها وعدم تکرار ذلک العمل العدوانی. وقد نجد فی الأحادیث الإسلامیة أیضاً إشارة إلی هذا الاستثناء، ومن ذلک ما ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «العَفوُ یُفسِدُ مِنَ اللَّئِیم بِقَدرِ إِصلاحِهِ مِنَ الکَرِیم» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۳ ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام قوله: «العَفوُ عَنِ المُقِرِّ لاعَنِ المُصِرِّ عَفو» «۱». وأیضاً ورد فی الحدیث الشریف عن هذا الإمام علیه السلام أیضاً قوله: «جاز بِالحَسَنَةِ وَتَجاوَزَ عَنِ السَّیئَةِ ما لَم یَکُن ثَلماً فِی الدِّینِ

أو وَهناً فِی سُلطانِ الإسلامِ» «۲». ففی مثل هذه الموارد یجب التحرّک علی مستوی إلحاق الجزاء العادل بالمسیء. وجاء فی حدیث آخر عن الإمام زین العابدین علیه السلام فی تأیید هذا المعنی حیث قال: «حَقٌّ مَنْ أَساءَکَ أَنْ تَعفُوَ عَنهُ، وَإِنْ عَلِمتَ أَنَّ العَفوَ عَنهُ یضِرُّ إنتَصَرتَ قالَ اللَّهُ تَبارَکَ وَتَعالَی وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعدَ ظُلمِهِ فَاولَئِکَ ما عَلَیهِم مِنْ سَبِیلٍ» «۳». ولکن لا ینبغی أن یکون وجود هذا الاستثناء سبباً لسوء التصرّف فی بعض الموارد وأن یجعلها بعض الناس ذریعة للإنتقام فی مورد العفو بحجّة أنّ العفو هنا یتسبب فی زیادة الجرأة لدی المذنب والمجرم، بل ینبغی النظر بأخلاص وبعیداً عن حالات التعصّب إلی أصل العفو والصفح وموارد الاستثناء بدّقة کبیرة والعمل طبق هذه الموارد والاستثناءات. والجدیر بالذکر أنّ العفو فی دائرة إجراء الحدود والتعزیرات الشرعیة غیر جائز إلّافی بعض الموارد المنصوصة فی الروایات الإسلامیة، لأنّ إجراء الحد والتعزیر یعدّ من الواجبات الشرعیة فی مواردها.

الآثار الإیجابیة والثمار الطیبة للعفو والصفح:

رأینا أنّ العفو والصفح باعتبارهما من الفضائل الأخلاقیة التی وردت کثیراً فی الآیات والروایات الشریفة تجتمع فیها آثار إیجابیة ومعطیات حمیدة کثیرة فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة حیث یمکن بیان خلاصتها: ۱- إنّ سلوک طریق العفو والصفح یمکنه أن یبدّل العدو الشرس أحیاناً الی صدیق حمیم الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۴ وخاصة فیما لو کان متزامناً بالإحسان إلی الطرف المقابل، أی بالإجابة بالحسنة مقابل السیئة کما وردت الإشارة إلی ذلک فی الآیة ۳۴ من سورة فصلت. ۲- إنّ العفو والصفح یتسببان فی دوام الحکومات واستمرار القدرة السیاسیة بین ذلک الحاکم الذی یمارس العفو مقابل أعدائه حیث یقلل من حالة العداء والخصومة لدی مخالفیه ویزید من جماعة الأصدقاء والمحبّین، ونقرأ ذلک فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «عَفوُ المُلُوکِ بَقاءُ المُلکِ» «۱». ۳- إنّ العمل بمقتضی العفو والصفح یتسبب فی زیادة عزّة الشخص وتقویة مکانته وشخصیته فی المجتمع، لأنّ ذلک علامة علی قوة الشخصیة والشرف وسعة الصدر، فی حین أنّ ممارسة الانتقام والثأر یدلّ علی ضیق الافق وعدم التسلّط علی النفس وانفلات قوی الشر وتسلطها علی الإنسان، وقد جاء فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «عَلَیکُم بِالعَفوِ فَإِنَّ العَفوَ لایَزیدُ إلّا عَزّاً» «۲». ۴- إنّ العفو یقطع تسلسل الحوادث اللّاأخلاقیة فی واقع الناس من الحقد والبغضاء وکذلک السلوکیات الذمیمة والقساوة والجریمة، وفی الواقع فإنّ العفو بمثابة المحطّة الأخیرة التی تقف عندها کل عناصر الشرّ هذه فلا یتجاوزها، لأنّ الانتقام والثأر یتسبب من جهة إلی تسعیر نار الحقد فی القلوب ویدعوها إلی التعامل بقساوة أشد ویفعّل فیها الکراهیة وعناصر الخشونة، وهکذا یستمر الحال فی عملیة تصاعدیة، وأحیاناً یؤدّی الحال إلی نشوب معارک طاحنة بین طائفتین أو قبیلتین کبیرتین أو تسفک فی ذلک الکثیر من الدماء وتدمر الکثیر من الطاقات والأموال والثروات. وقد ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «تَعافُوا تَسقُطُ الضِّغائِنُ بَینَکُم» «۳». ۵- إنّ العفو یتسبب فی سلامة الروح وهدوء النفس وسکینة القلب وبالتالی یتسبب فی طول العمر کما ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ کَثُرَ عَفوُهُ مُدَّ فِی عُمرُهُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۵ وبالطبع فما ذکرنا أعلاه هو من قبیل الآثار الإیجابیة الدنیویة والبرکات الاجتماعیة للعفو والصفح، وأمّا النتائج المعنویة والأجر والثواب الاخروی فأکثر من ذلک بکثیر، ونکتفی فی هذا المعنی بحدیث عن أمیرالمؤمنین صلی الله علیه و آله یقول فیه: «العَفوُ مَعَ القُدرَةِ جُنَّةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ سُبحانَهُ» «۱». وأمّا أسباب ودوافع الانتقام والثأر فکثیرة أیضاً ومنها ضیق الافق والصدر وعدم النظر إلی المستقبل، والحسد والحقد، وضعف النفس، واتباع الهوی والکثیر من الصفات الذمیمة الاخری التی تدفع کل واحدة منها أو بضمّها إلی الاخری الإنسان إلی السقوط فی نار الانتقام وحالة الردّ بالمثل للتشفی والأخذ بالثأر، وبالتالی زیادة النزاعات والصراعات بین الأفراد ممّا یفضی أخیراً إلی هدم نظام المجتمع وتلف الأموال والأنفس وهدر الطاقات والإمکانات للمجتمعات البشریة.

طرق علاج الانتقام وکسب فضیلة العفو:

إنّ أفضل الطرق لعلاج صفة الانتقام الرذيلة والصعود إلى أوج العزّة والكرامة باكتساب فضيلة العفو والصفح يكمن فى الدرجة الاولى بالتفكر السليم حول معطيات وآثار كل واحد من هاتين الصفتين الأخلاقيتين، فعندما يرى الإنسان ما فى العفو والصفح من البركات والمواهب والمعطيات الدنيوية والاخروية وكيف أنّه يتسبب فى زيادة مكانته وعلو قدره وعزّته فى نظر الخلق والخالق ويريح الإنسان من الكثير من المشكلات والمصاعب فيفتح له أبواب الحياة الكريمة ويثير المحبّة له فى قلوب الناس، فى حين أنّ الانتقام والردّ بالمثل أحياناً يؤدّى إلى انهدام عناصر الخير فى حياة الإنسان ويعرّض نفسه وماله وسمعته إلى الخطر الأكيد، فحينئذٍ إذا قارن الإنسان بين هذه المعطيات الإيجابية والسلبية للطرفين فإنّه سيأخذ جانب العفو قطعاً ويرجّحه على جانب الانتقام ويستمر فى سلوك هذا الطريق حتّى تحصل لديه ملكة أخلاقية لفضيلة العفو والصفح. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۶ ومن جهة اخرى فعندما يتأمل الإنسان فى جذور الحالة السلبية للإنتقام والدوافع النفسية التى تثير هذه الحالة فى نفسه فإنّه سيتحرّك حتماً نحو علاجها والحد من شرّها وبذلك يتسنى له القضاء على المعلول فى القضاء على علّته، فيتبدّل الحقد والكراهية وحبّ الانتقام إلى الاخوة والمحبّة والعفو والصفح. وبهذا نأتى على ختام بحثنا فى فضيلة العفو والصفح وكذلك رذيلة حبّ الانتقام والثأر والردّ بالمثل رغم وجود مسائل كثيرة لم يسع المقام لذكرها.

الغيرة وعدم الغيرة

تنويه:

إنّ (الغيرة) وردت فى الروايات الإسلامية والنصوص الدينية بعنوان أنّها فضيلة أخلاقية مهمّة، وهى فى الأصل بمعنى الدفاع الشديد عن العرض والناموس أو المال والدين والمذهب والوطن وأمثال ذلك، وخاصة أنّ هذه المفردة وردت فى موارد يكون فيها الحق مختصّاً بشخص معيّن أو جماعة، ويريد الآخرون التعرّض لهذا الحق وسلبه من صاحبه أو أصحابه، فيقوم الطرف الآخر بالدفاع الشديد عن حقّه. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الصفة إذا تحلّى بها الإنسان وسلك بها طريق الاعتدال فإنّها تعدّ فضيلة كبيرة فى دائرة الأخلاق والقيم الإنسانية، فما أعظم حالًا من أن يقوم الإنسان بالتصدّى ومنع الأجنبى عن التخطى إلى حريم عرضه أو وطنه ويقف فى مقابل هذا العدوان ويدافع عن حقّه إلى حدّ الموت. ومع الأسف فإننا نعيش فى العالم المعاصر الذى إفتقد كثيراً من القيم الأخلاقية واستولت عليه الكثير من الانحرافات الأخلاقية فى دائرة الاسر والعوائل الخاصة، ولاسيما ما نجده فى العالم الغربى من الإرتباط اللّامشروع بين النساء والرجال بحيث نسيت هذه الصفة الأخلاقية، بل إنّها وصلت لدى البعض إلى حالة معاكسة فأصبحت مخالفة للقيم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۸ والاصول الأخلاقية واعتبرت من قبيل التعصّبات العمياء والأنانية، وهذا يعدّ بذاته فاجعة كبيرة على المستوى الأخلاقى والثقافى، فى حين أنّ الإنسان والمجتمع البشرى لا يستطيع أن يتحرّك باتّجاه حماية الأخلاق والقيم والمبادىء الدينية والاجتماعية بدون عنصر الغيرة. وفى هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دورساً وعبراً فى هذه المسألة المهمّة والأساسية فى حياة الإنسان الاجتماعية: ۱- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا* سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» «۱». ۲- «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ» .۳- «... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» «۳».

تفسير واستنتاج:

تتحدّث «الآية الاولى» من الآيات محل البحث عن ثلاثة طوائف من الفئات الشريرة فى المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة، فتذكر

الآیة هذه الطوائف الثلاث بأسم المنافقون والذین فی قلوبهم مرض والمرجفون، أی الذین یتحرّکون فی بث الشائعات والأکاذیب بین الناس لتضعیف معنویّات المسلمین وإتهام النساء العفیفات والمحصنات وتحذّرهم الآیة بأشد العذاب الإلهی وتقول: «لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَةِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لَایُجَاوِرُونَکَ فِیهَا إِلَّا قَلِیلًا* مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِیلًا». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۸۹ هذه الغیرة الإلهیة التی تقود المسلمین إلی الدفاع الشدید عن أعراضهم ونوامیسهم وکیانهم هی اسوة لجمیع المسلمین فی مسألة الغیرة علی الدین والناموس، وتدلّ علی أنّ الإنسان الذی یتحرّک فی خط الإیمان والحق لا ـ ینبغی أن یواجه ممارسات الأراذل والمنافقین والأشرار من موقع اللّامبالاة وعدم الاهتمام والبرودة. وهذا التعبیر الوارد فی الآیة الکریمة یدلّ علی أنّ هذه المسألة عبارة عن فضیلة أخلاقیة کبیرة ووظیفة اجتماعیة للمؤمنین رغم ما أورده التاریخ من سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله الذی کان یتشدّد فی مثل هذه الموارد مع المخالفین وقوی الإنحراف. إنّ الصفات الثلاثة التی ذکرتها الآیة لهؤلاء المخالفین: «الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ» یمکنها أن تشیر جمیعها إلی طائفة معیّنة تتحرّک باتّجاهات مختلفة لتکریس حالة التخاذل والوهن والضعف بین المسلمین، ولکنّ ظاهر الآیة وما ورد فی شأن نزولها من الروایات یشیر إلی أنّ هذه الصفات الثلاث هی لثلاث طوائف من هؤلاء المنحرفین وهم: المنافقون الذین یتحرّکون فی بث الشائعات حول غزوات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لتضعیف روحیة المسلمین وتقویة عنصر الانهزام والتخاذل فی قلوبهم، وطائفة الأراذل والأشرار الذین یتعرّضون لنساء المسلمین ویتسببون فی إزعاجهّن والتحرّش بهنّ، والطائفة الثالثة یتحرّکون فی عملیة بث الشائعات عن النساء المؤمنات وإتهامهنّ فی عفتهن حیث یؤلمهنّ ذلک بشدّة، فنزلت الآیة أعلاه من موقع التهدید لهذه الفئات الثلاث بالنفی والقتل. أمّا قوله: «الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» فقد یرد فی الآیات القرآنیة بمعانی مختلفة، فأحیاناً یشیر إلی النفاق مثل ما ورد فی الآیة ۱۰ من سورة البقرة: «فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً»، وأحیاناً اخری یرد فی مورد الأشخاص الذین یتّبعون غریزتهم الجنسیة فی دائرة الحیوانیة کما ورد فی الآیة ۳۲ من هذه السورة التی تخاطب نساء النبی وتوصیهنّ بأن لا یخضعن بالقول للأشخاص الأجانب حتی لا تتحرّک فیهم الغریزة ویطمعوا بالحرام فیقول: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۰ والملفت للنظر أنّ القرآن الکریم بعد هذه الآیات (الآیة ۶۰ و ۶۱) یضیف أنّ هذه هی سنّة اللّه فی الأقوام السالفة (ولا تنحصر بالامّة الإسلامیة ولا تبدیل لسنة اللّه). وهذا السیاق الشریف یشیر إلی حکم عام وارد فی جمیع الأدیان الإلهیة، وسنة إلهیة قطعیة لا تتبدّل، وهی ضرورة المواجهة الجادّة مقابل المنافقین والانتهازیین والذین یبثون الشائعات المغرضة (طبعاً مع حفظ جمیع المقرّرات الشرعیة والعقلیة) وهذا هو مفهوم الغیرة بکل وضوح. وتتحرّک «الآیة الثانیة» لتحکی لنا عن نموذج للغیرة الدینیة التی تتجلّی فی سلوک أحد أکبر الانبیاء الإلهیین، أی النبی یوسف علیه السلام وذلک عندما تعرّض للتحرش من قبل نساء مصر وخاصة زلیخا إمرأة العزیز حیث طلبت منه الإستسلام والرضوخ لمطالیبهن اللّامشروعة وارتکاب الفاحشة، وبینما کان یوسف علیه السلام فی سن الشباب والمراهقة وتهب فی صدره أعاصیر الحیویة والغریزة والانجذاب إلی الدنیا، إلّاأنّه قاوم کل هذه التحدّیات الداخلیة والخارجیة الصعبة حتی أنّه فضّل دخول السجن مع جمیع مشقاته وآلامه علی الاستسلام لمطالیبهن والرضوخ لعناصر الشهوة والمقام والجمال وطلب من اللّه تعالی أن یوفقّه لدخول السجن للخلاص من هؤلاء النسوة وقال: «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمَّا یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَأَکُنْ مِنَ الْجَاهِلِینَ». وهذا السیاق الشریف یکشف عن مقام العصمة والعفّة لیوسف علیه السلام وکذلک یحکی عن غیرته وتقواه أمام الهزات، فعندما نقارن بین هذه الروحیة العالیة فی دائرة التعفف والصمود والإرادة مع ما نجده لدی عزیز مصر من عدم الغیرة والتساهل فی أمر العفّة لدی زوجته بعدما ثبت له سلوک زوجته الخائن اکتفی بالقول: «یُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنتِ مِنَ الْخَاطِئِینَ» «۱». ویتّضح جلیّاً الفرق بین هذین الرجلین من موقع الأمانة والتقوی والعفّة النفسیة، ولم الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۱ یکن یوسف علیه السلام یقصد طلب السجن من اللّه تعالی بالذات ولغرض شخصی بل کان هدفه التخلص من ممارسة اللّامشروع وأنّه إذا خیّر بین السجن وبین الممارسة اللّامشروعة فإنّه یفضّل السجن علی ذلک العمل. وتأتی «الآیة الثالثة» لتستعرض

الأمر الإلهى للنساء المؤمنات بأنّه مضافاً إلى لزوم حفظ الحجاب فيجب عليهنّ أن لا يضربن بأرجلهن أثناء المشى فى الطرقات لكى لا يسمع الأجنبى صوت الخلاخل من الزينة وتقول: «... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ». فنرى فى هذه الآية الشريفة إقتران الغيرة مع العفّة إلى درجة أنّه لم يسمح للنسوة أن يضربن بأرجلهن فيسمع الرجال أصوات الخلاخل فى أرجلهن، وكما أشرنا آنفاً أنّ الإسلام يأمر نساء النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (بعنوان كونهنّ اسوة وقدوة لسائر النساء المسلمات) أنّه عندما يتحدّثن مع الغرباء فلا يخضعن بالقول ولا يرى الغريب عنصر المرونة واللطافة فى كلامهنّ ولئلّا تتحرّك فيه عناصر الشر، كل ذلك يعدّ تأكيداً لرعاية العفّة من جهة، وكذلك الالتزام بفضيلة الغيرة من جهة اخرى.

الغيرة فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى الروايات الإسلامية الأهمية الكبيرة التى يوليها الإسلام لمسألة الغيرة بعنوانها فضيلة أخلاقية فى دائرة القيم والمثل والمعنوية والكمالية للإنسان وحتى أنّ اللّه تعالى وصف بالغيور (أى الذى يغار كثيراً) ومن ذلك: ۱- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ غَيُورٌ يُحِبُّ كُلَّ غَيُورٍ وَلِغِيرَتِهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ظاهِرَها وَباطِنَها». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «إذا لَم يَغُرِ الرَّجُلُ فَهُوَ مَنكُوسُ القَلبِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹۲ وقال العلّامة المجلسى قدس سره إنّ المراد بالقلب المنكوس هنا هو التشبيه بالإناء المقلوب الذى لا يبقى فيه شىء من الطعام أو الماء، فالحديث الشريف يقرّر أنّ قلب مثل هؤلاء الأشخاص الفاقدين للغيرة خالٍ من الصفات الأخلاقية السامية وفارغ من المثل الرفيعة «۱». وهذا التعبير يدلّ بوضوح إلى أنّ صفة الغيرة ترتبط برابطة وثيقة مع سائر الصفات الأخلاقية العليا للإنسان. ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «كانَ إبراهَيمُ أَبِى غَيُوراً وَأَنا أَغيَرُ مِنهُ وَأَرغَمَ اللَّهُ أَنفَ مَنْ لايُغارُ مِنَ المُؤمِنِينَ» «۲». ۴- وجاء فى حديث آخر عن هذا النبى الأعظيم صلى الله عليه و آله قوله: «إِنِّى لَغَيُورٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَغيَرُ مِنِّى وَأَنَّ اللَّهَ تَعالى يُحِبِّ الغَيُورَ». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «إنَّ الغِيرَةَ مِنَ الإيمانِ» لأنّ الإيمان يدعو الإنسان إلى حفظ الدين والبلد الإسلامى والسلوك فى طريق التصدّى للأخطار التى تواجه هذه المتعلقات المهمّة للإنسان، فمن لم يتحرّك على مستوى الدفاع عنها ولم يتحرك عنصر الغيرة فى أعماق ذاته فإنّه بعيد عن الإيمان «۳». ۶- وورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «قَدْرُ الرَّجُلِ قَدْرِ هِمَّتِهِ ... وَشَجاعَتُهُ عَلى قَدْرِ أَنَفَتِهِ وَعِفَّتِهِ عَلى قَدْرِ غَيرَتِهِ» «۴». ۷- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أَتى النَّبِىّ بِاسارى فَأَمرَ بِقَتلِهِم وَخلَّا رَجُلًا مِنْ بَينِهِم فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَيفَ اطلَقتَ عَنِّى؟ فَقَالَ صلى الله عليه و آله: أَخبَرَنِى جبرئيل عَنِ اللَّهِ أَنَّ فِيكَ خَمسُ خِصال يُحِبُّها اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الغِيرَةُ الشَّدِيدَةُ عَلى حَرَمِكَ وَالسَّخاءُ وَحُسْنُ الخُلقِ وَصِدقُ اللِّسانِ وَالشَّجاعَةُ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹۳ فلما سمع الرجل أسلم وحسن اسلامه وقاتل مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى استشهد «۱». ۸- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام ضمن توبيخه لأهل العراق الذين تخرج نساؤهم من منازلهم بدون اهتمام بالحجاب ويختلطن مع الرجال فقال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لا يغارُ» «۲».

تعريف أقسام الغيرة:

كما أشرنا آنفاً أنّ الغيرة هى صفة أخلاقية تدفع الإنسان فى طريق الدفاع المستميت عن الدين والمذهب والعرض والبلد، وأساساً فإنّ كل حالة من الدفاع الشديد عن القيم الإنسانية فهى تتضمّن نوع من الغيرة، ورغم أنّ هذه المفردة تستعمل غالباً فى دائرة الغيرة على العرض والناموس ولكنّ مفهومها واسع يستوعب مصاديق أكثر. وبالطبع فإنّ هذه الصفة الأخلاقية حالها حال الصفات الاخرى من حيث أنّها قد يسلك بها الإنسان سبيل الافراط والتفريط وبذلك تتبدّل إلى خلق ذميم، وذلك فى صورة ما إذا كان الدفاع المذكور يتّخذ صبغة التعصّب الذميم والوسواس والدفاع غير المنطقى وغير العقلائى. فقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله

علیه و آله أنّه قال: «مِنَ الغِیرةِ ما یُحِبُّ اللّهُ وَمِنها ما یَکرَهُ اللّهُ فَأمّا ما یُحِبُّ فَالغِیرَةُ فِی الرِّیبَةِ وَأمّا ما یَکرَهُ فَالغَیرَةِ فِی غَیرِ الرِّیبَةِ» «۳». یعنی أنّ الإنسان یتّهم زوجته مثلًا بعدم العفّة علی أساس من الظن والاحتمال وتعتمل فی صدره عناصر الوسواس والشک تجاه زوجته البریئة، فمثل هذه الحالة السلبیة تکون خطرة علی سلامة الإنسان والاسرة وتؤدّی إلی تشجیع الأشخاص الأبریاء إلی الوقوع فی وحل الخطیئة وتقودهم إلی مستنقع الرذیلة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۴ و نقرأ فی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی أحد کتبه إلی إبنه الإمام الحسن علیه السلام یقول: «وَإیّاکِ وَالتَّغایُرَ فِی غَیرِ مَوضِعِ غَیرَةٍ فَإنَّ ذَلِکَ یَدعُو الصَّحِیحَةَ إلی السَّقمِ وَالبَرِیئَةَ إلی الرَّیب» «۱». وفی الحقیقة أنّ الافراط فی کل شیء مذموم وخاصة فی أمثال هذه الموارد من السلوک الأخلاقی تجاه العرض والحساسیة المفرطة تجاه سلوک الزوجات والأرحام من النساء والنظر إلی سلوکهنّ من موقع الریبة والشک والتهمة، فقد یکون هذا الأمر هو السبب فی وقوعهنّ فی وادی الرذیلة والفساد، وعلی أیّة حال إنّ هذه الموارد من الغیرة وسوء الظن تعتبر حراماً شرعاً ویجب اجتنابها والابتعاد عنها تماماً، وقد ورد فی الأخبار المتعلقة بزمن الجاهلیة أنّ أحد الأسباب المهمّة لوأد البنات هو عنصر الغیرة المنحرف واللّامنطقی لدی هؤلاء الجاهلین حیث کانوا یقولون: إنّ من الممکن أن تکبر هذه البنات وتتعرّض للأسر من قبل أفراد القبیلة المعادیة فتکون أعراضنا فی معرض النهب والتلاعب بید الأعداء، فالأفضل أن ندفنهنّ وهنّ صغار لحفظ العرض.

آثار الغیرة فی حرکة الحیاة:

إنّ الغیرة إذا استعملت بصورة صحیحة ومعتدلة إیجابیة فإنّها بمثابة قوّة دفاعیة عظیمة تدفع الإنسان إلی التصدّی للأعداء والانتصار علیهم، لأنّ مثل هذه القوّة الباطنیة عندما تتعرّض نفس الإنسان وأمواله وناموسه ودینه وإیمانه أو استقلال وطنه إلی الخطر المحدق فإنّ هذه القوّة تعبیء جمیع الطاقات والقوی الذاتیة والباطنیة فی الإنسان وتوحّدها تحت قیادة عنصر الغیرة لتعین الشخص فی عملیة الدفاع الشریف، وأحیاناً یعیش الإنسان الغیور تحت عنصر الغیرة بحیث تتضاعف قوّته إلی قوّة عشرة أشخاص وتدفع به إلی حد التضحیة بنفسه والصمود البطولی بشجاعة وشهامة کبیرة، ولهذا السبب کانت الغیرة أحد العوامل المهمّة فی طریق العزّة والافتخار والحیاة الشریفة. أمّا الأشخاص الذین یعیشون الانحراف والتلّوث فعندما یواجهون إنساناً غیوراً فی تحرّشهم بأعراض الناس فإنّهم یفقدون مقاومتهم بسرعة ویتراجعون أمامه فی صورة من التخاذل والذلّة، وهذا هو أیضاً من برکات الغیرة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۵ الغیرة تسبب أیضاً فی تقویة عناصر الشد للقیم الأخلاقیة والمثل الرفیعة للمجتمع الإنسانی وتجعله محفوظاً من التلّوث والانحراف فی منزلقات الخطیئة. إنّ الغیرة تتسبب أیضاً فی حفظ أمن المجتمع وإزالة مظاهر الفساد والفحشاء، فی حین أنّ عدم الغیرة یهدم أمن المجتمع ویعمل علی تحطیم المثل الإنسانیة والقیم الأخلاقیة فی أفراد المجتمع وبالتالی ینزلق مثل هذا المجتمع نحو الفساد والانحطاط الأخلاقی. ونقرأ فی سیرة الأنبیاء أنّه عندما رأی النبی لوط علیه السلام مظاهر الفساد والتلّوث من قومه الأشقیاء حتی أنّهم راودوه عن ضیفه (وهم ضیوفه من الملائکة الذین دخلوا علیه علی شکل فتیان حسان الوجوه ولم یکن لوط علیه السلام علیم بواقعهم) تملّکه الخوف والاستیاء الشدید ممّا رأی من تعرّض قومه الأشرار إلی هؤلاء الضیوف عندما سمعوا بهم قد دخلوا فی بیت لوط، وکلما نصحهم لوط علیه السلام فإنّ کلامه ذهب أدراج الریاح ولم یؤثر فی هؤلاء الأشرار شیئاً حتی أنّه عرض علیهم الزواج من بناته (فیما إذا تابوا وآمنوا) ولکنّهم رغم هذا الإیثار العظیم من لوط لم یرتدعوا عن غیّهم واستمروا فی طلبهم الدنیء وممارسة الضغط علی لوط علیه السلام لیسلمهم الضیوف الکرماء، فقال لهم لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِی فِی ضَیْفِی أَلَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ» «۱». ولکن عندما رأی أنّ کلامه لا یؤثر شیئاً فی نفوس هؤلاء الأشرار ولا یرتدعون عن غیّهم ازداد حزناً وألماً ونصباً وعندما کشف هؤلاء الضیوف عن واقعهم وأنّهم من الملائکة وطمأنوه بأن لا یخاف من هؤلاء الأشرار فإنّ العذاب الإلهی نازل بحقهم وسیتعرّضون للهلاک عمّا قریب. ونختم هذا البحث بحدیث شریف عن الإمام الصادق علیه السلام حیث یقول: «إنّ المَرأ یَحتاجُ فِی مَنزِلِهِ وَعیالِهِ إلی ثَلاثِ خَلالٍ یَتَکَلَّفُها وَإنْ لَم یَکُن فِی طَبعِهِ ذَلِک: مَعاشِرَةٌ جمیلَةٌ، وَسِعَةٌ بِتَقدیرٍ وَغَیرَةٌ بِتَحصِینٍ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳،

ص: ۳۹۷

الأُلفة والانفراديّة

تنويه:

لقد بحث علماء الأخلاق هذا الموضوع تحت عنوان المعاشرة والعزلة فى كتبهم الأخلاقية، ونقرأ أحياناً فى هذه الكتب اختلاف العلماء فى أيّهما الأفضل، المعاشرة مع الناس أو العزلة والانزواء؟ فقد يرى البعض أنّ العزلة أو الانزواء عن الناس أفضل من معاشرتهم والاختلاط بهم، وبعض آخر رجّح المعاشرة والاختلاط على العزلة، وذهب ثالث إلى أنّ ذلك يختلف باختلاف الظروف والشرائط، فتارة يكون الأول أفضل من الثانى واخرى بالعكس. ولكن المحققين (وخاصة فى عصرنا الحاضر) وبالاقتباس من الكتاب والسنة ودليل العقل يرون أنّ الأصل فى حياة الإنسان هو أن يعيش حالة الأُلفة، وذهبوا إلى أنّ الإنسان موجود اجتماعى ولا يتمكن من الصعود بمستواه الأخلاقى وتكامله المعنوى والنضج العقلى إلّافى ظل المجتمع والاختلاط مع الآخرين، وبذلك يتسنى له التسريع فى حلّ مشاكله والتخفيف من آلامه ووصوله إلى السعادة المنشودة. هؤلاء يرون أنّ الانزواء أو العزلة لا تنسجم مع فطرة الإنسان السليمة ولا تتوافق مع روح التعليمات الإسلامية والقرآنية، بل إنّ المفاهيم الإسلامية تؤكّد على الروح الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹۸ الاجتماعية لدى الإنسان وتجعل من المعاشرة البنّاءة بشكل عبادة جماعية من قبيل صلاة الجمعة والجماعة والمسائل المتعلّقة بحقوق الإنسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإجراء الحدود وإحقاق الحقوق والتعاون على البر والتقوى وأمثال ذلك. إنّ الإسلام يرى أنّ «يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَماعَةِ» كما ورد فى الحديث الشريف، وأنّ أى إبتعاد عن صفوف المسلمين يؤدّى إلى نفوذ الشيطان واستيلائه على الإنسان كما ورد فى نهج البلاغة: «والشاذُّ مِنَ الغَنَم لِلذِّئبِ» «۱». وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستعرض الآيات الشريفة فى هذا الموضوع: ۱- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» «۲». ۲- «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» «۳». ۳- «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۴». ۴- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ» «۵». ۵- «وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» «۶».

تفسير واستنتاج:

إنّ كل واحدة من الآيات الشريفة المذكورة آنفاً تشير إلى جهة خاصة من مسألة أهميّة المعاشرة والاجتماع وأهميّة الوحدة والإتّحاد بين أفراد المجتمع، ففى «الآية الاولى» نقرأ دعوة إلى الاعتصام بحبل اللّه والتمسك به وعدم سلوك طريق الفرقة والاختلاف وتقول: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» أمّا ما هو المراد من حبل اللّه الوارد فى الآية الشريفة؟ فإنّ المفسّرين اختلفوا فى ذلك، وقد ورد فى بعض الروايات الشريفة أنّ المراد منه هو القرآن الكريم الذى ينبغى أن يتّخذه المسلمون محوراً لوحدتهم وتماسكهم، وفى بعض الروايات الاخرى ذكرت أنّ المراد من حبل اللّه هو أهل البيت عليهم السلام، ومعلوم أنّ كل هذه المعانى تشترك فى حقيقة واحدة، وهى أنّ حبل اللّه تعالى هو ما يربط الإنسان باللّه تعالى سواءاً عن طريق القرآن الكريم أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام. وكما نرى أنّ هذه الآية الشريفة تؤكّد على مسألة المودّة ووشائج المحبّة بين المسلمين وترك العداوة والفرقة، ومن المعلوم أنّ ذلك لا يتوافق مع عزلة

الإنسان وإنزوائه عن المجتمع ولا مفهوم حينئذٍ للإعتصام بحبل اللّه تعالى، واللطيف أنّ القرآن الكريم فى الآيـة أعلاه يقرّر أنّ العداوة هى من سـنن الجاهليـة وأنّ المحبّة والصداقة هى من خصائص الإسـلام ويقول فى ذيل الآية الشـريفة مؤكّداً على هذا المعنى: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَـفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». والجدير بالذكر أنّ الإسلام لا يرى العلاقة بين المسلمين هى علاقة الصداقة فحسب، بل علاقة الاـخوة التى تعمّق فى النـاس الرابطـة العاطفيـة بين الأـخوان القائمـة على أساس المساواة والمحبّـة المتبادلـة. وبـديهى أنّ هـذه المحبّة الأخوية لا يمكن أن تتجلّى وتتفاعل فى حال ابتعاد الاخوة عن بعضهم البعض، فلابدّ لتفعيل هذه العاطفة الإنسانية من الحياة المشتركة والمعاشـرة فيما بين الاخوة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۰ والملاحظـة المهمّـة الاخرى هى أنّ الامور المادية والدنيوية لا يمكن أن تكـون محـور وحـدة المجتمـع وأداة قويّـة لتعميـق الروابـط الاجتماعيـة بين الأـفراد، لأـنّ الاـمور الماديـة عـادة تكون سـبباً للتنـازع والاختلاف والفرقـة، فحاجات الناس الدنيويـة والماديـة غير محـدودة، وأمّا الامور الماديـة فى الطبيعـة فمحدودة، ومن هنا ينشأ التضاد والاختلاـف، ولكن حبـل اللّه تعالى والارتباط مع اللّه تعالى هو أمر معنوى وروحانى ويمكنه أن يحقّق أفضل رابطـة عاطفيـة بين أفراد البشـر من كل قوم ولون وقبيلـة ولغـة. وتأتى «الآيـة الثانية» لتتحدّث لنا عن المصـير المؤلم للأشـخاص الذين يعيشون بعيداً عن جماعة المسلمين ويسلكون سبيلًا مستقلًا ومنفصلًا عن المجتمع الإسلامى وتقول: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً». هذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ اللّه تعالى يأمر المسـلمين فى المجتمع الإسـلامى بضـرورة الالتزام الاجتماعى وعـدم الانفصال والفرقـة وأن يسـير المؤمنون سويّـة فى خط الإيمان والانفتاح على اللّه تعالى، ومع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ» وكذلك عبارة «سَبِيلِ المُؤمِنِينَ» يتّضح جيداً أنّ المراد هو التنسيق بين أفراد المجتمع الإنسانى من خلاـل إتّبـاع النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والسـير إثر خطواته الحكيمـة فى خط الإيمان والطاعـة للّه‌تعالى حيث تكون التقوى والإيمان محوراً للسـلوك الاجتماعى، وإلّا فلا معنى لأنّ تعنى الآية مفهوم المعاشـرة الاجتماعية بدون هذا المحور المعنوى. ولا شـكّ أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله مع الجماعـة دائماً، فكان يصـلّى معهم خمسـة مرّات فى اليوم ويصـلّى صـلاة الجمعـة فى اجتماع أعظم، وكـذلك فى اجتماع المسـلمين العام لمراسم الحـج، فكل هذه البرامج العبادية تنضوى تحت مدلول الآية الشـريفة، ومعلوم أنّ الأشـخاص الـذين يعيشون الإـنزواء والعزلـة وينفصـلون عن جماعـة المؤمنين سـيكونون مشـمولين للتهديـد والوعيـد وبالعـذاب الأليم المذكور فى الآية الشريفة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۱ بعض علماء أهل السنة إستدلّوا بهذه الآية الشريفة على حجّية الاجماع، ونحن لا نرى مانعاً من الاستدلال بهذه الآية على حجّية إجماع المسلمين، ولكنّ هذا الإجماع يجب أن يتضمّن حضور الإمام المعصوم أيضاً، وفى الاصـطلاح الاصولى يعبّر عنه بالإجماع الـدخولى أو الإجماع الكشـفى الـذى يكون هوالحجّـة فى عملية الاسـتدلال. «الآية الثالثة» تستعرض أحد المواهب الإلهية الكبيرة على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ اللّه تعالى هو الذى جمع المؤمنين حول النبى وألف بين قلوبهم بحيث لاـ يتسـنى ذلـك أبـداً من خلاـل الوسائـل الطبيعيـة والأـدوات العاديـة فتقول الآيـة: «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْـرِهِ وَبِـالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ لَـوْ أَنفَقْتَ مَـا فِى الْـأَرْضِ جَمِيعـاً مَـا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». لـو أنّ الإسـلام يرى فى العزلـة والإنزواء عن المجتمع قيمـة أخلاقية، فإنّه لم يكن يعدّ التأليف بين قلوب المسـلمين بعنوان معجزة كبيرة للنبى الأكرم صـلى الله عليه و آله. وهـذا التعبير فى الآيـة الشـريفة لا يدلّ على مطلوبية المعاشـرة والاجتماع بين الأفراد فحسب، بل أن تكون الرابطـة شديـدة وإلى درجـة كبيرة من الوثاقـة فى العلاقات الاجتماعية. وبديهى أنّه لا يصحّ أن تقرر الآية هذا المفهوم فى زمان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقط، بل إنّ هذا المفهوم الإسلامى يستوعب جميع الأزمنة والأمكنة وعلى كلّ طائفة مؤمنة أن تجتمع حول محور واحـد وترتبط فيما بينها برابطـة وثيقـة من الألفـة والمحبّة كما كان حال المؤمنين فى عصـر النبوّة والبعثة. والملفت للنظر أنّ اللّه تعالى نسب تأليف القلوب إليه مباشرة كما ورد هذا المضمون فى الآية ۱۰۳ من سورة آل عمران، رغم أننا نعلم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو الـذى قام بهـذا العمل الإنسانى والاجتماعى، وذلك لتشـير الآيـة إلى أنّ هـذا العمل إنّما هو معجزة إلهيـة جعلها اللّه تعالى فى يـد النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وأظهرها على يـده، وإلّا فمن المحال أن تزول وتتلاشـى كل تلك الأحقاد والعـداوات

القديمة والجديدة بين العرب المتعصّبين والجاهلين مهما بلغت الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۲ قدرة المخلوق ومهما اوتى من أموال وثروات طائلة كما تقول الآية بأنّك لو أنفقت ما فىالأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن تسنى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك من خلال تعليمات الإسلام وأخلاقه الإلهية والإمدادات الربانية واستطاع بذلك من تحقيق أعظم معجزة فى عالم العلاقات الاجتماعية، وحقّق الألفة وهى فى اللغة بمعنى الاجتماع المقارن للإنسجام والأنس والإلتيام وربط تلك القلوب المتنافرة والمتباغضة مع بعضها وجعلها كالبنيان المرصوص. وتأتى «الآية الرابعة» لتتحدّث عن وحدة صفوف المسلمين والتى لا تتسنى ولا تتحقّق اطلاقاً مع العزلة والإنزواء: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ». (بنيان) بمعنى كل بناء يبنيه الإنسان لسكنه أو لمآرب اخرى، كأقامة السدود مثلًا، أمّا (مرصوص) فهو من مادة (رصاص) ونظراً إلى أنّ البشر فى ذلك الزمان كان يستخدم الرصاص فى عملية البناء ليزيد فى قوّته وإستحكامه وليملأ الفراغات والثقوب والثغرات الموجودة بين أحجار البناء، فلذلك أطلق على كل بناء محكم أنّه (مرصوص) إشارة إلى قوّته وإستحكامه. وصحيح أنّ الآية الشريفة ناظرة إلى الجهاد فى سبيل اللَّه تعالى والتحرّك العسكرى فى ميادين القتال مع الأعداء، ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى يجرى فى سائر التفاعلات الاجتماعية على مستوى السياسة والثقافة والاقتصاد وأمثال ذلك، ففى هذه الموارد يلزم أن يكون الناس فى المجتمع الواحد منسجمين ومتّحدين إلى درجة أنّهم كالبنيان المرصوص، وهذا المعنى يتقاطع حتماً مع العزلة والإنزواء فلا يتسنى للمجتمع الدفاع القوى أمام الأعداء ولا النهضة الحضارية ولا حلّ المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية من دون الالفة والمعاشرة والاجتماع بين الأفراد. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۳ وتأتى «الآية الخامسة» والأخيرة من الآيات محل البحث لتشير إلى مسألة الرهبانية وترك الدنيا والعزلة عن الناس للعبادة والتبتّل إلى اللَّه تعالى كما كان شأن جماعة من النصارى، فتأتى هذه الآية لتقول إنّ هذا السلوك العبادى فى الظاهر إنّما هو بدعة من قبل هؤلاء الرهبان ولم يؤمر به فى الشريعة الإلهية وتقول: «وَرُهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ». ونعلم أنّ جماعة من المسيحيين فى هذا العصر والزمان سلكوا طريق الانقطاع عن الناس والرهبنة والعيش فى الأديرة وعدم الزواج، كل ذلك لغرض العبادة فى هذه الأماكن التى بنيت لهذا الغرض. وهذا الموضوع لا يختص بهذا الزمان بل هو من البدع التى ظهرت فى القرن الثالث الميلادى فى حكومة (ديس يونس) الأمبراطور الرومى الذى شدد النكير على النصارى واتباع السيد المسيح وأخذ بتعذيبهم والتنكيل بهم، فلم يجد هؤلاء بدّاً للخلاص من شرّ هذا الطاغية من اللجوء إلى الأديرة والهرب باتّجاه الجبال والمغارات والكهوف وبذلك زرعوا بذرة الرهبانية فى الديانة المسيحية. وعلى هذا الأساس فإنّ مثل هذه الرهبانية تتعارض تماماً مع روح تعليمات الأنبياء الإلهيين ولم تكن موجودة فى العصور الاولى للمسيحية، بل كانت بدعة ظهرت على يد الأشخاص الجهلاء والمنحرفين واستمرت إلى يومنا هذا، حيث نجد أنّ جماعة من المسيحيين يتركون حياتهم الاجتماعية وتأسيس الاسرة والزواج وسائر النشاطات الاجتماعية ويلجئون إلى الأديرة لممارسة الطقوس العبادية ويقوم الأشخاص من أهل الخير بالانفاق عليهم لتأمين نفقاتهم. أمّا ما يجرى فى هذه الأديرة من الانحرافات والممارسات اللّاخلاقية والبعيدة عن اصول الفطرة الإنسانية فلها حديث مفصّل ومؤلم حتى أنّ بعض الكتّاب المسيحيين أشار إلى بعض هذه الأديرة وأطلق عليها اسم دار الفحشاء، وأساساً فإنّ مثل هذه الحياة غير الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۴ الطبيعية للإنسان تؤثر سلبياً على روحه وفكره وتسبب له الكثير من الاهتزاز والارتباك فى قواه النفسية والعقلية. وجاء الإسلام وأبطل كل هذه الممارسات العباديّة فى الظاهر ودعا الناس إلى ممارسة الحياة الاجتماعية المتزامنة مع التقوى والإيمان. والجدير بالذكر أنّ الرهبانية فى الأصل اللغوى من مادة (رهبة) على وزن ضربة، بمعنى الخوف والخشية، والمراد منها هنا الخوف من اللَّه تعالى، وكما يقول الراغب فى مفرداته أنّها الخوف المقترن بالخشية والاضطراب والقلق، ثمّ استعملت هذه المفردة فى خصوص سلوك جماعة من المسيحيين أو من غيرهم الذين رجّحوا الانزواء والعزلة عن الناس طلباً للعبادة والتبتّل إلى اللَّه تعالى، ومن جملة البدع السيئة للمسيحيين فى دائرة الرهبانية هو تحريم الزواج بين النساء والرجال الذين يسلكون فى خط الرهبنة وكذلك ترك جميع المسؤوليات الاجتماعية وأشكال العلاقات بين أفراد المجتمع واختيار

الصوامع والأديرة البعيدة لهذا الغرض. ويستفاد من الآية أعلاه أنّ الرهبانية على قسمين: إيجابية وسلبية، ومن المعلوم أنّ الرهبانية السلبية هو ما ذكرنا آنفاً، وأمّا الرهبانية الإيجابية فتتضمّن معنى الزهد وعدم التكالب على الدنيا وترك التجمّلات المادية فی حركة الحياة الفردية والاجتماعية لكی لا يقع الإنسان فی أسر هذه الزخارف الدنيوية من المال والمقام ولكن ذلك يجتمع مع الحياة الاجتماعية للفرد وإقامة علاقات بنّاءة فی مسير المجالات المعنوية والمادية، وبعبارة اخرى: إنّ الآية الشريفة تقرّر وجود رهبانية فی الديانة المسيحية مشروعة من اللّه تعالى وتتضمّن ما كان عليه السيد المسيح عليه السلام من الزهد والترك للدنيا، ولكن المسيحيين فی القرون التالية ابتدعوا نوعاً آخر من الرهبانية لم تكن فی الديانة المسيحية أصلًا، وهی عبارة عن الإنزواء والعزلة عن المجتمع والحياة الاجتماعية وترك الزواج والانقطاع إلى العبادة فی الكهوف والأديرة. ويمكن أن يقال أنّ السيد المسيح لم يتزوج طيلة حياته أيضاً، ولكن لا ينبغی أن ننسی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۵ أنّ عمر السيد المسيح كان قصيراً فلم يبلغ من العمر سوى ثلاثين سنة تقريباً، وكان فی هذه المدّة مشغولًا بتبليغ الرسالة الإلهية والترحال من منطقة إلى منطقة اخرى لهذا الغرض فلم يسعه المجال للزواج. وعلى أيّة حال فإنّ الإسلام يرى الرهبانية بدعة ويذم النصارى على هذا السلوك السلبی، وقد ورد فی الحديث النبوی الشريف: «لا رهبانية فی الإسلام» فی مصادر موثوقة كثيرة. أمّا الحديث عن أبعاد الرهبانية وتاريخها ونتائجها فيطول بنا ويمكن لمن أراد التفصيل فی هذا البحث مراجعة التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، وسوف نشير أيضاً فی البحوث القادمة إلى هذا الموضوع أيضاً.

المعاشرة والعزلة فی الروايات الإسلامية:

إذا نظرنا نظرة إجمالية إلى التعليمات الإسلامية والمفاهيم الدينية فی هذا الباب ومن زوايا مختلفة نجد أنّ الإسلام يؤيّد تماماً المعاشرة والإجتماع مع الناس وحتى أنّ العبادات الإسلامية التی يهدف منها توثيق الرابطة بين الإنسان وربّه قد جعلها الإسلام بشكل جماعی، فالاذان والإقامة تدعو الناس إلى الصلاة والفلاح فی عبارة «حَیَّ عَلَی الصَّلاةِ حَیَّ عَلَی الفَلاحِ» والضمائر فی سورة الحمد تقرأ بشكل ضمير الجمع والحديث مع الغير، وعند الانتهاء من الصلاة نقرأ سلاماً عاماً لجميع المؤمنين والمصلّين. صلاة الجماعة وكذلك صلاة الجمعة وأعظم منهما مناسك الحج هی حقيقة عبادات ذات أبعاد اجتماعية تماماً. ونقرأ فی الروايات الإسلامية تأكيدات كثيرة على لزوم الجماعة والاجتماع وعدم الفرقة عن المؤمنين، ومن ذلك: ۱- ما ورد فی الحديث الشريف عن النبی الأكرم صلى الله عليه و آله: «أَيُّها النَّاسُ عَلَيكُم بِالجَماعَةِ وَإِيَّاكُم وَالفُرقَةَ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۶ ۲- وفی حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً قال: «الجَماعَةُ رَحمَةٌ، والفُرقَةُ عَذابٌ» «۱». ۳- وقال رسول اللّه فی حديث آخر: «يَدُ اللَّهِ عَلَى الجَماعَةِ فَإذا إشتَدَّ (شَذَّ) الشَّاذَّ مِنهُم إختَطَفَهُ الشَّيطانُ كَما يَختَطِفُ الذِّئبُ الشَّاةَ الشَّاذَّةَ مِنَ النَّعَمِ» «۲» ۴- ونفس هذا المضمون ورد بتعبير آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فی نهج البلاغة حيث قال: «والزَمُوا السَّوادَ الأَعظَمَ فَإنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الجَماعَةِ، وَإيَّاكُم وَالفُرقَةَ فَإنَّ الشَّاذَّ مَنَ النَّاسِ للشَّيطَانِ، كَما أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الغَنَمُ للذِّئبِ، ألا مَن دعا إلى هذا الشِّعارِ فاقتُلُوه وَلَو كانَ تَحتَ عِمامَتِی هذِهِ» «۳». ۵- وقد ورد هذا المضمون أيضاً فی رواية اخرى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعبّر عند مدى أهمية هذا المعنى حيث قال: «إنَّ الشَّيطَانَ ذِئبُ الإنسانِ كَذِئبِ الغَنَمِ يَأخُذُ القاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ، وَإيَّاكُم وَالشِّعابِ، وَعَلَيكُم بِالعامَّةِ وَالجَماعَةِ وَالمَساجِدِ» «۴». ۶- وجاء فی حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً: «لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلاثَةَ (أيَّام)، وَالسَّابِقُ بِالصُّلحِ يَدخُلُ الجَنَّةَ» «۵». ۷- وهذا المضمون ورد أيضاً بتعبير آخر عن النبی الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلّا أنْ يَكُونَ مِمَّنْ لايُؤمِنُ بَوائِقَهُ» «۶». وقد ورد فی بعض الأحاديث الشريفة أنّه: «أيُّما مُسلِمَينِ تَهاجَرا ثَلاثاً لايَصطَلِحانِ إلّا ماتا خارِجَينِ عَنِ الإسلامِ ...» «۷». صحيح أنّ هذه الأحاديث الشريفة وردت فی مجال المخاصمة والعداوة بين المسلمين، ولكنّها على أيّة حال تدلّ على أنّ الإسلام يؤيّد دائماً الحياة الاجتماعية وتعميق الالفة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۷ والمحبّة بين قلوب المسلمين، ومن الواضح أنّ حالة العزلة والانزواء لا تنسجم مع روح هذه التعاليم الدينية. ۸- وورد فی حديث آخر عن رسول اللّه صلى

الله عليه و آله أيضاً أنّه قال عندما أراد أحد الأشخاص التوجّه إلى الجبل والاعتزال لغرض العبادة: «لَصَبرُ أَحدِكُم ساعَةً عَلى ما يَكرَهُ فِي بَعضِ مَواطِنَ الإِسلامِ خَيرٌ مِنْ عِبادَتِهِ خالِياً أَربَعِينَ سَنَةً» «۱». ۹- ويستفاد من الروايات المتعددة أنّ الإسلام نهى عن الرهبانية التى تتضمّن الانزواء والعزلة ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه أنّه قال: «لَيسَ فِي امَّتِي رَهبانِيَّةٌ وَلا سِيا حَةٌ» «۲». والمراد من الرهبانية فى هذا الحديث الشريف هو اختيار مكان منعزل للعبادة، وأمّا السياحة فهى الانزواء السيّار، لأنّ بعض الأشخاص كانوا فى قديم الأزمان يتركون بيوتهم ومحل معيشتهم ويسيحون فى أرض اللّه الواسعة ويتركون الدنيا ويعتبرون ذلك نوعاً من العبادة، وعلى هذا الأساس فإنّ الإسلام لا يؤيد العزلة الثابتة ولا العزلة السيّارة. ۱۰- وقد ورد فى الحديث العميق المعنى عن أنس قال: توفى ابن لعثمان بن مظعون رضى الله عنه فاشتدّ حزنه عليه حتّى اتّخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال له: «يا عُثمانُ إِنَّ اللّهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَم يَكتُبْ عَلَينا الرَّهبانِيَّةَ، إِنَّما رَهبانِيَّةُ امَّتِي الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ». ثم إنّه صلى الله عليه و آله أخذ يواسيه على فقد ابنه وقال: «يا عُثمان بن مظعون لِلجَنّةِ ثَمانيةِ أبواب، وللنّارِ سبعة أبواب أَفما يَسُّركَ أن تَأتِي باباً مِنها إلّاوَجدتَ ابنَكَ إِلى جَنبِكَ آخذاً بِحجزَتِكَ يَشفَعُ لَكَ إِلى رَبِّكَ؟ قَالَ: بلى» «۳». ۱۱- ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى نهج البلاغة بالنسبة إلى أحد أصحاب الإمام على عليه السلام عندما دخل الإمام البصرة وذهب لزيارة (علاء بن زياد الحارثى) فعندما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۸ رأى بيته الواسع والمجلل تعجب كثيراً وقال: «ما كُنتَ تَصنَعُ بِسعَةِ هذِه الدَّار فِي الدُّنيا، أما أَنتَ إِليها فِي الآخِرَةِ أَحوجُ وَبلى إِن شِئتَ بَلَغتَ بِها الآخرةَ تُقرِى فِيها الضَّيفَ وَتَصِلُ فِيها الرَّحمَ وَتَطلَعُ مِنها الحقوق مطالعها فإذاً أَنتَ بَلَغتَ بِها الآخرةَ، فَقالَ لَهُ العلاءُ يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ أشكُوا إِلَيكَ أَخِي عاصِمَ بنَ زياد، قَالَ: وَما لَهُ؟ قال: لَبِسَ العباءَةَ وَتَخَلّى الدُّنيا، فَلما جاءَ قَالَ: «يا عَدِيَّ نَفسِهِ لَقَد إِستَهامَ بِكَ الخَبثُ، أَما رَحِمتَ أَهلَكَ وَوَلَدَكَ، أَتَرى أَنَّ اللّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيباتِ وَهُوَ يَكرَهُ أَنْ تَأخُذَها؟ أَنْتَ أَهونُ عَلى اللّهِ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: يا أَمِيرَالمُؤمِنِينَ هذا أَنتَ فِي خُشُونَةِ مَلبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مأكَلِكَ. قَالَ: وَيحَكَ إِنِي لَستُ كأَنتَ، إِنَّ اللّهَ فَرَضَ عَلى أَئِمَّةِ العَدلِ أن يَقدِروا أَنفُسَهُم بِضَعَفَةِ النّاسِ كَيلا يَتَبَيَّغَ بَالفَقِيرِ فَقرُهُ» «۱». ۱۲- ونقرأ فى رواية اخرى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حديثه لعبداللّه بن مسعود فى مسألة ذم الرهبانية والعزلة عن المجتمع وأنّه كان فى بنى اسرائيل نوع من الرهبانية فى ظروف خاصة واستثنائية لم تكن من صميم الديانة المسيحية، قال ابن مسعود: كنت رديف رسول اللّه صلى الله عليه و آله على حمار. فقال: يابن ام عبد هل تدرى من أين احدثت بنو اسرائيل الرهبانية. فقلت: اللّه ورسوله أعلم. فقال صلى الله عليه و آله: «ظَهَرَتْ عَلَيهِم الجَبابِرَةُ بَعدَ عِيسى يَعمَلُونَ بِمَعاصِى اللّهِ فَغَضِبَ أَهلَ الإِيمانِ فَقاتَلُوهُم فَهُزِمَ أَهلِ الإِيمانِ ثَلاثَ مَرّاتٍ فَلَم يَبقَ مِنهُم إِلّاالقَلِيلَ فَقَالُوا إِنْ ظَهرنا لِهَؤلاءِ أَفنونا وَلَم يَبقَ لِلدِّينِ أَحَدٌ يَدعُو إِلَيهِ، فَتعالُوا نَتَفَرَّقُ فِي الأَرضِ إِلى أَنْ يَبعَثَ اللّهُ النَّبِيَّ الَّذِى وَعَدنا بِهِ عِيسى عليه السلام يَعنُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله فَتَفَرَّقُوا فِي غِيرانِ الجِبالِ وَأَحدَثُوا رَهبانِيَّةً»». وعلى أية حال لم تكن الرهبانية من صميم الديانة المسيحية، بل كانت سلوكاً خاصاً ظهر فى ظروف خاصة على بعض أنصار السيد المسيح عليه السلام حفاظاً على أنفسهم.

الأحاديث المتعارضة:

وفى مقابل ما ذكرنا من الأحاديث الشريفة هنا روايات وردت فى المصادر الحديثية تشير إلى أنّ الإسلام يؤيّد حالة الانزواء والعزلة وتقع على الضد ممّا ذكرناه من الأحاديث السابقة، ومن ذلك: ۱- ما ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قوله: «العُزلَةُ عِبادَةٌ» «۱». ۲- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَنْ إِنفَرَدَ عَنِ النَّاسِ أَنَسَ بِاللّهِ سُبحانِهِ» «۲». ۳- ما ورد أيضاً عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «فِي اعتِزالِ أَبناءِ الدُّنيا جَماعُ الصَّلاحِ» «۳». ۴- وعن الإمام عليه السلام نفسه أيضاً قال: «فِي الإِنفِرادِ لِعبادَةِ اللّهِ كُنُوزُ الأَرباحِ» «۴». ۵- ونقرأ فى حديث عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال لهشام: «الصَّبرُ عَلَى الوَحدَةِ عَلامَةُ عَلى قُوَّةِ العَقلِ فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللّهِ إِعتَزَلَ عَنِ الدُّنيا وَالرَّاغِبِينَ فَيها وَرَغِبَ فِي ما عِندَ اللّهِ» «۵». وهذه الأحاديث تدلّ على أنّ الانزواء والابتعاد عن الناس من علامات العقل والمعرفة وسبب لحضور القلب للعبادة والتوصل إلى كثير من المراتب المعنوية والكمالات الأخلاقية. ۶- وورد فى حديث آخر

عن الإمـام الصـادق علیه السـلام أنّه قال: «إنْ قَـدرْتَ أنْ لاتَخرُجَ مِنْ بَیتِکَ فَافعَل، فَإنَّ عَلَیکَ فِی خُرُوجِکَ ألّا تَغتابَ وَلا تَکـذِبَ وَلا تَحسُـدَ وَلا تُرائِیَ وَلا تَتصَـنَّعَ وَلا تُدهِنَ» «۶». ۷- قـال أمیر المؤمنین علیه السـلام: «سَـلامَةُ الإنسـانِ فِی إعتِزالِ النّاسِ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۱۰ ۸- نختم هـذا البحث بحدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام- وإن کانت الأحادیث فی هذا الباب کثیرة- قـال: «مَنْ إعتَزلَ النّاسَ سَـلِمَ مِنْ شَـرِّهِم» «۱». وقـد یسـتدل أتباع العزلـة والانزواء من المتصوّفـة والمرتاضـین ومؤیدوهم ببعض الآیات القرآنیة لتبریر مسـلکهم الانعزالی، ومن ذلک ما ورد فی الآیة ۱۶ من سوره الکهف حیث تقول: «وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا یَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَی الْکَهْفِ یَنشُـرْ لَکُمْ رَبُّکُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَیُهَیِّیءْ لَکُمْ مِنْ أَمْرِکُمْ مِرفَقاً». وکـذلک فی ما ورد فی سورة مریم علیها السـلام الآیة ۴۸ و ۴۹ من حـدیث ابراهیم علیه السـلام: «وَأَعْـتَزِلُکُمْ وَمَـا تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُـو رَبِّی عَسَـی أَلَّا أَکُونَ بِدُعَاءِ رَبِّی شَـقِیّاً* فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَـا یَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْـحَاقَ وَیَعْقُوبَ وَکُلّاً جَعَلْنَا نَبِیّاً». فکلا هاتین الآیتین تقرّران أنّ العزلـة عن الناس والابتعاد عن المجتمع یتسبب فی القرب من اللّه تعـالی ونیل المواهب الإلهیـة ونزول البرکات والرحمـة من اللّه تعالی علی هـذا الإنسان، وهـذا یشیر إلی أنّ العزلة لیست أمراً مذموماً وحسب، بل مطلوبة أیضاً فی دائرة المفاهیم القرآنیة.

طریق الجمع بین الآیات والروایات:

ولکن بالنظر الـدقیق إلی متون الآیات والروایات الشـریفة یتبیّن جیـداً أنّ مسألـة العزلة والانزواء عن الناس تکون بصورة إسـتثنائیة وفی شرائـط اجتماعیـة خاصـة، ومن المعلوم بالنسـبة إلی أصـحاب الکهف أنّهم کـانوا یعیشون فی أجواء اجتماعیـة کـافرة وفاسـدة وکـانوا یعیشون الخوف من الحکومـة الغاشـمة فی ذلـک الزمان، فلم یکن لـدیهم طریق سوی الهروب والابتعاد عن دیارهم ومـدنهم واللّجوء إلی الکهف فی الجبال البعیدة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۱۱ وبالنسبة إلی إبراهیم علیه السلام أیضاً نجد هذه الحالة الاستثنائیة، فقـد رأینـا أنّ إبراهیم علیه السـلام سـعی بجدیّـة فی خط التصـدّی لقوی الانحراف والباطل وتبلیغ الرسالـة الإلهیـة بین الوثنیین، ولکن عنـدما رأی عـدم التأثیر وعاش حالـة الخطر علی نفسه فعنـد ذلک أمر بالهجرة وإعتزال هؤلاء الناس. ومن البدیهی أنّ الإنسان فی مثل هذه الظروف الحساسة لیس أمامه سوی الهجرة والاعتزال، ولکن هذا المعنی لا یکون أصـلًا أساسیاً فی التعالیم الدینیة بل هو الاستثناء یتعلّق بظروف خاصة. ویمکننا الاستشـهاد علی هذا الجمع بین الروایات بالقرائن الکثیرة، فعندما یختار الإمام الصادق علیه السلام العزلة عن الناس یـذکر الدلیل علی ذلک وأنّ فساد الزمان وتغیّر الاخوان وعدم إمکان التعاون مع الناس هو السـبب فی اختیار هذا السـلوک الاسـتثنائی. وقرأنا فی الحـدیث الشـریف عن أمیرالمؤمنین أنّ سـلامة الدین تکمن فی العزلة، فذلک یتعلّق بما إذا کانت المعاشـرة مع النـاس تهـدّد إیمـان الفرد وتعرّض دینه وعلاقته بـاللّه تعـالی إلی الاهتزاز والإرتبـاک والخطر. وأحیاناً یعیش بعض الأشـخاص ظروفاً خاصـة بهم حیث نجـدهم یعیشون ضـعف الإیمان أمام مظاهر الفساد، فلـذلک قـد یوحی هؤلاء الأشـخاص بأن یعتزلوا المجتمع خوفاً علیهم من الابتلاء بمظـاهر الفسـاد أیضـاً کمـا هو المریض الـذی یوصـیه الطبیب بعـدم الاختلاـط مع الناس أو یوصـی الطبیب الأفراد المسـنّین بعـدم الخروج الی الشارع خوفاً من التلّوث والتسـمم، ومعلوم أنّ مثل هـذه التوصـیات لا تشـکل قاعـدة عامّـة وشاملـة لجمیع الحالات والأفراد بل تختصّ بحالات اسـتثنائیة للمرضـی والمسـنّین والذین یعیشون الابتلاء بضعف القلب وخلل الجهاز التنفسی. وعلیه فلاـ یمکن تعمیم هـذه الحالاـت الاسـتثنائیة إلی کـل زمان ومکان بحیث یسـتکشف منها تعلیمات کلیّـة فی دائرة المفاهیم الإسـلامیة، وعندما نری أنّ الإمام الصادق یوصی أحد أصحابه باعتزال الناس وأن لا یخرج من البیت حذراً من الوقوع فی الغیبة والکذب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۱۲ والحسـد والریاء والمداهنـة وأمثال ذلک، فهـذا یـدلّ علی أنّ الظروف الاجتماعیـة فی ذلک الوقت کانت علی غیرما یرام، أو أنّ هذا الشـخص یعیش ضـعف الإیمان والتأثر بالنوازع النفسـیة والذاتیة. ومن مجموع ما تقدّم آنفاً یمکننا الخروج بالنتیجـة التالیـة: إنّ الإنسـان بطبیعته کائن اجتماعی یأنس بالآخرین ولکن بالرغم من ذلک فإنّه یحتاج فی کل یوم إلی ساعـة أو عـدّة ساعات للخلوة بربّه والانس بمناجاته وخاصـة فی الساعات من اللیل لیکرّس هذا الوقت للعبادة والمناجاة والانفتاح علی اللّه تعالی کما

هو حال السالكين إلى اللّه والعرفاء الإسلاميين الذين يحرصون على الخلوة باللّه تعالى والإرتباط معه من موقع الانس والعشق والتوكّل بحيث لا يرون غيره ولا يأنسون بغيره. وأحياناً يتّخذ بعض الأشخاص سلوك الابتعاد عن الناس من موقع الاعتراض على فساد الحال، ويكون ذلك أحد الطرق المشروعة للنهى عن المنكر والتصدّى للمفاسد الاجتماعية حيث يتسبب هذا السلوك السلبى تجاه الناس أن يخلق فيهم صدمة توقظهم من غفلتهم كما قد يشاهد مثل هذه السلوكيات من بعض العلماء الذين تركوا مجتمعهم وهجروا الناس اعتراضاً على بعض ما رأوه من انحرافات فى سلوك الناس، ولم تمض فترة حتى أحسّ الناس بحالهم والنقص الذى خلّفه رحيل هذا العالم فانتبهوا من سباتهم وتوجّهوا إلى ذلك العالم وطلبوا منه الرجوع إليهم شريطة أن يصلحوا أعمالهم ويسلكوا جادّة الصواب، كل هذه الاستثناءات من القاعدة الأساسية تكاد تكون مقبولة ومعقولة فى مقابل الأصل العام وهو ضرورة الاجتماع والمعاشرة مع الناس.

أسباب ونتائج الاجتماع والانزواء:

إنّ الدافع الأصلى فى سلوك الإنسان فى حركة الحياة من موقع الاجتماع والمعاشرة مع الآخرين ينبع من طبع الإنسان، ولذلك قيل أنّ (الإنسان مدنى بالطبع) كما يقول علماء الاجتماع، وعليه فإنّ العزلة لا تنسجم مع روح الإنسان المنفتحة على الآخرين، وكما يقول الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۳ علماء الاجتماع فى مطالعاتهم وتجاربهم عن الأشخاص التاركين للدنيا والمجتمع أنّ حالة العزلة تخلف آثاراً سلبية على النفس البشرية وتؤدّى بالإنسان إلى أن يعيش اليأس والكآبة المزمنة والتوهّمات الضبابية وقد يورثه هذا الحال الكثير من الاختلالات العقلية أيضاً. ولهذا السبب فإنّ أحد أشدّ أنواع التعذيب للإنسان هو السجن الانفرادى الذى لا ينبغى استمراره مدّة طويلة بأيّة صورة، لأنّ ذلك يؤدّى به حتماً إلى حالة نفسية من الإرتباك والمرض النفسى إلّاأن يكون له روح عرفانية قويّة فيأنس باللّه تعالى وينقطع عن كل شىء إلّا بالعلاقة مع ربّه وخالقه. وطبعاً فإنّ حياة الإنسان الاجتماعية لا تنبع من طبيعة الإنسان فقط، بل إنّ عقل الإنسان أيضاً يقوده إلى الحياة المشتركة من حيث إنّ الإنسان لا يمكنه أن يسير فى طريق التكامل والرقى والحضارة إلّابالحياة الاجتماعية والتفاعل المشترك مع الآخرين والاستفادة من علومهم البشرية فى طريق الرقى والتقدّم والحضارة الكبيرة والوصول إلى قمة الترقى والتكامل. وبشكل عام يمكن القول أنّ الانفراد والعزلة والإنزواء عن المجتمع بإمكانه أن يكون مصدراً للكثير من المفاسد والانحرافات فى دائرة السلوك البشرى ومن ذلك: ۱- إنّ الكثير من الانحرافات الفكريّة والذوقية وسوء الأخلاق تنبع من الانزواء والعزلة، ولهذا فإنّ الأفراد الذين يعيشون العزلة غالباً نجدهم يعيشون سوء الأخلاق واللّجاجة والغرور (وطبعاً فإنّ هذا الأصل له استثناءات أيضاً كما هو حال الاصول الاخرى). ۲- ومن الآثار السلبية الاخرى للعزلة والانزواء هو حالة العجب التى تسيطر على الإنسان، لأنّ الإنسان يعيش حب الذات غالباً فيحبّ متعلّقاته بشدّة، وكلما انخفضت علاقته مع الآخرين ولم يشاهد كمالاتهم وفضائلهم وبالتالى عُدم الميزان الذى يوزن به كمالاته الذاتية فإنّ ذلك يتسبب فى أن يرى نفسه أعلى من الآخرين وأفضل منهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۴ ولهذا السبب نلاحظ كثيراً من الأشخاص الذين يعيشون العزلة والانفراد، أنّهم يدّعون إدعاءات كبيرة عن أنفسهم أكبر من حجمهم الحقيقى وأحياناً تكون إدعاءاتهم عجيبة تحكى بوضوح أن هذا الإنسان غارق فى الوهم والخيال ولا يعيش الواقع ومتطلباته. ولكن عندما يعيش الإنسان الاختلاط مع الناس ويعاشر أفراد المجتمع فسوف يرى غالباً أشخاصاً أفضل منه وأعلم وأطهر، وعلى الأقل يرى من هو مثله فى الفضل والعلم، ولهذا فسوف يبتعد عن عالم الخيال ويتجنب الإدعاءات الجوفاء والشخصية الطوباوية التى لا تلامس الواقع. ۳- وأحد الآثار السلبية الاخرى للعزلة والانزواءسوء الظن بالناس حتى بأقرب المقربين منه، والعجيب أنّ سوء الظن يورث بدوره العزلة عن الناس كذلك، فكل منهما علّة ومعلول للآخر ويتسبب فى تعميق سوء الظن فى جميع الناس ويتصور أنّهم حقودين وحسودين وأنانيين، ولكن عندما يدخل إلى المجتمع ويعاشر الناس ويجد فيهم الأصدقاء الجيدين، فسوف يدرك سريعاً أنّ جميع تلك التصوّرات السلبية عن الناس لا ـ حقيقة لها على مستوى الواقع والعمل. ۴- الغفلة عن عيوب الذات، فالإنسان وبسبب حبّه لذاته لا يرى عيوبه عادة، بل يرى عيوبه أحياناً امتيازات وحسنات وعناصر قوة فى شخصيته، الحقيقة أنّ

الإنسان يجب أن يرى عيوبه فى مرآة الآخرين ويجلس لينظر إلى حكمهم عليه ويستمع إلى انتقاداتهم وخاصة فيما لو كانوا من المجاهدين، بل قد يرى الإنسان عيوبه ونقاط ضعفه فى مرآة الحاقدين والمعاندين بصورة أفضل، لأنّهم يتحرّكون جاهدين للعثور على نقاط الضعف فى شخصية الطرف الآخر وتفاصيل عيوبه الجزئية، وبهذا يحرم الشخص المنزوى من هذه المزايا التى تكشف عن وجهه الحقيقى. ۵- الابتعاد عن تجارب الآخرين والحرمان من الاستفادة من أفكارهم وعقولهم من شأنه تحديد فكر الإنسان وعقله واقتصار حركة الفكر على امور جزئية وضيقة، ولكن إذا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۵ تعامل مع الآخرين وانفتح على الناس ولا سيما أصحاب النظر وأرباب الفكر فسوف ينفتح أمامه بحر من العلم والتجربة وسيجد ضالته فى ذلك ويكون بإمكانه حل مشكلاته بمعونة هذه العلوم والتجارب. إنّ أحد أسرار النهضة الحضارية العلمية الحديثة التى يشهدها العالم المعاصر هو تشكيل المؤتمرات والمجلس والهيئات العلمية بحيث يجتمع فيها أصحاب الفكر والنظر من مختلف مناطق المعمورة فى كل عام، وأحياناً فى كل شهر، ويتباحثون فى مشاكلهم العلمية ومنتوجاتهم الفكرية فى هذه المؤتمرات ويتم بذلك انتقال العلوم وتبادل المعارف بين البشر، وأحياناً تقوم بهذه المهمّة بعض الإذاعات وقنوات التلفزيون أيضاً. وبكلمة واحدة: إنّ بركات وآثار الاجتماع الإيجابية ومعطياته الكثيرة أكثر من أن تحصى فى هذا المختصر، وما ذكر آنفاً لا يمثل سوى جانباً منها، وهكذا بالنسبة لاضرار العزلة والانزواء والآثار السلبية المترتبة على الإبتعاد عن الناس والمجتمع. إلهنا: لك الشكر والثناء أن وفقتنا لبيان اصول المسائل الأخلاقية فى دائرة المفاهيم القرآنية- لأول مرّة- وبيان العوامل والأسباب والنتائج والآثار للسلوكيات الأخلاقية فى بعدها الإيجابى والسلبى، وطريق تقوية الفضائل الأخلاقية وكيفية التصدّى للرذائل الأخلاقية بمقدار وسعنا وافق تفكيرنا. ربّنا: إننا نعلم أنّ بيان الفضائل والرذائل الأخلاقية يحملنا مسؤولية ثقيلة فى دائرة العمل بها وتجسيدها فى سلوكياتنا وأنفسنا أولًا، فارزقنا القدرة والإرادة للعمل بهذه المسؤولية الخطيرة وأعنا فى هذا الطريق الصعب. معبودنا: أنت تعلم أن النفس الامارة متمردة وعاصية ولولا نصرك ومعونتك فىمجال تهذيب النفس فإننا عاجزون عن التصدّى لها والوقوف أمام نوازعها وشهواتها، فنسألك بالخاصة من أوليائك وبالصالحين من عبادك أن لا تتركنا فى مقابل عناصر الشر لوحدنا. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۶ ربّنا: نحن نعيش فى زمان رحلت عنه القيم الإنسانية والفضائل الأخلاقية وسادت فى مجتمعاتنا البشرية سيل الرذائل واندثرت فيه سنن الأنبياء ومعالم سيرة الأولياء فامتلأت الأرض بالظلم والجور، فانجز لنا ما وعدتنا من ظهور منقذ البشرية ومصلح العالم بقية اللّه الأعظم الإمام المهدى عليه السلام واجعلنا من أنصاره وأعوانه والمجاهدين بين يديه فى الصف الأول. (آمين يا ربّ العالمين) نهاية الجزء الثالث لكتاب: الأخلاق فى القرآن آخر ذى القعدة ۱۴۲۱ ه ق

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما،

تعزیز دوافع الشـّباب و عموم الناس إلی التـّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّـة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة –فی المحامیل (=الهواتف المنقولـة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّـة)، تمهیـد أرضیّةٍ واسعةٍ جامعـةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّـلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطـّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّـة – فی أنحاء العالَم - مِن جهـةٍ اُخرَی. - من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکـة و... الأماکن الدینیّـة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی " القائمیّـة "www.Ghaemiyeh.com و عـدّة مَواقِعَ اُخـَرَ ه) إنتـاج المُنتَجـات العرضـیّة، الخَطابـات و... للعرض فی القنوات القمریّـة و) الإطلاق و الـدَّعم العلمیّ لنظام إجابـة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظـام التلقائیّ و الیـدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعـاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّـة و اعتباریّـة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّـة، الجوامع، الأماکن الدینیّـة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامـة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "مـا قبلَ المدرسـة "الخـاصّ بالأطفال و الأحـداث المُشارِکین فی الجلسـة ی) إقامـة دورات تعلیمیّـة عمومیّـة و دورات تربیة المربّی (حضـوراً و افتراضـاً) طیلـة السَّنَـة المکتب الرّئیسـیّ: إیران/أصـبهان/ شـارع "مسـجد سـیّد/ "مـا بیـنَ شـارع "پنـج رَمَضـان" ومُفترَق "وفائی/"بنایـة"القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریـة القمریّـة) رقـم التسـجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّـة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقـع: www.ghaemiyeh.com البریـد الالـکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانـترنتی: www.eslamshop.com الهـاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفـاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتـب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التـّجاریّـة و المَبیعـات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظـة هامّـة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شـَعبیّـة، تبرّعیّـة، غیر حکومیّـة، و غیر ربحیّـة، اقتُنِیَت باهتمـام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُـوافِی الحجمَ المتزایـد و المتّسِعَ للامور الدّینیّـة و العلمیّـة الحالیّـة و مشاریع التوسـعة الثّقافیّـة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسـمَّی بالقائمیّة) و مع ذلـک، یرجو مِن جـانب سـماحة بقیّـة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعـالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفـّقَ الکـلَّ توفیقـاً متزائـداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکـّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیه اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلکم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹